AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



محمد صالح الدقر
للقرن ٢٢٢٩٧٧

عصر سلاطين المماليك

ونتاجه العلمي والأدبي

892.709
S163aA
v.2
pt.1
c.1

تأليف

محمود رزق سليم

المدرس بكلية اللغة العربية

المجلد الثالث

وهو القسم الأول من الجزء الثاني

في الحركة العلمية

الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية

٦ سكة الشابوري بالجلمية الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لله الحمد من قبل ومن بعد ، العالم الفرد ، الذى ليس كمثله فى علمه أحد . يهب من علمه لمن يشاء من خلقه ، ويرزق التوفيق إليه والعمل به . أغدق على محمد ابن عبد الله من فيضه ، فملأ الأرض نوراً وسنا . أنس به الآنس ، وقبس منه القابس ، واهتدى به من اهتدى ، وتزود منه من تزود فعليه أفضل الصلاة والسلام .

وبعد فقد هيأ الله الأسباب منذ أكثر من عام فأصدرنا الجزء الأول بقسميه من كتابنا « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى » . واليوم نهدى إلى القراء هذا المجلد الجديد وهو القسم الأول من الجزء الثانى من هذا الكتاب ، على رجاء أن يتلوه على الأثر قسمه الثانى .

والجزء الثانى بقسميه يؤرخ الحركة العلمية فى العصر المملوكى ، وقد ضمناه البحث فى الأسباب والعوامل التى أدت إلى قيام هذه الحركة المباركة ، سواء منها ما كان من العوامل والأسباب الخارجية التى هيئتها الأقدار خارج الديار المصرية ، أو الداخلية التى جهد فيها أهلوها على اختلاف ظروفهم

وتحدثنا فيه عن الحركة التعليمية والتأليفية ، وبعد أن سردنا تاريخ عدد من المدارس والمساجد التى كانت دورا للتعليم ومثابة للعلم ، وما كان فيها من نظم ومواد دراسية ، نوهنا بالمؤلفات والمؤلفين فى مختلف العلوم والفنون ، ما عدا ما كان من المؤلفات أدبا خالصاً ، أو من برع من المؤلفين فى لون من ألوان الأدب كتابة أو شعراً أو نحوهما ، فهذا مدخر للجزء الثالث والرابع من هذا الكتاب .

ثم ذكرنا جمهرة عظمى من المؤلفات تشعر بنباهة هذه الحركة ونشاطها وعظيم قدرها وكريم أثرها ، منوهين بالموضع منها فى دار الكتب المصرية بخاصة ، المطبوع منها والمخطوط ، مشيرين إلى أن من بين مخطوطاتها نفائس ذات قيمة ، من شأنها لو

فيض لها الطبع والذيوع أن تحدث أثراً جليلا فى تاريخ مصر وأدبها ، وتقلب بعض الأوضاع المستقرة ، والمعلومات الفجة المركزة فى نفوسنا عن هذا العصر .

وقد عنينا بالتعريف ببعض هذه المؤلفات عناية قد يعرض خلالها شئ من النقد، غير أن النقد ليس غرضاً أصيلا فى هذه العناية ، وإنما هو العرض فحسب ، العرض الذى نتوخى منه وضع صورة للمؤلَّف كما تراءت فى نظرنا ؟ دون غلو أو تضخيم ، أو جرى وراء إظهار المحاسن أو المساوئ ، فهى صورة هادئة خالية من صخب النقد وحملاته ، أو الحمد وغلياته ، آملين أن نجد لنقدها الصحيح الصريح مجالا آخر غير هذا الكتاب. وحسبنا من الصورة الوضوح و بروز الخصائص الأصيلة .

وثنينا بالتعريف بالمؤلفين ، وترجمة حياتهم و بيان أعمالهم وعرض مؤلفاتهم ، وينقسم هذا التعريف إلى مبسوط مطول ، ومقتضب موجز ، والأول توخينا فيه أن نذكر الحوادث البارزة فى حياة المترجم له، وما أثر عنه من الأسفار جاهدين فى بيان المطبوع منها والمخطوط ومكان كل منها ، عارضين فى شئ من الاسهاب عددا من هذه المؤلفات النافعة لإبراز خصائصها كذلك . والثانى أجملنا فيه تراجم عدد ضخم من علماء العصر على اختلاف ما تخصصوا فيه من علوم وفنون معنيين عند كل خطوة ونص وترجمة ونحوها ، بذكر المصدر والمرجع — على قدر مستطاعنا — وذلك كدأبنا فى الجزء الأول. وكما سنعنى فى الأجزاء التالية إذا شاء الله ، لتريح الباحث المنقب ، أو المراجع والمعقب أو غيرهم ، من بعض ما يلقون من عناء .

ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يهيئ بهذا الكتاب النفع للناس ، وأن يجعله أساسا لأسفار أخرى جديدة تتجه إلى إبراز محاسن مصر فى تاريخها وأدبها ، وتكون حسنة من حسنات جيل مصر فى عهد مليكها المحبوب فاروق الأول ، نضر الله أيامه ورفع أعلامه .

والله وحده — جلت قدرته — العليم بما نبذل من جهد ، وما نضمر من نية ، وما نرجو من ثواب . وهو المستعان وبه التوفيق ، والسلام ؟

المؤلف

الباب الأول

تمهيد

١ – مدينة بغداد ومركزها العلمي والأدبي

قد يدهش القارىء حين نبدؤه فى هذا الجزء من كتابنا بذكر مدينة بغداد ، ووصف مركزها العلمى والأدبى . ولكن الدهشة تزول إذا علم أن مصر ، وأن عاصمتها القاهرة ، يرتبط مركزهما العلمى والأدبى فى عصر المماليك بمركز بغداد قبل سقوطها فى يد التتار عام ٦٥٦ هـ ، ارتباطا وثيقا . فإذا عرضنا لمدينة بغداد ووصف مركزها قبل العام المذكور ، فإنما نعرض من باب التمهيد لشرح المركز العلمى والأدبى للقاهرة ، وفهمه.

ولعل أقرب الروابط بينهما ، مما يتبادر إلى الذهن ذكره ، أن القاهرة حملت بعد سقوط بغداد ، ما كانت بغداد تحمله من أعباء العلم والأدب ، وأن سيرة القاهرة فى ميدانهما امتداد لسيرة بغداد فى نفس الميدان ، وإن اختلفت الأشكال والألوان .

ونحن لا نطمع هنا إلا فى عجالة يسيرة فى هذا الموضوع ، نوردها لنبين الربط ، ونحكم الصلة فحسب ، فنقول :

اتخذ بنو العباس هذه المدينة الزاهرة عاصمة لملكهم العتيد ، ومقرا لعرشهم المجيد ، الذى امتد سلطانه طولا وعرضا ، وغربا وشرقا . وضم إلى رايته كثيراً من الأوطان المجاورة . ثم بدءوا فيها حركة علمية واسعة النطاق ، فدونوا العلوم العربية والشرعية ، وترجموا كثيرا من كتب العلوم الكونية كالطب والهندسة والفلك وسياسة

الملك والحكمة والفلسفة والمنطق . وجدّ أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء العباسيين فى تشجيع المشتغلين بهذه الحركة ، وتكليفهم القيام بها ، ودفعهم إلى العمل فيها . وسار على سنته هذه بعض الخلفاء ولا سيما الرشيد والمأمون .

وفى عهد المأمون كانت بغداد تموج بمن فيها من رجالات العلم والأدب ، وأعضاء البعثات العلمية التى وكل إليها اختيار الكتب المناسبة لترجمتها أو الزيادة عليها ، مع جمهرة كبيرة من الكتاب والشعراء .

وهكذا أصبحت بغداد دارة العلم وهالة الأدب ، وامتد نفوذها إلى الأوطان النائية ، فلونت آدابها بألوانها الخاصة ، ووجهت النابهين من أبنائها إلى التأدب بأدبها هى . فاتخذوها قبلة لهم فى تفكيرهم ، وسعوا إليها سعى الحاج إلى البيت الحرام ، وتوافدوا عليها من فارس والحجاز ومن مصر والشام ، ومن المغرب والأندلس . وتركزت فيها الحركات الأدبية والعلمية زمنا طويلا ، يعينها على ما هى بصدده علماء الأمصار العراقية وأدباؤها ، وكذلك الحجازية .

ومازال أمر بغداد على ما وصفنا ، حتى ضعف بنو العباس ، واستشرى خطر الأعاجم بها ، فانشق عن سلطانها كثير من عواصم الأقطار التابعة ، واستقلت بنفسها من الناحية السياسية . وتعددت عواصم المسلمين .

هنا ظهرت الدولة الفاطمية فى مصر ، وأسس الفاطميون مدينة القاهرة ، فاحتلت مركزها عاصمة كبرى لدار من أضخم الديار الإسلامية ، وهى مصر . وبدأت تكون محورا جديدا لحركات علمية وأدبية أخرى .

ومع ذلك بقيت بغداد — على بعدها — أستاذاً لأهل هذه الأقطار ، ومعينا فياضا سائغا ينهلون منه ويردون على الدوام حياضه ، ويقتفون أثره ويحملون رسالته ويثمون أداءها . ولبثت بغداد نفسها تجنى ثمار نهضتها العلمية الأولى . فزخرت بفحول العلماء

وكبار المؤلفين وأساطين الأدباء وبلغاء الشعراء ، والمبتكرين من أهل الفلسفة والكلام وغيرهم . واتضحت فى رجالها روح التخصص فى النواحى العلمية . كما ازدهرت التآليف الشائقة بها . وحج إليها فى ذلك الحين عديد من أبناء الأوطان الأخرى ، يشهدون حلقاتها ودروس علمائها ومناظرات أدبائها ، ومحاورات ظرفائها ومسابقات شعرائها ، ومفاكهات أئمة المجالس فيها ، ومعابثات المجونيين من أبنائها .

وامتلأت كذلك ، فى خلال هذه المدة ، بشتى الكتب طارفها وتليدها ، وتضخمت دور كتبها ، فأصبحت تراثا فكريا ثمينا ، وذخيرة علمية نفيسة ، ورمزا إنسانيا ساميا لمرحلة من مراحل العلم ، ودور من أدوار الحضارة والمدنية .

بذلك كله ظلت بغداد زهاء خمسة قرون ، العاصمة الروحية والفكرية للمسلمين قاطبة وللناطقين بالعربية ، بل ولغير هؤلاء وهؤلاء .

ثم آل بها ضعفها السياسى ، وخور ملوكها من بنى العباس ، وتفاقم الخطب بأطماع الأمم المجاورة لها ، واعتدائهم عليها ، إلى سقوطها مرارا ، حتى لم يبق لخليفتها من أمر حكمها شىء . ثم أعقب هذا الانحلال ، الطامة الكبرى والداهية العظمى ، وهى سقوطها فى يد التتار عام ٦٥٦ هـ .

٢ — كلمة موجزة عن التتار[1]

التتار أمم وثنية جاهلة من الجنس المغولى الأصفر ، منهم الياقوتية والجيرجيزية والساموية . مساكنهم الأولى الأطراف الشمالية لبلاد الصين . ومنذ الأزمنة السحيقة كانوا يعيشون عيشة البداة ، ويخضعون لأحد ملوك الصين . ثم نجم فيهم رجل منهم قوى الشكيمة شديد البأس ، استطاع أن يتملك عليهم ، وأن يفوز بعرش الحكم

---

١ — فى كتاب (ابن خلدون : حياته وتراثه الفكرى) لعبدالله عنان ص ٨١ ما يفهم منه أن ابن خلدون تكلم فى كتابه (التعريف) عن نشأة التتار والسلاجقة .

فيهم ، ودانت له أمم التتار جميعها . وأخذ يقودهم من نصر إلى نصر ، حتى خضع لحكمهم كثير من الأمم المجاورة لهم . ذلك الرجل هو : جنكيزخان [1] .

ثم ما لبث جنكيزخان حتى زحف بهم كالجراد على أواسط آسيا وغربها منذ عام ٦٠٦ هـ . فملكوا كثيرا من البلاد وقتلوا ما لا يحصى من أهلها ، حتى بلغوا خراسان . فانتزعوها من ملكها « خوارزم شاه محمد بن تكش » عام ٦١٧ هـ بعد أن أفنوا عددا ضخما من مسلميها .

تتابعت بعد جنكيزخان هجمات التتار على بلاد العراق ثم على بلاد الشام ، حتى كان ما كان بينهم و بين سلاطين المماليك المصريين — مما أشرنا إليه فى الجزء الأول — حيث أوقعوا بهم فى « عين جالوت » ثم فى « بيسان » وأجلوهم عن بلاد الشام وردوهم عنها داحرين . فوقف تيارهم عند هذا الحد ، ولم يتعده من بعدُ إلا غرارا غرارا . ولم يستطيعوا قط ، أن يجتازوا إلى بلاد مصر . وتفرقت دولتهم من بعد ذلك دولا عاصرت بقايا السلاجقة ، ومماليك مصر ، وغيرهم .

ومن صفات التتار ، الشجاعة وشدة البأس وحب البطش . ومن أعظم ملوكهم بعد جنكيزخان : هولاكو ، وهو الذى نكبت بغداد على يده . وتيمورلنك [2] الذى خرب بلاد الشام من بعدُ ، وأذل أهل دمشق . ومنهم أولوغ بك وأرخان بك ، وغازان وأبو سعيد وغيرهم .

ومما يذكر أن كثيرا منهم اعتنق الإسلام بعد غزو بغداد بأكثر من نصف قرن . وشرعوا يعوضون الدين والعلم ما فقداه من نفائسهما العلمية على يدهم من قبل ، وذلك بتشجيع العلماء .

---

١ — فى فوات الوفيات لابن شاكر فصل طويل عن جنكيزخان . ج ١ ص ١٣٩

٢ — ممن ترجم لتيمورلنك ، ابن عربشاه فى كتابه (عجائب المقدور فى أخبار تيمور) ، والسخاوى فى كتاب (الضوء اللامع) ج ٣ رقم ١٩٢

٣ — سقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ

تتلخص هذه الحادثة فى أن التتار كانوا قد اقتربوا من العراق بجيوشهم الجرارة قبيل عام ٦٥٦ هـ. وكانت بغداد إذ ذاك تلتهب بالفتن والمؤامرات المشبوبة بين الرافضة وأهل السنة وكان الخليفة إذ ذاك، المستعصم بالله العباسى. ووزيره مؤيد الدين العلقمى من الرافضة [1]. فحاله أن يمهد لدخول التتار حتى تكون له النصرة على يدهم، فيحكم بغداد وحده بإرشادهم فكاتبهم بما فى نفسه وأطمعهم فى دخول بغداد وانتزاع ملك العراق، ومحو الدولة العباسية ليقيم خليفة من آل على. ثم أعلمهم بنواحى الضعف فى البلاد، وبصرهم بثغراتها التى يطعنونها منها.

اقترب التتار من بغداد، فهاج أهلها وماجوا، واجتمعوا صفا فى وجه العدو، وهزموه وردوه على أعقابه. فحز ذلك فى نفس ابن العلقمى، وعاد إلى مكاتبة التتار، وقطع جسر دجلة على جنود بغداد، وهم يستجمون، فأغرق عددا منهم، وأشاع الاضطراب فى صفوف الباقين، فكر عليهم التتار كرة صادقة زلزلوا تحت تأثيرها زلزالا شديدا. ودخل التتار مدينة بغداد فى نحو مائتى ألف جندى بقيادة هولاكو. وتم ذلك فى عام ٦٥٦ هـ.

قيل: أشار الوزير ابن العلقمى بعدئذ على الخليفة المستعصم بمصانعة التتار. وقال له «أخرج أنا إليهم لأقرر معهم شروط الصلح. ثم عاد من لدنهم وهو يقول للخليفة: «إن الملك هولاكو قد رغب فى أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبى بكر.. ويبقيك فى منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم فى سلطنته... ولا يريد إلا أن تكون له الطاعة منك، كما كان أجدادك مع السلاطين السلاجقة. ثم ينصرف عنك بجيوشه. فليجب مولانا إلى هذا فإن فيه حقن دماء المسلمين».

---

١ — فى فوات الوفيات ج ٢ ص ١٨٩ فصل عن ابن العلقمى.

فخرج الخليفة إليه فى جمع حاشد من كبار رجال دولته وأعيانها وعلمائها . فأنزله فى خيمة . ثم دعى الفقهاء والأعيان ليحضروا كتابة العقد . . . وقد خرج لاستدعائهم الوزير ابن العلقمى لتتم فصول الرواية على يديه . فتوافدوا من بغداد زمرا بعد زمر ، حتى صاروا بين يدى التتار فضربت رقابهم . . . واستدعيت طبقات العلماء والأمراء والحجاب والكبار طبقة إثر طبقة ، فقتلوا عن آخرهم .

بعد ذلك أبيحت المدينة للجند ، فاخترقوا فجاجها ، وجاسوا خلال سبلها ، يثخنون فى أهلها قتلا وتمثيلا . وظلوا على هذا العمل الاجرامى نحو أربعين يوما ، حتى ملئوا الطرقات دماء ، وجمعوا من جماجم السكان أهراما . وقيل بلغ عدد القتلى أنحوا من ألفى ألف نسمة ، ولم يسلم من يدهم إلا من اختفى فى بئر أو قناة . ثم قتل الخليفة وجمع من أولاده وأعمامه . وأحرقت دور الكتب ، وأغرقت كتب لاتحصى فى نهر دجلة . وهدمت القصور وخربت الدور . وكانت نكبة لم يبل الإسلام ولا المسلمون بمثلها . ولم ينل ابن العلقمى شيئا من وراء ذلك ، بل استبد به التتار وأذلوا مكانته ، واستأثروا بالسلطة دونه حتى مات كمدا .[١]

٤ — انتقال النشاط العلمى إلى مصر والقاهرة

تلفت المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، يبحثون لأنفسهم عن ملجأ يلجئون إليه ، ومأوى يأوون فيه ، بعد كل هذه النكبات المتلاحقة ، وبعد سقوط أكبر دولهم سقوطاً نهائياً ، وأعنى بها الدولة العباسية ، وبعد زوال أهم رمز روحى كانت تجتمع القلوب حوله ، على الرغم من تشتتها ، وأعنى به الخلافة . فلم يجدوا أمامهم غير مصر

(١) (تراجع حوادث ٦٥٦ فى : تاريخ الخلفاء للجلال السيوطى ، وبدائع الزهور لابن إياس الحنفى جـ ١ ص ٣٢٧ . وطبقات السبكى جـ ٥ فى ترجمة عبد العظيم المنذرى . والنجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٤٧ ودائرة معارف وجدى) .

و بلاد الشام ، حيث أسس المماليك لهم ملكا ، وأقاموا لأنفسهم سلطانا ، وكونوا لعرشهم جنداً ، يذود عنه ويدفع كيد الأعداء .

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يقيم من دولة المماليك ، فى هذه الآونة العصيبة من تاريخ المسلمين ، حاجزاً منيعاً ، وسداً متيناً ، يقف حجر عثرة فى سبيل تدفق سيل التتار الجارف على البلاد المصرية . فوقاهم شر يومهم ، وأبعد عنها مافى جعبتهم من نكبات يفيضون بها على الأمم المفتتحة ، ودفع عن القاهرة بوارا كالبوار الذى حاق ببغداد وطامة كالطامة التى أصابتها .

وما ذلك إلا لوقوف المماليك فى وجوههم من ناحية . وتفرق أمرهم من ناحية أخرى . وقد وقعت بين الفريقين وقائع عدة تناثرت فى خلال مدة حكمهم ، كانت ذات نتائج حاسمة فى ردطغيان التتار وعدوانهم ، و إن لم تسلم بلاد الشام جملة من هذا العدوان والطغيان .

وما وقف سلاطين المماليك وأمراؤهم مواقفهم تلك ، إلا لأنهم مسلمون معنيون بشئون دينهم ، مطالبون بدفع الأذى عنه ، ورد المعتدين عليه ، ومما شحذ هممهم لذلك ، وأثار ثائرتهم ، أن التتار عرفوا بالجهل واعتلال الدين ، كما أشرنا ، وعرفوا بحب البطش والفتك ، واشتهروا بما أذاقوا المسلمين من ويل ، وما اقترفوه فى أواسط آسيا من آثام لا قبل لأحد باحتماله . فكم أراقوا هناك من دماء ، وكم بعثروا من أشلاء وكم أبادوا من جماعات ، وكم شتتوا من أسر . أضف إلى ذلك ما اجترحوه فى بغداد وما ألحقوه بأهلها من ذل و بوار .

فالتتار إذاً كانوا أعداء الإسلام ، وخصوم المسلمين . أحس المماليك بهذه الحقيقة السافرة ، وشعروا بالخطر القريب الداهم ، و بالشر العاجل المستطير . فهبوا على بكرة أبيهم ، ذادة مدافعين عن دين اعتنقوه ، وملك أسسوه ، ومجد تسنموه ، وجاه بلغوه .

ثم لا ننسى أن المماليك قد ورثوا عن دولة بنى أيوب ، نزعتها القوية الشديدة ، ووقفتها الرائعة الرشيدة ، فى مكافحة الصليبيين ، أعداء الدين والمسلمين ، فكما ورثوا عنها كثيراً من عاداتها وتقاليدها الرسمية وغير الرسمية ، حتى ليمكن القول إن دولتهم امتداد لدولة بنى أيوب . ورثوا عنها كذلك هذه النعرة الاسلامية ، وتلك العصبية الدينية لمعاداة كل من قصد بلاد المسلمين بشر ، أو أراد المسلمين بضر .

ولم ينس المماليك أنهم يحكمون أمماً أغلب أهلها من العرب ، ومن المسلمين الذين يبهرهم دائما كل ذائد عن حمى الدين ، ويروعهم كل مدافع عن بلاد المسلمين ، ويعجبهم الرجل الأغلب الصمصامة الذى يهب نفسه لله ، ويقاتل فى سبيل الله .

ومن حسن سياسة سلاطينهم أن أفسحوا فى مصر مكانا للخلافة جديداً ، بوءوا فيه أحد سلائل خلفاء بنى العباس ، بعد ثبوت نسبه ؛ و بذلك أعادوا للخلافة سيرتها ، وأنشئوها نشئا آخر ، بعد أن طوى بساطها وانقض سامرها ، وزالت عنها الغضارة والنضارة ، فوجهوا بعملهم هذا أنظار المسلمين إلى مصر ، ولفتوا قلوبهم وأرواحهم إلى القاهرة باعتبارها عاصمتهم الجديدة ومتبوأ خلافتهم المجيدة .

وبذلك كله اكتسبت مصر مكانا فى الحياة جديداً ، وأصبحت عاصمتها مركزاً تطيف به قلوب المسلمين قاطبة ، وصار ملوكها الحصن الحصين والركن الركين ، الذى يلوذ بأكنافه ذوو الحاجات العليا السامية من أبناء البلاد الإسلامية .

ومصر — إلى ذلك الحين ، وبجوارها الشام كذلك — كثيرة الخيرات موفورة الثمرات ، لا ماؤها العذب ممنوع ، ولا جناها الرطب مقطوع . فطمع فيها أبناء البلاد الأخرى طمع الفقير العيى ، فى الكريم المحسن القوى . وفاء إلى حماها كثير منهم . تراموا على صعيدها الخصب ، من كل حدب وصوب ، وسقطوا عليها سقوط الطير حيث يلتقط الحب . وهبوا يحيون من الإسلام مجده الدارس ، ويستضحكون وجهه العابس

ويجددون له وللعربية ذخائرها العلمية النفيسة . ونهموا فى التجديد حتى ضاق نطاق الزمان عن أشباع رغبتهم . وكأنما أرادوا الانتقام من هذا الزمن الخئون ، والأخذ بالثأر منه ، لما ساقه على المسلمين وتراثهم من هلكة وخسار ، وعبث ودمار .

بهذا كله انتقل النشاط العلمى من العراق وبغداده ، إلى مصر وقاهرتها . ونشرت القاهرة زعامتها العلمية وقيادتها الأدبية على البلاد الإسلامية تقريبا ، زهاء هذه القرون الثلاثة التى عاشت فيها دولة المماليك .

٥ — خاتمة

ولم تكن بلاد المغرب والأندلس فى هذه الظروف بأسعد حالا من العراق ، فقد أخذت تتفاقم فيها الفتن وتتجدد أنواع الخلاف وتزيد ضروب المحن وتطغى عليها الأعداء بما لا يدع للعلم سندا ولا للأدب موردا .

ويحسن فى هذا المقام أن نختتم هذا الباب الأول بمقتبسات يسيرة مما كتبه ابن خلدون (٨٠٨ هـ) فى مقدمته تحت عنوان «فصل فى أن التعليم للعلم من جملة الصنائع» فإنه عرض فى الفصل المذكور للموازنة بين علم أهل المشرق وأهل المغرب قبيل عهده وإلى عهده ، منوها بانتشار العلوم والصنائع فى المشرق وبخاصة فى القاهرة . قال :

«وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلواً من حسن التعليم ، من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ، ولم يتصل سند التعليم فيهم . فعسر عليهم حصول الملكة والحذق فى العلوم ، وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة فى المسائل العلمية ، فهو الذى يقرب شأنها ويحصل مرامها ، فتجد طلاب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم فى ملازمة المجالس العلمية سكونا لا ينطقون ولا يفاوضون . وعنايتهم بالحفظ

أكثر من الحاجة ، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف فى العلم والتعليم ، ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل ، تجد ملكته قاصرة فى علمه إن فاوض أو ناظر أو علم . وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده ، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم ، لشدة عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية ، وليس كذلك .

ومما يشهد بذلك فى المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة ، وهى بتونس خمس سنين ، وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هى أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها ، فطال أمدها فى المغرب لهذه المدة لأجل عسرها من قلة الجودة فى التعليم خاصة لا مما سوى ذلك .

وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم ، وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين .

ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب واقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم ، فانحفظ بحفظه ، وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين ، وأما العقليات فلا أثر ولا عين ، وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران ، وتغلب العدو على عامتها إلا قليلا بسيف البحر ، شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها والله غالب على أمره .

وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه ، بل أسواقه نافقة ، وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور ، واتصال السند فيه ، وإن كانت الأمصار العظيمة التى كانت معادن العلم قد خربت ، مثل بغداد والبصرة والكوفة ، إلا أن الله تعالى قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك ، وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من

المشرق ، ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب ، فلم تزل موفورة ، وعمرانها متصلا ، وسند التعليم بها قائما .

فأهل المشرق على الجملة أرسخ فى صناعة تعليم العلم ، بل سائر الصنائع ، حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق فى طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب ، وأنهم أشد نباهة وأعظم كيسا ، بفطرتهم الأولى وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتهم من نفوس أهل المغرب . ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم فى حقيقة الانسانية ، ويتشيعون لذلك ، ويولعون به ، لما يرون من كيسهم فى العلوم والصنائع ، وليس كذلك ، وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذى هو تفاوت فى الحقيقة الواحدة . . . » الخ .

الباب الثانى

عوامل نشاط الحركة العلمية

ألمعنا فيما سبق إلى قيام هذه الحركة العلمية فى مصر ، وأجملنا القول فى العوامل التى شجعت القائمين بها ، وأدت إلى نشاط أهلها . والآن نفصل القول تفصيلا فى بيان هذه العوامل . فنقول إنها تنقسم إلى قسمين : خارجية وداخلية . ونعنى بالعوامل الخارجية ، ما وقع منها فى خارج مصر ، ولم يكن لمصر ولا لأهلها يد فى تدبيرها ، غير أن هذه العوامل كان لها من الأثر العظيم داخل مصر ما أدى إلى تنشيط هذه الحركة . أما العوامل الداخلية فنعنى بها ما وقع منها داخل مصر ، وكان لأهلها يد فى تدبيرها ، وأثرت بدورها تأثيرها المباشر فى تنشيط الحركة العلمية .

ولم تكن الحركة العلمية خاملة بالديار المصرية على عهد الأيوبيين ، فقد كان لها هى الأخرى نشاطها الملحوظ ، ولكن العوامل المتعددة التى طرأت عليها فى العصر المملوكى ، والتى طرأت مجتمعة ، كان لها أثرها الواضح فى نشاطها فى العصر المذكور . ولا نغلو حين نذكر أنها كانت أكثر نشاطا وأدأب عملا وأضخم إنتاجا فى العصر المملوكى ، مما كانت فى العصر الأيوبى بل وما قبله من عصور مصر الإسلامية ، وأن مصر استطاعت أن تكوّن لنفسها ثقافة تحمل طابعها ، تأثرت بها البلاد الاسلامية الأخرى ، وبخاصة بلاد الشام .

الآن نوضح هذه العوامل فنقول :

العوامل الخارجية

١ - وقوع كثير من البلاد الإسلامية فى يد المغول

طغى سيل التتار الجارف من أواسط آسيا إلى شمالها مكتسحاً ما أمامه من بلاد المسلمين . وأثخن فى أرضهم ، وقتل كثيرا من أهلها . وأتى فى خراسان ما تقشعر منه الأبدان ، وما تأباه النفوس السليمة . ثم واصل زحفه حتى بلاد العراق ، فمزق بغدادها شر ممزق . ثم عرج على بلاد الشام التى لبثت مسرحا للنزاع العنيف بين دول التتار والمماليك زمنا طويلا . فكان لا بد للمسلمين من أن تلتفّ قلوبهم حول المدافعين عنهم من سلاطين المماليك ، ملتمسين فيهم الزعامة التى تدافع عنهم ، وأن يشدوا أزرهم ويدعموا ملكهم ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، إذ فى تدعيمه إبقاء على دينهم وأنفسهم . ومن أهم وسائل تدعيم الملك إحياء العلوم والمعارف . فجهد فى ذلك علماء المسلمين آنئذ ، وأتوا بما يعد فريدا فى بابه ، عجبا فى صنعه .

٢ - قتل العلماء واتلاف الكتب العلمية

قتل التتار كثيرا من علماء المسلمين ببغداد وغيرها . وممن قتل ببغداد الشيخ محيي الدين بن الجوزى وأولاده [١] . وكذلك أتلفوا كثيرا من دور الكتب . وقد أمر هولاكو وقت فتح بغداد بإلقاء جميع الكتب التى فى دور الخلفاء فى نهر دجلة . وبذلك ضاعت على الدين ذخائره ؛ وعلى العلوم والآداب نفائسها . وفقدت العربية إلى الأبد آلافا من مؤلفات بنيها .

فلما نبا المقام بمن فر من العلماء ، من وجه التتار ، أو أنف من الإقامة فى ظلهم استقر بهم فى كنف سلاطين مصر . ولقوا ، هم ومن لف لفهم من رجال الأمم الأخرى ، فى جوار هؤلاء السلاطين ، الأمن والدعة والسلامة والعيش الهادىء

---

(١) عن مختصر أبى الفداء ج ٤ ص ١٩٤

كما وجدوا أنفسهم — بعد هذه الكارثة العلمية الرهيبة — مسئولين أمام الله عن دينه ، وأمام التاريخ عن إنهاض العلم وإقالة عثاره ، وأمام ضمائرهم عن معارفها ، وأمام أوطانهم عن تدعيمها . فدفعهم شعورهم العميق بهذه المسئولية وضخامتها إلى الجد فى العمل لملافاة مافات ، وبذل الجهد لإعادة هذا الصرح المنهار .

٣ — وفود العلماء والأدباء إلى مصر والشام

ولا شك أن مما عاون مصر على بلوغ إربتها ، وساعد على تزعم حركة الإحياء العلمية ، كثرة من أمها من بنى الأقطار الإسلامية الأخرى ، سواء أكانوا فارين من وجه الطغيان والظلم ، أم كانوا طامعين فى كرم مصر وحسن وفادتها . وبين هؤلاء وهؤلاء علماء فضلاء وأدباء أجلاء ولم يقتصر وفودهم إلى مصر ، على أوائل العصر المملوكى ، بل ظل متتابعا خلال العصر المذكور . ومنهم من ألف وكتب ، ودرس وخطب ، وتولى القضاء وحكم وأفتى ، وأفادت مصر والشام منهم الخير الكثير والنفع الجم بما نشروا وألفوا ، وبما علموا من ناشئين .

ومن هؤلاء ابن خلكان الإربلى ، وابن مالك الأندلسى ، وابن أبى حجلة المغربى ، وابن منظور الإفريقى ، وابن خلدون المغربى .[١] والحافظ رشيد الدين النابلسى ، والبكرى أبو على الحسن بن محمد النيسابورى الدمشقى . وسعد الدين العراقى . وممن فر إلى مصر كمال الدين بن العديم هجر مدينة حلب فارا من التتار إلى الناصر بن قلاوون فأقام بها حتى مات [٢] ودفن بها ومثله ابن الأستاذ كمال الدين المتوفى عام ٦٦٢ هـ . رحل إلى مصر لما أخذ التتار حلب [٣] .

وهاجر من حران إلى دمشق عام ٦٦٧ هـ والد ابن تيمية الحرانى ومعه ولده المشهور وكان حدثا صغيرا .

---

١ — راجع طبقات الحفاظ والأئمة فى حسن المحاضرة ج ١ — وراجع باب التراجم الموجزة فى كتابنا هذا .

٢ — راجع تاريخ آداب اللغة لجرجى زيدان ج ٣ ص ١٧٠

٣ — حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٣

وقد ذكر محمد جميل الشطى فى كتابه « طبقات الحنابلة » عددا من العلماء الذين هاجروا من بغداد فرارا من التتار حينما دهموها . ومما لا ريب فيه أن هؤلاء الفارين والمهاجرين عاونوا مع من نشأ فى مصر من علمائها وأدبائها ، ومن تربوا على أيديهم من ناشئتها على إنعاش الروح العلمية ، متجهين إلى إحياء علوم الدين واللغة ، ولم يستطيعوا أن يضيفوا إلى أعبائهم أعباء الإصلاح السياسى ورفع الظلم عن رقاب الناس ، وكف المعتدين من رجال الحكم ، إلا لماما لماما ، ذلك لأن منطق الظروف وسياق الحوادث يقف سدا منيعا دون ذلك ، فقد ألقت الأقدار مصائر الأمور فى مصر إلى هذه الطبقة الحاكمة من أمراء المماليك وجنودهم فلم يجعلوا لأهل البلاد الأصليين قلامة ظفر فى الحكم ، وبخاصة فى المناصب العسكرية ، ولم يتركوا للمتعممين إلا مناصب القضاء والكتابة وما إليها ، وهم من نابتة البلاد فى الغالب . فلم يستطع العلماء مجاهدة هذه الطبقة لئلا يزيدوا عبئا إلى عبئهم أو ينحرفوا عما نصبوا أنفسهم له أولا ، وهو إحياء علوم الدين والمحافظة عليها ووصل سندها . — ومهما يكن من شىء فقد عاونوا معاونة مذكورة على إنعاش الروح الفكرية ، ولو إلى حد ما . وفى محاكمات ابن تيمية الحرانى وما أذاعه بين الناس من آراء ، وما رد به عليه علماء عصره ، صورة من صور هذا الانتعاش الفكرى .

٤ — زوال الخلافة العباسية

قتل التتار الخليفة العباسى المستعصم بالله ، وولى عهده ، وأزالوا الخلافة العباسية وعفوا أثرها . وقد كانت — على علاتها — محورا تطوف به قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ورمزا يرمز إلى تآلفهم وتآزرهم ، وعلما روحيا يستظلون به . وقد أصابها الوهن ونال منها الضعف ، ولكن المسلمين كانوا يتعللون بها ويأنسون بوجودها . فلما زالت دولتها جملة ، كبرت المسألة فى نفوس المسلمين ، وحمى الأمر ، واتقدت حماستهم ، وكأنهم أخذوا يتطلعون إلى خلافة جديدة ، تعيد السيرة فى جمع القلوب ، وفى الرمز إلى الصلة الدينية .

لم تكن هناك دولة حينئذ ، بين دول المسلمين أكثر جندا وأقوى عدة ، وأوسع كنفا ، وأشب حماسة ، من مصر . فكان طبيعيا أن تتطلع نفوس أهلها — على الأقل — إلى إعادة هذا الرمز الروحى الجليل — وأعنى به الخلافة . فأسسها الظاهر بيبرس ، كما بينا فى الجزء الأول من هذا الكتاب . ولولا زوال خلافة بغداد ما وُجد السبيل إلى تجديدها فى مصر . وتجديدها بمصر كان له أثره فى الحركة العلمية كما سنبينه بعد قليل .

العوامل الداخلية

١ - غيرة السلاطين والأمراء

أبدى السلاطين والأمراء غيرة دينية بارزة . وتعصبوا للدين تعصبا قوياً واضحاً . ورغبوا فى القيام برعايته مع رعاية أهله ، رغبة قوية . وأسبغوا على أعمالهم ثوباً دينيا سواء أكان ذلك فى الحكم أم الغزو أو غير ذلك .

ولا نبحث فى هذا المقام عن حقيقة هذه الغيرة ، وصدقها ، ومقدار هذا الصدق . وهل كانت عن عقيدة صحيحة حقا أم هى إيهام وخداع للعامة والناس ، حتى يبهروا أنظارهم ويضمنوا معونتهم ويأمنوا جانب فتنهم أو غير ذلك .

لا يهمنا أن نبحث فى ذلك كله أو بعضه ، وإنما يهمنا القول إن هؤلاء السلاطين والأمراء كانت فيهم غيرة على الدين واندفاع إلى الذود عنه ، ورغبة فى التمكين له وإن الإسلام أفاد من هذه الغيرة فوائد جمة ، إذ درأت عنه كثيراً من الأذى ، وردت عنه ضروباً من العدوان ، ومكنت له فى مصر والشام وغيرهما .

ولعل أهم ما دفعهم إلى هذه النزعة أنهم مسلمون ، وأنهم شعروا بعد زوال الأيوبيين ودولة الخلافة أنهم أصبحوا وحدهم فى الميدان حماة لهذا الدين ، وذادة عن بلاد المسلمين . وأن الأقدار نقلت إلى كواهلهم عبء الدفاع عنه . وأنهم إن قصروا

فى هذا المضمار كان ذلك سبة لهم أبد الدهر . وقد عاونهم على بلوغ مأربهم مايتصف به جنسهم من شجاعة وثبات على الرأى وتعصب للعقيدة ، دون مبالاة بما يصيبهم فى سبيل ذلك من سوء .

وقد تجلت هـذه الغيرة منهم فى كفاحهم للتتار ، ومحاربتهم للفرنجة ، حتى ردوا هؤلاء وهؤلاء عن مصر والشام والبلاد المقدسة . وتجلت فيما أفاضوا من معونة ومابذلوا من رعاية للبيت الحرام وسكان الحجاز ، ولغيرهم من أهل البلاد الإسلامية القريبة والبعيدة .[١]

هذه النزعة من دأبها أن توقظ أمثالها فى نفوس العلماء ، وتحفز أهل الدين إلى حياطته ورعايته . وتدفعهم إلى تجديد شبابه وبعث روحه ، ونشر رايته . وأداتهم إلى ذلك ، التعليم والتأليف ومواصلة البحث والاطلاع .

٢ ـ تعظيمهم لأهل العلم

نعنى بأهل العلم ، المتفقهين فى الدين . لأن « العلم » أطلق فى عرف هذا العصر على « الدين »، والمتفقه فيه هو « العالم » . أما غيره من المتفقهين فى العلوم الأخرى فندر أن يطلق عليه لفظ « العالم » ، وكان الطبيب يقال له « الرئيس » ، أو « الحكيم » كما يقوله عامة زمننا . ويقال لطبيب العيون « الكحال » ، ولمهندس المبانى « الشاد » ، وأطلق على هذا الأخير لفظ « المهندس » أحيانا [٢] وهكذا .

ومما يذكر أن سلاطين العصر المملوكى وأمراءه أقاموا وزنا كبيرا لعلماء الدين وبجلوهم وقدموهم فى مسائل كثيرة ، وقد استشاروهم مراراً فى أمور الدولة العليا ،

---

١ ـ راجع الجزء الأول من كتابنا هذا تحت عنوان حسنات العصر وسيئاته . وتحت عنوان السفارات .

٢ ـ قال المقريزى فى الخطط ج ٣ ص ٣٤٤ تحت عنوان (الدهيشة) أن الملك الصالح عماد الدين عمرها فى عام ٧٤٥ هـ بعد أن بعث الأمير آقبجا وأنجيج (المهندس) لكشف دهيشة حماة . الخ . . .

وسمعوا شكاياتهم إذا تقدموا إليهم بها ، وأجابوا ملتمساتهم ، بل توجسوا من بعضهم خيفة وذلك لما كان لهؤلاء العلماء من سلطان على العامة ، ولما كان لهم بهم من صلة ، وقدرة على سرعة التفاهم معهم ، لأن أغلبيتهم تمت إلى هذه العامة بأوثق الصلات . فهم جميعاً أبناء شعب واحد ، ولغة واحدة .

وقد بلغ علماء الدين هذه المنزلة السنية عند الخاصة والعامة ، لسنن درجوا عليها ، وصفات اتصفوا بها ، فقد كان من بينهم من هو مضرب المثل فى الزهد والقناعة والورع ، والتمسك بما يراه حقا ، والثبات على رأيه إذا اعتقد فيه الصواب ، لا يتزحزح عنه قيد أنملة ، إذا شعر أنه موافق للشريعة . مالم يناضله مناضل ويجادله مجادل ويغلبه مناظر بالحجة والبرهان . وإلا فهو عند رأيه ، ولو لوح له بالعذاب عزلا أو سجنا أو مصادرة أو غير ذلك من ألوان العقوبة .

وليس ذلك منهم عن عناد ومكابرة : بل عن تفقه فى الدين ، وتعمق فى العلم وتمسك بالحق ، وشغف بالبحث والدرس والاطلاع ، وصبر على حسن النظر . وجد فى التأليف والتصنيف .

ضرب العلماء بذلك كله أحسن الأمثال للناس ، ووضعوا لهم أفضل قدوة يقتدون بها ، فرغب كثير من أبناء الشعب فى طلب العلم ووهبوا له نفوسهم ، وسعوا فى تحصيله حتى يصل الأواخر منهم إلى مثل ماوصل إليه الأوائل .

وتصدى العلماء للفتيا العامة ، كل بمذهبه . وقد كانت أسئلة العامة وغير العامة تتهاوى إليهم من كل فج ، عارضة مايتراءى لهم من مشاكل ومعضلات ، وشبه وخلافات يطلبون فيها الأجابة والفتوى . وكثيرا ماتثير هذه الاستفتاءات خلافا بين العلماء أنفسهم فيتجادلون ويتحاورون بغير ملل أو سأم حتى يصلوا إلى قرار الحق . وفى تاريخ عز الدين بن عبد السلام ، وتقى الدين بن تيمية الحرانى ، وتقى الدين السبكى وغيرهم أمثلة متعددة لذلك .

هذه كلها سنن وصفات درج عليها علماء العصر ، أسبلت عليهم من المهابة ستراً ومن الجلال ثوبا ، وتوجت هامهم بتاج العزة والوقار ، وجعلت لهم عند العامة مكانة ، ولدى الخاصة جاها ، وبين الحكام رعاية وتعظيما ، وعناية وتكريما . حتى حسبوا حسابهم فى كثير من خطواتهم ، والتمسوا معونتهم ورأيهم فى عديد من أعمالهم .

وكان على رأس علماء العصر قضاة قضاته ، فهم المقدمون فى الفتيا والرأى . وكثيرا ما تعقدت الأمور بسبب حرب أو نحوها ، ورام السلطان فرض ضريبة أو أخذ مال من أوقاف المسلمين ، فكان لابد له من استشارة هؤلاء القضاة وأخذ رأى النابهين من العلماء البارزين . كما وقع فى عهد قايتباى وبرقوق [1] . وكثيرا ما خرج السلطان إلى الحرب وصحب معه قضاته ، تقوية للمعنوية بين العامة والجند.

ومما نذكره مدللين على تعظيم السلاطين والأمراء لأهل العلم ؛ ما رُوى من أن الظاهر بيبرس كان منقمعا تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وأنه قال لما مات الشيخ : ما استقر ملكى إلا الآن [2]

وروى السيوطى فى حسن المحاضرة - ج ٢ ص ٧٤ - أن الظاهر بيبرس حضر مرة إلى دار العدل فى قضية بينه وبين أحد الأمراء أمام القاضى ابن بنت الأعز ، فقام الناس له تعظيما ، إلا القاضى فقد أشار إليه السلطان بعدم القيام .

وقال أيضا - ج ٢ ص ١١٣ - إن الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد حضر مرة عند السلطان لاجين ، فقام إليه السلطان ، وقبل يده . فلم يزد على قوله : « أرجوها لك بين يدى الله » .

وقال أيضا - ج ٢ ص ١٦٣ - إن السلطان برقوقا لما أنشأ مسجده ، وقرر فيه شيوخا يتولون التدريس ، كان من بينهم الشيخ علاء الدين السيرامى مدرس الحنفية

---

(١) راجع ما كتب عن « فداحة الضرائب وتعدد أنواعها » فى قسم ٢ ج ١ من كتابنا هذا .

(٢) راجع ترجمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام فى هذا الجزء .

وشيخ الصوفية . وقد بالغ برقوق فى تعظيم هذا الشيخ حتى فرش له السجادة بيده.

وذكر المقريزى فى الخطط ـ ج ٤ ص ١٣٩ ـ أن السلطان المؤيد شيخا المحمودى لما أنشأ جامعه ، وقرر فيه عددا من المدرسين ، كان من بينهم شهاب الدين بن حجر العسقلانى ، مدرس الشافعية . فجاء إليه السلطان ليستمع درسه ، فلما أقبل ، هم ابن حجر بالقيام للسلطان فمنعه المؤيد من القيام فلم يقم .

وروى ابن إياس أيضا فى بدائعه ـ ج ٢ ص ٧ ـ أنه لما كملت عمارة الجامع المذكور ـ جامع المؤيد ـ واجتمع الطلبة للدرس ، خرج إليهم الشيخ شمس الدين الديرى من خلوته ، وأمامه ابن السلطان المؤيد ، وهو المقر الصارمى ابراهيم ، حاملا سجادة الشيخ حتى فرشها له فى المحراب .

وروى السخاوى فى الضوء ـ ج ٤ رقم ٤٥٢ ـ فى سياق ترجمته لزين الدين العراقى المتوفى عام ٨٠٦ هـ ، فقال ما نصه : « وكان للأمراء فى أواخر ذاك القرن ـ يعنى القرن الثامن الهجرى ـ اعتناء بالعلماء فكان لكل أمير عالم بالحديث يسمع الناس ، ويدعو الناس للسماع » ثم ذكر أن العراقى كان أميره إما « إيتمش » صاحب المدرسة بباب الوزير ، أو « يشبك الناصرى الكبير » .

ومن طرائف الحوادث التى تروى فى هذا المقام ما قصه ابن حجر فى كتابه « الدرر » ـ ج ٣ رقم ٣٢١ ـ فى سياق ترجمته « لنور الدين على بن يعقوب بن جديل البكرى » الفقيه الشافعى المتوفى عام ٧٢٤ هـ ، قال ما ملخصه : « إن البكرى بلغه فى منتصف المحرم عام ٧١٤ هـ ـ على عهد السلطان الناصر بن قلاوون ـ أن الأقباط استعاروا عددا من قناديل جامع عمرو بن العاص ، وعلقوه فى بجمع كان معقودا بالكنيسة المعلقة . فثار البكرى لهذا الحادث ، وجمع طائفة من الناس من الناقمين ودهموا الكنيسة ومن فيها من المجتمعين ونكلوا بهم ثم عاد إلى الجامع وأهان قومته ، وأكثر من الوقيعة فى خطيبه . ثم إن البكرى ذهب إلى النائب أرغون ، واتهم كلا من كريم الدين الصغير ناظر النظار ، وكريم الدين ناظر الخاص ، وشنع عليهما ، ونسب إليهما أن الاستعارة تمت بأمرهما . وبلغت الحادثة

سمع السلطان ، فأمر بإحضار البكرى فى مجلس قضاة القضاة ومعهم ابن الوكيل . فلما دخل البكرى على السلطان والقضاة ، تكلم ووعظ وتلا آيات من القرآن ، وجملة من الأحاديث النبوية ، وأغلظ فى عبارته للسلطان ، قائلا : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » فاشتد غضب السلطان وقال له : « أنا جائر » ؟ قال : « نعم ! أنت سلطت الأقباط على المسلمين وقويت دينهم » . فلم يتمالك السلطان نفسه ، وتناول سيفه وهم بضربه ، لولا أن بادره الأمير طغاى وأمسك يده . ثم التفت السلطان إلى القاضى ابن مخلوف ، وقال : يا قاضى يتجرأ علىّ هذا ! ما الذى يجب عليه ؟ . » قال : « لم يقل شيئا يوجب عقوبة ! » فصاح السلطان فى وجه البكرى أن « أخرج عنى » . ثم أمر بقطع لسانه فصرخ البكرى وارتاع لصرخته الأمراء . ثم توسط له ابن الوكيل قائلا للسلطان : « إن البكرى عالم صالح ، ولكنه ناشف الدماغ » . قال صدقت وسكن غضبه وأمر بإخراجه . »

وبعد ، فهذه جملة من الحوادث أو المظاهر التى ترينا منزلة العلماء التى بلغوها بعلمهم وفضلهم ، ولا ريب أن تعظيم السلاطين والأمراء لهم ، له الأثر المباشر فى نفوسهم على أن يظلوا مجاهدين فى سبيل الدين ، حريصين على الشريعة مستزيدين من العلم والفضل ، باثين هذه الروح فى طلابهم وناشئتهم لينهجوا نهجهم ويلمحوا طريقهم وينسجوا على منوالهم .

٣ ـ شعور العلماء بواجبهم وتنافسهم فى أدائه

لما دالت دولة العلم فى بغداد والعراق . وأبيدت كتبه ومؤلفاته . وامتلك التتار هذه البلاد التى عاشت زمنا طويلا منارا للإسلام وكعبة للمسلمين ، واستشرى خطر الوثنية من ناحية ، والنصرانية من ناحية أخرى ، رأى العلماء أنهم إزاء مسئولية تاريخية كبرى ، تقتضيهم القيام بواجب نشر الدين وتجديد العلم ، وجمع شتات المعارف ، وتضمينها كتبا طارفة تكون عوضا عما أبيد ، وصدى لما فقد . ورأوا أنهم إذا لم يغذوا السير فى ميدان التدوين ، ولم يثبتوا بالتصنيف ما تعيه قرائحهم

وتحفظه صدورهم ، آثموا فى حق الدين والعلم إثما لا يغتفر ، وأحرجوا أمام التاريخ ؟ وألقيت على كاهلهم تبعة بتر السلسلة العلمية .

شعر العلماء بهذه المسئولية ورهبتها ، فامتلأت قلوبهم حماسة ، وفاضت نفوسهم تحفزا إلى القيام بالواجب الذى هيأته لهم الأقدار ، والاضطلاع بالمسئولية التى اختارتهم العناية لأدائها . فقاموا بذلك قياما مشكورا ، وسعوا إليه سعيا حميدا ، وأشاعوا حركة إحياء علمية جليلة ، على الرغم من كل الملابسات والعقبات التى تعوق النهوض وكان بينهم فى هذا المجال تنافس شديد كان له أثره المفيد فى هذا الإحياء ، وبخاصة فى ميدان التعليم والتأليف .

٤ ـ انصراف العناية إلى اللغة العربية

ولاشك أن مما عاون أهل العلم فى تلك الآونة عناية السلاطين باللغة العربية ، عناية اضطرتهم الظروف إليها اضطرارا . فأطلقوها تجرى كما شاءت لها الأقدار فى ضبط أمور الملك والسياسة والقضاء والعلوم . وذلك لعجز لغتهم التركية أو الجركسية عن أداء ما يتطلبه هذا الملك الواسع من ضبط وأمن وربط ، ونشر تعليمات وبعث مراسلات ، وكتابة تقاليد وقضاء وتشريع . وما ذلك إلا لأنها لم تتخذ من قبل فى عصر ما ، أداة للعلوم وتدوينها ، أو التأليف فيها ، كما اتخذت العربية . فتقاصرت همتها عن أداء حاجة العصر ، لأنها لغة فقيرة . ولا سيما إذا قيست باللغة العربية الفنية بمفرداتها وتراكيبها وطرق الأداء فيها ، ومصطلحاتها . فلقد سايرت الحركات العلمية منذ نشوئها فى العصر العباسى ، وكابدت التدوين والتأليف والترجمة ، واكتسبت من وراء ذلك خبرة وقدرة ومرانة فى التعبير عن الحقائق العلمية والمعلومات والنظريات العقلية كأدق ما تؤديه لغة .

هذا إلى أن التركية لم تكن لغة الشعب المصرى ولا الشامى ، إذ ذاك ، وإن كانت لغة سلاطينه وحكامه . والعربية لغة أهل العلم فيه بل وفى العالم الإسلامى أجمع تقريبا . فليس فى مكنة إنسان كائنا من كان ، أن يحول هذه الجموع الزاخرة عن

لسانها إلى لسان غيره ، إلا بإحدى الأعاجيب ، وهى التى لم يسكن للماليك بها خبرة[١]

ولو راحوا يضبطون شئون ملكهم بلغتهم لأعوزتهم حيل جمة وسنين عدة، حتى ينهضوا هذه اللغة القعيدة ، ولاحتاجوا لبذل المستحيل حتى تسوى خلقا آخر جديدا يصلح لحياة العلم والأدب .

لهذا كله لووا عنان الحاجة إلى طائفة المتعممين الذين تخرجوا فى اللغة والدين ، وبرعوا فى الإنشاء والترسل ، فاتخذوا منهم بطانة ووليجة وسايروا الحالة التى سار عليها بنو أيوب من قبلهم ، فأفسحوا مجال العمل والترقى فى ديوان الإنشاء وأعمال الكتابة والضبط، للنابغين من هذه الطبقة السالفة الذكر ، حتى كانت بين أيديهم إلى حد ما ، أسرار الدولة وتسيير أحوالها والبت فى شئونها . وفى ذلك كله ما فيه من التشجيع على الاشتغال باللغة وعلومها . وأكبر الظن أن السلاطين ما عنوا بفتح المدارس وإنشاء المساجد الجامعة وتقرير الدروس فيها إلا لضمان استمرار تخريج أفراد من هذه الطبقة العاملة ، التى يقع على كاهلها عبء كبير من أعباء الدولة وتصريف أمورها وضبط مشاكلها .

٥ - إنشاء دور التعليم ، ونظامها

لاشك أن إنشاء دور التعليم ، يعتبر سببا أساسيا وحيويا لتنشيط الحركة العلمية لما تضمه من مدرسين وطلاب . ولما يقرر فيها من دروس . وهى البيئات الطبيعية التى ينمو فيها العلم ويزدهر .

وتتمثل دور التعليم فى العصر الملوكى ، فيما أنشىء من مدارس ومساجد للمذاهب الأربعة ، وما شيد من خوانق وأربطة وزوايا للصوفية . وكان إلى جوار هذه المعاهد التعليمية مكاتب صغيرة متواضعة ملحقة بها ، تعنى بتعليم الصبية مبادىء القراءة والكتابة، وطرفا من العلوم الأولية وتحفيظ القرآن الكريم ، وتمهد للالتحاق بالمدارس الجامعة .

---

١ — اقتبسنا بعض هذه الفقرات من كتابنا : الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم

ونشير هنا أولا إلى أن هذه المعاهد كانت بمثابة جامعات علمية عظيمة الشأن. اعترف كثير من المستشرقين — كالسير وليم موير — أن الجامعات الأوربية الحديثة اقتبست منها نظمها. وفى رأيى أن جامعات أوربا وغيرها من جامعات العصر الحاضر، كثيرا مايجد طالب العلم فيها ضروبا من العقبات، وألوانا من الصعوبات، تقف حجر عثرة فى سبيل انتظامه فى سلكها. وتمنعه دون الأخذ بأسباب العلم الذى يشتاق إليه ويتطلع نحوه. وذلك كنفقات مالية أو رسوم معينة، وشراء كتب ومؤلفات مرتفعة الثمن، وكالشهادات الدراسية المشروطة، وغير ذلك.

لكن الجامعات المصرية فى عهد المماليك لم تكن لتفرض على طلابها مثل هذه العقبات. بل كانت أبوابها مفتحة، ومشايخها حضورا، يفيء إليهم الجاهل والعالم على السواء، والكبير والصغير، ويلازمهم طالب العلم فى غدوهم ورواحهم، ويطوف بهم ذو الرغبة فيه، سواء المدمن العاكف، والمتفكه المستطرف، وهكذا. وليس هناك من غرم ولا نفقة ولا إرهاق. بل كان المشايخ والطلاب معا يجدون من صنوف البر ألوانا شتى تعينهم على طلب العلم وحبه والاستمرار فيه، مما أوقف عليهم أو منح لهم وأهدى إليهم. وقد تزود المدارس بمساكن يأوى اليها شيوخها وطلابها[1] ونعترف أننا نشعر بما فى هذا النوع من التعليم من الفوضى والاضطراب، وعدم النظام وقلة الدقة المطلوبة فى التعليم. كاختلاط الطلاب، الكبير منهم مع الصغير، والمجد مع الخامل، وكانعدام الامتحانات التى تظهر الكفاءة، وعدم التقسيم المدرسى الذى يقسم الطلاب إلى سنوات دراسية حسب كفايتهم العلمية. وغير ذلك مما يراعى فى نظم التعليم الحديث.

وكان قصارى الطالب أن يدأب على تحصيل العلم حتى يأنس فى نفسه القدرة على التصدى للفتيا أو التدريس أو الوعظ أو التأليف أو ما شاكل ذلك. فيتصدى لذلك لما أنس فى نفسه، فإذا أجاد وأفاد، ذاع ذكره وشاع وملأ البقاع. وأصبح

---

(١) انظر فى خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٠٥ ما كتبه عن المدرسة النهائية

شيخا يشار إليه بالبنان ، وهذا على نحو ما كان متبعاً فى الأزهر قبل إنشاء الشهادات الدراسية والامتحانات السنوية حديثا .

ومن الحق علينا لأولئك العلماء من أهل ذلك العصر أن نذكر أن بعضهم تصدى للفتيا أو التدريس وهو فى سن العشرين أو أقل .

ومهما يكن من شىء فإن هذا الضرب من التعليم له مزايا لا يستهان بها ، منها ترك الطالب لميله الخاص وقدرته الشخصية وكفاءته العلمية ، ليختار وحده شيخه وكتابه . فإذا سلك السبيل وبلغ الغاية ، سما قدره وبزغ نجمه ، وإلا نكص على عقبه فعاود طلب العلم أو انحرف إلى حرفة .

وكان ثمة مايشبه الشهادات الدراسية الحديثة . وأعنى بذلك ماسماه أهل العصر « الإجازات العلمية » ، وهى شهادات شخصية يمنحها أحد أعلام العلماء لأحد طلابه ويشهد فيها أن الطالب المذكور قرأ عليه كتاب « كذا » قراءة فهم وتدبر ومعرفة . أو أنه مهر فى الفقه مثلا وأصبح أهلا للفتيا ، وأنه أجازه بها . أى صرح له بمزاولتها . أو أنه برع فى الأدب وأصبح كفئا لرواية كتاب فيه أو ديوان . أو أنه سمع عنه جملة من أحاديث الرسول عليه السلام ، ورواها عنه بسندها ، وحفظها بهذا السند ، وأنه أجاز له روايتها عنه ، باعتباره حافظا جديدا من حفاظها .[1]

وقد كان يعين ـ عادة ـ لكل مادة مقررة ، شيخ ـ أستاذ ـ فيتعدد الأساتذة فى المسجد الواحد بتعدد ماقُرر فيه من المواد . وعُرف بجوار ذلك نظام الاعادة ، فكان لبعض الأساتذة معيدون يعاونونهم فى عملهم الشاق . ويرقى المعيدُ من بعدُ فيصير أستاذا ، فهو أقل منزلة من الأستاذ . ومما يشعر بذلك مايلى :

قال التاج السبكى فى طبقاته ـ ج ٥ ص ٢ فى ترجمة علم الدين القمى المتوفى فى عام ٦٨٦ هـ بالقاهرة : « إنه كان معيدا بالمدرسة الظاهرية . »

وقال ابن دقماق فى كتابه « الانتصار » ج ٤ ص ٩٦ عند الكلام عن المدرسة

---

١ ـ انظر تراجم العلماء بعد ، واقرأ ترجمة السيوطى لنفسه فى حسن المحاضرة

الطيبرسية التى أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى عام ٧٠٩ هـ مانصه :

« ثم وقفها مدرسة للفقهاء الشافعية والمالكية ، يُجلسون الشافعية فى الإيوان الغربى ، والمالكية فى الإيوان الشرقى . ورتب من كل مذهب مدرساً ومعيدا وخمسة عشر طالبا . وقرن الإمامة لمعيد الشافعية ، والمنزلين علوها للمدرسين . وعمر مكتبا للسبيل وشرط لكل مدرس ستين درهما . ولمعيد الشافعية الإمام فى كل شهر أربعين درهما ، ولمعيد المالكية فى الشهر أربعين درهما » .. الخ.[1]

ونستطيع أن نفهم مما يذكره المؤرخون فى سياق حديثهم عن علماء هذا العصر أن ثمة نظاما فى إلقاء الدروس ، يشبه نظام المحاضرات المتبع فى الجامعات الحديثة ، فقد كان بعض العلماء « يُملى مجالسه » على طلابه . قال السيوطى فى حسن المحاضرة - ج ١ ص ١٦٨ - عن الحافظ العراقى المتوفى عام ٨١٦ هـ : « إنه أحيا الله تعالى به سنة الإملاء . وإنه شرع فى إملاء الحديث . وإنه أملى أكثر من أربعمائة مجلس » .

وقال أيضا - ج ٢ ص ١٧٠ - عن ابن حجر العسقلانى المتوفى عام ٨٥٢ هـ : « إنه أملى ألف مجلس . »

ومعنى الإملاء بلغة عصرنا الحديث ، محاضرة الطلاب ومشافهتهم ، وهم يكتبون .

وعلينا أن نشير - وأشرنا[2] من قبل - إلى أن سياسة التعليم وافتتاح المدارس لم تكن سياسة ثابتة للدولة . وإنما هى سياسة فردية مرتجلة مقيدة برغبة السلطان أو الأمير ، الرغبة العارضة الطارئة التى يدفع إليها - عادة - حب الظهور أو الزلفى إلى الله ، أو الإبقاء على بعض الممتلكات بوقفها على المدرسة المنشأة أو نحو ذلك . ومن المؤسف أن بعض المدارس كانت تعيش بمعيشة منشئها يرعاها ويكفلها ويعنى بشئونها ، فإذا مات ، لحقها البوار ، ولعبت يد العبث فى أوقافها ، وانتابها الإهمال من كل مكان ، حتى يعفى أثرها ويزول خبرها .

---

(١) انظر أيضا ما كتبه المقريزى عن المدرسة الصالحية ، خطط ج ٤ ص ٢٠٩

(٢) اقرأ ما كتبناه عن التعليم فى كتابنا هذا ج ١ قسم ٢ ص ٢٩٨

ويرجع الفضل فى تأسيس المدارس فى مصر إلى الفاطميين، فإنهم بنوا الجامع الأزهر، ثم جامع الحاكم، وأقاموا المجالس التى تدرس فيها مذاهبهم الدينية. وقفى على آثارهم صلاح الدين الأيوبى ورجال أسرته من بعده، فافتتحوا عددا كبيراً من المدارس، وإن أتوا على مذهب الفاطميين الشيعى، ومكنوا لمذاهب أهل السنة.

وقد اقتدى المماليك بهؤلاء وهؤلاء، فاستبقوا كثيراً مما أسسه أسلافهم، وأخذوا، جيلا بعد جيل، فى إنشاء عدد جديد من دور التعليم حتى امتلأت بها القاهرة على رحبها. وكذلك الإسكندرية. ومنها ما أنشأه السلاطين أو الأمراء أو العلماء والرؤساء.

ولم يقتصر إنشاء دور التعليم الجامعة على العاصمة والثغر، بل أنشىء عدد منها فى المدن المصرية الأخرى، فكانت كلها بيئات علمية جليلة تخرج فيها كثير من أفذاذ العلماء.

قال ابن دقماق فى كتابه «الانتصار» ـ ج ٥ ـ يذكر المدارس المصرية المنشأة فى غير القاهرة والإسكندرية، ما ملخصه:

«كان فى منية بنى خصيب مدارس للشافعية والمالكية. وفى ميرو القوصية مدرستان. وفى منفلوط عدة مدارس. وفى أسيوط عدة مدارس، وفى بوتيج عدة مدارس. وفى إخميم عدة مدارس. وفى سوهاج عدة مدارس، وفى قوص ستة عشر مكانا للتدريس. وفى إسنا مدرستان. وفى الأقصرين مدرسة. وفى أسوان ثلاث مدارس. وفى بلبيس مدارس. وفى دمياط عدة مدارس. وفى المحلة عدة مدارس. وفى دمنهور عدة مدارس، وفى رشيد كتاب للأيتام».

وإذا أضفنا إلى عدد هذه المدارس التى تدرس بها المذاهب الأربعة والحديث وغيرها من العلوم الشرعية والعربية، ما أنشىء من الزوايا والربط والخوانق التى كانت مباءات للصوفية وعلومها، وجدنا أمامنا عددا ضخما من المعاهد العلمية المختلفة الألوان.

قال أمين باشا سامى فى كتابه تقويم النيل : ج ١ ص ٢٠٢ ، « وبمجموع ماشيده حكام مصر للتعليم من أول الفتح الإسلامى إلى عصر المقريزى وابن دقماق ، من مدارس وجوامع ومساجد وزوايا وربط وخوانق ١٥٥ » .

وقد توفى ابن دقماق فى عام ٨٠٨ هـ ، وتوفى المقريزى عام ٨٤٥ هـ ، وقد أنشىء من بعدهما عدد جديد من دور التعليم ، فقد أنشأ الغورى مثلا جامعه ومدرسته بالشرابشيين وأنشأ قايتباى من قبله مدرسة بالإسكندرية . غير مدارس كثيرة أخرى أنشأها فى أماكن متعددة كبيت المقدس ، ومكة ، ودمشق .

ولا ننسى بهذه المناسبة أن نذكر أن حكام مصر لم يقتصروا فى إنشاء المدارس والمساجد فى الأرجاء الأخرى من أمبراطوريتهم الواسعة كبلاد الشام والحجاز . وأن التعليم فيها كان يسير على نمط من التعليم فى مصر .

هذا . وقد جرت العادة بافتتاح المدارس باحتفال يتفاوت فى عظمته وأبهته بتفاوت أقدار المؤسسين . فيتقدم السلطان أو الأمير المنشىء مثلا ، فى ركب ، ويتصدر مجلسا بالدار المفتتحة ، ويشرع أحد شيوخها فى إلقاء درسه فقها أو حديثا . ثم تمنح المنح وتهدى الهدايا ، وتمد الموائد . وقد يلقى بعض الشعراء أبياتا مناسبة للمقام . وسنشير إلى شىء من ذلك بعد .[١]

وقد عنى ابن دقماق والمقريزى والسيوطى وابن إياس ، بذكر المساجد ودور التعليم من أول إنشائها إلى عهدهم ، على اختلاف بينهم فى طريقة العرض . ونحن هنا ننقل عنهم أخبار بعض هذه المدارس على سبيل المثال . وبخاصة مابنى منها فى العصر المملوكى ، أو ظل على ازدهار الدراسة فيه إلى العصر المذكور ، مهتمين بذكر أخبارها فى هذا العصر أكثر من سواه . معتمدين فى أكثر ماننقل على ما دونه المقريزى فى خططه[٢] . فنقول :

---

(١) انظر المدرسة الظاهرية والأقبغاوية والصرغتمشية ومدرسة الأمير جمال الدين

(٢) اعتمدنا فى أخبار هذه المدارس على الخطط المقريزية ج ٤ ، لذلك اكتفينا بذكر أرقام الصفحات من هذا الجزء . وإذا نقلنا عن غيره نصصنا عليه .

١ — جامع عمرو:

أسسه عمرو بن العاص فاتح مصر، عام ٢١ هجرية فى الفسطاط. ولا يزال ماثلا فيها حتى اليوم. وعنى بأمره منذ تأسيسه كثيرون من ولاة مصر وقضاتها وأمرائها وسلاطينها. وهو أول مسجد أسس بالديار المصرية، ويقال له أيضا: الجامع العتيق.

وممن عنى به فى عصر المماليك: القاضى تاج الدين بن بنت الأعز، فقد أصلح ما مال منه، وهدم بعض غرفه وأبطل فسقيته التى كان الماء يصل إليها من النيل، بحجة أن ماءها المجلوب يضر بجدران المسجد. ومنهم السلطان الظاهر بيبرس، فقد أمر بترميم ما تهدم منه وتجديد بعض أجزائه ومحتوياته وذلك فى رجب عام ٦٦٦ هـ. ومنهم السلطان المنصور قلاوون، فقد جدده فى عام ٦٨٧ هـ. ومنهم الأمير سلار نائب السلطنة، فقد جدده عقب زلزال عام ٧٠٢ هـ. وجدده كذلك رئيس التجار برهان الدين إبراهيم بن عمر عام ٨٠٤ هـ فى عهد الظاهر برقوق.

هذا، وقد سعدت مصر منذ إنشاء هذا الجامع بضروب من الدراسات الدينية واللغوية والأدبية. وتخرج فيه كثير من البلغاء والأدباء.

وتجد حديثا ممتعا عنه فى الخطط ج ٤ ص ٤، وحسن المحاضرة ج ١ والانتصار ج ٤.

٢ — جامع ابن طولون [١]

هو الجامع المشهور بالقاهرة، فى طريق العابر بين حى السيدة زينب والقلعة بناه أحمد بن طولون بالقطائع عام ٢٦٣ هـ. وفرغ من بنائه عام ٢٦٦ هـ. وقد لبث هذا الجامع منارة كبرى تشع نور العلم والعرفان فى مصر زمنا طويلا.

وممن عنى به فى العصر المملوكى: السلطان لاچين، فإنه قبل سلطنته عام ٦٩٦ هـ قتل الأشرف خليل بن قلاوون سلطان البلاد، ثم هرب واختفى فى منارة هذا الجامع،

---

١ — يوجد عن هذا الجامع كلام طويل فى كل من حسن المحاضرة والخطط المقريزية. وفصل ابن دقماق فى «الانتصار» ج ٤ ص ١٢٢ الحديث عنه وعن عمارته والاستاذ محمود عكوش كتاب مطبوع سنة ١٣٤٦ هـ. ومنه نسخة بدار الكتب المصرية — تكلم فيه عنه وعن ابن طولون وخرومه.

فنذر لله إن نجاه من هذه الفتنة ليعمرنه . فنجاه الله ، وآلت إليه سلطنة مصر . فأمر بتجديد هذا الجامع ، وفوض هذا الأمر إلى الأمير علم الدين سنجر الزينى ، فعمره . ووقف عليه لاچين أو قافا ثمينة . ورتب فيه دروس التفسير والحديث والفقة ، على المذاهب الأربعة ، والقراءات والطب والميقات .

قال ابن دقماق « إن لاچين وقف على هذا الجامع وقفا يختص بالديكة تكون على سطحه فى مكان مخصوص بها لتعين المؤذنين على الأوقات » . ونقل السيوطى عنه ذلك .

وممن قام فيه بتدريس الطب : شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى المتوفى عام ٧٧٦ هـ .

وممن تولى نظره بعد تجديده : الأمير علم الدين سنجر العادلى دوادار السلطان لاچين . ثم وكل أمره إلى القضاة . وممن تولاه منهم : بدر الدين بن جماعة ، آنا ، وعز الدين بن جماعة آنا آخر . وبعد مدة وكل أمره ثانية إلى الأمراء فتولاه : الأمير صرغتمش ، ثم الجاى اليوسفى ، ثم قطلوبغا الصفوى . ثم عادت وكالته إلى القضاة مرة أخرى .

(٣٦ — وحسن المحاضرة . ج ١ ص ٢٦٢ - والانتصار ج ٤ ص ١٢٢)

٣ — الجامع الأزهر

هو ذلك الطود الأشم والحصن المنيع ، والركن المتين ، والعضو القوى الذى وجد فيه الدين الحنيف واللغة العربية أكبر معين على البقاء . وكما شاء الله أن تقوم القاهرة مقام بغداد بعد محنتها عام ٦٥٦ هـ ، فيحيا فى ربوعها العلم والدين واللغة ، شاء أيضا أن يقوم الأزهر وسطها ، ويبقى حقبا طويلة منارا للدين ، وحياة للغة ، حتى بعد محنة القاهرة عام ٩٢٣ هـ . وظل وصلة صالحة بين علم الماضين ، وعلم الحاضرين .

وقد بناه جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى ، أثناء بناء القاهرة .

وبُدىء فى ذلك البناء فى يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى عام ٣٥٩ هـ ، وتم بناؤه فى رمضان عام ٣٦١ هـ ، وصليت به أول جمعة لسبع خلون منه .

وقيل إن الفضل فى بنائه يعود إلى جوهر . فهو صاحب الاقتراح بذلك أغرى به سيده المعز ليكون لها أثرا خالدا يذكر الناس بها أبد الدهر ، وليتنافسا به جامع عمرو ، وجامع ابن طولون . وليكون مثابة يفد إليها المتشيعون يدرسون مذهبهم على علمائه . ومباءة تنتشر منها جراثيم هذا المذهب فى أرجاء البلاد .

وظل الجامع الأزهر يقوم برسالته العلمية فى عهد الفاطميين ، وإن شابها مذهب التشيع ، حتى آل الأمر إلى الأيوبيين . فأبطل صلاح الدين خطبة الجمعة فيه اكتفاء بها فى جامع الحاكم ، وأبطل تدريس المذهب الشيعى ، وظل الجامع مفتوحا لما عدا ذلك من صلاة ودراسة .

والجامع الأزهر ثالث المساجد العظيمة التى بنيت بمصر بعد الفتح العربى . وقد عنى به كثير من خلفاء الفاطميين وسلاطين آل أيوب والمماليك وأمرائهم ، لما ناله فى عالم الدراسة من سمعة طيبة ، ولما حازه من مركز دينى عظيم . وقد أكسبه موقعه وسط القاهرة وعلى مقربة من مساكن الأمراء والرؤساء حينذاك أهمية كبرى ، إذ صرفوا إليه كثيرا من عنايتهم . وله فى التاريخ الحديث مكانة حافلة إذ تحول إلى جامعة دينية علمية إسلامية كبرى . ومن مظاهر العناية به فى العصر المملوكى ما يلى :

١ — فى سنة ٦٦٥ هـ جدده الأمير عز الدين إيدمر الحلى ، بعد استئذان السلطان الظاهر بيبرس ، فاكتتبوا واكتتب معهم كثير من الأعيان بطائفة من المال . فأقيمت جدره الواهية ، وأعلى سقفه وطلى وفرش . وبنيت به مقصورة ، ورتب بعض الدروس الدينية . وأعيدت إليه صلاة الجمعة وخطبتها ، بناء على رغبة من السلطان ، وفتوى من قاضى قضاة الحنفية ، بعد عطله من الخطبة نحوا من مائة عام ، بناء على أمر صلاح الدين الأيوبى ، وفتوى قاضيه الشافعى صدر الدين بن درباس .

٢ — وفى سنة ٧٠٢ هـ . أصاب مصر زلزال شديد تهدم على أثره بعض المساجد

فهب الأمراء يتقاسمون إصلاحها . فكان إصلاح الأزهر من نصيب الأمير سيف الدين سلار ، فجدد مبانيه .

٣ — وفى سنة ٧٦١ هـ ، فى عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، استأذنه الأمير سعد الدين بشير الجمدار الناصرى فى إصلاح الأزهر ، فنزع كثيرا من مقاصيره التى كانت قد ضيقت من سعته ، وأقام جدرانه وسقفه وبيضه وبلطه ، حتى عاد جديدا . وأنشأ ببابه القبلى موردا ومكتبا يحفظ به الأيتام القرآن الكريم . وخصص طعاما يوميا لفقراء المجاورين به ، وأقام شيخا يدرس فقه الأحناف للطلاب . ثم أوقف على ذلك كله أوقافا واسعة .

٤ — ومنذ عام ٨٠٠ هـ ، فى عهد السلطان برقوق وابنه فرج ، أقيمت منارته عدة مرات . وبنى له صهريج للمياه وميضأة .

٥ — وفى عام ٩٠١ هـ ، أنشأ الأشرف قايتباى ميضأة جديدة فى وسطها حوض بديع وموردا للماء ومكتبا .

٦ — وفى عام ٩٠٢ هـ أنشأ الأشرف الغورى منارته ذات الرأسين ، ومنحه كل سنة ٦٧٠ دينارا و ١٠٠ قنطار من العسل و ٥٠٠ إردب من القمح .

وقد ازدهرت الدراسة فى الجامع الأزهر فى عصر المماليك أيما ازدهار ، لما وهبوا له من عناية ، وما أغدقوا عليه من أرزاق . لذلك أمه كثير من الطلاب على اختلاف أوطانهم . وكانوا عنه لسان صدق ، ورسل حق ، إذا عادوا إلى بلادهم ذكروا بالخير مصر وسلاطينها ، وكسب الجامع شهرة عظيمة من وراء ذلك ، ينعم بالتمتع بها حتى اليوم ، ويجهد فى المزيد منها .

وأهم ما كان يدرس به علوم الدين ومذاهبه الأربعة والحديث واللغة والأدب والوعظ . وتخرج فيه كثير من الفطاحل . ومما يذكر أن السلاطين كانوا يلون أمره بأنفسهم ، ويعنون بانتقاء شيوخه ومدرسيه وخطبائه ، وكثيرا ما كانوا يؤمونه لأداء صلاة الجمعة .

ولا بأس من إيراد بعض ما رواه المقريزى عنه ، قال ما يفهم منه أنه حتى عام ٨١٨ هـ كان بهذا الجامع عدد كبير من الفقراء المنقطعين لطلب العلم يبلغ عددهم ٧٥٠ رجلا ، وهم ما بين عجم وزيالعة ، ومن أهل ريف مصر ومغاربة . ولكل طائفة رواق يعرف بهم .

وقال : « فلا يزال هذا الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه . والاشتغال بأنواع الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر » .

وقال : « يجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس مالا يجده فى غيره . وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى . وكل قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات ، لاسيما فى المواسم » .

(٤٩ - حسن المحاضرة . ج ٢ ص ١٥٤)

٤ - جامع الحاكم :

أسسه العزيز بالله الفاطمى ، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله . وتمت عمارته فى عام ٣٩٣ هـ ، وأوقف عليه الحاكم بأمر الله أوقافا واسعة وأسواقا .

ولما تهدم إثر زلزلة عام ٧٠٢ هـ جدده الأمير « بيبرس الجاشنكير » ورتب فيه دروسا على المذاهب الأربعة . ودرسا فى الحديث ، ودرسا فى النحو ، ودرسا فى القراءات . ووقف عليه أوقافا عدة وكان بجانبه مكتب لتعليم الأيتام وتحفيظهم القرآن الكريم .

ص ٥٥

٥ - المدرسة الصلاحية :

أنشأها صلاح الدين الأيوبى عام ٥٧٢ هـ بجوار قبة الشافعى . وجعل بها مدرسين ومعيدين . وبلغ عدد المعيدين بها أحيانا عشرة . وقد عاشت هذه المدرسة فى العصر المملوكى مدة طويلة .

(حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٧)

٦ - المدرسة القمحية :

أنشأها صلاح الدين الأيوبى بجوار جامع عمرو ، عام ٥٦٦ هـ ، وخصصت

لفقهاء المالكية وهى أفضل مدارسهم . وعرفت بالقمحية نسبة إلى ما كان يرسل من القمح إلى فقهائها ، من ضيعتها الموقوفة عليها بالفيوم . وعند إنشائها أوقفت عليها الأوقاف ، ورتب عليها المدرسون . قال المقريزى : « وقد أحاط بها الخراب ، ولولا ما يتحصل منها للفقهاء لدثرت . » وفى شعبان عام ٨٢٥ هـ أخرج السلطان الأشرف برسباى بعض أوقافها عنها .

(ص ١٩٣ - الانتصار ج ٤ ص ٩٥)

٧ - مدرسة العادل أو مدرسة ابن شاس :

أنشأها الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، أخو صلاح الدين الأيوبى . وهى من مدارس المالكية . وممن درس بها قاضى القضاة تقى الدين بن شاس ، قال المقريزى « فعرفت به . وقيل لها مدرسة ابن شاس إلى اليوم . وهى عامرة » .

ص ١٩٥

٨ - المدرسة السيوفية :

أسسها صلاح الدين الأيوبى ، وتقع بالقاهرة بجوار سوق السيوفيين ، فعرفت بالسيوفية : « قال المقريزى : « وهذه المدرسة هى أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر ، وهى باقية بأيديهم »

ص ١٩٧

٩ - المدرسة الفاضلية :

أنشأها بدرب ملوخيا بالقاهرة ، القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى ، الكاتب المنشىء المشهور ، بجوار داره ، عام ٥٨٠ هـ . ورتب فيها دروسا للقراءات وفقه الشافعية والمالكية . وأوقف عليها نحو مائة ألف مجلد فى مختلف العلوم . وظلت مفتحة الأبواب فى عصر المماليك ، حتى وقع النلاء عام ٦٩٤ هـ فى عهد السلطان كتبغا المنصورى . فعبث طلابها ومدرسوها بما أوقف عليها من الكتب ، دفعا للحاجة . قال المقريزى « وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها . وقد تلاشت لخراب ما حولها » .

ص ١٩٧

١٠ ـ المدرسة الصالحية :

كانت تقع بخط بين القصرين [١] بالقاهرة . أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ابتداء من سنة ٦٣٩ هـ . وتتكون من أربع مدارس معا ، واحدة لكل مذهب من المذاهب الأربعة . وهى أول مدرسة أنشئت على هذا النمط . وأوقف عليها منشؤها أوقافا .

وقد اهتم بشأنها فى العصر المملوكى الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ابن الظاهر بيبرس ، وأضاف إليها أوقافا جديدة بنواحى متعددة ، منها أماكن بالقاهرة والجملة بالغربية ، وبالجيزة . ورتب بها أربعة من المدرسين ، لكل مدرس معيدان وعدة طلبة . وعين له جميع من يحتاج إليهم من خدم دائمة ومؤذنين وذلك فى عام ٦٧٧ هـ . قال المقريزى : وهى جارية فى وقفها إلى اليوم » .

وممن اهتم بها الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك . إذ رتب لها جمال الدين الغزاوى خطيبا بقسم الشافعية وجعل له فى كل شهر خمسين درهما . وأضاف إليها أوقافا جديدة وذلك فى عام ٧٣٠ هـ . قال المقريزى : « فاستمرت الخطبة هناك إلى يومنا هذا » .

والسيوطى (٩١١ هـ) قال عن هذه المدرسة نقلا عن المقريزى : « وهذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة إلا أنها قد تقادم عهدها فرثت » . ولم نجد العبارة المذكورة فيما رواه المقريزى . ونعتقد أن السيوطى نقلها عنه فيما رواه فى الخطط عن المدرسة الظاهرية ، التى نذكرها بعد . كما نقل عنه فى أخبار تلك المدرسة « الصالحية » أنباء افتتاح « الظاهرية » ، وما أنشد فيه من الشعر ، على اعتبار أنه قيل فى افتتاح الصالحية . والمقريزى هنا أوثق وأصدق لسبقه على السيوطى ولأن السيوطى ينقل عنه .

ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ـ حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٩

(١) كتب المقريزى فصلا ممتعا عن هذا الخط فى الخطط ج ٣ ص ٤٤ ، وذكر عنه أنه كان ملهى من ملاهى القاهرة يكثر فيه الزحام كثرة مضنية للمارة وأن الناس كانوا يسيرون فيه إلى يسارهم دائما تلافيا للاصطدام ، وظل زمنا على هذا الحال إلى عصر المؤلف .

١١ ـ المدرسة الكاملية :

كانت منشأة بخط بين القصرين كذلك . أسسها الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن العادل الأيوبى فى سنة ٦٢٢ هـ . وتعرف بدار الحديث ، وهى ثانية الدور التى بنيت لرجال الحديث بخاصة . والأولى بناها العادل نور الدين بن زنكى بدمشق .

وقد أوقف الملك الكامل على هذه المدرسة أوقافا عدة وظلت عامرة برجالها وبطائفة من المدرسين المشتغلين بالحديث حتى عام ٨٠٦ هـ . ومنذ ذلك العام ولى أمرها من لم يحسن القيام به ، فأخذت فى الزوال . ص ٢١١

١٢ ـ المدرسة المعزية : عمرها السلطان عز الدين بن أيبك الجاشنكير أول ملوك الدولة البحرية وذلك عام ٦٥٤ هـ ، ودرس بها الصاحب برهان الدين السنجارى ثم شمس الدين الجزرى ثم نجم الدين أحمد بن الرفعة ثم جمال الدين بن الزرعى .

الانتصار ج ٤ ص ٩٢

١٣ ـ المدرسة الظاهرية :

كانت منشأة بخط بين القصرين أيضا . ومنشؤها الملك الظاهر بيبرس البندقدارى . قال المقريزى : « ابتدئ فى عمارتها فى ٢ ربيع الآخر سنة ٦٦٠ هـ . وقال السيوطى فى سنة ٦٦١ هـ . واتفقا على أن بناءها قد تم فى سنة ٦٦٢ هـ .

ويسميها السيوطى « المدرسة الظاهرية القديمة » تمييزا لها عن « المدرسة الظاهرية » التى أنشأها الملك الظاهر برقوق عام ٧٨٦ هـ .

وقد عنى الظاهر بيبرس بهذه المدرسة أكبر عناية . وأوقف عليها أوقافا كثيرة وألحق بها خزانة كتب جليلة تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم . وبنى بجانبها مكتبا لتعليم الأيتام القرآن الكريم وأجرى عليهم الطعام والشراب . ورتب بها دروسا فى المذاهب الأربعة والقراءات .

وعندما تم تشييدها افتتحها بيبرس باحتفال شائق ، تناظر فيه العلماء ، وتبارى الشعراء ، ومدت الموائد الحافلة . وكان شعراؤها ثلاثة : أبو الحسين الجزار ، والسراج الوراق . وجمال الدين يوسف بن الخشاب .

فقال الجزار :

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى ... ومن يتغالى فى الثواب وفى الثنا
لقد ظهرت للظاهر الملك همة ... بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنى
تجمع فيها كل حسن مفرق ... فراقت قلوبا للأنام وأعينا
ومذ جاورت قبر الشهيد فنفسه ... القية منهـا فى سرور وفى هنا
وما هى إلا جنة الخلد أزلفت ... له فى غد فاختار تعجيلها هنا

ومن أبيات الوراق :

مليك له فى العلم حب وأهله ... فلله حب ليس فيه ملام
فشيدها للعلم مدرسة غدا ... عراق إليها شيق وشآم
ولا تذكرن يوما نظامية[1] لها ... فليس يضاهى ذا النظام نظام
ولا تذكرن ملكا فبيبرس مالك ... وكل مليك فى يديه غلام
ولما بناها زعزعت كل بيعة ... متى لاح صبح فاستقر ظلام ؟
وقد برزت كالروض فى الحسن أنبأت ... بأن يديه فى النوال غمام
ألم تر محراباً كأن أزاهرا ... تفتح عنهن الغداة كمام

وقال جمال الدين يوسف بن الخشاب :

قصد الملوك حماك والخلفاء ... فافخر فإن محلك الجوزاء
أنت الذى أمراؤه بين الورى ... مثل الملوك وجنده أمراء
ملك تزينت الممالك باسمه ... وتجملت بمديحه الفصحاء
وترفعت لعلاه خير مدارس ... حلت بها العلماء والفضلاء
يبقى كما يبقى الزمان وملكه ... باق له ولحاسديه فناء
كم للفرنج وللتتار ببابه ... رسل مناها العفو والإعفاء

---

١ ـ يشير الشاعر إلى المدرسة النظامية المشهورة ببغداد .

وطريقة لبلادهم موطوءة وطريقهم لبلاده عذراء
دامت له الدنيا ودام مخلدا ما أقبل الإصباح والإمساء

فلما فرغوا من إنشادهم أفيضت عليهم الخلع .

قال المقريزى : « وهذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة ، إلا إنها قد تقادم عهدها فرثت : وبها إلى الآن بقية صالحة ونظرها تارة يكون بيد الحنفية ، وأحيانا بيد الشافعية . ويتنازع فى نظرها أولاد الظاهر فيدفعون عنه ولله عاقبة الأمور »

ص ٢١٦ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٠

١٤ — المدرسة المنصورية :

كانت بخط بين القصرين أيضا . أنشأها تجاه المارستان داخل بابه ، الملك المنصور قلاوون ، على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . ورتب بها دروسا فى المذاهب الأربعة ، ودرسا فى الطب ، كما رتب بقبته المجاورة لهذه المدرسة درسا فى الحديث ، ودرسا فى تفسير القرآن الكريم ، وميعادا للوعظ . وعُنى باختيار مدرسيها عناية تامة . وزودت بخزانة كتب .

قال السيوطى : « وقد مدحه الشرف البوصيرى لذلك بقصيدة أولها :

أنشأت مدرسة ومارستانا لتصحح الأديان والأبدانا

ويبدو أنها كانت فى أيام المقريزى على غير ما يُرجى لها وتولى أمرها من ليس قمينا به قال :

وكانت هذه التداريس لا يليها إلا أجل الفقهاء المعتبرين . ثم هى اليوم كما قيل :

تصدر للتدريس كل مهوس بليد يسمى بالفقيه المدرس
فحق لأهل العلم أن يتمثلوا ببيت قديم شاع فى كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

ومما يذكر أن الأمير أرغون العلائى زوج أم الملك الصالح إسماعيل بن الناصر

ابن قلاوون ، رتب بالعتبة المنصورية أيضاً دروسا فى المذاهب الأربعة ، عرفت بدروس وقف الصالح . وذلك أن الصالح المذكور أراد بناء مدرسة فمات قبل أن يبلغ مأربه . فاستبدل بها زوج أمه الأمير أرغون ، هذه الدروس فى القبة . وأوقف عليها أوقافا . وزاول قضاة القضاة تدريس هذه الدروس زمنا ، ثم زاوله غيرهم .

ص ٢١٨، ٢١٩ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٠

١٥ — المدرسة الصاحبية البهائية :

كانت بزقاق القناديل بمصر قرب جامع عمرو بن العاص . أنشأها الوزير الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن حنا عام ٦٥٤ هـ . وكان زقاق القناديل إذذاك أكثر أحياء مصر عمرانا وسكانا ، وكان يسكنه الأشراف ويعلقون القناديل على أبواب منازلهم . وقد توفى هذا الوزير فى مستهل ذى الحجة عام ٦٧٧ هـ بعد أن وقف على مدرسته جملة أوقاف . وخصص لها خزانة كتب ثمينة .

وأول من درس بهذه المدرسة الصاحب فخر الدين محمد بن الوزير بهاء الدين ، وعدد آخر من أبنائه ، ووليها أبناؤه أيضاً بالنظر ابنا بعد آخر حتى عام ٨١٣هـ. وفى العام المذكور توفى آخر من وليها منهم وهو شمس الدين محمد بن بهاء الدين ، فاستولى بعض نواب القضاة على مابقى لها من وقف ، ولم ترع مصالحها فعطلت الدراسة بها ، وبعثرت خزانة كتبها ، وأخذ أمرها فى الزوال .

قال المقريزى : « وكانت من أجل مدارس الدنيا وأعظم مدرسة بمصر ، يتنافس الناس من طلبة العلم فى النزول إليها ، ويتشاحنون فى سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة ، ثم تلاشى أمرها »

ص ٢٠٥

١٦ — القبة المنصورية .

كانت تجاه المدرسة المنصورية السالف ذكرها ، داخل المارستان المنصورى بخط بين القصرين بالقاهرة . بناها المنصور قلاوون وجعلها خاصة لنفسه ، وأبدع ماشاء فى زخرفتها . وقد أعدت لتكون مقبرة له . ودفن بها هو وبعض أبنائه . وكان ابتداء عمارة المارستان والقبة والمدرسة عام ٦٨٢ هـ

وقد رتبت فى هذه القبة دروس للفقهاء على المذاهب الأربعة ، ودرس فى الحديث ، وآخر فى التفسير ، ودروس فى الوعظ ، وعدة من المدرسين والمعيدين والقراء ، وزودت بخزانة كتب عظيمة الشأن . وأسس بجوارها مكتب لتحفيظ القرآن الكريم . وأوقفت على ذلك كله أوقاف عدة مختلفة ، وأجريت المرتبات على موظفيها . وكذلك عنى بتزويدها بما تحتاج إليه من أدوات وأثاث وما إلى ذلك

٤ خطط ص ٢١٨ ، ٢٦١

١٧ ـ المارستان المنصورى :

كان يقع بين القصرين . بناه المنصور قلاوون عام ٦٨٢ هـ . وهو بناء ضخم فسيح الأرجاء يحتوى على مستشفى للمرضى ومدرسة للطب . وهو من أعظم المؤسسات التى خلدت ذكر المنصور ، ومن أهم دور التعليم بمصر حينذاك . ويندر أن تجد له نظيرا فى تلك العصور الخالية .

وقد أنفق المنصور فى سبيل انشائه هو والمدرسة والقبة أموالا طائلة . وأوقف عليها نحو ألف ألف درهم سنويا .

ويقال فى سبب إقدام المنصور على بنائه ، أنه توهم مرة أن العامة خالفت أمره ، فأطلق فيهم مماليكه ، فأثخنوا فيهم وقتلوا وجرحوا ماشاءوا ثلاثة أيام . ثم كف عنهم بشفاعة بعض العلماء . وعاد فندم وقدم ، هذا المارستان قربانا لله تكفيرا عن ذنبه . ويقال إنه لما مرض فى بلاد الشام حينما كان أميرا بها على عهد الظاهر بيبرس ، عولج بأدوية جلبت من مستشفى نور الدين ، ثم شفى . فنذر لله إن آتاه الملك أن يبنى مارستانا .

وكان هذا المارستان ينقسم إلى جملة أقسام : منها قسم للحميات ، وآخر للرمد ، وآخر للجراحة ، وآخر للأمراض النسوية ، وآخر للإسهال . وجهز بصيدلية تطبخ فيها أنواع الأدوية . وزود بما يحتاج إليه من أدوات وأسرة وموظفين . وأسست به قاعة تلقى بها دروس الطب ، وضمت إليه خزانة كتب قيمة .

٤ خطط ص ٢٥٩ .

١٨ ـ المدرسة الناصرية :

تقع بخط بين القصرين شرق القبة المنصورية. بدأ بناءها الملك العادل كتبغا المنصورى . ثم خلع قبل تمامها ، وتولى مكانه الناصر محمد بن قلاوون ، فأكمل بناءها عام ٧٠٣ هـ ، وقد عنى بزخرفتها وتزويدها بالرخام البديع . وصُنع لها باب منه دقيق الصناعة . أصله باب إحدى كنائس عكا ، نقل إلى مصر بعد أن هدم الأشرف خليل بن قلاوون أسوارها .

وقد أوقف لها الناصر بن قلاوون منشؤها أوقافا عـــدة ، ونظم بها حركة التدريس . فقرر درسا يلقى لكل من المذاهب الأربعة . وأجرى على مدرسيها وطلبتها الأرزاق الوفيرة . ورتب بها إماما يؤم الناس فى الصلوات الخمس ، وزودها بدار كتب جليلة .

قال المقريزى : « وأدركت هذه المدرسة وهى محترمة إلى الغاية ، يجلس بدهليزها عدة من الطواشية ، ولا يمكن غريبا أن يصعد إليها . وكان يفرق بها على الطلبة والقراء وسائر أرباب الوظائف بها السكر فى كل شهر ، لكل واحد منهم نصيب . ويفرق عليهم لحوم الأضاحى فى كل سنة . وقد بطل ذلك ، وذهب ما كان لها من الناموس وهى اليوم عامرة من أجل المدارس » .

وهذه المدرسة غير « المدرسة الناصرية » التى أنشأها صلاح الدين الأيوبى بجوار الجامع العتيق عام ٥٦٦ هـ وجعلها وقفا على الشافعية والتى تعرف « بالمدرسة الشريفية » أيضا ، نسبة إلى الشريف القاضى شمس الدين الأرموى الذى اشتغل بالتدريس فيها زمنا

وهى أيضا غير « المدرسة الناصرية » التى أنشأها صلاح الدين كذلك بجوار قبة الشافعى ، وسيأتى ذكرها .

ص ١٩٣ ، ٢٢١ ، ٢٥١ ـ حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٠

١٩ ـ المدرسة القطبية :

فى أول حارة زويلة . أسستها السيدة عصمة الدين مؤنسة خاتون المولودة عام ٦٠٢ هـ ، والمتوفاة عام ٦٩٣ هـ ونسبت إلى الملك الأفضل قطب الدين أحمد ، شقيق

مؤسستها هذه، التى كانت مولعة بحب الحديث وروايته ، فأسستها وأوقفت عليها أوقافا ، وجعلتها مدرسة للشافعية والحنفية . قال المقريزى، وهى إلى اليوم عامرة ». وقال « وكان وقفها فى سنة ٦٠٥ » هـ وفيه نظر ، فلعلها سنة ٦٥٠ هـ .

ص ٢٠٠ ، ٢٣٧

٢٠ ـ المدرسة الخروبية :

كانت تقع فى مدينة مصر [١] ـ مصر القديمة ـ على شاطىء النيل . أنشأها تاج الدين محمد بن صلاح الدين الخروبى المتوفى عام ٧٨٥ هـ ، وأوقف عليها أوقافا ، ورتب بها مدرسا للحديث .

ص ٢٠١

٢١ ـ المدرسة الفارقانية :

كانت تقع فى القاهرة بجوار سويقة حارة الوزيرية . أنشأها الأمير « شمس الدين آق سنقر الفارقانى السلحدار » ، وفتحت فى يوم الاثنين ٤ جمادى الأولى سنة ٦٧٦ هـ ، وخصص فيها درس للشافعية وآخر للحنفية .

وهذه المدرسة غير المدرسة الفارقانية التى أسسها الأمير « ركن الدين بيبرس الفارقانى » ، خارج باب زويله بين حدوة البقر وصليبة جامع ابن طولون .

ص ٢٠١ ، ٢٤٨

٢٢ ـ المدرسة الخروبية :

هى غير المدرسة الخروبية السالفة الذكر ـ رقم ٢٠ ـ كانت واقعة فى ظاهر مدينة مصر ، تجاه المقياس بخط كرسى الجسر . أنشأها بعد عام ٨٥٠ هـ بدر الدين محمد بن محمد بن على الخروبى التاجر المتوفى عام ٧٦٢ هـ . ورتب بها مدرسا للفقه ، ومعيدا له . وشرط ألا يلى وظائفها أحد من الأعاجم بل من العرب .

ص ٢٠٢

ملحوظة : هناك ثلاث مدارس تعرف « بالخروبية » الأولى أنشأها تاج الدين الخروبى ، والثانية أنشأها بدر الدين الخروبى ـ وقد ذكرناهما ـ والثالثة أنشأها عز الدين محمد بن صلاح الدين الخروبى المتوفى فى عام ٧٧٦ هـ ، قبل تمامها .

ص ٢٠٣

(١) يقصد بمصر فى هذه المواقع ، مصر القديمة حيث بنى عمرو بن العاص فسطاطه وجامعه الشهير

٢٣ — المدرسة الحجازية

أنشئت برحبة باب العيد [١] بالقاهرة بجوار قصر الحجازية ، وهى السيدة خوندتتر الحجازية ابنة السلطان الملك الناصر بن قلاوون وهى زوجة الأمير بكتمر الحجازى . وكان إنشاؤها عام ٧٦١ هـ ورتبت بها درسا للشافعية ، ودرسا للمالكية ، وإماما . وزودتها بخزانة كتب . وبنت لنفسها بجوار هذه المدرسة قبة رتبت بها عدة من القراء يتلون القرآن الكريم . وألحقت بها مكتبا يتعلم فيه الأيتام القرآن الكريم على معلم خاص . وأجريت عليهم الأطعمة والأكسية فى مناسبات كثيرة . وأوقفت المؤسسة على ذلك كله أوقافا كبيرة . وكان يلى أمرها أكابر الأمراء ثم أثقلها الزمان بمن وليها من الخدم .

قال المقريزى : « إن الأمير جمال الدين يوسف البجاسى أستادار السلطان الناصر فرج بن برقوق اتخذ هذه المدرسة سجنا لمن يصادره ويعاقبه . واقتدى به غيره من بعده . فزالت عن المدرسة أبهتها . ومع ذلك فهى من أبهج مدارس القاهرة إلى الآن » .

ص ٢٢٢ ، ٢٢٣

٢٤ — المدرسة الطيبرسية

كانت تقع بجوار الجامع الأزهر من الناحية الغربية . أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى الذى كان نقيب الجيوش فى عهد السلطان لاچين المنصورى والذى توفى فى شهر ربيع الآخر سنة ٧١٩ هـ . وقد جملها وزينها بأبدع زينة وأنفق فى سبيلها مالا كثيرا ، وانتهت عمارتها فى سنة ٧٠٩ هـ . وقرر بها درسا للشافعية . ووقف عليها أوقافا عدة .

قال المقريزى : « وقد تداولت أيدى نظار السوء على أوقاف طيبرس هذا ، فخرب أكثرها ، وخرب الجامع والخانقاه — وكانا من منشآته — وبقيت هذه المدرسة . عمرها الله بذكره » .

١ — باب العيد أحد أبواب قصر الخلافة الفاطمية ، يخرج منه الخليفة لصلاة العيد . وقد كتب المقريزى عن هذه الرحبة فى الخطط ج ٣ ص ٧٥ .

وقد ذكر ابن دقماق هذه المدرسة فى كتابه « الانتصار » وذكر تاريخ مكانها حتى انتقل ملكه إلى الأمير علاء الدين طيبرس . وقد قال ما نصه : « ثم وقفها مدرسة للفقهاء الشافعية والمالكية يجلسون الشافعية فى الإيوان الغربى ، والمالكية فى الإيوان الشرقى . ورتب من كل مذهب مدرسا ومعيدا وخمسة عشر طالبا . وقرن الإمامة لمعيد الشافعية ، والمنزلين علوها للمدرسين ، وعمر مكتبا للسبيل ، وشرط لكل مدرس ستين درهما ولمعيد الشافعية الإمام فى كل شهر أربعين درهما ، ولمعيد المالكية فى الشهر أربعين درهما . . . » الخ .

ثم ذكر ابن دقماق بعض من تولوا التدريس فى هذه المدرسة . ونثبتهم فيما يلى (رقم ٨ بعنوان العناية باختيار العلماء ..) .

ج ٤ خطط ص ٢٢٣ ـ الانتصار ج ٤ ص ٩٦

٢٥ ـ المدرسة الحسامية :

كانت تقع بخط المسطاح بالقاهرة قريبا من حارة الوزيرية . بناها الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورى نائب السلطنة فى عهد الملك المنصور قلاوون . وقد توفى فى يوم الاثنين ١٥ من ذى القعدة عام ٦٨٩ هـ . وقد خصصت هذه المدرسة لفقهاء الشافعية . قال المقريزى : « وهى فى وقتنا هذا تجاه سوق الرقيق » .

٤ خطط ص ٢٢٨

٢٦ ـ المدرسة المنكوتمرية :

كانت تقع بحارة بهاء الدين بالقاهرة . بناها الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامى نائب السلطنة فى عهد السلطان لاچين المنصورى . وقد قتل هذا الأمير فى ليلة الجمعة ١٠ ربيع الأول سنة ٦٩٨ هـ . وقد بنى هذه المدرسة بجوار داره ، وانتهى بناؤها فى صفر عام ٦٩٨ هـ ورتب بها درس للمالكية ، ودرس للحنفية . وزودت بخزانة كتب . وأوقفت عليها أوقاف ببلاد الشام . قال المقريزى : « وهى اليوم بيد قضاة الحنفية يتولون نظرها وأمرها متلاش وهى من المدارس الحسنة »

٤ خطط ص ٢٣٠

٢٦ - المدرسة الجمالية :

كانت بجوار درب راشد بالقاهرة على باب درب سيف الدولة نادر . بناها الأمير علاء الدين مغلطاى الجمالى الذى كان وزيرا فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وقد توفى عام ٧٣٢ هـ بعد أن بنى هذه المدرسة عام ٧٣٠ هـ . وأوقف عليها عدة أوقاف بالقاهرة وبالشام ، ورتب بها درسا للحنفية ، وجعلها خانقاه للصوفية . وتداول العمل فيها أكابر العلماء .

قال المقريزى : « وكان شأن هذه المدرسة كبيرا يسكنها أكابر فقهاء الحنفية . وتعد من أجل مدارس القاهرة . ولها عدة أوقاف بالقاهرة وظواهرها ، وفى البلاد الشامية . وقد تلاشى أمر هذه المدرسة لسوء ولاة أمرها . وتخريبهم أوقافها وتعطل منها حضور الدرس والتصوف . وصارت منزلا يسكنه أخلاط ممن ينسب إلى اسم الفقه . وقرب الخراب منها » . ٤ خطط ص ٢٣٨

٢٧ - المدرسة القراسنقرية :

كانت تقع تجاه خانقاه سعيد السعداء بين رحبة باب العيد وباب النصر . أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى نائب السلطنة فى عهد السلطان لاجين المنصورى قبل النائب منكوتمر . وقد توفى هذا الأمير بمدينة المراغة من أعمال أذربيجان وهو منضم إلى التتار . وذلك فى يوم السبت ٢٧ شوال عام ٧٢٨ هـ فى عهد الناصر محمد ، وكان يطارده .

ولما بنى هذه المدرسة بنى بجوارها مكتبا لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز . وجعل بها درسا للفقهاء . ووقف عليها داره وغيرها .

قال المقريزى : « ولم يزل نظر هذه المدرسة بيد ذرية الواقف إلى سنة ٨١٥ هـ ثم انقرضوا وهى من المدارس المليحة . وكنا نعهد البريدية إذا قدموا من الشام وغيرها ، لا ينزلون إلا فى هذه المدرسة ، حتى يتهيأ سفرهم . وقد بطل ذلك من سنة ٧٨٠ هـ » . ٤ خطط ص ٢٣٢

٢٨ ـ المدرسة البوبكرية .

أنشأها الأمير سيف الدين أسنبغا بن الأمير سيف الدين بكتمر البوبكرى الناصرى . بجوار الدرب العباسى قريبا من حارة الوزيرية بالقاهرة ، فى سنة ٧٧٢ هـ وبنى بجانبها حوضا للماء وسبيلا وسقاية ، ومكتبا للايتام . ووقفها على الحنفية .

٤ خطط ص ٢٣٥

٢٩ ـ المدرسة البقرية :

أنشأها الرئيس القاضى شمس الدين شاكر بن غزيّل المعروف بابن البقرى المتوفى عام ٧٧٦ هـ . وتقع فى الزقاق المواجه لباب الجامع الحاكمى المجاور لمقبره . وكان ابن البقرى ناظرا للذخيرة والأوقاف وغيرهما فى عهد السلطان الناصر حسن . وقد جعل مدرسته هذه ونظم بها درسا للشافعية وميعادا للوعظ ، ووظف بها عدة من كبار الفقهاء .

٤ خطط ص ٢٣٦

٣٠ ـ المدرسة الملكية :

بناها بخط المشهد الحسينى ، الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار . ورتب بها درسا للشافعية وزودها بخزانة كتب جليلة وأوقف عليها أوقافا . قال المقريزى « وهى الآن من المدارس المشهورة » .

٤ خطط ص ٢٣٧

٣١ ـ المدرسة السابقية .

كانت داخل قصر الخلفاء الفاطميين قريبا من خط بين القصرين بالقاهرة . بناها الطواشى الأمير سابق الدين مثقال الأنوكى مقدم المماليك السلطانية الأشرفية . وقد توفى عام ٧٧٦ هـ . ولما بناها بنى بجوارها حوض ماء للسبيل ومكتبا يحفظ فيها الأيتام القرآن الكريم . وزودها بخزانة كتب . وقرر بها درسا للشافعية وقراءات .

٤ خطط ص ٢٤٠

٣٢ ـ المدرسة الزمامية .

كانت بخط رأس البندقانيين من القاهرة على مقربة من المدرسة الصاحبية . بناها الأمير الطواشى زين الدين مقبل الرومى الزمام فى عهد برقوق . وذلك عام ٧٩٧ هـ . ورتب بها درسا للصوفية .

٤ خطط ص ٢٤١

٣٣ - المدرسة المحمودية:

كانت بخط الموازينيين خارج باب زويلة . أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن علي الأستادار فى سنة ٧٩٧ هـ . ورتب بها درسا ، وزودها بدار كتب جليلة الشأن . قال المقريزى « وهذه المدرسة من أحسن مدارس مصر » . وقد مات هذا الأمير محبوسا ومريضا عام ٧٩٩ بعد أن ذاق أهوالا كثيرة . ٤ خطط ص ٢٤٢

٣٤ - المدرسة المهذبية:

كانت بحارة حلب خارج القاهرة . بناها الطبيب مهذب الدين بن أبى الوحش المعروف بابن أبى حليقة رئيس الأطباء بمصر ومدرس الطب بالمارستان المنصورى .

٤ خطط ص ٢٤٥

٣٥ - المدرسة الجاولية:

كانت بجوار قلعة الكبش فيما بين القاهرة ومصر . أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى عام ٧٢٣ هـ . وأوقف عليها ورتب لها دروسا وصوفية . وقد مات هذا الأمير فى ٩ رمضان سنة ٧٤٥ هـ . ودفن بمدرسته هذه .

٤ خطط ص ٢٤٧

٣٦ - المدرسة البشيرية:

كانت خارج القاهرة قرب بركة الفيل . بناها الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجمدار الناصرى فى سنة ٧٦١ هـ . وزودها بخزانة كتب .

٤ خطط ص ٢٤٨

٣٧ - المدرسة المهمندارية:

كانت خارج باب زويلة بخط الماردانى . بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزى المهمندار عام ٧٢٥ هـ . مدرسة وخانقاه . ورتب بها دروسا للحنفية .

٤ خطط ص ٢٤٨

٣٨ - مدرسة الجاى :

كانت خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل . أنشأها الأمير سيف الدين

الجاى عام ٧٦٨ هـ . وجعل بها درسا للشافعية ودرسا للحنفية وزودها بخزانة كتب. وقد توفى هذا الأمير غرقا فى المحرم سنة ٧٧٥ هـ .

٤ خطط ص ٢٤٨

٣٩ — مدرسة أم السلطان :

كانت خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل . أنشأتها السيدة بركة أم السلطان الأشرف شعبان عام ٧٧١ هـ . وقررت بها درسا للشافعية ودرسا للحنفية . قال المقريزى « وهى من المدارس الجليلة » . وقد توفيت هذه السيدة عام ٧٧٤ هـ .

٤ خطط ص ٢٥٠

٤٠ — المدرسة الايتمشية :

كانت خارج القاهرة داخل باب الوزير تحت قلعة الجبل . أنشأها الأمير سيف الدين ايتمش البجاسى الظاهرى فى سنة ٧٨٥ هـ . وقرر بها درسا فى فقه الحنفية . قال المقريزى « وهى مدرسة ظريفة » .

٤ خطط ص ٣٥٠

٤١ — المدرسة المجدية الخليلية:

كانت بمصر بدرب البلاد — مصر العتيقة — عمرها الشيخ الإمام محيى الدين أبو محمد عبد العزيز الخليلى الدارى . فتحت فى ذى الحجة سنة ٦٦٣ هـ . وقرر بها مدرسا للشافعية ، ومعيدين وعدة من الموظفين لخدمتها . وجملها ووقف عليها أوقافا عدة . وقد تولى التدريس بها زمنا ابن مؤسسها وهو الصاحب الوزير فخر الدين عمر . وتوفى مؤسسها بدمشق فى ١٣ ربيع الثانى عام ٦٨٠ هـ .

٤ خطط ص ٢٥٠

٤٢ — المدرسة الناصرية بالقرافة:

كانت بجوار قبة الشافعى . وهى غير الناصرية الشريفية ، وغير الناصرية التى بدأها كتبغا وأكملها الناصر محمد . وقد مر ذكرها . أما هذه فقد أسسها صلاح الدين الأيوبى . ووقف عليها عدة أوقاف . وأقام فيها دروسا للشافعية وأجرى

الأرزاق على علمائها وطلابها . وقد ظلت هذه المدرسة مزدهرة زمنا كبيرا فى عهد المماليك . وولى التدريس بها عدد من أعاظم علماء ذلك العهد .

٤ خطط ص ٢٥١

٤٣ — المدرسة المسلّمية:

كانت بمدينة مصر فى خط السيوريين . أنشأها كبير التجار ناصر الدين محمد بن مسلّم البالسى . ومات عام ٧٧٦ هـ ، قبل تمامها فأوصى بتكملتها وخصص لها مالا وأوقافا عدة . وشرط أن يكون فيها مدرس للمالكية ، ومدرس للشافعية ، ومؤدب أطفال . وغير ذلك . فاكملت . قال المقريزى « وهى الآن عامرة » .

٤ خطط ص ٢٥١

٤٤ — مدرسة إينال :

كانت خارج باب زويلة بالقرب من باب حارة الهلالية بخط القماحين . أوصى بعمارتها الأمير الأتابكى سيف الدين إينال اليوسفى ، أحد المماليك اليلبغاوية . فابتدأت عمارتها عام ٧٩٤ هـ . وفرغت فى العام التالى . وكان الأمير قد مات فدفن من بعدُ فيها .

٤ خطط ص ٢٥٢

٤٥ — مدرسة الأمير جمال الدين الأستادار :

هذه المدرسة كانت تقع برحبة باب العيد من القاهرة . أنشأها الأمير جمال الدين محمود الأستادار الذى أعدمه السلطان عام ٨١٢ هـ . ويفهم من سياق ما أورده المقريزى أنه الأستادار محمود صاحب المدرسة المحمودية التى مر ذكرها ، والذى قيل إنّه توفى عام ٧٩٩ هـ . أما هذه المدرسة التى نحن بصددها ، فقد جملها منشئوها أبدع تجميل ، وزخرفها ، واشترى لها جملة قيمة من الكتب النفيسة فى الفقه والحديث وغيرهما ، وبينها مؤلفات مخطوطة عظيمة القيمة . وعشرة مصاحف كبيرة الحجم أحدها بخط ياقوت ، وآخر بخط ابن البواب ، هى مجلدة تجليدا أنيقا بالجلد . وقد اشتراها من مكتبة الملك الأشرف شعبان ودفع قيمة ثمنها إلى الملك الصالح المنصور حاجى بن الأشرف .

وقد تم بناؤها عام ٨١١ هـ . فاحتفل الأمير جمال الدين بافتتاحها فى يوم الخميس ٣ رجب عام ٨١١ هـ . ومد سماطا جليلا للمحتفلين وملأ البركة بوسط المدرسة سكرا مذابا مخلوطا بعصير الليمون . ورتب بها ستة من كبار المدرسين، واحد لكل مذهب ، وواحد للحديث ، وواحد للتفسير ، ووظف بها عددا من الرجال الآخرين لخدمتها فى كل ناحية . وأوقف عليها أوقافا كثيرة جداً ، وأجرى الرواتب والأرزاق على موظفيها وطلبتها . وأنشأ قسما بها لتحفيظ القرآن وتأديب الصغار .

ولما بطش الملك الناصر فرج بن برقوق بمنشىء هذه المدرسة وهو جمال الدين الأستادار وقتله عام ٨١٢ هـ ، همّ بهدم مدرسته كذلك والاستئثار بأوقافها فأقعده عن ذلك كاتب سره فتح الدين فتح الله وكرّه إليه هذا العمل . ثم تحيّل وعاونه فى تحيله بعض الفقهاء والقضاة، حتى غيّر معالم هذه المدرسة وأزال منها كل ما يُعرف بمنشئها وكتب مكانه اسمه ووضع علاماته الخاصة ، حتى اسم المدرسة غُيّر ، وأطلق عليها اسم « الناصرية » ، ولكن لما ذهبت دولة هذا السلطان استطاع ورثة الأمير جمال، بمعاونة الملك المؤيد شيخ وبعض القضاة من رد بعض ما سلبه منهم السلطان فرج . والخلاصة أن المسألة كانت على حد قول المقريزى « كانت قصة هذه المدرسة من أعجب ما سمع به فى تناقض القضاة وحكمهم بإبطال ما صححوه ثم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه .. كل ذلك ميلا مع الجاه ، وحرصا على بقاء رياستهم .. ستكتب شهادتهم ويسألون » .

٤ خطط. ص ٢٥٢

٤٦ — مدرسة السلطان حسن :

واقعة تجاه القلعة . أنشأها السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ابتداء من سنة ٧٥٧ هـ ، واستمر العمل فيها نحو ثلاث سنوات . وقد أنفق عليها من الأموال الشىء الكثير ، فجاءت ضخمة البناء بديعة الرواء . وهى فى الواقع عبارة عن مسجد عظيم أنشئت فيه ثلاث مآذن . وهم السلطان بإنشاء رابعة ، لولا أن تهدمت واحدة من الثلاث . فعدل عن إعادتها مكتفيا بالاثنتين . ويضم المسجد

فى قاعته أربع مدارس معا . وبجوارها مكتب لأبناء السبيل والأيتام ، كان يضم أكثر من ثلثمائة طفل وكانت تدرس بها المذاهب الأربعة .

وشهد هذا المسجد ضروبا من الصراع العنيف الذى كان ينشب بين الفينة والفينة بين زعماء المماليك ، وكان بعضهم يتخذه حصنا يرى من ورائه أعداءه . وقد عبث السلطان برقوق — لهذا السبب — بأجزاء من بناء المسجد .

ويبدو لنا أن الدراسة لم تزدهر طويلا بهذه المدرسة، فقدمات بانيها بعد سقوط إحدى مناراتها الثلاث بثلاثة وثلاثين يوما . وعبث العابثون من بعده فى أوقافها .

ومما يذكر أنه لما تهدمت منارتها المذكورة وذلك بعد تمام بناء المدرسة بنحو عامين ، لهجت العامة بمصر والقاهرة بقرب زوال الناصر حسن بانيها . فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن على بن محمد السبكى يعلل سقوطها ، وكأنه يُطمئن السلطان :

أبشر فسعدك ياسلطان مصر أتى ... بشيره بمقال سار كالمثل
إن المنارة لم تسقط لمنقصة ... لكن لسر خفى قد تبين لى
من تحتها قرىء القرآن فاستمعت ... فالوجد فى الحال أداها إلى الميل
لو أنزل الله قرآنا على جبل ... تصدعت رأسه من شدة الوجل
تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت ... من خشية الله لا للضعف والخلل
وغاب سلطانها فاستوحشت ورمت ... بنفسها لجوى فى القلب مشتعل
فالحمد لله حظ العين زال بما ... قد كان قدره الرحمن فى الأزل
لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسة ... شيدت ببانيها بالعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلأت ... علما فليس بمصر غير مشتغل

خطط ٤ ص ١١٧ حسن المحاضرة ج ٣ ص ١٦٢ بدائع ج ١ ص

٤٧ — المدرسة الصرغتمشية:

كانت تقع خارج القاهرة بجوار جامع ابن طولون ، بينه وبين قلعة الجبل .

أنشأها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرى رأس نوبة النوب . بدأ فى عمارتها فى رمضان عام ٧٥٦ هـ وانتهت فى جمادى الأول سنة ٧٥٧ هـ وكانت من أجمل المبانى . وقد رتب فيها درس للحنفية أسند إلى الشيخ قوام الدين أمير كاتب بن أمير عمر ، العميد بن العميد أمير غازى الإتقانى . ودرس آخر فى الحديث .

وقد افتتحت هذه المدرسة يوم الثلاثاء ٩ من جمادى الأولى عام ٧٥٧هـ بحضور مؤسسها الأمير صرغتمش ، ومدبر الدولة الأمير سيف الدين شيخو وغيرهما من كبار الأمراء ، وقضاة القضاة ومشايخ العلم فألقى أستاذ الحنفية قوام الدين الإتقانى درسا ، وألقى قصيدة منها هذه الأبيات الغثة :

أرأيتم من حاز الرتبا وأتى قربا ونفى ريبا
فبدا علما وسما كرما ونما قدما ولقد غلبا
بُتقى وهدى وندى وجدى فعدا وسدى وجبى وحبا
. . . . الخ .

والأبيات واحد وعشرون .

قال المقريزى « وخلع — أى صرغتمش — فى هذا اليوم على القوام خلعة سنية ، وأركبه بغلة رائعة وأجازه بعشرة آلاف درهم على أبيات مدحه بها فى غاية السماجة » .

وقال فيه العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفى :

ليهنك ياصرغتمش مابليته لأخراك فى دنياك من حسن بنيان
به يزدهى الترخيم كالزهر بهجة فلله من زهر ولله من بانى

وقد مُدت فى هذه الحفلة مائدة حافلة ، ومئلت بركة المدرسة بالسكر المذاب فأكل المدعون ماشاءوا وشربوا ، وأبيح الباقى للعامة فانتهبوه .

خطط ٤ ص ٢٥٦ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٢

٤٨ — المدرسة الظاهرية :

وهى غير الظاهرية التى أسسها الظاهر بيبرس . أما هذه فقد أسسها الظاهر

برقوق بين القصرين ابتداء من عام ٧٨٦ هـ إلى عام ٧٨٨ هـ . وقد افتتحها السلطان برقوق باحتفال عظيم شهده الأمراء والقضاة والقراء ومدلهم مائدة حافلة وشربوا السكر والليمون وفُرق منه على العامة بالطاسات : وخلع السلطان خلعا ثمينة على المهندسين وجميع الفنانين والعمال الذين اشتركوا فى بنائها مع قدر من المال ،

وقد أسند مشيختها إلى العلامة علاء الدين السيرامى مدرس الحنفية ، وفى يوم الافتتاح بالغ السلطان فى تعظيم هذا الشيخ حتى فرش له سجادة بيده .

ورتب بها دروسا فى المذاهب الأربعة ودرسا فى الحديث ودرسا فى القراءات .

وقد كثر شعر الشعراء فى افتتاحها ، ومن ذلك قول بعضهم :

الظاهر الملك السلطان همته ... كادت لرفعته تسمو على زحل
وبعض خدامه طوعا لخدمته ... يدعو الجبال فتأتيه على عجل

وقال الشاعر بن العطار

وقد أنشأ الظاهر السلطان مدرسة ... فاقت على إرم مع سرعة العمل
يكفى الخليلى أن جاءت لخدمته ... شم الجبال لها تأتى على عجل

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٣ ـ البدائع ج ١ ص ٣٦٤

٤٩ ـ جامع آق سنقر:

كان قريبا من قلعة الجبل ، أنشأه الأمير آق سنقر السلارى المتوفى فى نحو عام ٧٤٤ هـ . وأنشأ بجانبه مكتبا لتحفيظ القرآن الكريم وقرر به عدة من الدروس.

٤ خطط ص ١٠٧

٥٠ ـ جامع الخطيرى:

كان بناحية بولاق . أسسه الأمير عز الدين الخطيرى المتوفى عام ٧٣٧ هـ . وقد كملت عمارة المسجد قبيل وفاته بقليل عام ٧٣٧ هـ وقرر فيه درسا لفقهاء الشافعية . ووقف عليه عدة أوقاف .

٤ خطط ص ١١٦

٥١ — جامع القلعة :

كان بقلعة الجبل . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٨ هـ . وجعل فيه درسا وقراء .

٤ خطط ص ١٣٢

٥٢ — جامع ابن المغربى:

كان بالقرب من بركة قرموط مطلا على الخليج المصرى ، أنشأه صلاح الدين يوسف بن المغربى رئيس الأطباء بديار مصر ، ورتب به درسا وقراء . وخرب بعد حين .

٤ خطط ص ١٣٦

٥٣ — جامع الفخرى:

كان بجهة باب السورين . أنشأه الأمير فخر الدين عبد الغنى بن الأمير تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج الأستادار فى سنة ٨٢١ هـ ورتب فيه عدة دروس فى المذاهب ، وقد توفى هذا الأمير فى نصف شوال من تلك السنة .

٤ خطط ص ١٣٦

٥٤ — المدرسة المؤيدية:

هى الجامع المعروف بجوار باب زويلة . أسسها الملك المؤيد شيخ المحمودى . وانتهت عمارتها سنة ٨١٩ هـ وأنفق عليها أربعون ألف دينار ، وكان مكانها السجن المشهور إذ ذاك بخزانة شمايل ، وقد حبس به المؤيد مرة ونذر أن يبنيه جامعاً لله إذا أطلق سراحه وآلت إليه السلطنة ، فكان كذلك . ونقل إليها باب مدرسة السلطان حسن بعد أن اشتراه بخمسمائة دينار ، ومما يذكر أن مالت مئذنة هذه المدرسة بعد نحو عام من بنائها ، وقد اتخذ بعض أدباء العصر هذا الميل موضوعا لدعابات شعرية طريفة .

وقد احتفل المؤيد بفتح هذه الدار احتفالا شائقا اجتمع فيه كثير من عظماء الدولة على اختلاف طبقاتهم وقدمت إليهم الأسمطة الفاخرة ، ووزع على الناس

السكر المذاب والحلوى . ومنحت الخلع ، وألقيت الدروس ، وقد رتبت بها عدة دروس دينية فى كل مذهب .

خطط ج ٤ ص ١٣٦ حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٧

الخوانق والربط والزوايا :

لم نشر فيما سبق إلى الخوانق والربط والزوايا باعتبارها دورا تعليمية إلا إشارات عابرة . وإنما عنينا بذكر المساجد والمدارس لأنها بنيت من أول أمرها ، والتعليم أحد الأغراض الرئيسة من بنائها ، ولأنها كانت دورا عامة مفتحة الأبواب لطلاب العلم على اختلاف ألوانهم ، فى كل آن ، ولأن الاشتغال بالتعليم فيها كان الحركة الدائبة البارزة فى حياتها . ولأنها كثيرة العدد قريبة المنال ، وتخرج فيها فحول علماء مصر فى عصرها المملوكى .

أما الخوانق والربط والزوايا فهى أقرب إلى أن تكون ملاجىء منها إلى أن تكون دورا للتعليم المنتظم . فقد أنشئت فى أول أمرها لكى تكون منزلا للغرباء والفقراء والمحتاجين ، لا أن تكون دورا تلقى فيها دروس العلم على اختلاف موادها .

وليس هناك من فارق كبير بين هذه الأسماء الثلاثة وماترمى إليه من المعانى ، غير أنه يبدو لنا أن الخوانق امتازت باتساعها ، وبكثرة من أوى إليها من غرباء الصوفية وفقرائهم ، وقد يكون بعض منهم على علم وبصيرة وفقه بالدين وما يتصل به ، فيكون وجوده مؤذنا بنشر العلم وبث أحكام الشريعة . وفى أحايين كثيرة كان نظر الخوانق يسند إلى أحد علماء الدين الفضلاء ، كالسيوطى مثلا ، فيكون وجوده جرثومة من جراثيم التعليم ونواة لدروس العلم . وبعض هذه الخوانق رتبت فيه الدروس فى المذاهب الأربعة وفى الحديث ، فشابهت بذلك ، غيرها من المساجد والمدارس . غير أن الخوانق كان منقطعا ينقطع فيه هؤلاء اللاجئون للعبادة والتأمل ، أى للتصوف العملى لا العلمى ، وللتهذيب الروحى لا العقلى ، ولعل هذا أهم الفوارق بين الخوانق والمدارس ولا يمنع هذا الوضع أن ينجب بعض هذه الخوانق

علماء أجلاء يجمعون بين التصوف العملى والعلمى ، ويكونون ذوى خبرة وبصر بأحكام الشريعة ، بل وبغيرها .

ونظرا إلى هذا الانقطاع ، كان السلاطين أو الأمراء أو غيرهم ، يفيضون عليهم بضروب من البر والإحسان والمعونة فيوقفون عليهم الأوقاف أرضا أو دورا أو نحوهما ، ويقدمون إليهم الطعام والشراب والكسى ، فضلا عما ينعمون به من الأثاث . فكانت حياتهم فى داخل خوانقهم ، أحفل من حياة الفقراء فى خارجها ، وأقرب إلى التمتع والترف . ويعتقد بعض صوفيتها أن الأموال الموقوفة عليها حق خالص لهم لا ينبغى المساس به ، ولو كانت حقوقا لم ينص عليها شرط الواقف ، بل كانت حقوقا مكتسبة .

ومهما يكن من أمر فالخوانق وماشابهها من ربط وزوايا تعتبر إلى حد ما ، دورا من دور التعليم ، وبيئة من بيئات العلم ، ومنشأ من مناشىء العلماء . وكان التصوف ضربا من ضروب الحياة النفسية والعقلية معا ، فى هذا العصر ، وهى نزعة نعتبرها امتدادا للنزعة التصوفية التى برزت فى عصر بنى أيوب .

وقد فصّل المقريزى فى الخطط ، الحديث عن الخوانق والربط والزوايا ، ونوه السيوطى فى حسن المحاضرة ببعضها — ونكتفى هنا بالإشارة الوجيزة إلى ثلاث منها ، وذكر طرف من أخبارها لبروز المظهر التعليمى فيها أكثر من سواها : فمنها :

١ — خانقاه سعيد السعداء :

سعيد السعداء ، هو أحد الأساتذة المحنكين الذين كانوا يخدمون فى قصور الفاطميين ، واسمه الأستاذ قنبر ، أو عنبر . وكانت داره بخط رحبة باب العيد بالقاهرة ، فلما آلت سلطنة مصر إلى صلاح الدين الأيوبى ، رأى أن يجعل هذه الدار ملجأ يأوى إليه فقراء الصوفية الغرباء فجعلها موقوفة عليهم ، وذلك عام ٦٥٩هـ ووهب لها أوقافا أخرى واسعة للإنفاق عليها . ورتب لساكنيها الطعام واللحم

والخبز يوميا . وهى أول خانقاه بديار مصر ، ولقب شيخها دون غيرها بشيخ الشيوخ ثم شاركه شيوخ غيرها فى ذلك ، وقد ولى مشيختها أجلاء العلماء . ونزل بها فضلاء الصوفية . واستمرت العناية بها فى العصر المملوكى ، وبلغت عدة نزلائها نحو ثلثمائة صوفى ، لهم فى كل يوم خبز ولحم . وفى كل شهر صابون وحلوى ، وفى كل سنة كسوة بأربعين درهما لكل منهم . غير أن ذلك لم يسلم جملة من عبث العابثين.

وممن ولى مشيختها فى العصر المذكور . تاج الدين بن بنت الأعز ، وبدر الدين ابن جماعة ، وعلاء الدين القونوى . ومنهم أيضا الشيخ محمد البلالى أحد القادمين من الشام ، بلغت عقيدة الأمير سودون الشيخونى نائب السلطنة به حداً كبيراً ، فسعى له فى مشيختها . وولها بعده كثيرون .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٨ - الخطط ج ٤ ص ٢٧٣

٢ — الخانقاه البيبرسية :

أنشأها السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورى ، قبل أن يلى سلطنة مصر . تم إنشاؤها بموضع دار الوزارة تجاه رحبة باب العيد ، فى عام ٧٠٩ هـ [1] . قال المقريزى : « وهى أجل خانقاة بالقاهرة بنيانا وأوسعها مقدارا وأتقنها صنعة ، وأنشأها أيضاً رباطا وقبة .

وقال : « ولما كملت فى سنة تسع وسبعمائة ، قرر بالخانقاه أربعمائة صوفى ، وبالرباط مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت . وجعل بها مطبخا يفرق على كل منهم فى كل يوم اللحم والطعام وثلاثة أرغفة من خبز البر ، وجعل لهم الحلوى » .

وقال : « ورتب بالقبة درسا للحديث النبوى له مدرس ، وعنده عدة من المحدثين . ورتب القراء بالشباك الكبير ، يتناوبون القراءة فيه ليلا ونهاراً » .

وقال : « ووقف عليها عدة ضياع بدمشق وحماة ومنية المخاص بالجيزة من أرض مصر ، وبالصعيد والوجه البحرى والربع والقيسارية بالقاهرة » .

(١) قال السيوطى : سنة ٧٠٧ هـ .

ولما خلع بيبرس من السلطنة ، فوليها الناصر بن قلاوون ، أغلق هذه الخانقاه فلبثت نحو عشرين عاما معطلة . ثم فتحها ثانية وأعاد إليها ما كان موقوفا عليها . غير أنها من بعدُ ، عانت كثيرا من الاضطراب . وضعف أمرها .

وكانت لهذه الخانقاه مهابة فى نفوس الناس وكان لا يُسمح لأحدهم بدخولها ، وذلك فى أوائل أمرها .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٠ — الخطط ج ٤ ص ٢٧٦

٣ — خانقاه شيخو :

أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمرى فى حى الصليبة تجاه جامعه ، فى سنة ٧٥٦ هـ . ورتب بها دروسا عدة ، منها أربعة دروس فى المذاهب الدينية ، ودرس فى الحديث ، ودرس فى القراءات بالروايات السبع . وجعل لكل درس من هذه الدروس الستة مدرسا ، وعنده عدد من الطلبة مقيد بالحضور والاستماع إليه ، مع الاشتراك فيما يقوم به الصوفية من ضروب العبادات.

ووكل مشيختها إلى الشيخ العلامة أكمل الدين محمد بن محمود البابرتى الحنفى ووكل إليه كذلك درس الحنفية ، ونظر أوقاف الخانقاه . ووكل درس الشافعية إلى الشيخ بهاء الدين أحمد بن على السبكى . ودرس المالكية إلى الشيخ خليل . . ودرس الحنابلة إلى موفق الدين الحنبلى .

وقد أجرى على كل طالب مقدارا من الطعام واللحم والخبز والحلوى والزيت والصابون ووقف عليها أوقافا واسعة . قال المقريزى . « فعظم قدرها واشتهر فى الأقطار ذكرها ، وتخرج بها كثير من أهل العلم » .

وقد ذكر السيوطى عددا من أفاضل العلماء الذين تولوا مشيخة هذه الخانقاه بعد وفاة البابرتى عام ٧٨٦ هـ . ومنهم عز الدين الرازى ، وجمال الدين بن العجمى وسيف الدين السيرامى ، وبدر الدين الكلستانى ، وجمال الدين بن العديم ، وزين الدين التفهنى ، وغيرهم .

حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦١ - الخطط ج ٤ ص ٢٨٣

٦ - رصد الأوقاف على أهده المدارس والإحسان إلى اهلها

أما وقد انتهينا من ذكر بعض المساجد والمدارس ودور التعليم ، فلنشر فى هذا الفصل إلى أوقافها بعض الإشارة ذاكرين أنه لا يمكن لعمل من الأعمال الخيرية ، أو منشأة من المنشآت العامة ، أن تبقى وتؤدى واجبها كاملا ، دون أن توجه إليها عناية ورعاية ، ودون أن ترصد عليها أوقاف ، أو ترتبط لها مبالغ خاصة بها ، تهيء لها استمرار حياتها وبخاصة فى عصر كعصر المماليك ، لم تتخذ فيه للتعليم سياسة عامة عليا، تكفلت الدولة بتنفيذها ، والإنفاق عليها من أموالها العامة . بل كانت سياسة التعليم فردية شخصية موكولة إلى همم الأمراء وضمائر السلاطين ورغبات الرؤساء ، كل منهم على حدة ، يكيفها حسبما تملى عليه أهواؤه وظروف حياته ومقدرته المادية . وقصارى هذه السياسة أنها كانت إلى باب الجود والإحسان أقرب منها إلى باب التعليم الذى هو حق للشعب واجب أداؤه .

وقد كانت هذه السياسة التعليمية الفردية — لحسن الحظ — مجالا للمنافسة وحب الظهور بين السلاطين والأمراء ، ومن إليهم ، وسبيلا إلى تخليد الذكر ، وطريقا إلى حفظ بعض الأموال المقطعة ، فى ذرية الواقف ، قبل عودها إلى السلطان بموته أو بشيء آخر . لذلك كان السلطان أو الأمير يلجأ إلى إنشاء مسجد أو مدرسة أو نحوهما ، ثم يهب لها الأرض والدور والرباع والمال ، وقفا خيريا لوجه الله ، للإنفاق من ريعها على مرافقها المختلفة ، ويشترط أن يكون له نظر الوقف ، أو لأحد من أعقابه . كما أن بعضهم قد يوقف أوقافا على منشآت غيره .

وقد قلنا « لحسن الحظ » ، لأن هذه النزعة كانت سببا فى إسعاد البلاد ، بتأسيس عدد ضخم من دور التعليم . ولا ندرى إلى أى مدى كانت تصل الطامة ، لو لم توجد هذه النزعة ، فلم تؤسس تلك الدور . .

وقد كان أكثر هذه الدور مؤسسا بمدينة القاهرة ، فكانت هذه المدينة منها ذات حظ عظيم ، بالقياس إلى غيرها من مدن البلاد . وهذا أمر لا بد منه ، إذ كانت القاهرة مقر السلطان ، ومهد الجند ، ومرتبع الأمراء ، ومهوى الرؤساء ، ومثابة

الطامعين ، ومسرح الظهور ، ومراح الجاه . فهى لذلك أنسب المدن لهذه المؤسسات.

غير أن كثيرا من هذه الدور كانت أوقافها خارج القاهرة وبعيدا عنها فى النواحى الأخرى من البلاد ، بل قد تكون أوقافها خارج القطر كله . كأن تكون ببلاد الشام مثلا .

وكثيرا مالعبت الأيدى بأوقافها ، وعبث العابثون بريعها ، بعد وفاة مؤسسها ، فكان ذلك وبالا عليها ، قد يصيبها فى الصميم ، فيكون مآلها إلى الزوال .

وإلى جانب هذه الأوقاف كانت تجرى الرواتب أحيانا على العلماء والطلاب على حد سواء ، وتقدم لهم الأطعمة والكسى والعطايا المختلفة فى مناسبات شتى ، كما كانت لبعضهم أماكن للنوم فى نوافذ المدرسة وخرجاتها العريضة ، أو جوارها الواسع .

كل ذلك عون من المؤسسين وغيرهم ، لهؤلاء المشتغلين بالعلم وتشجيع لهم على الانتساب إليه ، ودفع إلى الدأب والتحصيل .

وإليك بعضا من الأمثلة من أخبار هذه الأعمال الخيرية من وقف وغيره نقلا عما رواه المقريزى فى الخطط ج ٤ :

١ — لما جدد الأمير عز الدين إيدمر الحلى ، بناء الجامع الأزهر عام ٦٦٥ هـ وجمله وزاد فيه ، ورتب به الدروس المختلفة — قال المقريزى — « وقف على ذلك الأوقاف الدارة » .

ولما جدده كذلك الأمير سعد الدين بشير الجمدار عام ٧٦١ هـ وأنشأ فوقه « مكتب سبيل » لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز ، قال المقريزى : « ورتب للفقراء المجاورين طعاما يطبخ كل يوم ، وأنزل إليه قدورا من نحاس جعلها فيه ، ورتب فيه درسا للفقهاء من الحنفية ، يجلس مدرسهم لإلقاء الفقه فى المحراب الكبير ، ووقف على ذلك أوقافا جليلة باقية إلى يومنا هذا » .

ص ٥٢ ، ٥٣

٢ — فى عام ٧٠٢ هـ أصيبت البلاد بزلزال أحست القاهرة وما قاربها بشدته . وتهدم بسببه بعض الأبنية وفى جملتها جامع الحاكم بأمر الله ، فتعهد الأمير

ركن الدين بيبرس الجاشنكير بتجديده . ثم أوقف عليه أوقافا بالجيزة وبعض بلاد الصعيد ، والإسكندرية ، ذات ريع عظيم .

وقد زاد الملك الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون عام ٧٦٠ هـ فى مخصصات هذا الجامع وفى أوقافه ، ويقال إنه أوقف عليه نحو ٥٦٠ فدانا بجهة طندتا .

ص ٥٧ ، ٥٨

٣ ـ وقد أوصت السيدة عصمة الدين مؤنسة خاتون المتوفاة عام ٦٩٣هـ بإنشاء مدرستها المعروفة بالمدرسة الفطيمية واشترى لها بأمرها وقف لينفق من دخله عليها وعلى ما قرر فيها من الدروس .

ص ٢٠٠ ، ٢٣٧

٤ ـ وقد أوقف تاج الدين محمد بن صلاح الخروبى المتوفى عام ٧٨٥ هـ على مدرسته الخروبية جملة من الأوقاف .

ص ٢٠١

٥ ـ وقد أوقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون على مدرسته الناصرية المنشأة عام ٧٠٣ هـ ، قيسارية أمير على ، بخط الشرابشيين بالقاهرة ، والربع الذى يعلوها ، وكان يعرف بالدهيشة ، وقف عليها أيضا حوانيت بخط باب الزهومة بالقاهرة أيضا ، ودار الطعم خارج مدينة دمشق .

ولما مات ابنه « أنوك » عام ٧٤١ هـ دفنه بقبة هذه المدرسة وخصص لها وقفا جديدا . قال المقريزى عنه « وهو باق إلى اليوم يصرف لقراء وغير ذلك » .

ولما رتب الناصر الدروس بهذه المدرسة خصص لكل مدرس عددا من الطلبة ينقطعون لطلب العلم وأجرى عليهم « المعاليم » أى الرواتب . وكان يُفرّق بها على الطلبة والقراء وسائر أرباب الوظائف بها ، السكر فى كل شهر لكل أحد منهم نصيب ، ويفرق عليهم لحوم الأضاحى فى كل سنة . قال المقريزى فى أعقاب ذلك : « وقد بطل ذلك وذهب ما كان لها من الناموس ، وهى اليوم عامرة من أجل المدارس » .

ص ٢٢٢

٦ ـ وقال المقريزى فى سياق حديثه عن المدرسة الصالحية التى أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب منذ سنة ٦٣٩ هـ :

« ثم إن الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس ، وقف ـ أى على هذه المدرسة ـ الصاغة التى تجاهها وأماكن بالقاهرة وبمدينة

المحلة الغربية ، وقطع أراضى جزائر بالأعمال الجيزية والإطفيحية على مدرسين أربعة ، عند كل مدرس معيدان وعدة طلبة ، وما يحتاج إليه من أئمة ومؤذنين وقومة ، وغير ذلك . وثبت وقف ذلك على يد قاضى القضاة تقى الدين محمد بن الحسين بن رزين الشافعى ، ونفذه قاضى القضاة شمس الدين أبو البركات محمد بن هبة الله بن شكر المالكى ، وذلك فى سنة ٦٧٧ هـ ، وهى جارية فى وقفها إلى اليوم . » — وقد رددنا بعض هذا الحديث فى أخبارها السالفة . ص ٢١٠

٧ ـ ولما أنشأت الست خوند تتر ، بنت الناصر محمد بن قلاوون ، مدرستها الحجازية عام ٧٦١ هـ أوقفت عليها عدة أوقاف واسعة يعطى منها أرباب وظائفها معلوماتهم . وأجرى على الأيتام الذين يحفظون القرآن بجوارها خبزا يوميا لكل واحد خمسة أرغفة ومبلغا من المال ، وأردية صيفية وشتوية . وكان يوزع عليهم فى كل سنة ، أيام عيد الفطر الكعك والخشكنان « بعض الفطائر » . وفى عيد الأضحى يعطون اللحوم ، ويطهى لهم الطعام فى رمضان ، قال المقريزى : « وقد بطل ذلك ، ولم يبق غير المعلوم فى كل شهر » ص ٢٢٣

٨ ـ وقد أوقف الأمير سيف الدين منكو تمر الحسامى نائب السلطنة على مدرسته المنكوتمرية المنشأة عام ٦٩٨ هـ ، أوقافا ببلاد الشام . ص ٣٣٠

٩ ـ وقد أوقف الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرى على مدرسته التى بناها عام ٧٥٧ هـ وقفا ينفق منه على مشايخها وفقهائها. ص ٢٥٦

١٠ ـ وقد قال المقريزى عن الأمير جمال الدين الأستادار بعد ما أنشأ مدرسته برحبة باب العيد ، والتى افتتحها فى ٣ رجب عام ٨١١ هـ وقرر بها عـــددا من المدرسين ، قال . « وقرر عند كل من المدرسين الستة طائفة من الطلبة ، وأجرى لكل واحد ثلاثة أرطال من الخبز فى كل يوم ، وثلاثين درهما فلوسا فى كل شهر . وجعل لكل مدرس ثلثمائة درهم فى كل شهر . ورتب بها إماما وقومة ومؤذنين ، وفراشين ومباشرين ، وأكثر من وقف الدور عليها ، وجعل فائض وقفها مصروفا لذريته . » الخ . ص ٢٥١

---

٧ ـ إنشاء دور الكتب

ومما هو جدير بالذكر أنك قل أن تجد مدرسة أو مسجدا أو دارا تعليمية ، أنشئت في ذلك العصر ، دون أن تزود بخزانة كتب نافعة تعين المدرسين والطلاب فيها ، والهاوين إليها . وظل الأمر يزداد بطول الأيام حتى غصت البلاد بذخائر علمية نفيسة من هذه المؤلفات ، فوق ما خلفه العصر الأيوبي .

وكان بعض السلاطين مغرما باقتناء الكتب النفيسة ، فكان لذلك أثر صالح . كالسلطان الملك الناصر حسن ابن الناصر ابن قلاوون .

وكذلك كان كثير من الأمراء والعلماء ، وقد روى ابن إياس في البدائع . ج ٢ ص ٢١٨ ما نصه :

« وفيه — أي في ربيع الأول سنة ٨٨٨ هـ — توفي القاضي نجم الدين يحيى بن حجي ، وهو يحيى بن محمد بن أحمد بن حجي بن موسى بن أحمد الحسباني الدمشقي ثم القاهري الشافعي . وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ، وعد من العلماء وكان كريما سخيا . ولي نظارة الجيش بمصر ، وكان من أعيان الرؤساء بمصر والشام . فلما مات وجد عنده زيادة عن ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة » .

ولا ريب أن هذا العدد له قيمته ، في عصر كان اعتماد التدوين فيه على الكتابة الخطية ، ولا ريب أيضا في أن وجود دور الكتب العامة أو الخاصة له أثره المحمود في النهوض العلمي ، ونشاط الحركة التأليفية .

ونذكر فيما يلي بعض دور الكتب التي عرفت في العصر المملوكي وأخبارها ، نقلا عن المقريزي في الجزء الرابع من خططه . فمنها :

١ — خزانة الكتب بجامع الحاكم بأمر الله ، وهي التي زوده بها الأمير بيبرس الجاشنكير عام ٧٠٣ هـ ، لما رممه أثر زلزلة عام ٧٠٢ هـ .

ص ٥٧

٢ — خزانة الكتب بجامع الخطيري ببولاق ، زوده بها منشؤه الأمير عز الدين

إيدمر الخطيرى عام ٧٣٧ هـ .

ص ١١١

٣ — خزانة الكتب بجامع المؤيد . قال المقريزى عنه : « نزل السلطان — أى المؤيد — فى ٢٠ المحرم — أى عام ٨١٩ — إلى هذه العمارة ، ودخل خزانة الكتب التى عملت هناك . وقد حمل إليها كتبا كثيرة فى أنواع العلوم كانت بقلعة الجبل . وقدم له ناصر الدين محمد البارزى كاتب السر خمسمائة مجلد قيمتها ألف دينار ، فأقر ذلك بالخزانة ، وأنعم على ابن البارزى بأن يكون خطيبا ، وخازن الكتب هو ومن بعده من ذريته » .

ص ١٣٢

٤ — خزانة الكتب بالقبة المنصورية ، التى أنشأها المنصور قلاوون . قال المقريزى : « وبهذه القبة خزانة كتب جليلة ، كان فيها عدة أحمال من الكتب فى أنواع العلوم ، مما وقفه الملك المنصور وغيره . وقد ذهب معظم هذه الكتب وتفرق فى أيدى الناس » .

ص ٢١٩ ، ٢٦١

٥ — خزانة الكتب بالمدرسة الناصرية التى بدأها كتبغا ، وأكملها الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٣ هـ .

ص ٢٢١ ، ٢٢٢

٦ — خزانة الكتب بالمدرسة الحجازية المنشأة فى عام ٧٦١ هـ .

ص ٢٢٣

٧ — خزانة كتب المدرسة المنكوتمرية المنشأة عام ٦٩٨ هـ .

ص ٢٣٠

٨ — خزانة الكتب بالمدرسة السابقية التى أنشأها الأمير سابق الدين مثقال الأنوكى مقدم المماليك السلطانية الأشرفية ، المتوفى عام ٧٧٦ هـ .

ص ٢٤٠

٩ — خزانة المدرسة المحمودية التى بناها الأستادار جمال الدين محمود عام ٧٩٧ هـ .

قال المقريزى: « وعمل فيها خزانة كتب لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها. وهى باقية إلى اليوم لا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون فى المدرسة. وبهذه الخزانة كتب الإسلام فى كل فن ».

ويفهم من حديث المقريزى المذكور أنه كان ثمة نظام للاستعارات الخارجية والداخلية فى دور الكتب، غير أن دار الكتب بالمدرسة المحمودية كانت لا تسمح بالاستعارات الخارجية.

ص ٢٤٢

١٠ — خزانة الكتب بالمدرسة البشيرية التى بناها الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجمدار الناصرى فى عام ٧٦١ هـ

ص ٢٤٨

١١ — خزانة كتب مدرسة الجاى وهى من بناء الأمير سيف الدين الجاى، أسسها عام ٧٦٨ هـ.

ص ٢٤٩

١٢ — خزانة الكتب بمدرسة الأمير جمال الدين الاستادار — ولعلها غير الخزانة السابقة — راجع المدارس أيضاً.

قال المقريزى بصدد الحديث عن المدرسة المذكورة.

« كان بمدرسة الملك الأشرف شعبان بقية من داخلها، فيها شبابيك من نحاس مكفت بالذهب والفضة، وأبواب مصفحة بالنحاس البديع الصنعة المكفت. ومن المصاحف والكتب فى الحديث والفقه وغيره من أنواع العلوم جملة. فاشترى ذلك — أى الأمير جمال الدين الأستادار — من الملك الصالح المنصور حاجى بن الأشرف شعبان بمبلغ ستمائة دينار. وكانت قيمتها عشرات أمثال ذلك. ونقلها إلى داره، وكان مما فيها عشرة مصاحف طول كل مصحف منها أربعة أشبار إلى خمسة، فى عرض يقرب من ذلك، أحدها بخط ياقوت، وآخر بخط البواب.

وباقيها خطوط منسوبة . ولها جلود فى غاية الحسن معمولة فى أكياس الحرير الأطلس . ومن الكتب النفيسة عشرة أحمال . ..

هذا ، ولما بطش الملك الناصر فرج بن برقوق ، بالأمير جمال الدين الأستادار وقتله عام ٨١٢ هـ ، غير معالم مدرسته ، وعبث بمكتبة ، ونقل كثيرا من كتبها ، إلى قلعة الجبل .

ص ٢٥٢ ، ٢٥٤

١٣ - خزانة الكتب بالمدرسة الملكية التى أنشأها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار .

ص ٢٣٧

١٤ - خزانة كتب المدرسة الظاهرية البيبرسية التى أنشأها الظاهر بيبرس عام ٦٦٢ هـ ، وكانت تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم .

ص ٢١٨

---

٨ - العناية باختيار العلماء

وقد عنى السلاطين والأمراء ومنشئو المدارس باختيار علمائها الذين يشرفون على أمورها . وأساتذتها الذين يتولون التدريس فيها وغير التدريس . فانتخبوهم من بين الأفذاذ ذوى الشهرة المعروفين بالعلم والفضل . منهم من يزاول التدريس فى أحد المذاهب الدينية . ومنهم من يلى الإمامة والخطابة ، ومنهم من يلقى دروس الوعظ . أو يتولى غير ذلك من الوظائف بها .

ولا نريد الآن أن نستوعب الكلام عن هؤلاء المدرسين أو ذكر آثارهم أو مؤلفاتها . لا . فسيرد لذلك باب خاص متشعب النواحى مفصل الجهات . وحسبنا أن نسوق مجرد ثبت موجز ، لنستبين منه جانبا من هؤلاء العلماء الأفاضل الذين حملوا أعباء النهوض العلمى ، وحافظوا على التراث الدينى واللغوى ، فى هذه الحقبة القاسية من تاريخ مصر . فأسدوا إليها يدا بيضاء لا تنسى . فمنهم .

١ - ممن تولى التدريس بالمدرسة الصلاحية فى عصور مختلفة وولى أمرها : تقى

الدين بن رزين . تقى الدين بن دقيق العيد . برهان الدين الخضر السنجارى . شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن محمد بن حمويه الجوينى وكان يدرس مذهب الشافعى . تاج الدين بن بنت الأعز . تقى الدين بن بنت الأعز . عز الدين محمد ابن محمد بن الحرث بن مسكين . ضياء الدين عبد الله بن أحمد ابن منصور النسائى . مجد الدين حرمى بن قاسم بن يوسف الفاقوسى . شمس الدين بن القماح . ضياء الدين محمد ابن ابراهيم المناوى . شمس الدين بن اللبان . شمس الدين محمد بن أحمد بن خطيب بيروت الدمشقى . بهاء الدين بن تقى الدين السبكى ثم أخوه تاج الدين . بهاء الدين أبو البقاء محمد بن عبد البر السبكى . ثم ولده بدر الدين محمد . ثم برهان الدين بن جماعة . سراج الدين البلقينى . عماد الدين أحمد بن عيسى الكركى . ومنهم ابن حجر والقاياتى والسفطى والسراج الحمصى وغيرهم .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٧

٢ - وممن تولى الدراسة فى المدرسة الكاملية وهى دار الحديث : ابن دقيق العيد ، أبو عمرو بن سيد الناس . البدر بن جماعة . عماد الدين الدمياطى الجمال بن التركمانى . الحافظ زين الدين العراقى . سراج الدين بن الملقن .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٩

٣ - وممن تولى التدريس فى المدرسة الظاهرية القديمة : تقى الدين بن رزين للشافعية . ومحب الدين عبد الرحمن بن الكمال عمر بن العديم للحنفية . والحافظ شرف الدين الدمياطى للحديث . وكمال الدين القرشى للقراءات .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٠

٤ - وممن تولى التدريس بالمدرسة الخروبية المنشأة بعد عام ٧٥٠ هـ . الشيخ بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل مدرسا للفقه . والشيخ سراج الدين عمر البلقينى معيدا له .

الخطط ج ٤ ص ٢٠٢

٥ — وممن تولى التدريس بالمدرسة الصاحبية البهائية المنشأة عام ٦٥٤ هـ ، بزقاق القناديل : الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين بن حنا، بانى

هذه المدرسة . ثم ابنه محي الدين أحمد بن محمد . ثم الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين . ثم ولده الصاحب شرف الدين . وما زال أبناء المؤسس وأحفاده يتوارثون التدريس بهذه المدرسة حتى وليها الصاحب الرئيس شمس الدين محمد بن أحمد ، بعد أبيه عز الدين ، وكلاهما من نفس الأسرة ، فلما مات الصاحب شمس الدين عام ٨١٣ هـ . وانتقل أمر المدرسة إلى بعض نواب الحكم بدأ الخراب يدب إليها واضمحلت الدراسة فيها .

الخطط ج ٤ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥

٦ — وممن ولى التدريس بالمدرسة الناصرية التى أنشأها العادل وأكملها الناصر ابن قلاوون : القاضى زين الدين على بن مخلوف المالكى لتدريس فقه المالكية . وشرف الدين عبد الغنى الحرانى لتدريس فقه الحنابلة . وأحمد بن السروجى الحنفى لتدريس فقه الحنفية . وصدر الدين محمد بن المرحل المعروف بابن الوكيل الشافعى لتدريس فقه الشافعية .

الخطط ج ٤ ص ٢٢٢

٧ — وممن درّس بالمدرسة البقرية : سراج الدين عمر بن على الأنصارى المعروف بابن الملقن ، وكان يدرس فقه الشافعية وكمال الدين بن موسى الدميرى الشافعى للميعاد « الوعظ » . وزين الدين أبو بكر بن الشهاب أحمد النحوى للقراءة .

الخطط ج ٤ ص ٢٣٦

٨ — وممن تصدى للتدريس فى المدرسة الجمالية : علاء الدين على بن عثمان التركمانى الحنفى وتولى فيها مشيخة الصوفية ودراسة فقه الحنفية . ثم ابنه جمال الدين عبد الله التركمانى الحنفى . ثم ابنه صدر الدين محمد بن عبد الله بن على التركمانى الحنفى . ثم قريبهم حميد الدين حماد .

الخطط ج ٤ ص ٢٣٨

٩ - وممن درس فى المدرسة السابقية سراج الدين عمر بن على الأنصارى المعروف بابن الملقن ، الذى مر ذكره فى المدرسة البقرية وكان يدرس فقه الشافعية .

الخطط ج ٤ ص ٢٤٠

١٠ — وممن ولى تدريس الشافعية بالمدرسة الناصرية بالقرافة تقى الدين بن رزين الحموى ثم تقى الدين بن دقيق العيد . والصاحب برهان الدين الخضر السنجارى .

الخطط ج ٤ ص ٢٥١

١١ — وممن تصدى للتدريس بمدرسة الأمير جمال الدين الأستادار المؤسسة عام ٨١٠ هـ ، ٨١١ هـ : الشيخ همام الدين محمد بن أحمد الخوارزمى الشافعى ، وقد تولى مشيختها وتدريس فقه الشافعية بها . وبدر الدين محمود بن محمد المعروف بالشيخ زاده الخرزيانى وقد تولى تدريس فقه الحنفية . وشمس الدين محمد بن البساطى ، وقد تولى تدريس المالكية . وفتح الدين أبو الفتح محمد بن نجم الدين محمد بن الباهلى وقد تولى تدريس فقه الحنابلة . وشهاب الدين أحمد بن على بن حجر ، وقد تولى تدريس الحديث . وشيخ الإسلام القاضى جلال الدين عبد الرحمن بن البلقينى وقد تولى تدريس التفسير .

الخطط ج ٤ ص ٢٥٣

١٢ — وممن درّس فقه الحنفية بالمدرسة الصرغتمشية : قوام الدين أمير كاتب ابن أمير عمر العميد ابن العميد أمير غازى الإتقانى ، وكان شاعرا كذلك .

الخطط ج ٤ ص ٢٥٦

١٣ — وممن درس فى المدوسة الظاهرية ، مدرسة برقوق ، المنشأة عام ٧٨٨ هـ : علاء الدين السيرامى وقد ولى مشيخة المدرسة ، وتدريس فقه الحنفية . وأوحد الدين الرومى وتولى تدريس فقه الشافعية . وشمس الدين بن مكين وتولى تدريس فقه المالكية . وصلاح الدين بن الأعمى ، وتولى تدريس فقه الحنابلة . وأحمد زاده العجمى وتولى تدريس الحديث . وفخر الدين الضرير الذى كان إماما للجامع الأزهر ، وتولى تدريس القراءات . ثم سراج الدين البلقينى وتولى التفسير والميعاد ، الوعظ » .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٣

١٤ — وممن درس فى جامع الفخرى : شمس الدين محمد بن عبد الدائم البرماوى ، ودرّس فقه الشافعية وأضيفت إليه مشيخة التصوف بهذا الجامع . وشمس الدين

محمد الديرى المقدسى الحنفى، ودرّس فقه الحنفية . وجمال الدين عبد الله بن المقداد المالكى ودرّس فقه المالكية .

خطط ج ٤ ص ١٢٦

١٥ - وممن درس فى الجامع المؤيدى : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على ابن حجر، وقد درس فقه الشافعية ، ويحيى بن محمد بن أحمد العجيسى البجائى المغربى، وقد درس فقه المالكية . وعز الدين عبد العزيز بن على بن الفخر البغدادى، وقد درس فقه الحنابلة . وبدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد العينتابى، وقد ولى تدريس الحديث . وشمس الدين محمد بن يحيى، وقد ولى تدريس القراءات . وشمس الدين محمد بن سعد الديرى، وقد ولى تدريس فقه الحنفية ومشيخة الصوفية بالجامع .

خطط ج ٤ ص ١٣٩

١٦ - وممن درس بالمدرسة المعزية « نسبة إلى المعز أيبك رأس الدولة التركية » : الصاحب برهان الدين السنجارى وهو الخضر بن الحسن، إلى أن توفى، فدرس الفقيه شمس الدين الجزرى ، ثم عزل ودرس بها الفقيه نجم الدين بن الرفعة إلى أن توفى، فدرس بها الفقيه شمس الدين الجزرى المشهور بالخطيب ، وكان يومئذ خطيب الجامع الطولونى، إلى أن توفى، فدرس بها قاضى القضاة جمال الدين الزرعى .

(الانتصار لابن دقماق ج ٤ ص ٩٢)

١٧ - وممن درس بالمدرسة القمحية « المالكية » : ولى الدين أبو زيد عبد الله بن خلدون والشيخ جمال الدين بن الشيخ صفى الدين ابن أبى المنصور ، والقاضى أبو البركات المتطبب ، وقاضى القضاة شمس الدين الركراكى .

(ذكره ابن دقماق فى ج ٤ من الانتصار ص ٩٥)

١٨ - وممن درس بالمدرسة الطيبرسية : قال ابن دقماق فى ج ٤ ص ٩٧ من كتابه « الانتصار » : « وأول من درس بها الشيخ الإمام شرف الدين قاضى الكرك كان ، إلى أن توفى . ثم درس بها الفقيه أقضى القضاة جمال الدين المشهور بابن السقطى، إلى أن تعفف عن جميع ما كان بيده، وعزل نفسه من الحكم ولزم بيته إلى حين وفاته.

ثم وليها الفقيه نجم الدين بن الرفعة ثم نزل عنها للشيخ نجم الدين البالسى - وأول من درس بها من المالكية الشيخ الإمام شهاب الدين القرافى . ثم نجم الدين القاياتى ثم القاضى بهاء الدين بن أبى المنصور، ثم زين الدين أبو الحسن على البوشى ».

هذه عجالة يسيرة نثبت بها صورة موجزة لهيئات تدريسية متعددة فى هذا العصر وليس غرضنا هنا الاستيعاب كما ذكرنا فى أول الفصل . وللاستيعاب محل آخر سيجىء عما قريب بعون الله .

٩ ـ الدروس المقررة وأثرها

أعتقد أننا إذا تصفحنا صفحات هذا الكتاب السالفة يمكن بسهولة أن نستنبط أى الدروس تقررت دراستها وتقرر إلقاؤها فى هذا العصر .

لقد مهدت الحوادث التى سبقت هذا العصر كنكبة العباسيين ، وكالحروب الصليبية ، وغير ذلك مما كرث المسلمين ، لحدوث رد فعل فى نفوسهم ، دفعهم إلى التعصب للإسلام ومن ثم إلى التعصب لعلومه ولعلوم لغته . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، عُنى عظماء العصر بافتتاح المساجد والمدارس ونحوها تقربا إلى الله وزلفى. فلا يمكن - والحالة هذه - أن تتقرر فيها دروس غير دينية . وإذا كان ثمة دروس أخرى فلتكن لغوية لمتاتها إلى الأولى بصلة . ثم تأتى بعد ذلك العناية بالدروس الكونية . وليس بمستساغ عادة أن يدرس الطب والفلك مثلا فى أحد مساجد الله ، وتُهمل علوم الدين أو علوم اللغة المرتبطة بها .

لهذا كانت الدروس الدينية فى مقدمة الدروس المقررة . أو قل إنها أهم ما عنوا بتقريره من الدروس . ونخص بالذكر من بينها فقه المذاهب الأربعة وأصولها . ويليها فى الأهمية دروس الحديث . ثم دروس التفسير ثم دروس الوعظ والكلام والتصوف . ثم دروس النحو والصرف . وقد عنى بغير تلك الدروس عناية فرعية كدروس الأدب والطب والفلك والهندسة والتاريخ والتقويم والرياضة . ولعل الهندسة كانت أحظاها بالعناية للحاجة إليها فى البناء

وأغلب الظن أن الذين نبغوا فى أحدى المواد الفرعية المذكورة إنما كان نبوغهم لفرط ذكاء وقوة ميل ولاشتغال شخصى فردى .

وقد لحظنا عند سرد تاريخ بعض المدارس أن الدروس المقررة بها ، ليست متشابهة فى كل حالة . ونعنى بالدروس « المواد الدراسية » فقد كان بعضها يقرر فيه درس للشافعية ، وبعضها درس للحنفية ، وهكذا ، وبعضها درس فى الحديث ، ونحو ذلك . فكأنما كان لكل مذهب مدرسة أو مدارس . غير أن بعضها اجتمعت فيه دروس المذاهب الأربعة كلها ، ويذكر المقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٢٠٩ ، أن الملك الصالح الأيوبى أول من جمع المذاهب الأربعة فى مكان .

ومما يذكر أنه لم تكن فى دور التعليم برامج معينة مقررة تحدد للناشئين سبيل الدراسة وتلزمهم باستيعابها ، كما نشاهد فى النظم الحديثة . بل ثمة كتب فى الفقه أو الحديث أو الأصول أو المنطق أو النحو أو القراءات ، ونحو ذلك ، يدرسها الشيوخ فى دور التعليم . يختار كل شيخ منها ما يروقه ويزاول تدريسه للناس ، فيسمعه منه من يشاء من الطلاب وغير الطلاب .

فإذا لازمه أحدهم ملازمة نافعة ودرس عليه كتابا معينا منحه شهادة بذلك ، وتسمى « إجازة » يشهد له فيها أنه درس الكتاب المذكور .

وكان الطلاب أو النابغون منهم يعنون عناية تامة بحفظ عدد من الكتب المذكورة المشهورة عن ظهر قلب . ويبدو أنه كانت هناك عناية كبرى بتقوية ملكة الحفظ . ولعل الرغبة فى حفظ أحاديث الرسول عليه السلام ، كان لها دخل فى توجيه هذه العناية وجهتها تلك .

وإنك لتقرأ جليا فى كتب تراجم الأعلام وسيرهم ما يدل دلالة قوية على هذه العناية . فيقال مثلا إن فلانا حفظ كتاب كذا وكذا وكذا . الخ .

وليس الحفظ مقصورا على علم دون آخر ، بل يتناول كتب الحديث والفقه والنحو والمنطق ونحوها ، ولعله كان أكثر انصرافا إلى المتون والمختصرات منه إلى المطولات .

يقول السخاوى فى ترجمة الزين العراقى ، فى الضوء ج ٤ رقم ٤٥٢ ، إنه حفظ القرآن وهو ابن ثمان وحفظ التنبيه والحاوى ، والإلمام لابن دقيق العيد .

ومما قيل عن ابن حجر العسقلانى إنه حفظ مختصر ابن الحاجب ، والعمدة والحاوى الصغير ، والملحة وألفية العراقى .

وهناك كتب جليلة سعدت بهذا الحفظ ، وظفرت بعناية الطلاب والشيوخ دون غيرها ، فكانت قوام التعليم ، ومنهاجه وسراجه فى تلك الحقبة . ومنها عن الضوء كما نستقرى فى تراجم رجاله مايلى :

التنبيه . المنهاج الأصلى للنووى . والمنهاج الفرعى ، والشاطبيتان فى القراءات والعمدة لحافظ الدين النسفى فى أصول الدين . والكافية لابن الحاجب فى العربية ومختصر القدورى فى الفقه ، وجمع الجوامع ، والأربعون حديثا النووية ، وتلخيص المفتاح فى البلاغة ، والجعبرية فى الفرائض ، والخزرجية ، والهداية لابن الجزرى والكنز فى فقه الحنفية ، والمنارة فى الأصول ، وألفية ابن مالك فى النحو ، والملحة ، ومختصر أبى شجاع ، والرحبية ، والمختار والمنظومة كلاهما للنسفى فى الفقه ، ونظم قواعد الإعراب لابن الهائم ، وإيساغوجى فى المنطق ، وفصيح ثعلب فى اللغة ، وألفية العراقى ، والحاوى والإلمام . وكتب الحديث وفى مقدمتها موطأ مالك ، وصحيح البخارى وصحيح مسلم . والمجمع ، والمغنى فى أصول الفقه الحنفى .

هذا وقد كان للاتجاه التعليمى المذكور أثره البالغ فى نوع الإنتاج العلمى ، سواء أكان ذلك فى طبقات العلماء ، أم فى أنواع المؤلفات .

أما العلماء :

فقد زخر العصر بصنوف منهم شتى من علماء المذاهب الأربعة وما يتصل بها . ومنهم من بلغ حد الاجتهاد ، أو لم يقل عن الأئمة المجتهدين السابقين كفاءة وقدرة على الاستنباط ، وعلما بأحكام الشريعة ، وتصرفاً فى الوقائع ، بالفتيا الدقيقة المحكمة ، مع قوة استدلال ، ووضوح حجة ، وتمسك تام بالحق ، كل هذا فى ورع وتقوى وزهد فى الدنيا . ومن هؤلاء :

عز الدين بن عبد السلام . وابن المنير الاسكندرانى . وابن الرفعة . وتقى الدين السبكى . وسراج الدين البلقينى . وتاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز . وابن

دقيق العيد القشيرى . وابن تيمية الحرانى . وابن قيم الجوزية ، والأقصرائى . والسيوطى ، والأنصارى . وغيرهم كثيرون .

حسن المحاضرة ج ١ ص ١٣٢

وزخر العصر كذلك بعلماء الحديث وحفاظه ، وعارفى مصطلحاته ورواته . وهم ممن يشار إليهم بالبنان ، ومنهم :

تقى الدين السبكى . وابن دقيق العيد القشيرى ، والمنذرى ، والرشيد العطار ، وابن العماد ، والأبيوردى ، والإسعردى ، وشرف الدين الدمياطى ، وقطب الدين الحلبى ، وفتح الدين بن سيد الناس ، وأحمد بن أينبك الحسامى الدمياطى ، وجمال الدين الزيلعى ، وعز الدين بن جماعة ، وزين الدين العراقى . وولى الدين أبوزرعة . وابن حجر العسقلانى ، والقسطلانى ، وغيرهم .

حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦١ ـ طبقات الحفاظ للذهبى ،

وامتلأ العصر بعدد من علماء الأصول والصوفية والنحويين وأهل البلاغة وحفاظ اللغة ومنهم على سبيل المثال :

أمين الدين المحلى ، والرضى الشاطبى ، وابن مكرم الإفريقى ، وأثير الدين أبو حيان الأندلسى ، وابن هشام المصرى ، والسمين شهاب الدين أحمد الحلبى ، وابن عقيل العقيلى ، وناظر الجيش محب الدين محمد الحلبى ، وشمس الدين الغمارى ، وشمس الدين الأسيوطى ، وشمس الدين الشنطوفى ، وبدر الدين الدمامينى ، وجلال الدين السيوطى ، وغيرهم .

حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٤

ومن بينهم علماء القراءات ، فمنهم :

ابن وثيق توفى عام « ٦٥٤ هـ » . والناشرى « ٦٦١ هـ » ، والكمال الضرير « ٦٦١ هـ » ، وأبو الحسن الدهان « ٦٦٢ هـ » ، وعبد الله بن محمد الاسكندرانى « ٦٨٣ هـ » ، والراشدى « ٦٨٥ هـ » ، والجرائدى « ٦٨٩ هـ » ، وسحنون « ٦٩٥ هـ » ، وابراهيم بن فلاح الجذامى الإسكندرانى « مات بعد سنة ٧٠٠ هـ » ، الشنطوفى

« ٧١٣ هـ » وأبو العلاء السلامى « ٧١٨ هـ » والتقى الصائغ « ٧٢٩ هـ » وأبو حيان المعروف بابن السراج « ٧٤٧ هـ » وعثمان بن عبد الرحمن المخزومى البلبيسى « ٨٠٤هـ »

حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٠

وقد نبغ عدد أقل من هؤلاء وهؤلاء فى المواد الأخرى كالطب والهندسة والفلك والكلام والحكمة والمنطق . وما إلى ذلك . هذه القلة على الرغم من أن العصر كان من العصور الذهبية فى تاريخ الفن الهندسى العربى وما امتزج به . وذلك لعناية السلاطين والأمراء بإنشاء ما يخلد ذكرهم من مساجد ومدارس وقناطر ورُبُط وخوانق ونحو ذلك ويغالون فى إنشائها ذلوا يخرج ببعضهم أحيانا إلى حد السرف ثم إلى حد العجز عن التمام . وقد كان السلطان حسن الناصر يقول وهو ينشىء مسجده الشهير ، ما مؤداه: إنه عاجز عن إتمامه لكثرة ما أنفق عليه ، ولا تساع العمل فيه ، ولولا رميه بالعجز لكف عن إكماله .

ولكن لا ننسى فى هذا المقام أن نشير بوجه خاص إلى أن مادة التاريخ بأنواعه ومادة التقويم والمعلومات العامة قد وجدت فى هذا العصر رجالا هاموا بها هياماً ، وأغرموا بها غراماً ، فوضعوا فيها من المؤلفات ما يُعد — إلى وقتنا هذا — فى مقدمة الأسانيد والمراجع ، وما يُعد مفخرة للعلم ومأثرة لمصر . — ومن هؤلاء جميعا من ولى التدريس .

فمنهم : ابن النفيس الطبيب . والأصبهانى الأصولى المنطقى . والتقى شبيب بن حمدان الحرانى الطبيب الكحال وعلاء الدين الباجى فى الأصول والمنطق . والصفى الهندى فى الكلام . صلاح الدين المعروف بابن الدهان فى الطب . شمس الدين محمد بن عبدالله المصرى مدرس الأطباء بجامع ابن طولون . صلاح الدين المعروف بابن المغربى فى الطب . العلاء على ابن أحمد فى المعقولات . ضياء الدين القرمى فى المعقولات . ابن صغير فى الطب . قنبر بن عبد الله الشروانى فى المعقولات . باكير زين الدين الكختاوى فى البلاغة . الكافيجى فى المعقولات .

(راجع حسن المحاضره ج ٢ ص ٢٥٨)

ومنهم : ابن خلكان المؤرخ صاحب وفيات الأعيان . وركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار المؤرخ صاحب زبدة الفكرة . وابن المتوج المؤرخ صاحب كتاب إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل فى تاريخ مصر . والأدفوى المؤرخ صاحب الطالع السعيد . والنويرى المؤرخ والمقوم صاحب نهاية الأرب وابن دقماق مؤرخ مصر، وله عدة كتب منها الانتصار وشهاب الدين الأوحدى وله كتاب فى خطط مصر والقاهرة . والمقريزى صاحب الخطط وغيرها، والقلقشندى صاحب صبح الأعشى. وابن حجر صاحب الدرر الكامنة . وصلاح الدين الصفدى صاحب كتاب الوافى بالوفيات فى تاريخ الرجال وابن شاكر مؤلف فوات الوفيات فى تاريخ الأعلام وابن خلدون صاحب تاريخه المسمى بالعبر . وابن الوردى صاحب تاريخه . والسخاوى المؤرخ صاحب الضوء اللامع . والسيوطى مؤلف تاريخه المسمى حسن المحاضرة . وابن إياس صاحب تاريخه المشهور ببدائع الزهور . وابن تغرى بردى صاحب مؤلفه الأشهر فى التاريخ وهو النجوم الزاهرة . وابن عبد الظاهر صاحب الروضة البهية فى التاريخ والتقويم . وابن فضل الله صاحب مسالك الأبصار فى التاريخ والتقويم والأدب . ويضاف إلى هؤلاء وهؤلاء عدد ضخم من الأدباء سنذكره فى الجزء الخاص بالشعر أو الكتابة .

راجع حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥

هذا ولا ننسى — ونحن ننوه بهؤلاء العلماء الأفاضل والمدرسين الأماثل — أن نذكر أن كثيرا منهم أجنبى عن مصر وعن القاهرة . ولد هو أو أبوه أو أحد أجداده فى بلد آخر ونسب إليه . ثم كانت خاتمة مطاف أحدهم مصر ، قدم إليها ، ونعم بخيراتها واتخذها وطنا له ثانيا . ولذله فيها المقام وسواء فى ذلك هى أو الشام .

وسنعود إلى هذا الموضوع بالكلام المفصل والحديث الطويل ، ونعرض تراجم عدة لبعض هؤلاء الأعلام . ووصفا لجهودهم العلمية .

أما المؤلفات فسنتناول الحديث عنها كذلك .

١٠ ـ تشجيع المؤلفين

أشعر بأن العلماء الذين وجدوا كل ضرب من ضروب التشجيع على المضى قدما فى الناحية العلمية ، ففتحت لهم المدارس ، وعنى باختيارهم لتولى الدراسة فيها ، وسعى إلى استشارتهم وسمع لشكاياتهم ، وقد أجريت عليهم المرتبات القيمة ، وأغدقت عليهم النعم الوفيرة ، ورفعت منازلهم ... إلى غيرذلك . أشعر أن هؤلاء العلماء قد وجدوا فى كل هذا ما يشجعهم كذلك على المضى قدما فى التأليف والتدوين والتصنيف ، وإن كنا لا نجد تشجيعا صريحا مباشرا فى هذه الناحية ، تشجيعا ينصب على ناحية التأليف . وتنشيط حركته ، وإغراء المؤلفين بالأقدام على عملهم وإتقانه .

وربما وجدنا بعض الحوادث فى هذا الباب ، ولكنها فى نظرنا حوادث فردية ، وليست سياسة عامة أو اتجاها شاملا . ومن هنا لا نستطيع اتخاذ مثل هذه الحوادث تكأة نعتمد عليها فى اعتبار هذا العامل — وهو عامل التشجيع — كان ذا خطر كبير وذا تأثير خطير فى حفز همم العلماء ودفعهم إلى ميدان التأليف ، كما دفع نظراءهم تشجيع خلفاء بنى العباس — مثلا — ووزرائهم وغيرهم من رؤساء دولتهم لعلماء عصرهم وأدبائه .

ومن هنا نشعر شعورا قويا بجلال هذا الإقدام العجيب الذى أقدمه علماء العصر المملوكى على اقتحام ميدان التأليف والاضطلاع بحمل أعبائه . فأية قوة نفسية تلك التى كانوا يدخرونها بين ضلوعهم ، وأية شجاعة قلبية تلك التى كانوا يحتازونها بين حناياهم ! إن بعضهم ، بل كثيرا منهم — يعتبرهاويا من هواة التأليف ، قد تعددت مؤلفاته فى شتى العلوم ، حتى عدت بالمئات .

على أننا ، وقد اعترفنا بضعف هذا العامل باعتباره حافزا من حوافز الاشتغال بالعلم والتأليف ، لا نرى مناصا ، للعصر إنصافا ، من ذكر ماقرأناه عن حوادث التشجيع الفردية فمنها :

ما ذكره ابن أبي حجلة المغربي عن كتابه « ديوان الصبابة » ، فقد قال في مقدمته إنه احتفظ لنفسه بهذا الكتاب بعد تأليفه حتى برزله مرسوم شريف من الملك الناصر حسن بطلبه ، فقدمه إليه .

وكذلك قال عن كتابه « سكردان السلطان » فإنه ألفه للسلطان الناصر حسن المذكور . ولعل هذا يرجع إلى المزاج الأدبي لهذا السلطان ، ويبدو أنه كان كثيرا ما يشجع الأدباء، فإنه كذلك طلب إلى الشاعر ابن نباتة المصرى ، أن يقدم إليه ديوانه الشعرى، فقدمه . وقد وظفه السلطان بديوان الإنشاء بالقاهرة ، فلعل ذلك كان إحدى جوائزه على ديوان شعره .

وذكر السيوطي في حسن المحاضرة « ج ٢ ص ٧٢ » أنه ألف للخليفة المتوكل على الله أبي العز عبد العزيز المتوفى عام ٩٠٣ هـ كتابين أولهما : « كتاب الأساس في فضل بني العباس » ، وثانيهما « كتاب رفع الباس عن بني العباس » .

وقيل إن المؤرخ أبا بكر بن أيبك ، ألف كتابه « كنز الدرر وجامع الغرر » للسلطان الناصر محمد بن قلاوون — راجع تاريخ آداب العربية لجورجي زيدان ج ٣ ص ١٩٢ .

كما عرف أن السلطان الغوري، ألفت له كتب منها كتاب « نفائس المجالس السلطانية في حقائق الأسرار القرآنية» من تأليف حسين بن محمد الحسيني . ومنها كتاب « الكوكب الدري في مسائل الغوري » ، وقد نشرا أخيرا ملخصين عام ١٩٤١ م .

وقال جورجي زيدان أيضا — ج ٣ ص ٢٥٤ أن محمدا القوصوى الطبيب ألف للغوري بإشارة منه كتابه الطبي « كمال الفرحة » .

وقال أيضا — ج ٣ ص ٢٥٤ — إن عماد الدين موسى بن محمد اليوسفي المصري المتوفى عام ٧٥٩ هـ ألف للسلطان جقمق كتابه « كشف الكروب في معرفة الحروب» وهو في الفنون العسكرية .

وقال أيضا في ص ٢٥٧ إن محمد بن لاچين الحسامي الطرابلسي الرماح ، ألف

كتابه فى الفروسية ، وهو « بغية القاصدين فى العمل بالميادين » للأمير سيف الدين المارديني صاحب حلب .

وقال أيضا فى ص ٢٥٩ إن حسن بن عبد الله العباسى ألف كتابه « آثار الأول فى تدبير الدول » للسلطان المظفر بيبرس المنصورى .

وقال أيضا فى نفس الصفحة إن محمود بن اسماعيل الجيزى ألف كتابه « الدرة الغراء فى نصائح الملوك والولاة والوزراء » للملك الظاهر أبى سعيد چقمق العلائى .

وقال فى ص ١٨٢ إن شهاب الدين الأشرفى ألف كتابه « البرهان فى فصل السلطان » للسلطان الملك الظاهر خشقدم .

وذكر ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب ص ٨٠ ، أن شمس الدين بن ناهض الفقاعى كتب سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى سلطان مصر ما بين نظم ونثر ، وقدمها إليه فى عام ٨١٨ هـ .

وفى فهرس دار الكتب المصرية ج ٥ ص ٢٠٥ ، أن كتاب « روض المناظر » ألفه قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة المتوفى عام ٨١٥ هـ ، إجابة لرغبة الأمير عماد الدين محمد نائب السلطان بقلعة حلب . وبهذا الكتاب حديث عن المخلوقات والمشاهير وغير ذلك .

وفى ص ١٣٣ منه أيضا أن كتاب « تذكرة الملوك إلى أحسن السلوك » ألفه أحد العلماء الأفاضل برسم السلطان الأشرف الغورى . وبهذا الكتاب سير ملوك ووزراء وقضاة .

١١ — تنافس العلماء

لا أعنى بتنافس العلماء هنا، تنافسهم فى سبيل العلم وفى سبيل التاليف ومباراتهم بالمناظرات والمحاورات، وما إليها مما يكون ذا أثر بعيد وبديع فى الحركة العلمية. لا، وإنما أقصد تنافسهم فى سبيل بلوغ هذه المراكز العالية التى خصصت لهم فى القضاء وفروعه وفى مشيخة الإسلام وفى مشيخة المساجد والمدارس، وفى تولى التدريس بها وفى مشيخة الخوانق كذلك وسواء فى ذلك أكان مغريهم الرواتب المادية أم المنزلة الأدبية التى يصلون إليها بمصاحبة السلطان والأمراء وأعيان الدولة، وفى التقدم فى الصفوف الأمامية، وفى دعوتهم للاستشارة، وفى دعوتهم للفتيا، وهكذا. — كان هذا كله ميدانا لتسابق علماء العصر، وتنافسهم. وهذا التسابق والتنافس له أثره غير المباشر فى تقدم الحركة العلمية. فإن العلم هو أهم سلاح يتقلده كل منافس.

لذلك كان على كل طامع فى جاه أو منصب أو مال أو شهرة أو نحو ذلك من علماء العصر، أن يسعى إلى مطمعه من ناحية العلم أولا، فعليه أن يتتلمذ ويتنقل من شيخ إلى شيخ وأن يدأب على الدرس والمطالعة وأن يلم بشتات من علوم عدة ثم عليه بعد ذلك أن يجرب نفسه فى التصدى للتدريس والفتيا والتأليف، وأن يبنى بيديه أساس مستقبله، وأن يتصدى للنفع العام، وتفقيه الطلاب والعامة، فإذا أفلح فى ذلك ذاع صيته واشتهر، وعرف خبره وكثر ذكره، وسما اسمه إلى مسامع الملوك والأمراء، وتولدت لديهم الثقة به، والركون إليه فيدعى حينئذاك إلى تربع فى منصب، أو جلوس فى دست، أو استشارة فى أمر. وهكذا. لذلك نقول إن تنافس العلماء من هذه الناحية كان من وسائل تشجيع الحركة العلمية.

وحسبك أن تقرأ ما كتبناه فى الجزء الأول من هذا الكتاب عن القضاء والقضاة لتدرك بعض ما أشرنا إليه هنا.

١٣ ـ تجديد الخلافة

فصلنا فى الجزء الأول [١] من هذا الكتاب ، حديث الخلافة وتجديدها فى مصر ، بعد زوالها من بغداد ، بنحو ثلاث سنوات . ونوهنا بالجهود التى بذلها السلطان الظاهر بيبرس فى سبيل إنشائها . وهى فرصة انتهزها بيبرس ليدعم مجده بعمل دينى عظيم ، يلفت إليه أنظار المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويبهر أبصارهم ، ويجمع من حوله قلوبهم ، ويبرز سلطنته بين دولهم باعتبارها حاضنة الخلافة ورافعة علم الإسلام . ولكى يكسب سلطنته صفتها الشرعية ، إذ يضفيها عليه خليفة مبايع يملك التولية والعزل ولو من الناحية الشكلية .

وقد عاشت هذه الخلافة — على علاتها — فى مصر ، إلى آخر عصر المماليك ، ثم زالت بزواله . ولبث سلاطين مصر طيلته يستمدون سلطتهم الشرعية من الخلفاء . وكذلك فعل بعض ملوك المسلمين غيرهم .

ولا ريب أن وجودها كان له أثره المعنوى العظيم فى جعل البلاد المصرية محورا إسلاميا ومركزا دينيا هاما ، وعشا للعلماء ينشئون فيه أو يفدون إليه ، ويستمدون منه الإلهام والتوجيه ، فى جهادهم العلمى ، والسعى سعيا غير شعورى ، فى سبيل تدعيمه . إذ فى بقائه بقاءهم ، وفى زواله طامة عليهم .

وهكذا استكملت القاهرة كل العناصر اللازمة للنشاط العلمى ، فإنها لم يكن ينقصها قبل إنشاء الخلافة بها إلا هذه الخلافة ، لكى يتم لها وجوه الشبه بينها وبين بغداد .

---

(١) القسم الثانى منه ص ٧

خاتمة

ويحسن بنا أن نختتم هذا الباب بما قاله ابن خلدون «٨٠٨ هـ» فى مقدمته عن مبلغ تقدم العلوم والفنون ، ومبلغ العناية بهما فى البلاد المصرية مع التعليل لذلك . قال :

« ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم ، إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبحر ، وحضارتها مستحكمة ، منذ آلاف من السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع ، وتفننت . ومن جملتها تعلم العلم . وأكد ذلك وحفظه ، ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين فى دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب ، وهلم جرا .

وذلك أن أمراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم ، لما له عليهم من الرق أو الولاء ، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته . فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة ، يجعلون فيها شركا ، لولدهم ، بنظر عليها أو نصيب منها ، مع مافيهم غالبا من الجنوح إلى الخير ، والتماس الأجور فى المقاصد والأفعال . فكثرت الأوقاف لذلك ، وعظمت الغلات والفوائد ، وكثر طالب العلم ومعلمه ، بكثرة جرايتهم وارتحل إليها الناس فى طلب العلم من العراق والمغرب ، ونفقت بها أسواق العلوم ، وزخرت بحارها . والله يخلق ما يشاء » . (١)

---

(٢) راجع تقويم النيل ج ١ ص ٢٠٢ ، ومصر والنيل ص ١٠ ، كلاهما لأمين سامى باشا .

الباب الثالث

نتائج نشاط الحركة العلمية

تكاد تنحصر نتائج هذا النشاط العلمى فى ثلاثة أمور هى: أولا: وفود الطلاب إلى دور التعليم. ثانيا: كثرة العلماء والأدباء. ثالثا: نشاط الحركة التأليفية.

١ - وفود الطلاب إلى دور التعليم

لا ريب أن افتتاح المدارس، وتعيين العلماء فيها للتدريس، والعناية باختيارهم ورصد الأوقاف للإنفاق عليها، وإجراء الرواتب على طلابها، وتهيئة المساكن لنومهم، وتزويدهم بالطعام والكسوة وما إلى ذلك مما فصلناه فيما سبق، من شأنه أن يجذب إليها قلوب الطلاب، ويحببهم فى الانتظام فى سلكها، بل وإلى الانقطاع إلى طلب العلم فيها.

وليس لدينا ثبت نرجع إليه فى معرفة عدد الطلاب المنتظمين فى كل مدرسة، وفى كل جيل، حتى نستطيع أن ندرك بالضبط إلى أى مدى وصلت هذه الحركة التعليمية.

غير أنه قد نُص فى سياق بعض الحوادث والأخبار، على أن عدد الطلبة كان يحدده منشىء المدرسة، وبخاصة عند كتابة شروط وقفها. وهذه نصوص فردية، لا عامة.

والمفهوم أن هذا التحديد — إن كان — منشؤه أن الوقف محدود، وفى طاقة ريعه أن ينفق على عدد محدود من الطلاب.

وكان بعض الواقفين يحدد عدد طلاب مدرسته بعشرة. وبلغ العدد

أحيانا ثلاثين . وهذا يدلنا على قلة من انتظم فى سلك الطلبة انتظاما ثابتا مستمرا. زد على ذلك ماكان يصيب الأوقاف المدرسية ، بعد وفاة الواقف ، من عبث وضياع ، كان لها أثرهما بلا ريب فى نقص عدد الطلاب المنتظمين .

ومع ذلك كله ، فقد كانت أبواب المدارس مفتحة يلجها من شاء من الطلاب، منتظمين وغير منتظمين على السواء ، فى أى وقت ، لسماع دروسها ، والاغتراف من مناهلها . وفى ذلك ما فيه من الحرية التعليمية ، التى تعين كثيرا من العامة والراغبين فى العلم ، غير المنقطعين إليه ، ممن لا يتقيدون برواتب أو جرايات، يعطونها من الأوقاف، لقاء حضورهم الدروس ، نقول تعينهم بل تستهويهم إلى طلب العلم ، فيترددون على هذه الدور الفينة بعد الفينة طلبا للثقافة .

وبهؤلاء وهؤلاء زخرت دورا لتعليم وماجت بطلاب العلم ، لا من البلاد المصرية وحدها ، بل ، ومن كل إسلامى آخر . إذ أصبحت مصر أهم كعبة علمية إسلامية يحج إليها محبو العلم وطلابه بلد وقد قيل إن الجامع الأزهر انتظم فى سلك طلابه أحيانا ما يزيد على سبعمائة وخمسين طالبا فى آن واحد ، وأنه ضاق عن أن يتسع لمثل هذا العدد الضخم ، فخرج الطلاب منه إلى العراء بجواره بين الهواء الطلق ، يتناولون هناك ما يحلولهم من أطايب العلم والأدب. وكان من بينهم أحيانا، العجم والزيالعة والمغاربة ، وغيرهم من الطلاب الغرباء .[1]

٢ — كثرة العلماء والادباء

وهذه من أهم نتائج النشاط العلمى ، إذ زخر العصر بالعدد الوافر من علماء المذاهب الأربعة والعلماء المجتهدين، وكثير من المتصوفة وأهل الكلام، والأصوليين، والنحويين واللغويين والأدباء والأطباء والمنجمين والفلكيين والمؤرخين ، إلى غير هؤلاء وهؤلاء .

---

(١) راجع ماكتبه المقريزى عن الأزهر ج ٤ من الخطط

وحسبك العودة لما ترجمناه فى باب القضاء والقضاة فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، ولمن نوهنا بذكرهم فى باب الدورس المقررة وأثرها ، ومن سننوه به منهم فى باب المؤلفين الآتى :

وقد نشط كثير من هؤلاء العلماء إلى التأليف والفتوى والتدريس والوعظ ، وشغلوا مناصب القضاء والكتابة وما إليهما ، وشغفوا بالمحاورات والمناظرات فى علوم الدين وعقائده ، فكان من وراء ذلك كله حركة فكرية نافعة ممتعة .

ومن المناظرات ما ذكره السبكى فى طبقاته [١] فى سياق ترجمة أبيه تقى الدين السبكى ، أن عددا من العلماء اجتمع معه وناظره كل منهم ، حتى أبطل حجة كل ومقالته ، ثم عاد فدعمها ، ثم عاد فاختار مذهب الشافعى ودعمه .

وقال صاحب الدرر الكامنة [٢] ، فى سياق ترجمة تاج الدين محمد المراكشى الشافعى المولود بالقاهرة إنه تناظر هو والفخرى ، فكان من حضر لا يفهم ما يقولانه لسرعة عبارتهما .

ومن المناظرات ماجرى بين ابن تيمية الحرانى وأنصاره من جانب ، وبين معارضيه من جانب ، وما جرى له فى مجالس التحقيق فيما أدعوه عليه .

وسنعود إلى توضيح هذا الموضوع فيما بعد .

٣ — نشاط الحركة التاليفية

هذه الحركة هى أهم نتائج النشاط العلمى ، وهى أهم ما نعنى بوصفه فى هذا الجزء من كتابنا ، إذ هى الثمرة الخالدة والأثر الباقى ، والوصلة الصالحة بين الماضى والحاضر . وهى بما أنجبت من مؤلفات ، سلسلة ذهبية وثقى ، سرى بها العلم وروحه من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة . وكان لمصر بسببها مفخرة أى مفخرة .

---

(١) الطبقات جـ ٦ ص ١٧١ ، ١٧٢

(٢) جـ ٣ رقم ٨٠٣

إذ ماجت ضفتاها بهذه الأمواج الكثر من المؤلفين ، وبهذا الجم الغفير من المؤلفات .

وهى، فيما بين هذا وذاك، رحبة الصدر كثيرة الخير ، تحمل للإنسانية والعلم ما ألقاه الزمان على كاهلها من أعباء النهوض بهما ، فجهدت فى القيام على ذلك ، وحملت الأمانة فأحسنت حملها وأداءها .

ونتناول هنا بالكلام ، العلوم المختلفة ، مشيرين إلى ماهيتها فى هذا العصر ، والاتجاهات التى اتجهت فيها ، والنواحى التى سلكتها . مع ذكر طائفة من المؤلفين والمؤلفات فى كل مادة على حدة . ثم نترجم لعدد من هؤلاء النوابغ ، مابين إيجاز وتفصيل .

ولم نعن فى هذا المقام إلا بالمؤلفين الذين اتصلوا بمصر والشام فى ذلك العصر اتصالا ما ، مثل الاستيطان ، أو الزيارة والمرور ، أو الوظيفة أو نحو ذلك . ولو لم يكن أحدهم مصريا خالصا صميما . وعوامل اكتساب المصرية كثيرة . . . ثم أغضينا عمن عدا هؤلاء لضعف صلتهم بمصر أو الشام ، فنقول والله المستعان :

المؤلفـــات[1]

لا نبالغ إذا قلنا إن مؤلفات علماء مصر فى خلال العصر المملوكى، وهو أقل من ثلثمائة عام ، تبلغ عدة آلاف ، وحسبنا دليلا على ما نقول أن بعضهم عُرف

---

١ — اعتمدنا فى هذا الباب على كتب كثيرة ومراجع عدة ومنها :
حسن المحاضرة للسيوطى ورمزنا إليه بحرف «س» ، وطبقات الشافعية للتاج السبكى ورمزنا إليه بحرف « طش » وطبقات الحنفية ورمزنا إليه بحرف « طح » ، وطبقات الحنابلة لمحمد جميل الشطى ورمزنا إليه بحرف « طن » وفوات الوفيات لابن شاكر ورمزنا إليه بحرف « ف » والطالع السعيد للادفوى ورمزنا إليه بحرف «طس » والجزء الثالث من تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ورمزنا إليه بحرف « ج » — وورد الكتب ورمزنا إليه بحرف « م ».

عنه أنه وحده ألف مئات من الكتب والرسائل ، كالسيوطى فقد قيل إن مؤلفاته أربت على ستمائة ، وكابن تيمية الحرانى فقد قيل إن مؤلفاته أربت على خمسمائة ، وكابن حجر العسقلانى فقد قيل إن مؤلفاته أربت على مائة وخمسين ، وهكذا .

وبلا ريب، كانت هذه المؤلفات تملأ دور الكتب المصرية فى العصر المذكور بجوار دور التعليم ، عدا ما كان منها فى خزائن الكتب بدور بعض الأمراء أو الرؤساء والعلماء . وكانت تحتل مكانها بجانب غيرها من ثمار القرائح فى العصور الأدبية السابقة .

فلما فتح العثمانيون مصر عام ٩٢٣ هـ ، وأزالوا حكم سلاطين المماليك ، نهبوا ذخائر البلاد ونفائسها ، وفى مقدمتها تلك المؤلفات . فحملوها فيما حملوا إلى عاصمة بلادهم ، وجعلوا بها دور كتبهم ، ولم تبق فى مصر إلا صبابة من تلك الكأس المليئة، مبعثرة هنا وهناك . وقد كانت هذه الصبابة نواة لإنشاء دار الكتب المصرية بالقاهرة، فى عهد عاهل مصر العظيم الخديو إسماعيل .

وتسرب كثير من هذه المؤلفات كذلك إلى مكاتب أوربا ، فازدانت بها هذه المكاتب .

ولا تزال هذه وتلك ، تنادى المصريين وتهيب بالكرماء منهم والغيورين على تراث مصر ومجدها ، والحريصين على كنوزها العلمية ، أن يردوا عليها غربتها ، ويعيدوها هى أو صورة منها إلى الوطن العزيز .

إن هذه المؤلفات بلاريب ، أعانت هى وأمثالها كثيرا من المستشرقين على ما هم بصدده من البحوث الإسلامية والمشرقية . ونحن أولى بأن تكون قريبة منا لتقدم إلينا مثل هذه المعونة .

على أن عددا ضخما من هذه البقية الباقية من المؤلفات المصرية ، التى كان من نصيبها السلامة من عبث العثمانيين ، وتزدان بها الآن دور الكتب، بالقاهرة وغيرها، لا يزال مخطوطا ، لم يزل عنه غبار النسيان ، فى عصر اكتملت فيه كل أدوات الطباعة ووسائلها . ومست حاجة النهضة إلى طبعها .

وحقا ، أخرجت مطبعة بولاق وغيرها بعضا من هذه الأسفار المجفوة ، وكذلك عُنى بها بعض كرام الأدباء، وسهر على إخراجها إلى النور، فكان لذلك كله أثر بارز فى النهوض العلمى والثقافة الحديثة ، غير أن هذا لم يعدُ قطرة من بحر ، ونشقة من زهر .

وبعد ، فلنعد إلى هذه المؤلفات المصرية ، وعصر تأليفها ، وهى العصر المملوكى. فنقول إنها قد تنوعت صنوفها ، واختلفت ضروبها ، وكان لكل علم نصيب منها . وها نحن أولاء ننوه ببعض منها . فمن ذلك :

كتب التاريخ

التاريخ فى مقدمة الفنون التى سعدت بالعناية ، ورزقت الرعايةَ فى هذا العصر . فقد تضافرت الجهود ، وتضاعفت الهمم ، وتنافست العقول والأيدى على إخراج كتب تاريخية حافلة . فامتلأت بها خزانات الكتب ، وتعددت أنواعها وتكاثرت مزاياها ، حتى أصبحت ذخيرة نفيسة عظيمة القيمة ، لا غنى عنهـــا للإنسانية والتاريخ فى حلقاتهما الحافلة . ولو لم توجد هذه الكتب التاريخية التى ألفها رجال العصر المملوكى ، لأصيب تاريخ مصر وتاريخ الإنسانية معها ، بنقص ذريع . ولبانت فيه ثغرة فاغرة واسعة لا يستطيع أحد من بعدُ سدها .

ولعلنا نعرف مزايا هذه النهضة التاريخية العجيبة — أكثر مما عرفنا — إذا علمنا أن هـــذه المؤلفات تضم بين ثناياها ضروبا أخرى من أقوال تاريخية وأنباء ، تتوارد فى سياق الموضوعات الرئيسية التى تكلفت الحديث عنها ، كذكر مؤلفات العلماء ، وحوادث الأعلام ، وأخبار المناظرات والمجادلات ، وما وضع بسببها من الرسائل والمقالات والبحوث الفقهية وغيرها ، وتدوين نصوص عدة من منثور الكلام ومنظومه ، وتسجيل الطرف الأدبية ، والحوادث الفكاهية وما إلى ذلك . مما يوقف الباحث على الاتجاهات الأدبية ، ويعينه على فهم النزعات

الاجتماعية ، والعادات والتقاليد المرعية . ولا يزال ميدان البحث فى هذه الأمور وما شاكلها، خلوا لم يخترقه من الجياد إلا قلائل . ولا يزال فى حاجة قصوى إلى الكر والتجوال . وفيه للمنتهب الخبير الجامع للشعث ، اللام للشتات، المتعمق المستنبط، مدى فسيح ، وأفق رحب وعمل بارع مجيد، عظيم القيمة جميل العاقبة .

وإننا مع إعجابنا الشديد بهذه اللمحات البارقة ، وبمن تهدّى إليها من المؤرخين، لا ننكر أن فيها خلطا بين العناصر التاريخية، وتقطيعا للبحوث الرئيسية ، وإجهادا للقارىء أو الباحث المعنى بناحية ما وحدها ، وإضاعة لزمنه . ولكن هكذا كانوا يؤلفون. كأنما أرادوا أن يقدموا للباحثين من بعدهم بذورا يستولدون عليها نباتهم، وإن اختلطت حباتها ، أو فسائل يستنبتون عليها غراسهم ، وإن تداخلت أصولها.

لذلك نرى ضرورة تجديد هذه الكتب ، وطبعها، لبعثها بأثواب قشيبة تجاب إليها أنظار الناشئة والهواة ، بما لها من طبع جميل ، وما بها من نظم تيسر سبيل الاستفادة منها ، وأبسطها ترتيب فهارسها وتنوعها بتنوع الأعلام والحوادث والموضوعات ونحوها .

ومن مزايا بعض هذه الكتب ظهور روح النقد فيها ، مع حسن الضبط وتحرى الصواب ، وتغلغل النظر فى بواطن الحوادث والنزوع إلى استنباط القضايا العامة . وعلى رأس القائمة مقدمة ابن خلدون وتكاد تكون نسيج وحدها فى هذا العصر وفيها ما فيها من كثرة القضايا ، وعمق النظر ، وحسن الاستنباط ، وشمول الحكم ، وصوابه فى كثير مما ذهب إليه .

ومن المؤلفات التاريخية المشهورة كذلك : وفيات الأعيان لابن خلكان، واشتهر بحسن الضبط ودقة النقل وإيراد الروايات .

وخطط المقريزى وسلوكه وغيرهما من كتب هذا العلامة الذى اشتهر بطرافة موضوعاته مع الحرص على الاستيعاب وكشف الخفى الدقيق من اجتماعيات ونظم إدارية .

والضوء اللامع للسخاوى ، فقد شاعت فيه روح النقد ، مع العناية بأخبار معاصريه وأنداده منهم بخاصة .

وكتاب الوافى بالوفيات لصلاح الدين بن أيبك الصفدى، وقد عُرف بضخامته وسعته .

ومن يقرأ كتاب ابن إياس فى تاريخ مصر ، وهو بدائع الزهور ، يشعر فى ثناياه بروح نقد قوية تتجلى ، وبصراحة واضحة لاهوادة فيها، تتراءى .

فلكل مؤلف خصوصيات ترسم شخصيته ، وسنعود إلى هذا الحديث بتفصيل وتمثيل فيما بعد .

ولعل ظهور روح النقد فى كتب المؤلفين ، كان من أسبابها: استعجام ملوك العصر، وبعدهم عن فهم مايدونه المؤرخون فى بطون أسفارهم ، وكذلك عدم سيطرتهم المادية عليهم ، هذا إلى تلك الشدائد التى قاساها العصر ، والمحن التى شغلت ملوكه وأمراءه بالحروب الخارجية والفتن الداخلية . فأتاحت لهؤلاء غفلة من حكامهم القساة ، نعموا فيها بطيب النقد ، والاسترواح إليه بين الفينة والفينة .

على أن العصر كان عصر تزويق وتنميق ومداهنة ، بدت هذه الظاهرة فى أمور كثيرة ، وهى بدورها تولد روح النقد وتنميها ، وتمدها بمادة ثرية للحديث . كما أن هؤلاء المؤرخين ، هم فى أصالة أمرهم، رجال دين وعلماء شرع ،الحق فى أغلب أمرهم ضالتهم . فلا يبالون فى سبيله بشىء .

هذا ، على أن منهم من خرج إلى ميدان من النقد فسيح آمن ، بعيداً عن عنت الملوك والأمراء وكيد الرؤساء ، فتناول بالنقد غيره من العلماء والأدباء ، فكان من نقده مادة طريفة من مواد البحث .

ومن لطيف مانظفر به فى مؤلفاتهم ماكتبوه عن معاصريهم وأهل جيلهم مما رأوه بعيونهم ، واشتركوا أحيانا فى حوادثه . وفى كثير منه استيعاب ودقة وصدق .

ولم يقصروا موضوعاتهم الرئيسية على ضرب من التاريخ دون ضرب . بل طرقوا صنوفه المتعددة وأبوابه المختلفة ،فتباينت أسفاره وتعددت أنواعه .

بهذا كله نراهم قد استجابوا لذلك النداء المدوى فى أرجاء الضمائر الإسلامية

داعيا إلى تعويض الإسلام وتاريخه ، عما فقده من ذخائره فى بغداد بالتتار ، وفى الشام الصليبيين ، وفى الأندلس بالفرنجة .

وإننا لنسوق هنا ثبتا ، نذكر فيه عددا من الكتب التاريخية فى كل نوع حسبما وسعته المقدرة ، وبلغه جهد الاطلاع ، ذاكرا فيه سرد وإيجاز ، أما التفصيل فله موضع آخر.

١ — كتب تراجم الاعلام

إنما قدمنا ذكر هذا النوع من الكتب التاريخية لأنه أكثرها عددا وأوفرها عناية ، وأفضلها ضبطا وأكثرها سعة ، وأضخمها استيعابا وأعمها نفعا ، وأوسعها تناولا .

وقد لاتجد فى عصر ما من العصور السابقة ولا اللاحقة ، مجموعات من كتب التراجم شبيهة بما وضع منها فى هذا العصر — وأجل مايلفت النظر فيها ، عناية المؤرخين بترجمة أعلام العصر نفسه ، المعاصرين لهم وغير المعاصرين . فتركوا بين يدينا بذلك حلقات متتابعة ، كل حلقة منها حسنة الصلة بالأخرى . ويتكون من كل عدة حلقات منها سلسلة متماسكة وثيقة ، يقرأ المرء فيها حياة رجال هذا العصر من أوله إلى آخره . ولا يقرأ المرء فيها حياة هؤلاء الرجال فحسب ، بل يجد كثيراً من نواحى العصر الروحية والخلقية والاجتماعية والسياسية والعلمية وما إلى ذلك ، كما نوهنا

وإليك مثلا لذلك : كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان المتوفى عام ٦٨١ هـ وبه أكثر من ثمانمائة ترجمة . بينها عشرات التراجم لبعض أهل القرن السابع . وقد وضع ابن شاكر الكتبى المتوفى عام ٧٦٤ هـ ملحقا لهذا الكتاب سماه « فوات الوفيات » ضمنه عشرات التراجم لبعض أهل القرن الثامن . وقد اقتدى بهما الصلاح الصفدى المتوفى عام ٧٦٤ هـ أيضا فى كتابه الجامع المسمى « الوافى بالوفيات »

ضمنه ـ على مايقال ـ مئات من تراجم أهل القرنين السابع والثامن .

وإليك مثلا آخر : كتب البرزالى المتوفى عام ٧٣٩ هـ كتابه « مختصر المائة السابعة » به تراجم كثيرين ممن عاشوا فيها . وكذلك صنع الأدفوى المتوفى عام ٧٤٨هـ فكتب كتابه « البدر السافر وتحفة المسافر » فى تراجم مشاهير القرن السابع .

ثم وضع ابن حجر العسقلانى المتوفى عام ٨٥٢ هـ كتابه « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ترجم فيه مشاهير القرن الثامن . ومن قبله وضع الصفدى صلاح الدين المتوفى عام ٧٦٤ هـ كتابه « أعيان العصر وأعوان النصر » وهو فى تراجم مشاهير القرن الثامن الهجرى .

ثم وضع السخاوى المتوفى عام ٩٠٢ هـ كتابه « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » ترجم فيه لمشاهير هذا القرن .

وقد أتم هذه السلسلة من الكتب ، كتب أخرى كطبقات الشافعية للسبكى ، وطبقات الشافعية للاسنوى وغيرهما .

ويجب أن يكون مفهوما أن بين ثنايا تراجم الكتب المذكورة تراجم كثيرين ممن لم يعيشوا فى مصر ، ولا يعنينا أمرهم فى عصرنا الذى نحن بصدده .

هذا وقد اعتبرنا كتب الأنساب الخاصة برجال الحديث داخلة ضمن كتب هذا الباب .

كما أنه من ظرف هذه الكتب أن تراجمها مرتبة ترتيبا هجائيا حسب أسماء الأعلام . وهذا مما يسهل تناولها فكأنها تحمل فى طياتها فهارسها . — وإليك ثبتا ببيان بعض هذه الكتب .

١ — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان : مؤلفه

شمس الدين بن خلكان المتوفى عام ٦٨١ هـ . وهو معجم تاريخى به أكثر من ثمانمائة ترجمة مرتبة ترتيبا أبجديا . وبه أعلام من عصور مختلفة وطبقات مختلفة . ويمتاز بالضبط والدقة وتحرى الصواب . وهو جزءان كبيران .

٢ — الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء العبد : مؤلفه كمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوى المتوفى عام ٧٤٨ هـ. وهو معجم حافل به أكثر من ٥٩٠ ترجمة لأعلام الصعيد من معاصرى المؤلف ومن سبقهم كذلك وهو مرتب على حروف المعجم.

٣ — البدر السافر وتحفة المسافر : مؤلفه الأدفوى السابق ذكره أيضا . وهو فى تراجم مشاهير القرن السابع الهجرى .

٤ — الوافى بالوفيات : وهو لصلاح الدين الصفدى المتوفى عام ٧٦٤ هـ . وهو فى نحو خمسين مجلدا ، ولا يوجد مجتمعا فى مكتبة واحدة . وهو موسوعة جامعة فى تراجم الأعلام اقتدى فيها بابن خلكان فى وفيات الأعيان . ذكره السيوطى فى خطبة كتابه « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » ، وأنه أطلع عليه بخط الصفدى فى أكثر من خمسين مجلدا .

٥ — أعيان العصر وأعوان النصر . مؤلفه صلاح الدين الصفدى كذلك . وهو مجموع تراجم مشاهير القرن الثامن الهجرى إلى أيام المؤلف ، من النساء والرجال.

٦ — فوات الوفيات : مؤلفه محمد بن شاكر الكتبى المتوفى عام ٧٦٤ هـ . وهو تذييل على كتاب وفيات الأعيان . ومرتب على حروف المعجم . وبه نحو خمسمائة وخمسين ترجمة لأعلام من عصور مختلفة على نمط كتاب الوفيات . وهو جزءان .

٧ — عيون التواريخ : مؤلفه ابن شاكر أيضا . وهو مجموع تراجم مرتب السنين ، انتهى فيه إلى سنة ٧٦٠ هـ فى ستة مجلدات .

٨ — الإصابة فى تمييز الصحابة : كتاب مشهور لابن حجر العسقلانى المتوفى عام ٨٥٢ هـ ، وهو مرتب على الحروف .

٩ — المجمع المؤسس للمعجم المفهرس : مؤلفه ابن حجر العسقلانى أيضا . ذكر فيه أسماء شيوخه ورتبه على الحروف .

١٠ — الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة : كتاب نفيس لابن حجر العسقلانى أيضا . وهو أربعة أجزاء تحتوى على أكثر من ألف ترجمة لأعلام هذه المائة . مرتبة حسب الحروف .

١١ — رفع الإصر عن قضاة مصر : مؤلفه ابن حجر العسقلانى أيضا . ذكر فيه قضاة مصر من أول فتحها إلى آخر المائة الثامنة .

١٢ — تقريب التهذيب فى رجال الكتب الستة : وهو لابن حجر العسقلانى أيضا

١٣ — تاج التراجم : وهو فى طبقات الحنفية ، ومؤلفه أبو الفضل بن قُطلوبُغا المتوفى عام ٨٧٩ هـ ، مرتب على الحروف .

١٤ — عنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران : مؤلفه برهان الدين البقاعى المتوفى عام ٨٨٥ هـ . جمع فيه تراجم شيوخه وأساتذته ومعاصريه وتلاميذه على حروف المعجم . ج ٣ — ص ١٦٨

١٥ — عنوان العنوان : وهو مختصر الكتاب السابق . ألفه البقاعى كذلك .

١٦ — الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع : من أنفس كتب التراجم ، ومؤلفه شمس الدين السخاوى المتوفى عام ٩٠٢ هـ . وهو كتاب جامع لأعلام القرن التاسع الهجرى فى ١٢ جزءا

١٧ — ذيل رفع الإصر عن قضاة مصر ، مؤلفه شمس الدين السخاوى أيضاً . استدرك فيه وذيل لكتاب شيخه ابن حجر .

١٨ — الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، مؤلفه شمس الدين السخاوى أيضا . عرف فيه التاريخ وما ألف فيه . وأسماء المؤرخين على حروف الهجاء .

١٩ — طبقات الشافعية ، مؤلفه الإسنوى المتوفى عام ٧٧٢ هـ . وهو فى رجال المذهب الشافعى [١]

---

(١) هذا ما ذكره جورجى زيدان ج ٣ ص ١٧٠ — وذكر السيوطى فى حسن المحاضرة « باب فقهاء الشافعية » مايفهم منه أن محيى الدين بن جعفر الاسنوى المتوفى عام ٧٥٦ هـ له طبقات للشافعية وإن جمال الدين بن عبد الرحيم الاسنوى المتوفى عام ٧٧٧ هـ له طبقات للشافعية .

٢٠ — مختصر المائة السابعة : مؤلفه القاسم علم الدين البرزالى المتوفى عام ٧٢٩ هـ وهو مرتب حسب الوفيات .

٢١ — درة الأسلاك فى ملك الأتراك : مؤلفه بدر الدين بن حبيب الحلبى الدمشقى المتوفى عام ٧٧٩ هـ . وهو فى تاريخ السلاطين المماليك المصرية، ومرتب حسب السنين من سنة ٦٤٨ هـ إلى ٧٧٧ هـ . وفى أثناء ذلك أورد تراجم من مات من العلماء والأعيان فى تلك الفترة .

٢٢ — نظم الجمان فى طبقات أصحاب إمامنا النعمان : مؤلفه صارم الدين بن دُقماق المصرى المتوفى عام ٨٠٩ هـ . ثلاثة مجلدات الأول فى مناقب أبى حنيفة .

٢٣ — كتاب المقفى : مؤلفه تقى الدين المقريزى المتوفى عام ٨٤٥ هـ ، وصف فيه عيشة الأمراء والمشاهير الذين أقاموا بمصر . مرتب ترتيبا أبجديا أراده ثمانين مجلدا فأخرج منها ١٦ مجلدا .

٢٤ — درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة : ومؤلفه المقريزى كذلك . وهو معجم فى ثلاثة مجلدات ، لتراجم الأعيان من معاصرى المؤلف .

٢٥ — إمتاع الأسماع فيمن للنبى من الحفدة والأتباع : وهو للمقريزى كذلك فى ستة مجلدات . فى تاريخ أقرباء النبى وأصحابه كتبه وحدث به .

٢٦ — الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الملوك : مؤلفه المقريزى أيضا . ذكر فيه ترجمة ٢٦ علما منهم النبى عليه الصلاة والسلام ، والخلفاء الراشدون ومن بعدهم إلى أيام المؤلف . وهو خمسة أجزاء .

٢٧ — مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة : مؤلفه أبو المحاسن بن تغرى بردى المتوفى عام ٨٧٤ هـ . وابتدأ فيه بالنبى عليه الصلاة والسلام ثم الخلفاء الراشدين ، وهكذا إلى القائم بأمر الله الفاطمى . وعقب على ذلك بذكر العبيدين ومن بعدهم إلى أيامه .

٢٨ — المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى : مؤلفه أبو المحاسن أيضاً . وهو كتذييل للوافى بالوفيات تأليف الصفدي . وهو معجم لمشاهير الرجال من سنة

٦٥٠ هـ [١] إلى آخر أيام المؤلف . وهو ثلاثة مجلدات كبيرة .

٢٩ — الإعلام فى وفيات الأعلام : مؤلفه اسماعيل الذهبي المتوفى عام ٧٨٠ هـ . وهو غير شمس الدين الذهبي

٣٠ — تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير الأعلام : مؤلفه شمس الدين محمد الذهبي المتوفى عام ٧٤٨ هـ . وهو تاريخ كبير فى نحو ١٢ مجلدا رتبه على السنين من أول الإسلام إلى سنة ٧٠٠ هـ . وجمع فيه بين الحوادث والوفيات .

٣١ — تهذيب تهذيب الكمال : مؤلفة شمس الدين محمد الذهبي أيضا . أما « الكمال » فهو معجم فى ثلاثة مجلدات لرجال الحديث وضعه أبو محمد المقدسى الجماعيلى. وقد وضع له جمال الدين أبو الحجاج المزى المتوفى عام ٧٤٢ هـ « تهذيبا »، ووضع الذهبي « تهذيبا » لهذا التهذيب هو المذكور هنا وهو فى خمسة مجلدات .

٣٢ — التجريد فى أسماء الصحابة : وهو معجم كبير فى أربعة مجلدات لشمس الدين الذهبي أيضاً .

٣٣ — العبر فى أخبار البشر ممن غبر : وهو مختصر من تاريخ الإسلام . وكلاهما للذهبي شمس الدين أيضا .

٣٤ — طبقات الحفاظ : وهو لشمس الدين الذهبي أيضاً ، واقتطفه من كتابه الكبير « تاريخ الإسلام » .

٣٥ — طبقات القراء : وهو لشمس الدين الذهبي كذلك . اقتطفه من كتابه الكبير أيضاً « تاريخ الإسلام».

٣٦ — تاريخ النبلاء : استخرجه الذهبي أيضاً من تاريخه الكبير .

٣٧ — معجم الأشياخ : وهو لشمس الدين الذهبي أيضا ترجم فيه لنحو ١٣٠٠ من أشياخه على حروف الهجاء .

---

١ — ذكر فى الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٦٩ ، ٧٠ فى سياق ترجمة المقريزى أن معجم « المنهل الصافى » لأبى المحاسن يبتدىء بترجمة الرجال من سنة ٥٥٦ هـ .

٣٨ — المشتبه فى الأسماء والأنساب : وهو لشمس الدين الذهبى أيضا . وفيه تراجم لكثير من الرجال والنساء الذين تشابهت ألفاظ أسمائهم أو كناهم أو أنسابهم . مرتب ترتيبا أبجديا .

٣٩ — ميزان الاعتدال فى نقد الرجال : تأليف شمس الدين الذهبى أيضاً . جمع فيه أسماء الرواة من كتب الحديث الستة وزاد عليهم . وهو فى نحو ثلاثة مجلدات .

٤٠ — جامع المسانيد والسنن الهادى لأقدم السنن : مؤلفه أبو الفداء اسماعيل بن كثير المتوفى سنة ٧٤٨ هـ . ترجم فيه رواة الحديث نقلا عن كتب الحديث الستة . مرتب على حروف المعجم .

٤١ — طبقات الشافعية . مؤلفه أبو بكر تقى الدين بن قاضى شُهبة الأسدى الدمشقى المتوفى عام ٨٥١ هـ . وفيه تراجم مشاهير الشافعية إلى سنة ٨٤٠ هـ . مرتب حسب الطبقات فى ٢٩ بابا . وكل باب مرتب حسب الحروف .

٤٢ — طبقات النحويين واللغويين : هناك ثلاثة كتب للسيوطى «٩١١ هـ» فى طبقات النحاة مختلفة الحجم أصغرها يسمى « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » . . وقد ضاعت كبراها .

٤٣ — بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة : وهو للسيوطى كما قلنا . ترجم فيه لكثير من أهل اللغة وعلماء النحو . وهو منقطع النظير . ترجم فيه للمحمدين أولا ثم للأحمدين ، ثم رتب البقية ترتيبا هجائيا من الهمزة إلى الياء .

٤٤ — تاريخ الخلفاء : وهو لجلال الدين السيوطى أيضاً . ترجم فيه للخلفاء من عهد أبى بكر إلى الأشرف قايتباى المتوفى سنة ٩٠١ هـ .

٤٥ — طبقات الحفاظ : وهو لجلال الدين السيوطى أيضا . لخصه من طبقات الحفاظ لشمس الدين الذهبى .

٤٦ — طبقات المفسرين : وهو لجلال الدين السيوطى كذلك . وهو معجم أبجدى للمفسرين على اختلاف طبقاتهم .

٤٧ - الدرارى فى أبناء السرارى : وهو للسيوطى أيضا . ذكر فيه أسماء أبناء الخلفاء المولودين من الجوارى .

٤٨ - المنجم فى المعجم : وهو للسيوطى أيضاً . ذكر فيه أعيان شيوخه الذين سمع منهم .

٤٩ — عيون الأنباء فى طبقات الأطباء : ومؤلفه موفق الدين بن أبى أصيبعة المتوفى عام ٦٦٨ هـ . وهو فريد فى بابه ومن خيرة كتب التراجم .

٥٠ — طبقات الشافعية الكبرى : مؤلفها تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب السبكى المتوفى عام ٧٧١ هـ ، وهى ستة أجزاء أورد فيها رجال المذهب الشافعى مرتبين أولا حسب قرونهم، أى رجال كل مائة على حدة . ثم رتب رجال كل مائة ترتيبا أبجديا .

٥١ - الكوكب المضىء : مؤلفة شمس الدين السخاوى المتوفى عام ٩٠٢ هـ . ترجم فيه لكثير من العلماء المعاصرين له .

٥٢ — تذكرة الحفاظ : مؤلفه شمس الدين الذهبى المتوفى عام ٧٤٨ هـ . وهو معجم كبير فى أربعة مجلدات .

٥٣ — الإعلام بتاريخ الإسلام : مؤلفه أبو بكر بن قاضى شهبة المتوفى عام ٨٥١ هـ وهو مختصر لتاريخ الذهبى « تاريخ الإسلام » .

٥٤ — المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب الإمام أحمد : مؤلفه أبو اليمن العليمى المتوفى عام ٩٢٧ هـ . وهو فى أصحاب ابن حنبل .

٥٥ — عمدة الطالب فى نسب آل أبى طالب : مؤلفه أحمد بن على بن عنبة المتوفى عام ٨٢٨ هـ أو عام ٨٢٥ هـ . وهو فى نسب العلويين وتراجمهم .

٥٦ — بحر الأنساب : مؤلفه ابن عنبة أيضا . وهو فى نسب بنى هاشم .

٥٧ — الكاشف : مؤلفه شمس الدين الذهبى المتوفى عام ٧٤٨ هـ . وهو فى معرفة رجال الحديث .

٥٨ — إسعاف المبطأ فى رجال الموطأ . مؤلفه السيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ .

٥٩ ـ در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة : مؤلفه السيوطى أيضا.

٦٠ ـ نكت الهميان ونكت العميان : مؤلفه صلاح الدين الصفدى المتوفى عام ٧٦٤ هـ وهو فى تراجم مشاهير العميان .

٦١ تهذيب الأسماء : مؤلفه محي الدين أبو زكريا يحيي النووى المتوفى عام ١٢٧٧م وهو فى تراجم مشاهير رجال الشافعية مرتبا على حروف المعجم ، ما عدا الذين اسمهم محمد فقد أوردهم مستقلين أول الكتاب .

٦٢ ـ كتاب التبيين فى طبقات المحدثين المتقدمين والمتأخرين : مؤلفه جمال الدين يوسف بن عبد الهادى المتوفى عام ٩١٠ هـ . وهو فى سبع مجلدات .

ط

٦٣ ـ الرياض اليانعة فى أعيان المائة التاسعة : مؤلفه جمال الدين يوسف بن عبد الهادى أيضا .

ط

٦٤ ـ معجم الشيوخ : مؤلفه الإمام الحافظ وجيه الدين بن العماد المتوفى عام ٦٧٣هـ وهو معجم شيوخه .

س

٦٥ ـ إسعاف المبطأ برجال الموطأ : لجلال الدين السيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ

س

٦٦ ـ عين الإصابة فى معرفة الصحابة : لجلال الدين السيوطى أيضاً .

س

٦٧ ـ معجم فى رجال الصحيحين : مؤلفه الحافظ شهاب الدين أبو الحسين أحمد بن أحمد الهكارى المتوفى عام ٧٦٣ هـ .

س

٦٨ ـ طبقات الحنفية : مؤلفه عبد القادر بن محمد بن محمد بن أبى الوفاء القرشى المتوفى عام ٧٧٥ هـ

٦٩ ـ طبقات الحنفية : مؤلفه بدر الدين محمود العينى المتوفى عام ٨٥٥ هـ .

س ١ ص ٢٢٤

٧٠ ـ تراجم العلماء : مؤلفه عبد الرحمن البسطامى الحنفى المتوفى عام ٨٥٨ هـ ، عاش زمنا فى القاهرة .

ج ص ٢٤٩

٧١ ـ طبقات شعراء العرب : للسيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ .

س ١ ص ١٦٠

٧٢ ـ حاطب ليل وجارف سيل : للسيوطى كذلك . وهو معجم شيوخه .

س ١ ص ١٦١

٧٣ ـ تاريخ النحاة : مؤلفة تاج الدين أبو محمد أحمد بن عبد القادر بن محمد بن مكتوم المتوفى عام ٧٤٩ هـ

س ١ ص ٢٢٢

٧٤ ـ طبقات الفقهاء : مؤلفه جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الإسنوى المتوفى عام ٧٧٧ هـ

س ١ ص ٢٠١

٧٥ ـ سجع المطوق : لجمال الدين بن نباتة المصرى الشاعر المتوفى عام ٧٦٨ هـ ، وهو يشتمل على تراجم من قرظوا كتابه « مطلع الفوائد »

ج ص ١٢٢

٧٦ ـ نزهة الألباب فى الألقاب : لابن حجر العسقلانى المتوفى عام ٨٥٢ هـ ، وهو فى ألقاب المحدثين مرتبة ترتيبا أبجديا .

ج ص ١٦٧

٧٧ ـ تهذيب الكمال : أو مختصر تهذيب الكمال ، لابن حجر أيضا ، اختصر فيه كتاب ابن النجار ، فى معرفة المحدثين .

ج ص ١٦٧

٧٨ ـ مختصر أخبار النحويين لا بن القفطى : مؤلفه شمس الدين الذهبى المتوفى عام ٧٤٨ هـ

ج ص ١٩١

٧٩ ـ مختصر درة الأسلاك للذهبى : اختصره تقى الدين بن قاضى شهبة المتوفى عام ٨٥١ هـ . وهو فى سير ملوك مصر المماليك من عام ٦٤٨ هـ إلى عام ٧٧٧ هـ .

ج ص ١٩٥

٨٠ ـ طبقات الشافعية الوسطى والصغرى لتاج الدين السبكى المتوفى عام ٧٧١ هـ

ج ص ٢٤٣

٨١ ـ غاية النهاية فى رجال القراءات أولى الرواية والدراية : لشمس الدين بن الجزرى الدمشقى المتوفى عام ٨٣٣ هـ

ج ص ٢٤٧

٨٢ ـ تراجم الحنابلة :واضعه الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن رجب البغدادى الدمشقى الحنبلى المتوفى عام ٧٩٥ هـ ، وهو تذييل لمن سبقه .

طن ٦٤

٨٣ ـ طبقات الأصحاب : واضعه برهان الدين ابراهيم بن مفلح الحنبلى المتوفى عام ٨٨٤ هـ ، وهو فى تراجم الحنابلة .

طن ٦٧ ، ج ١٨٣

٢ ـ كتب السيرة النبوية

ونعنى بها هنا الكتب التى تحدثت عن حياة النبى عليه السلام ، وما كان له من وقائع وغزوات ،وما عرف له من مواقف ، وما جرى منه من حوادث ، وتتضمن كثيرا من أقواله وأفعاله وأقوال بعض صحابته . والغالب أن مؤلفى هذه الكتب هنا إنما جروا فى الميدان الذى جرى فيه أسلافهم وساروا على غبارهم واستقوا من معينهم . وليس بينهم من مجدد مبتكر ، كتب السيرة على نمط حديث . ومن مؤلفاتهم :

١ ـ عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير فى غزوات سيد ربيعة ومضر ، وفى شمائله إذ هى أشرف شمائل البشر : مؤلفه فتح الدين اليعمرى الأندلسى المشهور بابن سيّد الناس المتوفى عام ٧٣٤ هـ . وهو مجلدان مطولان فى السيرة النبوية.

٢ ـ نور العيون فى تلخيص سيرة الأمين والمأمون : ومؤلفه ابن سيد الناس أيضا وقد اختصره عن كتابه السابق « عيون الأثر » .

٣ ـ المواهب اللدنية فى المنح المحمدية : مؤلفه شهاب الدين القسطلانى المتوفى عام ٩٢٣ هـ وبه بحوث عدة فى نسب النبى عليه السلام وولادته ورضاعه وحروبه وأسمائه وأولاده وأزواجه إلى آخره وقد طبع فى ثمانية أجزاء.

المفصل ٢٦

٤ ـ مختصر سيرة النبى وثلاثة من الخلفاء الراشدين : لمؤلفه برهان الدين بن عمر البقاعى المتوفى عام ٨٨٥ هـ .

٥ ـ المقتفى فى ذكر فضائل المصطفى : وهو مختصر السيرة النبوية لمؤلفه ابن حبيب الحلبى الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٩ هـ .

٦ ـ النجم الثاقب فى أشرف المناقب : مؤلفه ابن حبيب الحلبى الدمشقى أيضا . وهو مرتب على ثلاثين فصلا .

٧ ـ الزهر الباسم فى سيرة أبى القاسم : مؤلفه أبو عبد الله مُغْلطاى المتوفى عام ٧٦٢ هـ

٨ ـ الخبر عن البشر : مؤلفه تقى الدين المقريزى المتوفى عام ٨٤٥ هـ ، وهو ستة أجزاء فى نسب القبائل ونسب النبى عليه السلام .

٩ ـ تصنيف فى السيرة : مصنفه محب الدين أبو الوليد بن الشحنة المتوفى عام ٨١٧ هـ .

م

١٠ ـ مختصر السيرة النبوية . واضعه عز الدين بن جماعة الكنانى المتوفى عام ٧٦٧ هـ

١١ - بشرى اللبيب فى ذكرى الحبيب منظومة شعرية فى مدح النبى عليه السلام لابن سيد الناس المتوفى عام ٧٣٤ هـ

ج ٣ ص ١٥٥

١٢ - الصارم المسلول على شاتم الرسول : لتقى الدين بن تيمية الحرانى المتوفى عام ٧٢٨ هـ . ج ص ٢٤٠

١٣ - المنهج السوى والمنهل الروى، فى الطب النبوى : للجلال السيوطى :

ج ص ٢٣٣

١٤ - طب النبى « عليه السلام » : لمؤلفه شمس الدين الذهبى .

ج ص ١٩١

١٥ - الخصائص النبوية وهو فى المعجزات وما اختص به النبى عليه السلام ، للجلال السيوطى . ج ص ٢٣٣

٣ - كتب تاريخ مصر والقاهرة

فى مقدمة ما عنى به مؤرخو هذا العصر، الكتابة عن تاريخ مصر عامة ، وتاريخ القاهرة خاصة . وذكر ما جرى فيهما من أحداث ، ومن حكمهما من سلاطين وأمراء ، ومن عاش فيهما من أعلام مشاهير .

وقد ظهرت العناية بهذا الجانب التاريخى منذ بدأت مصر تسترد استقلالها بعد الاحتلال العربى ، أى منذ العهد الطولونى . — وقبل ذلك قلّ أن تجد عن مصر كلاما تاريخيا مستقلا . — وبعده أخذت العناية بها تتضح وتستقل، ونشطت هذه العناية فى العصور المتوالية حتى العصر الذى نحن بصدده .

فى هذا العصر :وهو عصر المماليك ، يمكن القول إن فكرة الكتابة المستقلة عن تاريخ مصر وقاهرتها ، قد اختمرت وتحورت إلى مشروعات تأليفية ضخمة، تفصل القول تفصيلا لا مجال للزيادة عليه . وبدت على المؤرخين المصريين أعراض هذا الحب الخالد الذى تثيره مصر دائما فى قلوب أبنائها ، بدوّا رائعا ،

حتى لكأنهم آلوا على أنفسهم أن ينقذوا تاريخها من يد النسيان ، وأن يشبعوه شرحا وبيانا ، وأن يدونوا منه كل ما بطن أو ظهر ، وبان أو استتر . ، وأصيبوا بما يعد تهيجاً تأليفياً . . .

فكان من أثر ذلك وضع هذه الموسوعات التاريخية الضخمة الجامعة لتاريخ مصر وتاريخ قاهرتها . واعتمد المؤرخون على ما دونه أسلافهم من حوادث هذه البلاد حتى أيامهم . وأشاروا إلى ذلك فى مقدمات كتبهم . ولم يعنوا العناية كلها التى كان يبذلها أسلافهم فى النص على السند والرواية فى كل مناسبة ، فأعفوا كتبهم من ذلك كله فى كثير من أخبارها .

ونذكر القارىء ـ فى هذا المقام ـ بما كتبناه فى صدر الكلام عن كتب التاريخ ، من أن هذه المؤلفات ذات طرافة وإمتاع يبدوان فيما كتبه واضعوها عن الأحداث والملوك والأعلام المعاصرة ، وفيما لذلك من صدق وصراحة ودقة ، ونقد .

غير أننا نعترف أن روح النظام والتعليل والتعقيب المثمر بذكر النتائج ، وما إلى ذلك مما شاع فى المؤلفات التاريخية الحديثة ، قليلة الوجود فى مؤلفات هذا العصر .

ونذكر الآن بعض هذه المؤلفات فنقول :

١ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك : مؤلفه المقريزى تقى الدين المتوفى عام ٨٤٥ هـ . وهو تاريخ مصر من عام ٥٧٧ هـ إلى سنة ٨٤٤ هـ ، مرتبا حسب السنين . وقد بدىء فى طبعه منذ أكثر من عام . ـ وهو أربعة أجزاء .

٢ ـ التبر المسبوك فى ذيل السلوك : مؤلفه شمس الدين السخاوى المتوفى عام ٩٠٢ هـ . وهو يوميات فى تاريخ مصر دون فيه مؤلفه حوادث عصره اليومية واعتبره تكملة لسلوك المقريزى .

٣ ـ جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور : مؤلفه ابرهيم بن وصيف شاه المصرى المتوفى أواخر القرن السابع ، وهو موجز فى أخبار مصر من أقدم أزمانها إلى سنة ٦٨٨ هـ .

٤ — نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام : مؤلفه ابن دقاق المصرى المتوفى عام ٨٠٩هـ وأكثره عن مصر إلى سنة ٧٧٩ هـ فى ١٢ مجلدا .

٥ — الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والسلاطين : مؤلفه ابن دقاق أيضا . وهو تاريخ مصر إلى سقوط السلطان برقوق .

٦ — عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط : مؤلفه تقى الدين المقريزى أيضا . وهو فى تاريخ مصر من الفتح العربى إلى قبيل تأسيس الدولة الفاطمية .

٧ — اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء : مؤلفه تقى الدين المقريزى أيضا . وهو فى تاريخ الدول الفاطمية بمصر .

٨ — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : مؤلفه أبو المحاسن بن تغرى بردى المتوفى عام ٨٧٤ هـ . وهو جملة مجلدات فى تاريخ مصر والقاهرة وأعلامهما، وفيضان النيل من الفتح الإسلامى إلى سنة ٨٥٧ هـ، ويعتبر من خير الكتب المؤلفة فى تاريخ مصر . ويطبع الآن طبعا أنيقا .

٩ — منشأ اللطافة فى ذكر من ولى الخلافة : مؤلفه أبو المحاسن أيضا . وهو تاريخ مصر من أقدم أزمانها حتى سنة ٧١٩ هـ

١٠ — حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور : مؤلفه أبو المحاسن أيضا . وجعله ذيلا لكتاب سلوك المقريزى فبدأ به حيث انتهى المقريزى فى سلوكه حتى سنة ٨٥٦ هـ . وبه تاريخ مصر فى مدة ١٢ عاما مع كثير من التراجم .

١١ — التحفة الملوكية فى الدولة التركية : مؤلفه بيبرس المنصورى ركن الدين الدوادار المتوفى عام ٧٢٥ هـ . وهو تاريخ السلاطين المماليك إلى عام ٧٢١ هـ

١٢ — العقود الدرية فى الأمراء المصرية : مؤلفه محمد بن الحسن البنبى المتوفى عام ٨٢٦ هـ . وهو إلى عصر برسباى .

١٣ — الدر الثمين المنظوم فيما ورد عن مصر وأعمالها بالخصوص والعموم : للخطيب الجوهرى بن داود المتوفى عام ٨٩٠ هـ

١٤ — الإعلام فيمن ولى مصر فى الإسلام : مؤلفه ابن حجر العسقلانى المتوفى عام ٨٥٢ هـ فى ثلاث مجلدات .

١٥ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة : مؤلفه جلال الدين السيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ وهو جزءان . وبه تراجم موجزة لكثير من الأعلام . ومختصرات عن حوادث مصر من قديم الزمان حتى عهد المؤلف .

١٦ — بدائع الزهور فى وقائع الدهور : مؤلفه أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس المصرى الحنفى المتوفى فى نحو عام ٩٣٠ هـ . وهو أربعة أجزاء كبار فى تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام ٩٢٨ هـ . وهو بديع ممتع . ونحن نعتبر هذا الرجل من رجال عصر المماليك لأنه لم يعش فى العصر العثمانى إلا قرابة ثمانية أعوام .

١٧ — مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب : مؤلفه جمال الدين بن واصل المتوفى عام ٦٩٧ هـ . وهو تاريخ الدولة الأيوبية فى ثلاث مجلدات .

١٨ — تاريخ مصر : مؤلفه الحافظ القطب الحلبى أبو على عبد الكريم بن عبد النور الحنفى المتوفى عام ٧٣٥ هـ وهو فى بضع عشرة مجلدا .

١٩ — كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين : مؤلفه شهاب الدين عبد الرحمن أبو شامه المتوفى عام ٦٦٥ هـ ، وهو كتاب جليل فى أخبار دولة صلاح الدين الأيوبى ودولة نور الدين بن زنكى . وإنما اعتبرناه من رجال هذا العصر لأنه عاش فى مصر زمنا ، وتوفى بعد بدء هذا العصر بنحو سبع عشرة سنة .

٤ — كتب تاريخ المدن والأمصار الأخرى

نقصد بها تلك الكتب التى عنيت بذكر حوادث المدن أو وفياتها ، كل مدينة على حدة فى مؤلف خاص . أو التى عنيت بوصف حوادث الأقطار الأخرى غير مصر . وقد وضعت كتب من هذا النوع فى عصر المماليك لا بأس بها ، نذكر بعضها .

١ — أنباء الغمر بأبناء العمر : مؤلفه ابن حجر العسقلانى المتوفى عام ٨٥٢ هـ . وهو تاريخ مصر والشام معا من الناحية السياسية والأدبية من ولادة المؤلف حتى عام ٨٥٠ هـ . مرتبا حسب السنين . وبه ذكر الأحداث والوفيات .

٢ — بغية الطلب فى تاريخ حلب : مؤلفه كمال الدين بن العديم المتوفى عام ٦٦٠ هـ تقريبا . وفيه تراجم علمائها مرتبة ترتيباً أبجديا فى عشرة أجزاء . — ولم يتم تبييضه فى حياته .

٣ — زبدة الحلب فى تاريخ حلب : مؤلفه كمال الدين بن العديم كذلك ، وقد اختصره عن كتابه بغية الطلب . ورتبه على السنين حتى عام ٦٤١ هـ .

٤ — تاريخ مصر ودمشق : ومؤلفه علم الدين البرزالى المتوفى عام ٧٣٩ هـ . وهو تاريخها حتى عام ٧٣٨ هـ . واعتبره تذييلا لتاريخ دمشق لأبى شامة .

٥ — الدرة المضيئة فى فضل مصر والاسكندرية : مؤلفه ابن دقماق المصرى المتوفى عام ٨٠٩ هـ . وهو مقتطف من كتابه الانتصار بواسطة عقد الأمصار الآتى ذكره فى باب تقويم البلدان .

٦ — الدر المنتخب فى تكملة تاريخ حلب مملكة : مؤلفه علاء الدين بن خطيب الناصرية المتوفى عام ٨٤٣ هـ . وهو مختصر لكتاب ابن العديم . السابق ذكره « بغية الطلب » . ويبدو أنه تكملة أيضاً لهذا الكتاب .

٧ — الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب : مؤلفه محب الدين بن الشحنة المتوفى عام ٨٩٠ هـ .

٨ — مختصر تاريخ بغداد : مؤلفه شمس الدين الذهبي المتوفى عام ٧٤٨ هـ . اختصره عن كتاب ابن الدبيثى ، مع زيادات .

٩ — تراجم ملوك الغرب : لتقى الدين المقريزى المتوفى عام ٨٤٥ هـ . فيه أخبار أبو حمو ومن خلفه على تلمسان.

١٠ — الأنيس الجليل فى تاريخ القدس والخليل : مؤلفه أبو اليمن العليمى المتوفى عام ٩٢٧ هـ . وهو فى وصف مدينتى القدس والخليل وذكر أخبارهما وآثارهما وما جرى فيهما من وقائع حربية .

طن ٧٤ ، ج ١٨٣

١١ — الطرفة الغريبة فى أخبار حضر موت العجيبة : لتقى الدين المقريزى المتوفى عام ٨٤٥ هـ . وبها إرشاد للحاج بطريق مكه .

١٢ — الإعلام بفضائل الشام : مؤلفه برهان الدين الفزارى المتوفى عام ٧٢٩ هـ وهو مختصر كتاب فضائل الشام ودمشق للربعى المتوفى عام ٤٣٥ هـ .

١٣ — تاريخ الاسكندرية : للامام الحافظ وجيه الدين بن العماد المتوفى عام ٦٧٣ هـ

س

١٤ — مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، واضعه ابن منظور الإفريقى المتوفى عام ٧١١ هـ .

ج ص ١٤٢

١٥ — مختصر تاريخ بغداد للسمعانى : واضعه ابن منظور الإفريقى أيضا .

ج ض ١٤٢

١٦ — الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام : لتقى الدين المقريزى

٥ - كتب التاريخ العام

ونعنى بكتب التاريخ العام تلك التى تناولت تاريخ الدول الأخرى وأحداثها السياسية وذكر ملوكها إسلامية أو غير إسلامية ، عربية أو غير عربية ، سواء أكان فيها ذكر مصر أم لم يكن . وقد وضعت فى ذلك كتب عدة .

غير أن الغالب عليها سرد الحوادث فى السنين ، متتابعة كل سنة على حدة ، فى جميع الأمصار ، فيصبح المطالع عليها بين مشرق ومغرب ، مضطرا إلى بذل مجهود حتى يجمع فى ذهنه أشتات حادثة معينة وقعت فى سنين متفرقة ، أو يجمع حوادث مصر ما فى عدة سنين . ومهما يكن من شىء ، فبعضها موسوعات تاريخية واسعة النطاق من أخذ نفسه بتنظيم التاريخ حسب الطرق الحديثة ، يجد لجهوده فى هذه الموسوعات مراحا طيبا ومرعى خصيبا . وإليك بعضا منها .

١ - وجيز الكلام فى ذيل تاريخ دول الإسلام : مؤلفه شمس الدين السخاوى المتوفى عام ٩٠٢ هـ وهو تذييل على كتاب تاريخ دول الإسلام للذهبى الآتى ذكره

٢ - جهينة الأخبار فى ملوك الأمصار : مؤلفه بدر الدين بن حبيب الحلبى الدمشقى المتوفى عام ٧٧٩ هـ يشتمل على نبذ تاريخية موجزة مرتبة حسب العصور والدول ، عن الأنبياء واليهود والفرس واليونان والقبط والعرب والمسلمين والمغول وغيرهم .

٣ - البحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر : لأبى المحاسن بن تغرى بردى المتوفى عام ٨٧٤ هـ . وهو مطول فى التاريخ مرتب بالسنين .

٤ - المجموع المبارك : لجرجيس المكين بن العميد المتوفى عام ٦٧٢ هـ . وهو جزءان فى التاريخ العام من بدء الخليقة إلى ظهور الإسلام فى جزء . ومن ظهور الإسلام إلى سنة ٦٥٨ هـ ، فى جزء ثان . وقد ذيل له ابن أبى الفضائل فى النهج السديد .

٥ - كتاب التاريخ العام : ألفه أبو شكر بطرس بن الراهب القبطى المتوفى عام ٦٨١ هـ . وبدأ بذكر آدم إلى قضاة بنى إسرائيل فملوك الروم إلى مجىء المسيح . وذكر سير البطاركة والخلفاء الراشدين ومن بعدهم إلى أيامه .

٦ — زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة : ألفه ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار المتوفى عام ٧٢٥ هـ . وهو تاريخ عام للدول الأسلامية من بدئها حتى عام ٧٢٤ هـ فى أحد عشر مجلدا . مرتب على السنين .

٧ — المختصر فى أخبار البشر : ألفه السلطان الملك المؤيد إسماعيل المعروف بأبى الفداء المتوفى عام ٧٣٢ هـ . وهو مشهور متداول بين أيدى محبى التاريخ العام منذ بدء الجاهلية ثم الإسلام حتى عام ٧٢٩ هـ . فى أربعة أجزاء .

٨ — الدول الإسلامية : أو دول الإسلام لمؤلفه شمس الدين الذهبى المتوفى عام ٧٤٨ هـ . وهو مختصر فى التاريخ العام للدول الإسلامية من الهجرة حتى عام ٧٤٠ هـ . ومرتب على أحرف الهجاء .

٩ — تتمة المختصر فى أخبار البشر : مؤلفه زين الدين عمر بن الوردى المتوفى عام ٧٤٩ هـ . وهو تكملة وتذييل لكتاب أبى الفداء السابق ذكره . كتب فيه التاريخ العام بإيجاز حتى سنة ٧٤٩ هـ . فى جزئين .

١٠ — كنز الدرر وجامع الغرر : مؤلفه أبو بكر بن أيبك المتوفى فى أواسط القرن الثامن . وهو فى تسعة أجزاء تكلم فيه عن بدء الخلق والأمم القديمة وسير النبى عليه السلام والخلفاء الراشدين والدولة الأموية فالعباسية ، وهكذا حتى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون . ورتب الحوادث حسب الأعوام .

١١ — درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان : مؤلفه ابن أيبك أيضا ورتبه حسب السنين . وذكر فيه الخليقة فى بدئها والجاهلية وشعراءها والسيرة النبوية والخلفاء وذكر فيضان النيل . وذلك حتى عام ٧١٠ هـ .

١٢ — البداية والنهاية : ألفه اسماعيل أبو الفداء المعروف بابن كثير المتوفى عام ٧٧٤ هـ . وهو مطول فى التاريخ العام يبلغ عشرة أجزاء . وفيه حديث طويل عن النبى عليه السلام وحياته .

١٣ — الاجتهاد فى طلب الجهاد : ألفه ابن كثير أيضا ، وذكر فيه جانبا من الحروب الصليبية وحروب صلاح الدين .

١٤ ـ روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر : مؤلفه زين الدين بن الشحنة المتوفى عام ٧١٥ هـ . وهو مطول فى التاريخ العـــام من بدء الخليقة حتى عام ٧٠٦ هـ .

١٥ ـ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان : مؤلفه بدر الدين العينى المتوفى عام ٨٧٥ هـ وهو تاريخ عام للخليقة من بدئها حتى سنة ٨٥٠ هـ . مرتب حسب العصور والأمم . وهو فى أكثر من عشرين مجلدا .

١٦ ـ تاريخ البدر فى أوصاف أهل العصر : مؤلفه بدر الدين العينى أيضاً، وهو تاريخ كبير مرتب حسب السنين منذ البدء إلى أيام مؤلفه .

١٧ ـ مختصر سير الأوائل والملوك ووسيلة العبـــد والمملوك : مؤلفه ابن بركات الحموى فى أواخر القرن السابع . وهو فى تاريخ الجاهلية والإسلام حتى الخليفة المهدى أى عام ٢٥٥ هـ

١٨ ـ روضة الأعيان فى أخبار مشاهير الزمان : مؤلفه محمد بن أبى بكر الموصلى المعروف بابن حماد المتوفى عام ٨٥٠ هـ بدأ بسيرة النبى إلى الفاطميين . وفيه تراجم كثيرة .

١٩ ـ تاريخ الدول والملوك : مؤلفه ناصر الدين بن الفرات المتوفى عام ٧٠٧ هـ . من الهجرة حتى سنة ٧٩٩ هـ

٢٠ ـ النجوم الزواهر فى الأواخر : ألفه اللبودى الدمشقى من أهل القرن التاسع .

٢١ ـ بهجة السالك : مؤلفه نصر الدين الجعفرى من أهل القرن التاسع . وهو فى تاريخ الخلفاء والسلطان والملوك من ظهور الإسلام إلى عام ٨٨٦ هـ .

٢٢ ـ نهج الطرائق والمناهج والسلوك إلى تواريخ الأنبياء والخلفاء والملوك : مؤلفه نصر الدين الجعفرى أيضاً .

٢٣ ـ مخدرات القصور فى تاريخ أهل العصور : لابن قطرى المتوفى عام ٨٩٨ هـ وهو مختصر فى التاريخ العام .

٢٤ ـ درر الأبكار فى وصف الصفوة الأخيار : لأبى الفتح بن صدقة السرمينى من أهل القرن التاسع فيه أخبار عن الصحابة والأئمة .

٢٥ ـ تاج المعارف وتاج الخلائف : مؤلفه أبو السعادات بن أبي الجود السلموني، من آدم إلى سلطنة قايتباى . وبه تراجم لقضاة مصر وأعيانها .

٢٦ ـ الجمان فى أخبار الزمان : مؤلفه محمد الشطيبي المغربي من أهل القرن التاسع . وهو تاريخ عام من أول الخليقة إلى عهد النبي عليه السلام ، ثم إلى أيام المؤلف وعهد خشقدم .

٢٧ ـ الدرر المضية فى تاريخ الدولة الإسلامية : مؤلفه تقى الدين المقريزى المتوفى عام ٨٤٥ هـ . وهو من مقتل عثمان إلى المستعصم آخر خلفاء بنى العباس .

٢٨ ـ نزهة الرأى فى التاريخ . مؤلفه أبو المحاسن بن تغرى بردى المتوفى عام ٨٧٤ هـ . وهو مفصل فى التاريخ مرتب على السنين والشهور والأيام فى عدة مجلدات.

٢٩ ـ مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة : لأبى المحاسن كذلك . ذكر فيه الخلفاء والسلاطين .

٣٠ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاشرهم من ذوى السلطان الأكبر : مؤلفه ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون المشهور المتوفى عام ٨٠٨ هـ وموضوعه واضح من عنوانه . ونحن نعتبر هذا الكتاب ومقدمته بخاصة من مفاخر التراث العربى ، وهو سبعة مجلدات . وقد عاش ابن خلدون زمنا طويلا فى مصر ، كما سنفصله فى ترجمته .

٣١ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان : مؤلفه أبو محمد عبد الله اليافعى المصرى من رجال القرن الثامن الهجرى . المتوفى عام ١٣٦٤ م وهو فى التاريخ العام إلى سنة ١٣٤٩ م .

٣٢ ـ كتاب فى التاريخ العام : لمؤلفه العلامة عبد الرحمن بن محمد العليمى المتوفى فى أوائل القرن العاشر . وهو فى التاريخ العام من لدن سيدنا آدم إلى سنة ٨٩٦ هـ مرتبا حسب السنين .

٣٣ ـ الدرر فى الحوادث والسير : لعبد الرحمن البسطامى الحنفى المتوفى عام ٨٥٨ هـ

وهو مختصر مرتب على السنين من لدن وفاة النبي عليه السلام إلى سنة ٧٠٠ هـ . وقد عاش مؤلفه زمنا طويلا فى القاهرة وتوفى بها .

ج ص ٢٤٩

٣٤ ـ كتاب فى التاريخ العام : لمحب الدين أبى الوليد بن الشحنة المتوفى عام ٨١٨هـ تكلم فيه من ابتداء خلق السموات والأرض حتى آخر عام ٧٠٦ هـ

٣٥ ـ النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد : مؤلفه ابن أبى الفضائل البطى المصرى . وهو تذييل على كتاب المجموع المبارك للمكين بن العميد السابق ذكره . وفى كتاب النهج السديد تراجم سلاطين مصر من لدن الظاهر بيبرس إلى الناصر محمد بن قلاوون من عام ٦٥٨ هـ إلى عام ٧٤١ هـ

ج ص ١٨٥

٣٦ ـ العبر فى أخبار البشر ممن غبر : لشمس الدين الذهبى المتوفى عام ٧٤٨ هـ وهو تاريخ عام فى مجلدين مقتطف من كتابه الكبير « تاريخ الإسلام » وهو مرتب حسب السنين ، وفيه أشهر الحوادث والوفيات من أول الهجرة حتى عام ٧٤٠ هـ

ج ص ١٨١

٣٧ ـ مختصر كتاب العبر للذهبى ، السابق ذكره : مؤلفه تقى الدين بن قاضى شهبة المتوفى عام ٨٥١ هـ

٦ ـــ كتب السير

وهى الكتب التى يستقل كل منها بالترجمة لأحد الأعلام ، سواء أكان سلطانا أم غير سلطان . يكون الحديث فيها دائرا حول هذا الشخص .

ولعل السبب فى كثرة ما ألف من هذا النوع تعدد الدول وكثرة السلاطين فيها ، وانتماء كل سلطان إلى أسرة ، وتشعب الأسر المالكة وحب السلاطين ومن لف لفهم إلى إخلاد ذكرهم بتدوين سيرة حياتهم ، كما حاولوا إخلادها بطرق أخرى . وبدهى أن ظهور كثير من الشخصيات البارزة فى ميدان السياسة أو العلم كان له أثره كذلك فى نماء هذا الضرب من كتب التاريخ .

ومن بينها سير مستوعبة وافية ، وبعضها مكتوب بأسلوب أدبى بديع . وإليك بعضها منها .

١ ـ عجائب المقدور فى أخبار تيمور : مؤلفه شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقى الرومى المعروف بابن عربشاه المتوفى عام ٨٤٥ هـ وهو فى تاريخ تيمورلنك ملك التتار المشهور . مكتوب بعبارات أدبية مسجوعة فى مجلد واحد

٢ ـ الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية : لمؤلفه محيي الدين ابن عبد الظاهر . وهو تاريخ مصر فى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون . ألفه فى أيامه مرتبا على السنين .

٣ ـ التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر : مؤلفه ابن عربشاه السابق الذكر . وهو جزءان فى سيرة السلطان چقمق .

٤ ـ سبك النضاد وكسب المفاخر ، ونثر الدرر ونظم الجواهر : كتبه عبد الله بن محمد بن عبد الله التركى الغزى ، فى سيرة السيفى أقباى .

٥ ـ تاريخ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وبنيه . مؤلفه شمس الدين الشجاعى . وهو جزءان .

٦ ـ الدر النضيد فى مناقب الملك الظاهر أبى سعيد : مؤلفه محمد بن عقيل . وهو تاريخ السلطان خشقدم

٧ ـ الدرة المضيئة فى الدولة الظاهرية : مؤلفه محمد بن صرصراء ، وهو تاريخ السلطان برقوق . كتب فى نحو عام ٨٠٠ هـ

٨ ـ الدر الثمين فى سيرة نور الدين زنكى : مؤلفه بدر الدين محمد بن الشهيد الدمشقى كتبه عام ٨٧٤ هـ .

٩ ـ إيضاح الظلم وبيان العدوان ، فى تاريخ النابلسى الخارج الخوان : مؤلفه الحسن بن شهاب الدين أحمد المعروف بابن عربشاه مؤلف عجائب المقدور وهو تاريخ ابراهيم النابلسى المتغلب على دمشق فى القرن التاسع والمستبد بها والظالم أهلها .

١٠ـ ترجمة أحمد السيد البدوى : مؤلفه ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ .

١١ ـ محاسن المساعى فى مناقب الأوزاعى : مؤلفه ابن حجر العسقلانى أيضاً وهو ترجمة الأوزاعى المحدث .

١٢ غبطة الناظر فى ترجمة الشيخ عبد القادر : مؤلفه ابن حجر أيضاً وهو ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلانى [١] .

ج ٣ ـ ١٦٨

١٣ ـ الجواهر والدرر فى ترجمة ابن حجر : مؤلفه شمس الدين السخاوى المتوفى عام ٩٠٢ هـ وهو ترجمة شيخه ابن حجر العسقلانى المحدث المؤرخ .

١٤ ـ تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه : مؤلفه ابن حبيب الحلبى الدمشقى المتوفى عام ٧٧٩ هـ . وهو فى أخبار السلطان المنصور قلاوون وبنيه .

١٥ ـ القول المستظرف فى سفر الملك الأشرف : مؤلفه أبو البقاء بن يحيى بن الجيعان المتوفى عام ٩٠٠ هـ . وهو وصف لسفر الملك الأشرف قايتباى عام ٨٨٢ هـ .

١٦ ـ مناقب الإمام الشافعى : مؤلفه ابن قاضى شهبة المتوفى عام ٨٥١ هـ .

١٧ ـ السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد : مؤلفه بدر الدين العينى المتوفى عام ٨٥٥ هـ

١٨ ـ تزيين الممالك فى مناقب مالك : مؤلفه السيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ .

١٩ ـ المنهاج السوى فى ترجمة النووى : مؤلفه السيوطى أيضاً .

٢٠ ـ ضوء السارى فى معرفة خبر تميم الدارى : مؤلفه المقريزى تقى الدين المتوفى عام ٨٤٥ هـ .

٢١ ـ تاريخ ومناقب مالك : مؤلفه عيسى بن مسعود أبو الروح الزواوى المتوفى عام ٧٤٣ هـ فى تاريخ سيدنا مالك .

---

١ ـ عبد القادر الجيلانى أحد رجال الصوفية الحنبلية ويعتبر من الأولياء الصالحين والعلماء الراسخين : توفى عام ٥٦١ هـ وله ترجمة فى فوات الوفيات ج ٢ وترجم له كذلك جميل الشطى فى طبقات الحنابلة .

٢٢ — لطائف المنن : مؤلفه تاج الدين بن عطاء الله الاسكندرى الشاذلى المتوفى عام ٧٠٩ هـ . وهو فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن الشاذلى وبه بحوث صوفية . ج ٣ ص ٢٤٨

٢٣ — ترجمة البلقينى : وهو للسيوطى كذلك . ص ١ ص ١٦١

٢٤ — تبييض الصحيفة فى مناقب أبى حنيفة ، لمؤلفه السيوطى أيضاً . ج ص ٢٣١

٢٥ — الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية ، فى تاريخ الإمام الليث : لمؤلفه ابن حجر العسقلانى . ؟

٢٦ — توالى التأسيس بمعالى ابن ادريس : فى تاريخ الإمام الشافعى ، لمؤلفه ابن حجر العسقلانى أيضاً . ؟

٢٧ — سيرة الملك المؤيد شيخ : كتبها شمس الدين محمد بن ناهض الفقاعى المتوفى عام ٨١٨ هـ . (خزانة الأدب لابن حجة ص ٨٠)

٧ ـ تاريخ الخطط والآثار [١]

نقصد بذلك ، المؤلفات التى تحدثت عن البلاد والمدن والمواضع فوصفت بناءها وتاريخ هذا البناء وما اعتوره من زيادة أو نقص على مر العصور . فكلامها عبارة عن جغرافية تاريخية . وهو ممتع جداً يجد فيه المؤرخ الأثرى لذة لا يجدها فى سواه .

وقد نشط مؤرخو الخطط فى عصر المماليك نشاطا محمودا ، وأكثر ما اهتموا به وبوصفه خطط مصر والقاهرة . وقد وُجد من بينهم رجال هم مضرب الأمثال فى تاريخ الخطط ، وعلى رأسهم المؤرخ القدير تقى الدين المقريزى صاحب الشهرة الذائعة فى هذا المضمار .

---

١ — للأستاذ عبد الله عنان كتاب مستقل فى هذا الموضوع ، غير مستقل بعصر دون غيره .

وهى تتحدث عادة عن المدن وأنهارها ومبانيها الشهيرة وشوارعها ومساجدها ومدارسها وكنائسها وديراتها وجبالها وجزائرها وبحيراتها وبركها وبساتينها وما إلى ذلك . وماتقلبت هذه الأشياء فيه من أحداث ، وماصاحبها من وقائع. ومن لطائفها أن يستطرد كاتبوها إلى ذكر الحوادث الأدبية يوردونها بمناسباتها عند الكلام عن أثر ما . ويذكرون ما صحب هذه الحوادث من فكاهات وأشعار ورسائل . ويترجمون عادة للأعلام الذين يرد ذكرهم فى هذه المناسبات ولا سيما منشئو هذه الخطط . فهى بذلك كتب تاريخ وتقويم وأدب واجتماع .

ومن كتاب المقريزى وغيره من كتب الخطط المؤلفة فى عصر المماليك استقى على مبارك باشا مؤرخ الخطط التوفيقية فى عصرنا الحديث أكثر معلوماته . — وإليك بعضاً منها :

١ — الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة : مؤلفها محيى الدين بن عبد الظاهر المتوفى عام ٦٩٢ هـ . ويظهر أنها موسوعة نفيسة نقل عنها ابن فضل الله والمقريزى ولكنها الآن مفقودة .

٢ — الانتصار بواسطة عقد الأمصار : مؤلفه ابن دقماق المصرى المتوفى عام ٨٠٩ هـ . وهو كتاب عظيم الأهمية فى عشرة مجلدات . وصف المؤلف فيها الفسطاط وأسواقها وجوامعها ومدارسها وأبنيتها وشوارعها . والاسكندرية وبعض قرى مصر . ونقل عنه كثيرون .

٣ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : مؤلفه تقى الدين المقريزى المتوفى عام ٨٤٥ هـ . وهو أربعة أجزاء فى وصف الخطط المصرية. وبه تراجم عدة. واشتهر بالدقة والصدق وحسن العبارة . وهو عمدة كثيرين من الباحثين فى تاريخ مصر .

٤ — جنى الأزهار من الروض المعطار : للمقريزى أيضاً . وصف به أقاليم عدة . ويقال إنه لمقريزى آخر غير تقى الدين .

٨ - كتب تاريخية أخرى فى موضوعات شتى

كتبت فى هذا العصر مؤلفات عدة فى موضوعات تاريخية مختلفة رأينا إثباتها فيما يلى :

١ — نبذة العقود فى أمور النقود : للمقريزى تقى الدين المتوفى عام ٨٤٥ هـ . وهو تاريخ للنقود عند الفرس والروم وعرب الجاهلية والإسلام . ونقود مصر .

٢ — المكاييل والموازين الشرعية : للمقريزى أيضاً . وهى رسالة فى المكاييل والموازين العربية وتطبيق الشرع عليها .

٣ — البيان والإعراب عما فى أرض مصر من الأعراب : للمقريزى أيضا .

٤ — الإلمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الاسلام : كتاب صغير للمقريزى أيضاً .

٥ — النزاع والتخاصم بين بنى أمية وهاشم : للمقريزى كذلك .

٦ — إزالة التعب والعناء فى معرفة حال العناء : للمقريزى أيضاً .

٧ — ذكر ما ورد فى بنى أمية وبنى العباس من الأقوال : للمقريزى أيضاً .

٨ — إغاثة الأمة بكشف الغمة : للمقريزى كذلك . وهو كتاب صغير طبع حديثا، وبه موضوعات كثيرة طريفة منها ذكر ما حل بمصر من غلاء، والحوادث الهامة التى صحبت هذا . وكلام عن التعامل والنقد . وفصل فى أقسام الناس وأصنافهم وفصل عن الأسعار زمن المؤلف . وهكذا .

٩ — ممالك عباد الصليب : مؤلفه شهاب الدين بن فضل الله العمرى المتوفى عام ٧٤٨ هـ . وصف فيه ملك فرنسا وملك ألمانيا وأحوالهما السياسية والاجتماعية .

١٠ — نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب : مؤلفه شهاب الدين القلقشندى المتوفى عام ٨٢١ هـ ، صاحب صبح الأعشى . وهو معجم فى الأنساب رتب فيه أسماء القبائل والبطون على أحرف الهجاء .

١١ — قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان : مؤلفه شهاب الدين القلقشندى أيضاً . وهو فى أنساب عرب زمانه المقيمين بمصر .

تقويم البلدان وما يتصل به

عنى بعض علماء هذا العصر بالقيام برحلات فى نواحى الأقطار المختلفة ، وتدوين ما يشاهدونه فيها أو يسمعونه من بنيها . وعنى البعض بوضع تقاويم تصف الأرض وأقطارها ، ومنهم من تكلم فى طبقاتها ومنهم من تكلم عن التقويم البشرى وهكذا .

وقصارى الكاتبين هنا الأخذ عن أسلافهم والاقتداء بهم والاقتباس منهم والوقوف عند نظرياتهم. ولكن هذا لا يدعنا ألا نذكر لهم بالخير والشكر مؤلفاتهم الحافلة وموسوعاتهم الضخمة التى يربى بعضها على الثلاثين مجلدا . — وهو يدل على سعة الاطلاع والصبر على التأليف والرغبة الجدية فى خدمة العلم . ولا ننسى لهم تلك المزية التى ذكرناها للمؤرخين عند الكلام على التاريخ . وذلك أن مزجوا التقويم بغيره من المواد المختلفة فتجد أحياناً تاريخا وأحيانا كلاما عن النبات أو الحيوان، مثلا . ولكن هذا كله وإن أوخذوا به واعتبروا من أجله مجهدين للمطلع ومتعبين للقارىء الذى لا يحب الاستطراد، معين فياض للباحث فى إحدى هذه المواد يجد فيه مددا أيما مدد .

ومهما يكن من شىء فإن لرجال هذا العصر بصفة عامة أو لبعضهم، جهودا موفقة ونظريات جديدة محمودة لا يتسع للجرى وراءها والتنقيب عنها هذا البحث الجامع لذلك نكتفى بأن نذكر هنا على سبيل المثال ما قيل فى مقدمة الجزء الأول من مسالك الأبصار من أن الشيخ أبا الثناء محمود بن أبى القاسم الأصفهانى المتوفى عام ٧٤٩ هـ . (١٣٤٨ م) نزيل مصر تنبأ بوجود أمريكا قبل أن يكشفها خرستوف كولمبس، أو بالأحرى يفتح الطريق إلى كشفها بنحو قرن ونصف . هذا هو قوله بالنص :

« لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا . منكشفا من الجهة الأخرى . وإذا لم أمنع أن يكون منكشفا من تلك الجهة ، لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا أو من أنواع وأجناس أخرى » .

هذا والآن نسوق جدولا بأسماء بعض المؤلفات فى هذا الموضوع . فنها .

١ — تقويم البلدان : مؤلفه أبو الفداء اسماعيل وهو الملك المؤيد صاحب حماة المتوفى عام ٧٣٢ هـ . وهو فى الجغرافيا العامة . وفيه تصحيح لبعض الأسماء والأنساب . وكلام عن الأطوال والعروض . ووصف للأرض والأقاليم، وهكذا . وهو صاحب المختصر فى التاريخ العام . م

٢ — نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر : مؤلفه شمس الدين الدمشقى المتوفى عام ٧٢٧ هـ . وهو يشتمل على العلم بهيئة الأرض وأقاليمها واختلاف القدماء فى ذلك . وما فيها من بحار وجزر وجبال وطرق وآثار وعمائر وحيوان نادر ونبات غريب . وأحجار كريمة . ومساحات الأرض ومسافاتها . وكذلك أنساب الأمم واختلاف طبائعهم إلى آخره . وهو كتاب هام . ج

٣ — التحفة السنية فى أسماء البلدان المصرية : مؤلفه شرف الدين يحيى بن الجيعان كتبه عام ٧٧٧ هـ . وهو يشتمل على إحصاءات إدارية وخراجية عن الأرض فى أيام الملك الأشرف شعبان . وبدأه بالوجه البحرى ج

٤ — خريدة العجائب وفريدة الغرائب : مؤلفه سراج الدين بن الوردى المتوفى فى نحو عام ٨٥٠ هـ . وبه رسم لدائرة الأرض ووصف لأقاليمها وما فيها من العجائب . ووصف لمدنها . م

٥ — الفضائل فى محاسن مصر والقاهرة : مؤلفه أبو حامد القدسى المصرى المتوفى عام ٨٨٨ هـ . فى وصف جغرافيتهما وتاريخهما . ج

٦ — التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطط القاهرة : مؤلفه أقبغا الخاصكى وزير السلطان قانصوه الغورى المتوفى عام ٩١٥ هـ . ج

٧ — فضائل الشام : مؤلفه عماد الدين الحنفى المتوفى عام ٩٢٠ هـ . ج

٨ — مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار : مؤلفه شهاب الدين بن فضل الله العمرى المتوفى عام ٧٤٨ هـ . وهو موسوعة ضخمة ، فى أكثر من عشرين مجلدا . وهو عمدة بين الكتب استمد منه كثيرون وخصوصا كتاب الخطط . م

وفيه موضوعات شتى منها وصف الأرض وسكانها وحيوانها . وأقطارها ومسالكها وما فيها من أنهار وجبال وجزر وبحار وبرك ومبانى وديارات وكنائس إلى آخر ما هنالك . واستطرادات تاريخية وأدبية ممتعة جداً ، قليلة الوجود فى سواه . وكثير من تراجم الأعلام وقد طبع منه حديثا جزؤه الأول وسنعود إلى وصفه قريبا بعون الله . م

٩ — نهاية الأرب فى فنون الأدب : مؤلفه أبو العباس شهاب الدين المعروف بالنويرى المتوفى عام ٧٣٢ هـ . وهو فى أكثر من ثلاثين مجلدا . وهو فى فنون مختلفة . ويعتبر أحد الكتب الجامعة الهامة ذات المواد العامة . وهو عمدة بين الكتب كذلك ، اعتمد عليه كثير من المؤرخين والأدباء قديماً وحديثا . وفيه فصول عن الأسماء والأجرام والسحاب والمطر والثلج والصواعق والنيازك والفصول . ووصف الأرض وما فيها من جبال وأنهار وبحار . ووصف لطبائع الإنسان والحيوان والأسماك والنبات وغير ذلك . ويطبع الآن طبعة حديثة صدرت منها عدة أجزاء . وسنعود إلى وصفه بعون الله فى ترجمة النويرى . م

١٠ — مباهج الفكر ومناهج العبر : مؤلفه جمال الدين محمد بن ابراهيم الوطواط المتوفى عام ٧١٨ هـ . وهو ضخم فى أربعة أجزاء تكلم فيها عن علم الهيئة ووصف الأرض والحيوان والنبات . ج

١١ — سرور النفس بمدارك الحواس الخمس : مؤلفه ابن منظور الافريقى المتوفى عام ٧١١ هـ . وهو تهذيب لكتاب شرف الدين التيفاشى . وهو جزءان فى وصف الليل والنهار والهلال والفجر والشمس والكواكب والمطر والبرق وغير ذلك . ممتزج بالروح الأدبية . ج ٣ ص ١٤٢

١٢ — مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام : واضعه شهاب الدين أبو محمود أحمد القدسى المتوفى عام ٧٦٥ هـ . ج ٣ ص ٢١٩

المؤلفات الدينية

سبق أن بيّنا تلك النزعة الدينية والروح الإسلامية التى سرت فى أرجاء البلاد المصرية والشامية فى عصر المماليك ، بعد حوادث التتار ببغداد ثم بالشام ، وبعد حوادث الحروب الصليبية ، وما أصاب الكتب والعلماء من جرائهما . فكانت هذه النزعة وتلك الروح، بمثابة رد الفعل .

وقد غذاها سلاطين المماليك بظهورهم بمظهر حماة الإسلام ، وذادة الدين ، لأنهم مسلمون ويحكمون شعباً أغلبيته من المسلمين . هذا فضلا عن أن مصلحتهم السياسية تقتضيهم الظهور بهذا المظهر . فنحوا نحوا دينيا فى معظم تصرفاتهم . فأقاموا الشعائر وقربوا علماء الدين ورفعوا منزلتهم ، وجالسوهم وناظروهم . واهتموا فى مجالسهم بتحقيق المسائل الدينية . وأقاموا قضاة الشرع يحكمون بين الناس بما أنزل الله . واستشاروا القضاة والعلماء فى كثير من معضلات الدولة — وعززوا نفوذهم فى الشعب بإنشاء المساجد ودور التعليم ليتلى فيها كتاب الله ، ويقرأ حديث نبيه . وتدرس شريعته . كما أنشئوا الربط والخوانق والزوايا للصوفية . ومن لف لفهم . وأوقفوا على ذلك كله الأوقاف . وأجروا المال والزاد على المنقطعين للعمل فيها . وعينوا فى كل منها المشايخ والمدرسين والأئمة ، وصنعوا غير ذلك مما سبقت إليه الاشارة .

لهذا كله كان طبيعيا أن تنشط روح التأليف فى النواحى الدينية وأن تثمر خير الثمار . — وكان مما زادها نشاطا منافسة محمودة بين علماء مصر والشام ، وطمع فى المنافسة من علماء غيرهما من الأقطار الإسلامية فى ميادين العلم والأدب . ولا سيما أن كثيرا من الوظائف السنية فى الدولة كان يناط بها النابغون النابهون من هؤلاء المتنافسين ذوى الأثر العلمى المعروف بين الناس .

إذن : عُنى أهل العلم والدين بنشره بمختلف الطرق ، وفى مقدمتها التأليف

فيه . ولكن إلى أية ناحية نحوا فى تأليفهم ؟ . لقد كان نشاطهم هذا بعد عهود سبق أن عاش فيها أئمة محققون مجتهدون اعتنق الناس مذاهبهم . ولا سيما الأئمة الأربعة . وانتشرت مذاهبهم فى جميع بلاد المسلمين تقريبا . ربما يختص كل مذهب ببلد منها . ثم قفى على آثارهم تلاميذهم وأتباعهم ، فنشر كل مذهب إمامه ، واحتج له ، ودلل عليه ، وشرح مرماه ، حتى استتب لكل مذهب سلطانه ، ورضى الناس عامة عن هذه المذاهب ، حتى وقر فى النفس أنه لم يعد فى الإمكان أفضل مما كان . وأنه لم تعد طاقة على النظر الجديد ، وأنه لم تعد قدرة على الاجتهاد . فسد بابه ، وأوصد وصرف بوابه . . .

كل هذا مع أن الدين سمح . ودائرة مرنة ، ودستور مطاط ، يتسع لكل قبيل وجيل ، ويصلح لكل زمان ومكان تستنبط منه باستمرار الأحكام الصائبة المناسبة لكل حادثة ومشكلة . ويضاف إليه كل قانون يحقق العدالة ويجمع عليه .

لم يجد علماء هذا العصر أمام هذه النزعة العامة والفكرة السائدة خصوصا فى ذلك الزمان الذى استعجم أهله ، سوى أن يتجهوا وجهة أخرى بها ييسر العلم وتُضبط مسائله ، وتسرى الدقة فى صوغ عباراته ، ويُحكم التعبير عن معانيه . فكانت وسيلتهم إلى ذلك ، وضع المتون التى تجمع مسائله وتلم شعثها فى صعيد واحد . وهى موجزة العبارة جامعة الإشارة ، حتى يستطيع طالب العلم أن يستوعبها كلها بأيسر طريق وفى أقل زمن . — وغلا بعضهم فى الإيجاز وفى ضغط العبارة فى هذه المتون حتى بلغت حد الرموز ، فاستغلق بسبب ذلك على الطلاب فهمها ، واحتاج الأمر إلى شرحها . فوضعت لها كتب شارحة . مفسرة بل ووضعت كتب أخرى شارحة لهذه الكتب الشارحة وكذلك صنعوا فى كتب متقدميهم ، فهى فى أيديهم بين اختصار وشرح . وهكذا حتى عج العصر بالمتون والشروح وشروح الشروح ، بل واختصار الشروح ، أو التحشية عليها وتهميشها والتنبيه على ما فات واضعيها . فبقيت مسائل العلم عودا على بدء ، وبدءا على عود . . . وترجحت لذلك فيها أساليب الاحتجاج والاعتراض والتدليل والقياس ، وسرت الروح المنطقية فى عباراتها .

وزيدت مصطلحاتها وتنوعت وتغايرت . وإن تكن فى مؤلفات مصر والشام أيسر منها فى مؤلفات غيرهما .

فشروحت بكل هذه القيود تلك المؤلفات الدسمة السمينة ، حتى صعب على العقول ازدرادها . . . بل وكان لها من العواقب السيئة من بعدُ مالا نزال نشهد آثاره حتى اليوم . . . إذ صرفت عقول الطلاب عن التفكير والاستنباط والابتكار والتجديد إلى حفظ المتون واستظهارها ، وإلى مقارنة الشروح بعضها بالبعض الآخر ، ونقد عبارتها وموازنة ألفاظ هذه بألفاظ تلك . . . وهكذا انحدر طلب العلم من جمع المعانى وفهمها وتوليدها ، إلى مناقشة اللفظ واستيعابه ، والتحيل المتعب فى ترجيحه ، فوقف بذلك تقدمه وشح فى مسائله الابتكار . مع أن حوادث الزمان اليوم كموج البحر الجارف يسوق الناس أمامه سوقا . . .

واستساغ العلماء إذ ذاك طعم الوقوف ، واستلانوا هذا التراخى ، واكتفوا بمقارنة أسلافهم بعضهم بالبعض والتقايب فى صفحات مؤلفات هؤلاء الأسلاف حتى يعثروا على ضالتهم فيها . وأصبح حسبهم من العلم أن عرفوا ما دُوّن منه ، واقتنوا فى صدورهم ماألف فيه . وحسبوا علما أن يقولوا : قال فلان وقال فلان . . ولا سيما أن مستمعيهم قد بهرهم منهم هذا النحو من العلم ، وأن الوظائف والتطاحن على بلوغها كان شغل الكثيرين منهم . . . لهذا كله وقف العلم ، أو كاد يقف حيث كان .

ولسنا بذكر هذه الحقائق ، نريد أن نغمط حق هؤلاء العلماء أو ننتقص من قيمتهم أو نتجنّى عليهم . فإن بعضهم كملت له أدوات الاجتهاد من ورع وزهد وتقوى . ومن عقل وحدة ذهن . ومن معرفة بالعربية وطرق أدائها وأسرار بلاغتها . ومن فهم دقيق لكتاب الله . وسعة علم بحديث الرسول والصحابة وسيرتهم . كل هذا مع دقة فهم للظروف الطارئة وملابساتها . وهكذا . وإن بعضهم بلغ فعلا حد الاجتهاد ، وله من الفتاوى والآراء ما يضعه فى مصاف الأئمة المقتدى بهم .

ومن الأمثلة لذلك : تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى المتوفى عام ٧٠٢ هـ . وهو شافعى

المذهب . قال عنه تاج الدين السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى : « لم ندرك أحدا من مشايخنا يختلف فى أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة المشار إليه فى الحديث المصطفوى النبوى صلى الله عليه وسلم ، وأنه أستاذ زمانه علما ودينا » .

والشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء المتوفى عام ٦٦٠ هـ ، الشافعى المذهب وأستاذ ابن دقيق العيد قال عنه الذهبى فى العبر : « انتهت إليه معرفة المذهب مع الزهد والورع وبلغ رتبة الاجتهاد » . وقال عنه ابن كثير فى تاريخه « انتهت إليه رياسة المذهب وقصد بالفتوى من سائر الآفاق . ثم كان فى آخر عمره لا يتعبد بالمذهب بل اتسع نطاقه بما أدى إليه اجتهاده »[١]

والشيخ سراج الدين البلقينى المتوفى عام ٨٠٥ هـ والشافعى المذهب أيضا ، قال عنه السيوطى فى حسن المحاضرة ما ملخصه « مجتهد عصره وعالم المائة الثامنة . انتهت إليه رياسة المذهب والإفتاء وبلغ رتبة الاجتهاد . وله ترجيحات فى المذهب خلاف ما رجحه النووى . وله اختيارات خارجة عن المذهب » .

ولا ننس الشيخ ابن تيمية الحرانى ، المتوفى عام ٧٢٨ هـ . وهو حنبلى المذهب وقد عُرف عنه الاجتهاد والفتوى بما يراه ، ولو خالف فى ذلك ما أجمع عليه معاصروه . ولقى من وراء ذلك كثيرا من العنت . وأهم ما اختلف فيه مع علماء عصره ، زيارة القبور ، والطلاق . وسنفصل ذلك فى ترجمته إن شاء الله .

وتلميذه ابن قيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١ هـ ، وقد قال عنه صاحب الشذرات هو المجتهد المطلق . وله آراء اجتهادية كثيرة كأستاذه ابن تيمية .

ومنهم تقى الدين السبكى العالم المجتهد المتوفى عام ٧٥٦ هـ ، قيل عنه فى حسن المحاضرة نقلا عن ابنه فى الترشيح ما ملخصه : « قال الشيخ شهاب الدين بن النقيب جلست بمكة بين طائفة من العلماء . وقلنا : لو قدر الله تعالى بعد الأئمة الأربعة

---

١ — نقله السيوطى فى حسن المحاضرة .

فى هذا الزمان مجتهداعارفا بمذاهبهم أجمعين، يركب لنفسه مذهبا من الأربعة بعد اعتبار هذه المذاهب المختلفة كلها، لازدان الزمان به، وانقاد الناس له. فاتفق رأينا على أن هذه الرتبة لا تعدو الشيخ تقى الدين السبكى، ولا ينتهى لها سواه».

ومنهم ولده تاج الدين السبكى صاحب طبقات الشافعية الكبرى. قال عنه السيوطى إنه كتب مرة عن نفسه ورقة إلى نائب الشام يقول فيها: «وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق». قال السيوطى بعدها: «وهو مقبول فيما قال عن نفسه». (١)

وأمامنا جلال الدين السيوطى، فقد قال عن نفسه فى ترجمته بكتابه حسن المحاضرة «وقد كملت عندى الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى. أقول تحدثا بنعمة الله تعالى لا لأنخر، وأى شىء فى الدنيا حتى يطلب تحصيله بالفخر، وقد أزف الرحيل وبدا الشيب وذهب أطيب العمر».

والسيوطى بما وصف نفسه جدير. فإن رجلا ألف الإتقان فى علوم القرآن، والمزهر فى علوم اللغة، وحسن المحاضرة فى التاريخ، والأشباه والنظائر فى النحو. والدر المنثور فى التفسير المأثور فى سبعة مجلدات. والجامع الكبير فى الحديث وبلغت مؤلفاته نحو ستمائة كتاب ورسالة فى علوم شتى، لجديرا بأن تكون أدوات الاجتهاد قد كملت له، وأن يعد من الأئمة المجتهدين.

على أننا لا نستطيع أن ندعى أن من بين هؤلاء الأعلام من بلغ به اجتهاده إلى استنباط مذهب جديد كامل تام الأحكام فى جميع نواحى الحياة كما أرادتها الشريعة، على نمط من مذاهب الأئمة المتقدمين الذين هم القدوة والإمام. — ولو كان اجتهاده فى استنباط مذهبه بطريق التلفيق من المذاهب المعتبرة.

ومهما يكن من شىء، فإننا نحمد لرجال العصر وقف جهودهم على نشر العلم، والمحافظة على الدين، ووضع المؤلفات الممتعة فى مسائله، فوصلوا الماضى بالحاضر.

---

١ — ج ١ ص ١٥٠ من حسن المحاضرة.

وقد عقد السيوطى فصلا فى كتابه « حسن المحاضرة » خاصا بذكر الأئمة المجتهدين الذين كانو بمصر وسنعود إليه فى مناسبة أخرى

والآن نسوق شواهد من مؤلفاتهم على سبيل التمثيل ، فمنها :

كتب الشافعية فى الفقه والأصول

١ — الروضة : مؤلفه محيي الدين النووى المتوفى عام ٦٧٦ هـ وله أيضاً « المجموع » فى شرح المهذب للرافعى ، لم يتمه .

٢ — الفتاوى الموصلية : مؤلفه عز الدين بن عبد السلام المتوفى عام ٦٦١ هـ وله أيضاً : مختصر النهاية . والقواعد الكبرى . والقواعد الصغرى .

س

٣ — منهاج الطالبين : مؤلفه أبو زكريا محيي الدين النووى المتوفى عام ٦٧٦ هـ وهو مختصر كتاب المحرر تأليف عبد الكريم أبى القاسم القزوينى المعروف بالرافعى صاحب الشرح الكبير المسمى بالفتح العزيز والمتوفى عام ٦٢٣ هـ

ع

٤ — تصحيح التنبيه : مؤلفه أبو زكريا محي الدين النووى أيضاً . وهو تهذيب للكتاب المذكور .

ج

٥ — شرح العنوان : مؤلفه ابن دقيق العيد القشيرى المتوفى عام ٧٠٢ هـ وهو فى أصول الفقه .

س

٦ — الكفاية : مؤلفه نجم الدين أحمد الأنصارى المعروف بابن الرفعة المتوفى عام ٧١٠ هـ . وهو عشرون مجلداً .

س

٧ — المطلب : مؤلفه نجم الدين بن الرفعة أيضا . وهو ستون مجلدا .

س

٨ — الابتهاج فى شرح المنهاج : مؤلفه تقى الدين السبكى المتوفى عام ٧٥٦ هـ ، وهو شرح لمنهاج النووى وصل فيه إلى باب الطلاق . س

٩ — تكملة المجموع فى شرح المهذب : مؤلفه تقى الدين السبكى كذلك . وهو بناء على ما هذبه النووى ، وذلك من باب الربا إلى التفليس ، فى خمسة مجلدات س

١٠ — جمع الجوامع ومنع الموانع : مؤلفه تاج الدين السبكى المتوفى عام ٧٧١ هـ صاحب طبقات الشافعية الكبرى . وهذا الكتاب فى أصول الفقه الشافعى ويعتبر من أمهات كتب هذا المذهب . ج ٢ — ٢٤٢ ، س

١١ — توشيح التصحيح : مؤلفه تاج الدين السبكى أيضا . وهو فى أصول الفقه الشافعى كذلك . ج ٣ — ٢٤٣ ، س

١٢ — حواشى الروضة : مؤلفه سراج الدين البلقينى المتوفى عام ٨٠٥ هـ س

١٣ — الأزهار الفضة فى حواشى الروضة : مؤلفه جلال الدين السيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ . وله أيضاً : « مختصر الروضة » . س

١٤ — الوافى فى شرح التنبيه : لجلال الدين السيوطى . وله أيضا : الأشباه والنظائر فى الفقه . واللوامع والبوارق فى الجوامع والفوارق . ورفع الخصاصة ، وهو شرح الخلاصة . والخلاصة نظم كتاب الروضة وكلها من تأليفه ، وله أيضا : الجامع فى الفرائض . وشرح الرحبية فى الفرائض أيضا . س

١٥ — شرح التنبيه : لجلال الدين أحمد بن عبد الرحمن الدشناوى « ٧٢٢ هـ » س

١٦ — شرح مشكل الوسيط : لظهير الدين جعفر بن يحيى التزمنتى « ٦٨٢ هـ » س

١٧ — المغنى : لسراج الدين بن موسى بن دقيق العيد « ٦٨٥ هـ » ، وهو أخو الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد . س

١٨ — شرح التنبيه : للكمال أحمد بن عيسى بن رضوان القليوبى « ٧٢٥ هـ » .

١٩ — جامع المختصرات : لكمال الدين أبى العباس أحمد النشائى « ٧٥٧ هـ » وله أيضا شرحه .

٢٠ — مختصر الروضة : لمحيي الدين يحيى بن عبد الرحيم بن زكير الفرضى « ٧١٨ هـ » .

٢١ — تصحيح التحبير : لقطب الدين محمد بن عبد الصمد بن عبد القادر السنباطى « ٧٢٢ هـ »

٢٢ — مختصر الوسيط : لنور الدين ابراهيم بن هبة الله الإسنائى « ٧٢١ هـ » وله أيضا : مختصر الوجيز . وشرح المنتخب وهو فى الأصول .

٢٣ — الجمع والفرق والمسائل المهمة فى اختلاف الأئمة : لسراج الدين يونس بن عبد المجيد الأرمنتى « ٧٢٥ هـ » .

٢٤ — البحر المحيط فى شرح الوسيط : لنجم الدين أبى العباس أحمد القمولى « ٧٢٧ هـ » . وله أيضا كتاب الجواهر ، وهو تلخيص لكتاب « البحر » .

٢٥ — التنجيز فى تصحيح التعجيز : لفخر الدين محمد بن محمد المعروف بابن الصقلى « ٧٢٧ هـ » .

٢٦ — شرح التنبيه : لنجم الدين محمد بن عقيل بن الحسن المحاسنى « ٧٢٩ هـ » .

٢٧ — شرح التنبيه : لمجد الدين أبى بكر بن اسماعيل الزنكلونى « ٧٤٠ هـ » وله أيضا : شرح المنهاج .

٢٨ — شرح التنبيه : لضياء الدين محمد بن إبراهيم المناوى « ٧٦٥ هـ » وله أيضا شرح فرائض الوسيط .

٢٩ — شرح المنهاج : لجمال الدين عبد الرحيم بن الحسن بن على الإسنوى « ٧٧٢ هـ » صاحب طبقات الشافعية . وله أيضا : شرح التنبيه ، كتب منه مجلداً . وله الهداية إلى أوهام الكفاية .

٣٠ – مختصر الكفاية : لشهاب الدين بن النقيب أبى العباس أحمد بن لؤلؤ «٧٦٩ هـ» وله أيضا : كتاب نكت التنبيه . وتصحيح التهذيب .

٣١ – شرح الحاوى : لبهاء الدين حامد بن أحمد بن تقى الدين السبكى «٧٧٣ هـ» . وله أيضا تكملة شرح المنهاج . وهو تكملة لشرح أبيه تقى الدين ، على كتاب المنهاج .

٣٢ – الخادم على الرافعى . لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشى «٧٩٤ هـ» . وله أيضا . شرح المنهاج . وشرح التنبيه .

٣٣ – شرحان على المنهاج والتنبيه : لسراج الدين بن الملقن «٨٠٤ هـ» .

٣٤ – شرح المنهاج : لكمال الدين الدميرى «٨٠٨ هـ» .

٣٥ – شرح المنهاج : لشهاب الدين بن العماد الاقفسى «٨٠٨ هـ» .

٣٦ – شرح مختصر المزنى . لشرف الدين يحيى المناوى «٨٧١ هـ» .

٣٧ – بلوغ المرام من أدلة الأحكام : لشهاب الدين بن حجر العسقلانى «٨٥٢ هـ» فى الفقه والحديث وله أيضا : مناسك الحج .

٣٨ – منية الباحث عن حكم دين الوارث : للتقى السبكى «٧٥٦ هـ» وله أيضا : السهم الصائب فى قبض دين الغالب . والغيث المغرق فى ميراث ابن المعتق وضرورة التقدير فى تقويم الخنزير . والفتاوى جمعها ولده تاج الدين .

٣٩ – القواعد : لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشى المتوفى عام ٧٩٤ هـ فى الفقه . وله أيضا : البحر . وسلاسل الذهب فى الأصول .

س ١ ص ٢٠٦

٤٠ – شرح منهاج البيضاوى . لسراج الدين بن الملقن المتوفى عام ٨٠٤ هـ ، فى الأصول .

س ١ ص ٢٠٦

٤١ – منهج الطلاب . لزين الدين زكريا الأنصارى المتوفى عام ٩٢٦ هـ ، فى الفقه .

وله أيضاً : تحفة الطلاب بشرح تنقيح اللباب . وفتح الرحمن ، فى الفقه والأصول.

٤٢ ـ فرائد الفوائد ومقاصد القواعد : لكمال الدين الادفوى صاحب الطالع السعيد ، المتوفى عام ٧٤٨ هـ ، وهو فى الفروض . ج ، ص ١٦٠

٤٣ ـ شرح منهاج النووى . لكمال الدين الدميرى المتوفى عام ٨٠٨ هـ ج ، ص ٢٠٤

٤٤ ـ نظم الحاوى . للملك المؤيد أبى الفداء اسماعيل صاحب حماة المتوفى عام ٧٣٢ هـ ف ١ ص ٢٠

٤٥ ـ قيام الليل ، وقيام رمضان ، والوتر . ثلاث كتب وضعها أبو عبد الله محمد ابن نصر المروزى المتوفى عام ٢٩٤ هـ وقد اختصرها جميعا تقى الدين المقريزى.

٤٦ ـ منظومة فى الأصول : وضعها شمس الدين محمد البرماوى المتوفى عام ٨٣١ هـ

٤٧ — طرح التثريب فى شرح التقريب : لزين الدين العراقى ، ٧٢٥ هـ ، وولده ولى الدين أبى زرعة ، ٨٠٦ هـ ، والتقريب هو ، تقريب الأسانيد ، لزين الدين العراقى.

كتب الحنفية فى الفقه وأصوله

١ ـ شرح الجامع الكبير : لعلاء الدين على بن يليان الفارسى المصرى المتوفى عام ٧٣١ هـ. س

٢ ـ شرح الهداية : لبرهان الدين بن على بن أحمد الواسطى المتوفى عام ٧٤٤ هـ س

٣ ـ شرح الجامع الكبير : لفخر الدين عثمان بن ابراهيم بن مصطفى الماردينى المشهور بابن التركمانى المتوفى عام ٧٣١ هـ س

٤ ـ شرح الهداية [1] : لتاج الدين بن فخر الدين الماردينى المشهور بابن التركمانى — توفى عام ٧٤٤ هـ . وله أيضاً شرح الجامع الكبير. س

(١) الهداية : من أهم كتب الحنفية ، وهو عبارة عن شرح لمختصر اسمه «بداية المشترى» والكتابان معا من تأليف شيخ الاسلام برهان الدين أبى الحسن على المرغينانى المتوفى عام ١١٩٦ م ، وكتاب « البداية مأخوذ باختصار من كتاب « مختصر القدورى » المتوفى عام ١٠٣٧ م ، ومن كتاب « الجامع الصغير » للشيبانى المتوفى عام ٨٠٤ م. وجميع هؤلاء الرجال من جلة علماء الحنفية . ـ المنتخب .

٥ ـ مختصر الهداية : لعلاء الدين بن فخر الدين الماردينى المتوفى عام ٧٤٥ هـ .

٦ ـ شرح متن الكنز : لفخر الدين عثمان بن على بن محجن البارعى المشهور بالزيلعى ، المتوفى عام ٧٤٣ هـ . ويسمى هذا الشرح : « تبيين الحقائق على كنز الدقائق » . (١)

٧ ـ شرح الهداية : مؤلفه أمير كاتب بن أمير عمر الإتقانى المتوفى عام ٧٥٨ هـ .

٨ ـ شرح الهداية : للسراج الهندى عمر بن اسحق بن أحمد الغزنوى المتوفى عام ٧٧٣ هـ .

٩ ـ التحرير : مؤلفه أحمد بن على بن منصور بن شرف الدين أبو العباس الدمشقى المتوفى عام ٧٨٢ هـ . وهو مختصر كتاب المختار فى الفقه . وله عليه تعليق .

١٠ ـ شرح الهداية : لأكمل الدين محمد بن محمد بن محمود البابرتى المتوفى عام ٧٨٦ هـ .

١١ ـ البناية فى شرح الهداية . لبدر الدين محمود العينى المتوفى عام ٨٥٥ هـ وله أيضاً رمز الحقائق : وهو شرح متن الكنز للنسفى . وشرح المجمع . وله أيضاً « درر البحار » .

١٢ ـ شرح التحرير : مؤلفه ابن الهمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيراشى الكندى المتوفى عام ٨٦١ هـ .

١٣ ـ شرح النقاية : مؤلفه تقى الدين أبو العباس أحمد الشُّمُنِّى المتوفى عام ٨٧٢ هـ

١٤ ـ فتح القدير . مؤلفه ابن الهمام السالف الذكر المتوفى عام ٨٦١ هـ . وهو شرح الهداية ، كتب فيه إلى باب الوكالة . وله أيضاً . زاد الفقير ، وهو فى مسائل الصلاة .

---

(١) كتاب « كنز الدقائق » من أهم كتب الحنفية ، مؤلفه أبو البركات حافظ الدين النسفى المتوفى عام ٧١٠ هـ .

كتب المالكية فى الفقه وأصوله

١ — الذخيرة : للعلامة شهاب الدين أبى للعباس أحمد القرافى المتوفى عام ٦٨٤ هـ .

س

٢ — شرح مختصر ابن الحاجب : مؤلفه عيسى بن مسعود أبو الروح الزواوى المتوفى عام ٧٤٣ هـ . وله أيضاً شرح المدونة [١] والرد على ابن تيمية ، وهو خاص بمسألة الطلاق .

س

٣ — شرح مختصر ابن الحاجب: [٢] مؤلفه خليل بن اسحق الجندى المتوفى عام ٧٦٧ هـ ، وله أيضاً : « المختصر » وقد اشتهر به ـ وله أيضاً « مناسك الحج » .

ج ٣ ص ٢٤١ ، س

٤ — شرح مختصر ابن الحاجب : مؤلفه ناصر الدين أحمد بن محمد بن عطاء الله الزبيرى الاسكندرانى المتوفى عام ٨٠١ هـ .

س

٥ — الشامل : مؤلفه بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز المتوفى عام ٨٠٥ هـ . وله أيضاً : شرح أصول ابن الحاجب .

س

٦ — شرح المختصر : مؤلفه بهرام بن عبد الله كذلك . والمختصر المذكور هو مؤلف خليل بن اسحق السابق ذكره .

س

كتب الحنابلة فى الفقه وأصوله

١ — الرعاية الكبيرة : لنجم الدين أبى عبد الله أحمد بن حمدان الحرانى المتوفى عام ٦٩٥ هـ .

س

---

١ — المدونة : من أهم كتب المالكية وهى آراء لأبى عبد الله القاسم العتقى المتوفى عام ٨٠٦ ميلادية . نقحها تلميذه أبو سعيد عبد السلام التنوخى المعروف بسحنون المتوفى عام ٨٥٤م ٢٤٠ هـ . — منتخب ص ١٠٨

٢ — ابن الحاجب من أبرع علماء المالكية ، ألف المختصر فى الاصول . والمختصر فى الفقه . والكافية فى النحو . والشافية فى الصرف والخط وغير ذلك . ومات بالاسكندرية عام ٦٤٦ هـ — حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٥ .

٢ — مختصر تهذيب الكمال : لعماد الدين أبى بكر بن أبى المجد ماجد السعد الحنبلى المتوفى عام ٨٥٤ هـ.

٣ — الفتاوى المصرية : لتقى الدين بن تيمية الحرانى المتوفى عام ٧٢٨ هـ ، وهو سبع مجلدات . ولابن تيمية مؤلفات أخرى منها : تحقيق الفرقان بين الطلاق والايمان . مجموعة من الرسائل فى مسائل فقهية ، الدرة المضية . رسالة فى معنى القياس . رسالة فى حكم السماع والرقص . رسالة فى الكلام على القصاص : مناسك الحج . خلاف الأئمة فى العبادات . زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور . النية فى العبادات . معارج الوصول ، وهو فى أصول الدين وفروعه . شرح العمدة وهو فى الفقه والأصول والكلام .

٤ — كتاب الكبائر : وهو مجلد ، ألفه شمس الدين بن القيم ، المتوفى عام ٧٥١ هـ ولابن القيم مؤلفات أخرى ، منها : رفع اليدين فى الصلاة . نكاح المحرم . إغمام هلال رمضان . زاد المعاد فى حج خير للعباد . وهو أربعة أجزاء فى الفقه والتصوف. الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، وهو فى « هل يصح الحكم بالفراسة والقرائن ، إذا لم تتوفر الأدلة الشرعية » وبه فوائد تاريخية واجتماعية .

٥ — الفروع : مؤلفه شمس الدين بن مفلح المقدسى الصالحى المتوفى عام ٧٦٣ هـ. ولابن مفلح مؤلفات أخرى منها : كتاب فى أصول الفقه . شرح المقنع لابن قدامه[1] ، وهذا الشرح فى ثلاثين مجلدا .

---

١ — ابن قدامة هو الشيخ موفق الدين . وهو من رؤوس الحنابلة ، توفى عام ٦٢٠ هـ. وقد ترجمه الشطى فى طبقاته — والكتبى فى فواته ج ١ ص ٢٦٠ — وتعتبر مؤلفات ابن قدامه من أمهات كتب الحنابلة . وله كتاب : المقنع ، وكتاب : العمدة . — وله أيضا كتاب المغنى فى عشرة مجلدات ، وشرح فيه كتاب « المختصر » فى فقه الحنابلة لأبى القاسم عمر ابن الحسين الخرقى المتوفى عام ٩٤٥ م — عن المنتخب .

٦ — مغنى ذوى الأفهام عن الكتب الكثيرة فى الأحكام : لجمال الدين يوسف بن عبد الهادى المتوفى عام ٩١٠ هـ ، ويحتوى على مهمات مسائل الدين فى المذاهب الأربعة . طن

٧ — شرح المقنع : مؤلفه برهان الدين ابرهيم بن مفلح المتوفى عام ٨٨٤ هـ . وله أيضا ، كتاب فى الأصول . طن ٦٧

٨ — الإنصاف : وهو شرح آخر للمقنع : كتبه علاء الدين على بن سليمان السعدى المتوفى عام ٨٨٥ هـ ، وله أيضاً كتاب : التنقيح المشبع فى تحرير أحكام المقنع . وهو مختصر لكتابه « الأنصاف » المذكور ، وله أيضاً كتاب « التحرير فى أصول الفقه . طن ٦٨

تفسير القرآن الكريم وما يتصل به

لم يقصر علماء هذا العصر فى مضمار التفسير ، وكيف يكون التقصير ، والتفسير كان وما زال فى مقدمة علوم الدين ، وهم رجاله وحفظته . ثم إن التفسير كان من بين المواد الدراسية المقررة . واشتهر بإلقاء دروس التفسير طائفة من العلماء جليلة ، لهذا نال التفسير نصيباً محمودا من عناية المؤلفين .

ومنهم من فسر القرآن كله ، ومنهم من فسر بعضاً منه . كما أن منهم من شرح وأسهب ، ومنهم من أوجز واقتضب ، ومنهم من اقتصر على الشرح بطريق ذكر المرادفات . ومنهم من خلط التفسير ببحوث أخرى . أو تكلم عما فى القرآن من الغريب أو المبهم ، أو المشكل . وهكذا . وبعضهم تحدث عن أسباب النزول ، وتكلم فى تاريخ القرآن . إلى غير ذلك .

وأفضل ما تصفحته من تفاسيرهم ، تلك التى امتزج فيها التفسير بالحديث وشرحه وبالفقه والتصوف والحديث عن العقائد . وتتراءى لك خلاله دروس قيمة فى الأخلاق الإسلامية ، والتربية النفسية ، مع توضيح تام لروح الإسلام وسموه .

هذا إلى ضروب من الوعظ نافعة . وفى مقدمة رجال التفسير : ابن تيمية الحرانى وتلميذه ابن القيم ، والجـــلال السيوطى ، والتقى السبكى والكافيجى والزركشى والأنصارى والعليمى .

وإليك بعضا من مؤلفاتهم .

١ ـ تفسير القرآن : للعلامة ناصر الدين الجذامى الإسكندرانى المعروف بابن المنير المتوفى عام ٦٨٣ هـ. ف ١ ص ٩٢ ، س

٢ ـ الدر النظيم فى تفسير القرآن العظيم : للعلامة تقى الدين السبكى المتوفى عام ٧٥٦ هـ. س

٣ ـ الدر المنثور فى التفسير المأثور : للجلال السيوطى . وله أيضاً مؤلفات أخرى فى التفسير منها . ترجمان القرآن . الاتقان فى علوم القرآن . مفحمات الأقران فى مبهمات القرآن . المهذب [١] . فيما وقع فى القرآن من المعرب . وقطف الأزهار ولباب [٢] النقول فى أسباب النزول . تفسير الجلالين . ألف بعضه الجلال المحلى ثم أتمه السيوطى . التبحير . تناسق الدرر فى تناسب السور . مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع . مجمع البحرين ومطلع البدرين . معترك الأقران فى مشترك القرآن [٣] .

٤ ـ تفسير القرآن : لبهاء الدين هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل القفطى المتوفى عام ٦٩٧ هـ س ، ج

٥ ـ تفسير القرآن : لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشى المتوفى عام ٦٩٤ هـ وصل فيه إلى سورة مريم . س ١ ص ٢٠٦ س

٦ ـ تفسير القرآن : لعلم الدين صالح البلقينى بن سراج الدين ، وهو المتوفى عام ٨٦٨ هـ . س

---

(١) المهذب : هكذا ذكره السيوطى فى حسن محاضرته . وسماه جورجى زيدان : المذهب فيما وقع فى القرآن من المعرب .

(٢) اللباب : هكذا ذكره السيوطى فى حسن محاضرته . وسماه جورجى زيدان : لباب المقول .

(٣) للسيوطى كتب أخرى فى التفسير كثيرة .

٧ ـ تفسير القرآن : لجمال الدين أبي عبد الله محمد البلخي بن الملقن المفسر العلامة الكبير المتوفى عام ٦٩٨ هـ . وهو كتاب ضخم . ا س ص ٢٢٠

٨ ـ تفسير سورة الإخلاص : للتقي بن تيمية الحراني . وله أيضاً تفاسير أخرى منها : تفسير سورة النور . تفسير المعوذتين ، فتوى في أن القرآن أنزل على سبعة أحرف . التبيان في أسباب نزول القرآن . العبودية وهي رسالة في تفسير قوله تعالى « يأيها الناس اعبدوا ربكم » . الاكليل في المتشابه والتأويل . تفسير البسملة . تفسير قوله تعالى « إياك نعبدو إياك نستعين » . تفسير آية الكرسي . تفسير سورة المائدة . تفسير سورة يوسف . سورة القلم . بعض آي سورة البقرة . قوله تعالى « وإذ أخذ ربك من بني آدم . »(٤) ط ، م

٩ ـ أمثال القرآن : لشمس الدين بن قيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١ هـ . وله أيضاً رسائل كبيرة في التفسير ، منها : إيمان القرآن . تفسير المعوذتين . تفسير قوله تعالى : « ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا » . الكلام عن لفظ « غير » في قوله تعالى . « غير المغضوب عليهم » .(٥) م

١٠ ـ المنة في تفسير قوله تعالى : لتؤمن بالله ولتنصرنه . لتقي الدين السبكي المتوفى عام ٧٥٦ هـ . وله أيضاً : الحكم والاناة في إعراب قوله تعالى « غير ناظرين إناه » . تفسير قوله تعالى « يأيها الرسل كلوا من الطيبات » س

١١ ـ إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب . لأثير الدين بن حيان المتوفى عام ٧٤٥ هـ . ج ، نكت الهميان ص ٢٨٠ ، م

١٢ ـ البحر المحيط : وهو لأثير الدين أبي حيان أيضاً . ج

١٣ ـ التيسير في علم التفسير : لمحي الدين محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الكافيجي المتوفى عام ٨٧٩ هـ . وله أيضاً كتاب تفسير آيات متشابهات . ج ٢٤٩ ، س ٢٦٤١

---

(٤) لابن تيمية رسائل أخرى في التفسير كثيرة .

(٥) هذه البحوث الثلاثة الأخيرة ضمن مجموعة لابن القيم في علوم شتى ـ راجع فهرس دار الكتب المصرية .

١٤ ـ تفسير القرآن : لشهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي السمين المتوفى عام ٧٥٦ هـ .
س ١ ص ٢٥٧

١٥ — تفسير القرآن : مؤلفه عبد العزيز أحمد بن سعيد الديريني المتوفى عام ٦٩٧ هـ
س ١ ص ١٩٧

١٦ — البرهان فى علوم القرآن : لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشى المتوفى عام ٧٩٤ هـ
س ١ ص ٢٠٦

١٧ — شرح البسملة والحمدلة : لزين الدين زكريا الأنصارى ، ٩٢٦ هـ .
م

١٨ — تفسير القرآن : لعبد الواحد بن شرف الدين بن المنير المتوفى عام ٧٣٦ هـ فى عشر مجلدات .
س ١ ص ٢١٦

١٩ — تفسير القرآن : لأبى الفداء إسماعيل بن كثير المتوفى عام ٧٧٤ هـ
ج ص ١٩٣

٢٠ — تفسير القرآن : للعلامة مجير الدين عبد الرحمن العليمى المتوفى عام ٩٢٧ هـ
طن ٧٣

الحديث ومصطلحه وشرحه ونقده

يمكن القول إن عصر المماليك من العصور الذهبية ، فى تاريخ الحديث ومصطلحه وشرحه ونقده. فقد تكاثر فيه الحفاظ ، وعنوا بالرواية عناية تامة، على الرغم من انتشار الخط وكثرة الخطاطين ، مما كان يكون له شأن فى التقليل من العناية بالحفظ والرواية .

ولكن علماء العصر ، كأنما وجدوا أنه لا بقاء لعلمهم فى صدورهم ، ما لم تعاونه ذخيرة من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام . فحفظوه كما حفظوا كتاب الله واهتموا به أى اهتمام . واشترطوا على رواته الحصول على الإجازة ، بالرواية من عالم حافظ راوية مجاز من شيخه . والإجازات بمثابة شهادة دراسية ، يجتهد

الطالب فى الحصول عليها من أستاذه ، بعد ملازمة له طويلة ، وحفظ الحديث ومعرفته برجاله . فيجيزه شيخه بعد تأكده من حفظه وروايته ومعرفته ، يجيزه برواية حديث عنه ، أو عدة من الأحاديث . وينضم بذلك الراوية الجديد إلى سلسلة رواة هذا الحديث أو تلك الأحاديث .

وسمت العناية بالحديث — كما أشرنا — سموا كبيرا . حتى كان قصارى كثير من طلاب العلم الحصول على الإجازات ليصيروا فى زمرة « الحفاظ » . وكانت هذه العناية سببا فى شحذ الهمة وتنبيه الحافظة والذاكرة ، أعنى قوة الحفظ والذكر حتى أصبح بعضهم مضرب المثل فيهـــا . ويذكر فى تاريخه وأوصافه أنه « سريع الاستحضار للأحاديث فى مناسباتها » ، وأن بعضهم يحفظ حديثا أو عدة أحاديث بجمع أسانيدها ورواياتها المتغايرة ، مع علم برجال كل سلسلة من سلاسل هذه الأسانيد من ناحية ضبط الأعلام والكنى والنسبة ، وتاريخ كل علم منها ، وكل ما قيل فيه من تجريح أو تعديل أو نحو ذلك . وقد أشرنا إلى شىء من هذا فيما سبق .

فكان طبيعيا أن يكون لهذه العناية أثر بارز فى ميدان التأليف . فانصرفت العناية إلى وضع مؤلفات فى الحديث ورجاله وفى مصطلحه ونقده وشرح كتبه واختصارها كذلك . فظفر العصر بجملة بارعة نافعة فى هذه الأبواب ، وحسبك منها كتب الذهبى والعينى والسيوطى ، والقسطلانى ، والعسقلانى الذى قال السخاوى عن كتابه فى شرح البخارى إن الأمة به وفت دينها .

وقد عقد السيوطى بابا فى حسن محاضرته ألم فيه بالحفاظ وسنشير إليه فيما بعد ونقتبس منه .

وقد نوهنا فى كتب تاريخ الأعلام ببعض كتب رجال الحديث . وإليك عددا من كتب الحديث أو نقده ، مصطلحه و شرحه ، فمنها :

١ - الاقتراح : فى المصطلح لتقى الدين بن دقيق العيد القشيرى « ٧٠٢ هـ ، وله أيضا كتاب « الإلمام » ، وقد قال السيوطى عنه إنه لم يؤلف فى الحديث كتاب أعظم .

٢ ـ شرح البخارى. للعلامة سراج الدين البلقينى « ٨٠٥ هـ » وله أيضا شرح الترمذى.

س

٣ ـ كشف المغطى فى شرح الموطا ، للجلال السيوطى . وله أيضا التوشيح على الجامع الصحيح . الديباج على صحيح مسلم بن . الحجاج . مرقاة الصعود إلى سنن أبى داود . شرح سنن ابن ماجه . نظم الدرر فى علم الأثر ، وشرحه المسمى : قطر الدرر . اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة . جمع الجوامع ويسمى الجامع الكبير . وغير ذلك

س

٤ ـ شرح سنن أبى داوود : لسعد الدين أبى محمد مسعود بن أحمد العراقى المصرى الحنبلى المعروف بالحارثى « ٧١١ هـ »

س

٥ ـ شرح البخارى : مؤلفه القطب الحلبى أبو على بن عبد النور بن منير الحنفى « ٧٣٥ هـ » .

س

٦ ـ شرح الترمذى لفتح الدين بن سيد الناس « ٧٣٤ هـ » ، مؤلف السيرة النبوية . وقد أتم هذا الشرح الحافظ العراقى « ٨٠٦ هـ »

س

٧ ـ تخريج أحاديث الهداية وأحاديث الكشاف : لجمال الدين الزيلعى « ٧٦٢ هـ » ، وهو أحد الحفاظ وقد أخذ عن فخر الدين الزيلعى شارح الكنز فى فقه الحنفية

س

٨ ـ تخريج أحاديث الرافعى . لعز الدين أبى عمر بن جماعة « ٧٦٧ هـ » ، وهو ابن قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة .

س

٩ ـ شرح البخارى : للحافظ مغلطاى بن قليج الحنفى « ٧٦٢ هـ » . وله أيضا : شرح سنن ابن ماجة .

ج ص ١٩٣ ، س

١٠ ـ تخريج أحاديث الاحياء : للحافظ العراقى « ٨٠٦ هـ » والإحياء للغزالى .

س

١١ ـ فتح البارى بشرح البخارى : لشهاب الدين بن حر العسقلانى « ٨٥٢ هـ » ويقع هذا الكتاب فى عشرة أجزاء ضخام : وله مقدمة ثمينه هى « هدى

الساري ». ولابن حجر مؤلفات أخرى منها : نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر ، وهو فى مصطلح الحديث . وقد شرحه المؤلف فى كتابه « شرح نخبة الفكر » ، ومن كتبه : الكاف الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف . المعجم المفهرس ، رتب فيه الاحاديث ترتيبا أبجديا مع حذف الأسانيد . نزهة السامعين . نصب الراية . هداية الرواة . توالى التأسيس ، ذكر فيه لأحاديث المروية عن طريق الشافعى . م. س ١ ج ١٦٦

١٢ — شرح البخارى : لبدر الدين الزركشى « ٧٩٤ هـ » . وله أيضا : التنقيح . تخريج أحاديث الرافعى . س ١ ص ٢٠٦

١٣ — شرح البخارى : لسراج الدين بن الملقن « ٨٠٤ هـ » . »

١٤ — شرح مسلم : لعيسى بن مسعود أبى الروح الزواوى « ٧٤٣ هـ » . »

١٥ — مختصر سنن البيهقى : لبرهان الدين بن على بن أحمد « ٧٤٤ هـ » . »

١٦ — مختصر علوم الحديث لابن الصلاح : لفخر الدين عثمان بن ابراهيم الماردينى المعروف بابن التركمانى « ٧٤٥ هـ » . س ١ ص ٢٠٦

١٧ — تخريج أحاديث الهداية : لعبد القادر بن محمد بن أبى الوفاء القرشى « ٧٧٥ هـ » س ١ ص ٢٢٢

١٨ — عمدة القارى فى شرح البخارى : لبدر الدين العينى « ٨٥٥ هـ » . ج ص ١٩٦ — س ١ ص ٢٢٤

١٩ — شرح حديث النزول : لتقى الدين بن تيمية الحرانى . م

٢٠ — إرشاد الساري إلى شرح البخارى : للشهاب أبى العباس القسطلانى « ٩٢٣ هـ » ج ص ١٥٦

٢١ — جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام : لشمس الدين بن القيم ، وفيه بحث عن جميع الأحاديث التى وردت فى الصلاة والسلام على النبى الكريم . وله أيضاً شرح سنن أبى داود . م

٢٢ — رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين : لمحيي الدين النووى « ٦٧٦ هـ » .
وله أيضا : الأربعون حديثا . وشرح صحيح مسلم . م

٢٣ — فتح البارى فى شرح البخارى : للحافظ زين الدين بن رجب البغدادى الحنبلى « ٧٩٥ هـ » . وصل فيه إلى الجنائز . وله أيضا شرح جامع الترمذى . ظن ٦٤

٢٤ — نظم علوم الحديث لابن الصلاح : ناظمه شهاب الدين الخوبى « ٦٩٣ هـ » . س ١ ص ٢٦٠

٢٥ — شرح البخارى : لبدر الدين الدمامينى « ٨٢٧ هـ » . س ١ ص ٢٥٨

التصوف والعقائد

من الطبيعى أن يزدهى التصوف ويكثر المتصوفون فى هذا العصر ، ويتردد الحديث عن العقائد ، ويكثر الأخذ والرد فى مسائله ، وتظل بين إثبات ونفى ، وقبول ورفض ، وتراخ وشد ، وهكذا . وتقع بسبب ذلك الحوادث أحياناً ، الحوادث المفكّهة المسلية ، أو الحوادث الآزمة القاسية .

أقول : إن هذا كان من الطبيعى ، لأن الروح السارية روح إسلامية ، غذاها السلاطين ، ورفع العلماء لواءها ، وانقاد لها العامة . وأدى التطرف إلى إنشاء الزوايا والربط والخوانق لإيواء « الفقراء » أى أهل الطريق الذين يزعمون التصوف ويدعون القرب لله . ونحن طبعا لا ندرى مبلغ صدقهم ، فعلم ذلك عند علام الغيوب ! ولكن عددهم تكاثر وازداد ، وعجت القاهرة بصنوفهم . وامتلأت بهم المؤسسات المنشأة لهم خاصة ، بل وكانت تنشأ لهم المدارس أيضا لإلقاء وعظهم للناس وإرشادهم ، وتجرى عليهم الأرزاق شتى مختلفة الأنواع كما بينا فيما سبق — ولا شك أن ذلك من أهم ما أطمعهم فى السير فى طريقهم ، وشحذ همتهم إلى التشبث بمكانتهم المكتسبة .

والصوفية هم أهل الباطن ، يدعون الصلة والكشف ، ويحبون أن يعبروا عما يقع لنفوسهم من الرؤية ، فلا تسعفهم اللغة ، ولا تجودهم ألفاظها ، ويضيق نطاق عباراتها عن أن تحمل معانيهم ، فيضطرون إلى التجوز فى التعبير ، والانتقال بالألفاظ والعبارات من معانيها الحقيقية إلى معانيهم هم التى تجول بخواطرهم . وقد تكون كناياتهم خفية واستعاراتهم بعيدة العلاقة . وقد لا يحسنون هذا الانتقال، فيقع بسبب ذلك الاضطراب فى حديثهم ، والارتباك فى كلامهم ، ويستشعر منه أهل اللغة ، وذوو الذوق الأدبى ، وأهل الظاهر من العلماء ، شذوذا وبعدا عن الحقيقة ، وتلبيسا وخلطا ، واضطرابا فى الذوق ، وإيهاما ، وأخيرا يستشعرون منهم خلافا لصريح الكتاب والسنة وظاهر الدين . فيقع بسبب ذلك الحوادث التى أشرنا إليها ، والمحاجات والردود والمناظرات ، لذلك ترى شدة ارتباط علم الكلام بحديث التصوف .

على أن عامة المصريين ، كانوا ولا يزالون يعتقدون فى أهل الطريق ، قد يكون من بينهم من بلغ مرتبة الولاية - وإن كنا لا نستطيع أن نشير إليه ، ولا يستطيع غيرنا أيضا أن يشير إليه - إلا أنهم لا يخلو أمرهم من أن يكون بينهم الرجل الصالح الجدير بهذه المرتبة .

وقد اشتهر كثير من الأشياخ فى هذا العصر ، من أهل التصوف الرسميين وغيرهم بكرامات وأحوال كشف متعددة . عرفوا بها وروتها عنهم كتب التاريخ . ولا غرابة، فقد كان بعض السلاطين والأمراء يعتقدون فى بعض هؤلاء اعتقادا راسخا، أنهم أولياء ، وأنهم إلى الله مقربون ، وأنهم من الممكن أن يستشفعوا بهم إلى الله .

وعلى القارىء الكريم ، أن يعود إلى الجزء الأول من كتابنا هذا ، ويتصفح الفصل الخاص بالقصص والنوادر ، يجد من بينها ما يدعم ما ذكرناه هنا . ومنها: حكاية الشيخ أبى العباس الشاطر الدمنهورى ، الذى قال إنه لا يحجبه عن أصحابه

التراب . فطلب منه الشيخ تاج الدين الفاكهانى ، طلبات عند قبره ، فتحققت ..

ومنها حكاية انشقاق العلماء بسبب عقيدتهم فى عمر بن الفارض الشاعر المتصوف المشهور .

ومنها حكاية السلطان قايتباى وتقبيله رجل الشيخ الدشطوطى .

ومنها حكاية طومان باى آخر سلاطين مصر فى العصر المملوكى، وعدم قبوله السلطنة إلا بعد أن ذهب مع الأمراء إلى الشيخ أبى السعود الجارحى ، أحد المتصوفة بكوم الجارح . . .

ولا ننس أن بجوار الصالحين منهم قوما زائفين ، يتجرون بالتصوف ، ويتكسبون بدعوى الصلاح . وتصدر منهم تحت الستار شرور كثيرة . وهناك فى باب القصص بالجزء الأول ، قصة الشيخ سنطباى المتصوف الذى كان يزيف الدراهم والدنانير فى عهد السلطان الغورى .

ومهما يكن من أمر ، فإن لصلحاء هذه الطائفة ، ومن نهج منهم منهج العلم ، أثرا محمودا فى تقويم الناس ، بالوعظ والقص ونحوه ، وبالقدوة الطيبة .

وقد عقد السيوطى فى حسن محاضرته ، فصلا ، ترجم فيه لعدد من الصوفية ، منوها ببعض مآثرهم .

وقد وضع بعض علماء العصر ، كتبا فى التصوف ، وفى العقائد ، هى من أفضل ما نخلفه حركة كحركة الصوفية . ويبدو لنا أن كثيرا من أهل هذا العصر ، ومن عامته ، شغلت أذهانهم ببعض المذاهب فى العقائد . ينظرون فيها ، ويوازنون بينها وينقدونها ، ويوجهونها وينقادون لها ، أو يردون عليها ويتعصبون ضدها . وذلك كمذهب الأشاعرة والصفاتية ، والجهمية والمعطلة ، وغير ذلك . فكان هذا مثارا لعلماء الدين ، ودافعا لهم إلى وضع رسائل فى هذه الموضوعات ، يفصح كل منهم فيها عن حقيقة عقيدته ، ويدلل على مبلغ صحتها ، ويزيف ما عداها ، ويرد على الخارجين عليها ، والمنحرفين عنها . ولذلك أثره الدولة وطوائفها وجمعهم أو تفريقهم .

وكثيرا ما نرى مؤلفاتهم مزيجا من العقائد والأخلاق والتفسير والحديث والفقه والأخبار ، ونحو ذلك مما يدفع إليه الاستشهاد والاستطراد .

وننوه ببعض هذه المؤلفات فنها .

١ — الحكم العطائية : لتاج الدين بن عطاءالله الاسكندرى الشاذلى « ٧٠٩ هـ »
ج ص ٢٤٨

٢ — الفواتح المسكية فى الفواتح المسكية : لعبدالرحمن البسطامى الحنفى « ٨٥٨ هـ » وهو فى علوم عدة . وقد عاش مؤلفه فى القاهرة زمنا .
ج ص ٢٤٩

٣ — شرح العمدة : لتقى الدين بن دقيق العيد القشيرى « ٧٠٢ هـ » وكتاب العمدة يسمى « عمدة عقيدة أهـــل السنة والجماعة » للحافظ النسفى ، فى علم الكلام .
س ١ ص ١٤٣

٤ — تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية : للجلال السيوطى . وله أيضاً كتب أخرى منها : تشييد الأركان فى ليس فى الإمكان أبدع مما كان . ودرج المعالى فى نصرة الغزالى . والخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال . والمعانى الدقيقة فى إدراك الحقيقة .
س ١ ص ١٦٠

٥ — شرح العمدة : لسراج الدين بن الملقن « ٨٠٤ هـ » .
س ١ ص ٢٠٦

٦ — شرح العمدة . لشمس الدين البرماوى « ٨٣١ هـ »
س ١ ص ٢٠٧

٧ — شرح العمدة : لتاج الدين الفكهانى « ٨٣٤ هـ »
س ١ ص ٢١٦

٨ — الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : لتقى الدين بن تيميه الحرانى « ٧٢٨ هـ » وله كتب أخرى منها : التحفة العراقية فى الأعمال القلبية . الفرقان بين الحق والباطل . رسالة فى القضاء والقدر . الدين والدنيا . الواسطة بين الخلق والحق . والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، فى أربعة

أجزاء . إثبات المعاد والرد على ابن سينا . تقارض العقل والنقل . ثبوت النبوات عقلا ونقلا ، وفيه حديث عن المعجزات والكرامات . منهاج السنة النبوية فى نقض الشيعة القدرية . الإيمان . منهاج الاستقامة . الرد على الفلاسفة ف ١ ص ٥٤ - ج ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ - م

٩ — مدارج السالكين : لشمس الدين بن القيم « ٧٥١ هـ » . وهو كتاب كبير فى شرح كتاب « منازل السائرين » للشيخ أبى اسماعيل الهروى المتوفى عام ٤٨١ هـ . — ولابن القيم كتب أخرى منها : الفوائد فى التصوف والأخلاق وبه فصول عن البعث والجنة والنار وغيرهما . وكتاب مفتاح دار السعادة وبه فصول فى حكم المخلوقات ودعوى إلى الإيمان وحسن العبادة وردود على الفلاسفة . وشفاء الغليل فى مسائل القضاء والقدر والحكم والتعليل . وكتاب اجتماع الجيوش الإسلامية لغزو المرجئة والجهمية .

ج ص ٢٤٦ ، م

١٠ — البيان المفيد فى الفرق بين التوحيد والتلحيد : لتقى الدين المقريزى « ٨٤٥هـ » وله أيضاً : تجريد التوحيد .

القراءات

إن العناية التى وجهت إلى علوم القرآن الكريم ، وما يتصل به ، دعت القوم إلى أن يعنوا كذلك ، بطرق قراءته وحسن أدائه ، وتأثر رسمه . ولم يخرجوا فيما صنعوا عما رسم القدماء .

ومن أهم الدعائم التى استند إليها علم القراءات بمصر ، مانظم الشاطبى المشهور المتوفى عام ٥٩٠ هـ ، لقد أصبحت منظوماته متنا ، يتناوله الشراح بالشرح . وللشاطبى قصيدتان فى القراءات ورسم المصحف . وهو من جالية الأندلس بمصر ، وفد إليها واشتغل بالتدريس فيها ، وبذلك أصبح للأندلس الفضل فى نشر هذا العلم بالمشرق ، كما لها الفضل كذلك فى اشتغال أهله بعلوم النحو والصرف .

وكثر علماء فن القراءات بمصر، حتى عقد لهم السيوطى فصلا فى حسن محاضرته ذكر فيه النابهين منهم . وأكب كثير منهم على تدريسه بدور التعليم ، ومنحوا لطلابهم النابغين فيه « الإجازة » بالرواية ، على نظام إجازات الحديث وغيره من العلوم .

وأكب بعضهم أيضاً على التأليف فيه ، وتوضيح مسائله ، ودارت هذه المؤلفات فى أغلب أمرها على شرح الشاطبية كما نوهنا ، أو النظم على غرارها . وكتب بعضهم فى تاريخ أعلامه . ومن كتب هذا الفن :

١ — كتاب القراءات : لمعين الدين عبد الله بن محمد بن عبد الله أبى بكر النكراوى الاسكندرانى المتوفى فى عام ٦٨٣ هـ :

س ١ ص ٢٣٩

٢ — قصيدة فى القراءات : لنور الدين على بن محمد بن الناصح المقرى « ٨٠١ هـ »

س ١ ص ٢٤٢

٣ — شرح الشاطبية : لشهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبى السمين « ٧٥٦ هـ »

س ١ ص ٢٥٧

٤ — شرح الشاطبية : لجلال الدين السيوطى « ٩١١ هـ »

س ١ ص ١٥٨

٥ — المقصد لتلخيص ما فى المرشد : لزين الدين زكريا الأنصارى « ٩٢٦ هـ » . وله أيضاً كتاب « الدقائق المحكمة » وهو فى شرح المقدمة الجزرية .

م

٦ — المقدمة الجزرية : وهى منظومة فى التجويد وضعها شمس الدين أبو الخير محمد بن الجزرى الدمشقى القرشى المتوفى عام ٨٣٣ هـ . وله أيضاً كتاب « النشر فى القراءات العشر » . وله أيضاً « غاية النهاية فى رجال القراءات » .

ج ص ٢٤٧

٧ — شرح الشاطبية : لشهاب الدين أبى شامة « ٦٦٥ هـ »

ج ص ٦٤ ، ف ١ ص ٣٢٢

٨ — شرح الشاطبية : لشهاب الدين القسطلانى « ٩٢٣هـ »

المفصل ص ٢٦٠

مؤلفات العربية

بنفس الروح التى أثارت الجد فى نفوس علماء الدين ، ثار الجد فى نفوس علماء العربية بجميع فنونها . ونبغ فيها علماء أجلاء ، منهم من يعتبر إماما فى فنه ، وقدوة فى مادته .

والعربية كانت — ولا تزال ، وستبقى — أهم الأدوات لفهم الدين وتوضيح مسائله ، بينها من الوشائج ما لا تستطيع الأيام فصمه .

ولقد كان الاشتغال بها وبفنونها ، منذ صدر الإسلام ، وليدا للعناية بالدين والاشتغال بعلومه . وهذا هو نفس ما حدث فى العصر المملوكى . إذ اهتم بها العلماء اهتماما دعا إليه انصراف العناية إلى إحياء علوم الدين .

غير أن ولوع أهل العصر بإحياء علوم الدين ، جعل اللغة وفنونها فى المرتبة الثانية بالنسبة إليها . ومن ثم ، لم تكن لعلماء اللغة تلك المنازل المرموقة التى سما إليها علماء الدين . لذلك لم يكن غريبا أن يحرص العلماء على أن ينبغوا أولا فى علوم الشريعة ، ثم يفيئوا إلى اللغة وفنونها فيتعهدوها بالعناية .

على أن هناك بعضاً من العلماء ، غلب عليه الاشتغال باللغة وفنونها ، لرغبة فيها ، وولوع بها ، فأجاد وأفاد ، وسجل لنفسه بما ألفه ودونه من مسائلها ، سجلا خالدا

كتب النحو والصرف

ولعل النحو والصرف فى مقدمة فنون العربية ، التى حظيت من العناية بنصيب أوفر . فقد وضعت فيهما أسفار قيمة ، وعُرف بهما رجال أفذاذ .

ونحن لا ننكر أن نحويى هذا العصر ، لم يأتوا بجديد ممتع ، ولا بمبتكر رائع ،

وقصارى جهودهم بذلت فى توضيح مسائل النحو ، وتوجيه قواعده ، والاستدلال لها ، مع عرض الآراء المتناقضة ، أحيانا ، والموازنة بينها وترجيح أحدها .

ونحا بعضهم إلى وضع المتون ، ثم إلى شرحها ، ثم إلى شرح هذا الشرح ، أو اختصاره ، وذلك على نمط مما كان يفعل علماء الدين بكتب الفقه . وزادت التحشية على المؤلفات ، والاستدراك عليها ، ونحوه . حتى نتج من ذلك كله نتاج وفير ، فى هاتين المادتين : النحو والصرف .

غير أننا لا نرى مناصا من التنويه بأن بعضهم كانت له فى بحوثه شخصية وقوة تشعرنا بأنه كان حسن التذوق لمادته ، عميق الفهم ، كامل الإلمام ، دقيق الملاحظة والموازنة ، جديد التوجيه والتعليل . وأفضل الأمثلة لذلك . ابن هشام المصرى ، ذلك العلامة الذى قال فيه ابن خلدون . « مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر ، عالم بالعربية ، يقال له : ابن هشام ، أنحى من سيبويه » .

ونشير فى هذا المقام إلى جالية علماء الأندلس ، بالمشرق ، وعلى رأسها جمال الدين بن مالك الأندلسى الذى وفد إلى بلاد الشام فى عهد الملك الظاهر بيبرس ، وتتلمذ له كثيرون من أبنائها ، وانتشرت بينهم كتبه ومنظوماته . كالألفية والتسهيل ، وكلاهما فى مقدمة الكتب التى اتخذت محورا للتأليف .

وكذلك أبو حيان الأندلسى ، فقد وفد على مصر ، وتتلمذ لبعض رجالها ، وتتلمذ له بعض رجالها . وأفادوا منه كما أفاد منهم .

وإليك بعضا من المؤلفات والرسائل فى هذين الفنين :

١ — البهجة المضية فى شرح الألفية . للجلال السيوطى « ٩١١ هـ » . وله أيضا . الأشباه والنظائر فى النحو . والفريدة فى النحو والصرف والخط . والنكت على الألفية . والفتح القريب وهو شرح على مغنى ابن هشام . والاقتراح فى أصول النحو . وجمع الجوامع ، وهو مختصر فى النحو ، شرحه بمؤلف

آخر هو همع الهوامع . شرح شواهد المغنى . شرح القصيدة الكافية فى التصريف . وللسيوطى كتب أخرى غير ذلك .

ج ص ٢٣٢ س ، ١ من ١٦٠

٢ — مفنى اللبيب عن كتب الأعاريب : لجمال الدين بن هشام المصرى « ٧٦١ هـ » وله أيضا : شذور الذهب . وقطر الندى وبل الصدى . والجامع الصغير والروضة الأدبية . وموقد الأذهان . والإعراب عن قواعد الاعراب .

م ، س ١ ص ٢٥٧

٣ — الألفية : وهى المنظومة المشهورة لجمال الدين بن مالك الأندلسى « ٦٧٢ هـ » . وله أيضا : التسهيل والكافية الشافية وهى أرجوزة فى أكثر من ٢٧٥٠ بيتا لخص منها الفيته . وسبك المنظوم وفض المختوم ولامية الأفعال . وإيجاز التعريف . وشواهد التوضيح .

م ، ج ص ١٤١

٤ — شرح القواعد لابن هشام : مؤلفه جلال الدين المحلى « ٨٦٤ هـ » . وله أيضا شرح التسهيل ، كتب بعضه .

س ١ ص ٢٠٦

٥ — شرح ألفية ابن مالك : لشمس الدين بن الصائغ محمد بن عبد الرحمن بن على الزمردى « ٧٧٧ هـ »

س ١ ص ٢٢٠

٦ — شرح ألفية ابن مالك : لأكمل الدين البابرتى « ٧٨٦ هـ »

س ١ ص ٢٢٢

٧ — شرح التسهيل : لبدر الدين المرادى ، وهو ابن أم قاسم ، حسن بن قاسم « ٧٤٩ هـ » وله أيضا شرح الألفية .

س ١ ص ٢٥٧

٨ — شرح التسهيل : لشهاب الدين السمين ، أحمد بن يوسف بن عبدالدائم الحلبى نزيل القاهرة « ٧٥٦ » .

س ١

٩ — شرح الألفية : لناظر الجيش محب الدين محمد بن يوسف بن أحمد بن عبدالدائم الحلبى « ٧٧٨ هـ » وله أيضا شرح التسهيل .

١٠ — حاشية على مغنى اللبيب : لبدر الدين الدمامينى المتوفى بالهند عام « ٨٢٧ هـ » وله أيضا شرح على التسهيل .

ج ، س

١١ — الكناش : للملك المؤيد إسماعيل أبى الفداء صاحب حماة « ٧٣٢ هـ » فى عدة مجلدات .

ف٢ ص٢٠ — ج ص ١٨٩

١٢ — مفتاح الإعراب : لأمين الدين المحلى « ٦٧٣ هـ » .

ج ص ١٢٤

١٣ — شرح الألفية : لجمال الدين عبدالرحيم الأسنوى « ٧٧٢ هـ » كتب بعضا منه . وله أيضا شرح التسهيل .

س ص ٢٠١

١٤ — المساعد فى شرح التسهيل : لبهاء الدين بن عقيل « ٧٦٩ هـ » وله شرح الألفية أيضا .

س ١ ص ٢٥٧

١٥ — قصيدة فى المقصور و المحدود : لشمس الدين الهوارى الشاعر « ٧٨٠ هـ »

ج ص ١٢٤

١٦ — الألغار النحوية . لخالد الأزهرى الجرجاوى « ٩٠٥ هـ » .

ج ص ١٤٤

١٧ — بلوغ الأرب بشرح شذور الذهب : لزين الدين زكريا الأنصارى « ٩٢٦ هـ » وله أيضا . المناهج الكافية فى شرح الشافية .

م

بقية فنون العربية

أما علوم البلاغة ، فالمعروف أنها نضجت قبل هذا العصر ، نضوجا محمودا ، فقد هذب عبدالقاهر الجرجانى — المتوفى سنة « ٤٧١ هـ » — مسائلها ، ووجه أنواعها ، ورتب قواعدها فى كتابيه ، « أسرار البلاغة » و « دلائل الأعجاز » ، بعد تلك المحاولات التى سبقه بها غيره من علماء العصر العباسى وأدبائه . ثم جاء السكاكى وهو أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر المتوفى عام « ٦٢٦ هـ » ، فوضع علوم البلاغة فى قالبها العلمى الأخير ، على ضوء ما صنع الجرجانى . وذلك فى كتابه الشهير « مفتاح العلوم » .

وجاء العصر المملوكى ، فاشتغل علماؤه بالشرح والتفصيل ، أو الاختصار . وعلى رأسهم جلال الدين القزوينى ، وهـــو محمد بن عبد الرحمن بن عمر المتوفى عام ٧٣٩ هـ الذى تولى قضاء الشافعية بمصر زمنا ، فوضع كتابا لخص به جزءا من كتاب السكاكى . « مفتاح العلوم » وسماه « تلخيص المفتاح » حاذفا من المفتاح ما فيه من حشو أو تطويل أو تعقيد ، وزاده ما يحتاج إليه من أمثلة وشواهد ، وأزال ما فيه من عقادة . ثم عاد القزوينى ، فوضع لهـــذا الكتاب شرحا سماه : « التوضيح » .

وقد اتخذ الكتابان المذكوران محورا للتأليف فى علوم البلاغة فى العصر المملوكى ، وأساسا للحديث فيها . لذلك جاءت كتب المؤلفين شروحا لهما أو تلخيصا أو نحو ذلك . ثم لانتكر أن كثيرا منها ذو عبارة جافة تتودها المعاظلات ، وتثقلها مصطلحات اللفظ والأسلوب .

على أنه كان بجوار هؤلاء العلماء الذين اشتغلوا بالبلاغة باعتبارها علما ذا قوانين وتعاريف ، علماء آخرون أو قل أدباء ، كان لهم ذوق أدبى خاص ، فأخضعوا — ما استطاعوا — علوم البلاغة وقواعدها لهذا الذوق ، ومزجوا مباحثها بالروح الأدبية ، وإن طغت عليهم نزعة البديع . ووضعوا على هذا الأساس كتبا محمودة قيمة فى بابها ، وعلى رأسها « خزانة الأدب » لابن حجة الحموى أحد كبار النقاد فى العصر المملوكى .

لذلك لا تغلو إذا قلنا إن النقد انقسم إلى شطرين . نقد بلاغى ، ونقد أدبى . وسنعنى فى الجزء الثالث والرابع من هذا الكتاب ، بالحديث عن هذين النقدين لاتصالهما بالثقافة الأدبية ، أكثر من اتصالهما بالثقافة العلمية البحت .

وإلى جانب هؤلاء وهؤلاء ، عدد من المؤلفين ، وجهوا عنايتهم إلى فنون اللغة الأخرى ، كوضع المعجمات ، والحديث فى العروض والقافية . ونحن نذكر هنا بعضا من مؤلفاتهم جميعا فنها .

١ — كتاب العروض : لابن مالك النحوى الأندلسى « ٦٧٢ هـ » . وله أيضا : تحفة المودود فى المقصور والممدود ، وهى منظومة همزية ، كأنها معجم للألفاظ المنتهية بألف ، فتشتبه بالمقصور أو الممدود . وله أيضاً : الألفاظ المختلفة ، وهو فى المترادفات . والاعتقاد ، فى الفرق بين الصاد والضاد . والإعلام بمثلث الكلام وهو منظومة فى ثلاثة آلاف بيت ، ذكر فيها الألفاظ التى تختلف معانيها باختلاف حركات حروفها .

٢ — المصباح المنير : وهو معجم لغوى مشهور لمؤلفه أحمد بن على المقرى الفيومى « ٧٧٠ هـ » ، فرغ من تأليفه عام « ٧٣٤ هـ » .

٣ — المسترجل فى الكنى : لشمس الدين الذهبى « ٧٤٨ هـ » . وله أيضاً : المقتنى فى سرد الكنى .

٤ — ملخص تلخيص المفتاح : لزين الدين زكريا الأنصارى « ٩٢٦ هـ » . وله أيضا : فتح رب البرية بشرح القصيدة الخزرجية للشيخ ضياء الدين أبى عبد الله الخزرجى الأندلسى ، فى العروض والقافية . وله أيضا : فتح منزل المثانى لشرح أقصى الأمانى ، وهو فى البلاغة ، شبيه بكتابه « ملخص التلخيص » .

م

٥ — الإفصاح : للجلال السيوطى « ٩١١ هـ » ، وهو نسكت على التلخيص فى البلاغة . وله أيضا : عقود الجمان فى المعانى والبيان . وشرح أبيات تلخيص المفتاح ، وهو فى البلاغة كذلك . وله أيضاً : المزهر ، وهو كتاب جليل فى مجلد واحد وموضوعه علم اللغة وفقهها . وله أيضا : جناس الجناس .

س ٠ ج

٦ — عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح : لبهاء الدين أبى حامد السبكى « ٧٧٣ هـ » .

س ١ ص ٢٠٤

٧ — شرح تلخيص المعانى والبيان : لأكمل الدين محمد بن محمد بن محمود البابرتى « ٧٨٦ هـ » .

س ١ ص ٢٢٣

٨ — خزانة الأدب وغاية الأرب : لتقى الدين بن حجة الحموى « ٨٢٧ هـ » ، وضعه شرحا لبديعيته ، فضمنه الحديث عن البديع والبلاغة . وسنتحدث عنه فى الأجزاء القادمة . — ولابن حجة أيضا : كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام .

٩ — لسان العرب . لابن منظور الإفريقى « ٧١١ » وهو معجم لغوى مشهور نافع ، ومن مفاخر هذا العصر .

١٠ — كتاب القوافى . لبدر الدين الدمامينى « ٨٢٧ هـ » ، وهو فى علم القوافى . وله أيضا . جواهر البحور ، فى العروض . ج س ١٤٤

١١ — شفاء العليل فى علم الخليل . لأمين الدين المحلى « ٦٧٣ هـ » . وله أيضا : العنوان فى معرفة الأوزان . ج س ١٤٤

١٢ — جلوة الأمداح الجمالية ، فى حلتى العروض العربية : قصيدة فى العروض لشهاب الدين بن عريشاه « ٨٥٤ هـ » . ج س ١٥٦

١٣ — جنان الجناس : لصلاح الدين الصفدى « ٧٦٤ هـ » فى البديع والأدب . وله أيضاً : فض الختام فى التورية والاستخدام وهو فى البيان والأدب . واختراع الخراع : فى اللغة والعروض . ونفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهرى من الوهم ، وهو انتقادى على كتاب الصحاح للجوهرى فى اللغة . ج س ١٦٤

١٤ — مختصر أساس البلاغة للزمخشرى : لشهاب الدين بن حجر العسقلانى « ٨٥٢ هـ » . ج س ١٦٧

العلوم الكونية ومؤلفاتها

نقصد بالعلوم الكونية ، كل ماعدا العلوم الشرعية واللسانية ، وما عدا التاريخ كذلك . ومنها : التقويم والسياسة والاجتماع والطب والهندسة ، وعلم الحيوان

والنبات ،والرياضيات، والمنطق والفلك والنجوم والفلسفة والطبيعيات والصناعات . وما إلى ذلك .

ولم ينصرف إلى هذه العلوم ، اهتمام بالغ ، كما انصرف إلى علوم الدين ، فعلوم اللغة . وما ذلك إلا لأن منطق العصر ، ومنطق ظروفه ، اتجه بالعلماء نحو تجديد علوم الدين واللغة ، أكثر من سواها . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك ، فى أكثر من مناسبة . وكان لهذا الاتجاه أثره فى ضعف الإنتاج التأليفى فى العلوم الكونية . وبخاصة إذا قيس بالإنتاج فى علوم الدين واللغة .

وإذا أخرجنا التاريخ من عداد العلوم اللسانية ، وجدناه الوحيد المقدم من بين العلوم الكونية ، الذى حظى بعناية ملحوظة . ويبدو أن هذا كان نتيجة للعناية بعلوم الدين . فإن كثيراً من كتب التاريخ — كما رأينا — كان فى تراجم علماء المذاهب ورجال الحديث .

على أنه كانت هناك بلا ريب ، عناية بالهندسة ، نتيجة لحاجة العصر إلى فن البناء ، لاهتمام سلاطينه ورؤسائه بتشييد العمائر من مدارس ومساجد ، وقباب ، وخوانق ، وقصور ، وقلاع ، ونحو ذلك . ولم يكن البناء مجرد استجابة لنداء الحاجة العامة فحسب ، بل كان مجالا للتفاخر والظهور ، ولهذا كان مليئا بألوان من الزخرف والزينة . فكان طبيعيا بجوار هذا ، أن ينبغ عدد كبير من المهندسين وشادّى العمائر وأهل الفن وأرباب الصناعات ممن خلفوا لنا آثارا قيمة ، لاتزال ماثلة للعيان ، تشهد بعلم غزير ، ودقة كاملة وذوق سام ، وفن دقيق . هذا فضلا عما خلفوه خارج البلاد المصرية من آثار .

وكان يطلق على أهل فن البناء « الشادّين » أو شادّى العمائر ، وعرفت أحيانا كلمة « مهندس » مرادفة للشاد . — كما أشرنا فى موضع سابق .

ومن اشتهر من المهندسين ، على سبيل المثال . المعلم شمس الدين الطولونى . هو وابنه شهاب الدين أحمد وقد عاشا فى عصر برقوق ، وقد ذكرهما شمس الدين السخاوى فى الضوء — ١ ص ٢٢١ — فقال ما مؤداه .

« المعلم شمس الدين الطولونى ، كبير المهندسين . كان هو وأبوه ، عليها المعول فى العمائر السلطانية . وإليها تقدمة الحجارين والبنائين بديار مصر . وتزوج برقوق ابنته ، وتزوج ابنه — أى ابن الطولونى — واسمه شهاب الدين أحمد ، ابنة برقوق — أى السلطان الظاهر برقوق — .

ومن أعماله أن قام بعمارة المسجد الحرام ، وشهد أيام عز فى عهد برقوق .

وكان بجوار مهندس البناء ، عدد من خبراء الرى ، الذين كانوا يراقبون فيضان النيل وتصريف مائه ، وحفر خلجانه وبناء قناطره ، ونحو ذلك .

وكانت هناك عناية لا بأس بها بعلوم الطب . وقد ذكر فى تاريخ بعض المدارس أن الطب كان يدرس فيها . ومن الأمثلة لذلك جامع ابن طولون . فقد نقلنا من قبل ، فى تاريخه ، ما رواه المقريزى عن السلطان لاچين . أنه عنى بهذا الجامع ، ووسع فى أوقافه . ورتب فيه دروسا منها درس فى الطب .

وقال السيوطى فى حسن المحاضرة عن شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى المتوفى عام ٧٧٦ هـ ، أنه كان مدرسا للأطباء بالجامع الطولونى .

ونذكر بالفخر ، المارستان المنصورى الذى أسسه السلطان المنصور قلاوون ، فقد كان بجوار أنه مستشفى لعلاج المرضى ، كان مدرسة عظيمة للطب . وأسست به قاعة خاصة لإلقاء دروس الطب على الطلاب .

وعُرف عدد من أفذاذ الأطباء بمصر ، قيل فى تاريخهم عبارات تدل على نبوغهم ، ورسوخ قدمهم فى صناعتهم . ويلقب كل منهم « بالرئيس » ومنهم على سبيل المثال : الرئيس علاء الدين على بن عبد الواحد بن محمد ، المشهور بابن صغير . قال عنه السيوطى فى حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٢ :

« كان أعجوبة الدهر فى الفن ، ولى رياسة الطب دهرا طويلا ، وله فيه المعرفة التامة ، كان يصف الدواء الواحد للمريض الواحد ، بما يساوى ألفا ، وبما يساوى درهما . وكان الشيخ عز الدين بن جماعة ، يثنى على فضائله . مات فى ذى الحجة سنة ست وتسعين وسبعمائة » .

ومنهم أيضاً : ابن المغربى الطبيب ، قال عنه السيوطى : « رئيس الأطباء بالقاهرة » مات فى عام ٧٧٦ هـ . وسنردد ذكر هؤلاء وغيرهم فى مناسبات آتية .

ومما نحب أن ننوه به فى هذا المقام ما رواه ابن إياس فى البدائع — ج ١ ص ٣٠٠ — ، قال : « إنه فى عام ٧٩٥ هـ ، حضر رسول إلى السلطان الظاهر برقوق ، من قبل السلطان بايزيد بن مراد ، سلطان العثمانيين ، يطلب إليه أن يرسل له طبيبا فى أمراض المفاصل ، لأنه مريض بهذا الداء . فأرسل إليه السلطان برقوق : الرئيس شمس الدين بن صغير ، ومعه أدوية كثيرة . »

على أنك تقرأ فى تاريخ المارستان المنصورى المتقدم ذكره ، أنه كان يحتوى على جملة أقسام منها : قسم للحميات ، وآخر للرمد ، وآخر للجراحة ، وآخر للأمراض النسوية . وآخر للإسهال . وتقرأ فى تاريخ بعض العلماء أو الأدباء أنه كان « كحالا » أى طبيب عيون .

من هذا وذاك ، نشعر بمقدار النباهة التى كان عليها فن الطب فى الديار المصرية خلال العصر المملوكى . وأنها حازت به شهرة عظيمة طارت إلى الآفاق . وأن هذا الفن لم يقتصر على إحدى نواحيه ، بل امتد أفقه ، واتسع مداه ، وتعددت اتجاهاته .

إلى جانب هذا عُنى بعضهم بعلم التقويم — وقد نوهنا به فيما سبق — ونذكر فى هذا المقام ، الملك المؤيد أبا الفداء اسماعيل صاحب حماة المتوفى عام ٧٣٢ هـ . صاحب كتاب « تقويم البلدان » نظم فيه معلومات الجغرافيين المتقدمين ، مع عناية ودقة وتحقيقات لا بأس بها تتناسب مع عصره .

كما نذكر أيضاً أبا الثناء محمودا الأصفهانى نزيل مصر ، وهو الذى تنبأ بوجود الأمريكتين ، قبل كشفهما بنحو قرن ونصف . وقال ما ملخصه إنه لا يمنع وجود يابس فى الجزء المقابل لهذه البلاد ، من وجه الأرض ، روى ذلك ابن فضل الله فى مسالك الأبصار ج ١ . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

ثم إن مصر بموقعها الجغرافى ، كانت ممرا تجاريا بين الشرق والغرب ، لذلك

لا غرابة إذا رأينا عددا من المصريين ، يشتغلون بالملاحة فى البحرين . ولا سيما أنهم يرون أمامهم ملاحى البندقية وجنوة وبيزا وغيرهم ، يروحون فى البحر الأبيض ويغدون . والملاحة تتطلب — بلاريب — علما بالبحرين ومسالكهما وظروف الملاحة فيهما . ولقد اشتغل بعض المصريين بنقل المتاجر عبر البحار . وبلغوا بسفينهم مرافىء المحيط الهندى . وقد استطاع بعض السلاطين أن ينشىء لمصر أسطولا بحريا ، يغزو باسمها فيما وراء البحار . كأسطول الأشرف برسباى ، الذى غزا جزيرة قبرص وهزم ملكها ، وأسر عددا من جنوده . وكأسطول الغورى ، الذى أرسله لاستئصال شأفة البرتغاليين من سواحل المحيط الهندى . — هذا كله يستدعى خبرة بالملاحة وصناعة السفن .

وبهذه المناسبة نشير إلى أن الطبقة الحاكمة عاشت معظم حياتها — كما بينا — معيشة جندية ، فبرع فى فنون القتال ، وصناعة الأسلحة ، عدد من الصناع .

وبعدُ فلا أدل على وفرة أهل الفنون والصناعات فى تلك البلاد ، من هذا العدد الضخم العظيم الذى جمعه منهم السلطان سليم العثمانى . بعد تمام الفتح ، وشحنه شحنا فى سفن شراعية إلى عاصمة ملكه [١] .

ثم نعود فنقول . إنه يبدو لنا ، أن تعاطى هذه العلوم والحرف والصناعات ، كان فى أغلب أمره مبنيا على التقليد ، والتجارب الشخصية أكثر من بنائه على أسس تعليمية دقيقة منظمة . وكانت حقائقها فردية جزئية متفرقة ، أكثر من كونها عامة مجموعة ، مؤسسة على قواعد علمية ثابتة . وعلى أقل تقدير ، لم تكن متقنة منظمة يستطاع إلقاؤها فى دروس مرتبة ، كما كان الشأن فى العلوم الدينية ، كما لم تكن دروسها واسعة المجال ، منتشرة فميسورة ، كتلك الدروس .

ولعل مما يناسب ذكره فى هذا المقـــام أن بعض الناس كان يشتغل بعلم « الكيمياء » ومعناه وموضوعه تحويل الزئبق إلى ذهب . وتعددت حوادث

---

(١) راجع بدائع الزهور لابن إياس الحنفى ج ٣ حوادث سنة ٩٢٣ هـ .

المشتغلين بهذا العلم. حتى خدع أحد السلاطين وهو الظاهر جقمق العلائى، بواحد منهم، اسمه « الشيخ أسد الدين »، فأنفق عليه نحوا من عشرة آلاف دينار ثم ظهر زيفه.[1].

وكان الناس ينظرون بريبة إلى كل مشتغل بالكيمياء، ويرجفون حوله بالأحاديث. ويذهبون فى هذا الاشتغال مذاهب شتى. فمنهم من يحرمه، ومنهم من يحله.

ومهما يكن من شىء، فإن العصر لم يكن بالمسرح الصالح لظهور رجال المنطق والفلسفة، المجددمنهم والمبتكر. ولا رجال الحكمة والنظرفيماوراء الطبيعة. ولعل ضعف الثقافة بعامة، والعناية بعلوم الدين بخاصة، كان لهما دخل فى ذلك. وربما كان للحروب والفتن الداخلية التى شغلت العصر وأهله، وضعف وسائل التشجيع فى هذا الباب، دخل آخر.

أما مقدمة ابن خلدون، فى فلسفة التاريخ، وقوانين الاجتماع، فحدث فذ فى العصر، لم ينتجه سياقه ومنطقه، وإن هى إلا ذكاء المؤلف وعبقريته.

وكانت الروح الدينية سائدة إلى حد بعيد، وإلى جانبها النزعة الأدبية، حتى إنك لتراها طاغية السمات على المؤلفات. ومن اشتغل بالنظر فى الإلهيات، تناولها تناولا إسلاميا، على نحو ما وصفنا عند الحديث عن التصوف والعقائد. فلم يُقيض الاشتغال الحر بهذا النظر. وكان لذلك أثره فى تفاهة النتاج التأليفى فى هذا الباب. إذ كان التأليف فى الفقه والحديث والتفسير ونحوهما يستهوى قلوب العلماء المؤلفين أكثر من سواه. وقد قال جلال السيوطى فى سياق ترجمته لنفسه فى حسن المحاضرة.. ما يلى بالنص: « وقد كنت فى مبادى الطلب، قرأت شيئا فى علم المنطق، ثم ألقى الله كراهته فى قلبى. وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه. فتركته لذلك فعوضنى الله تعالى عنه علم الحديث الذى هو أشرف العلوم ».

---

(١) راجع القصة فى الجزء الأول من هذا الكتاب، قسم ٢ ص ٤١٢.

ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن شعور السيوطى ، هو شعور علماء العصر كله .

ولنذكر الآن بعض المؤلفات فى هذه الموضوعات فمنها [١] .

١ ـ المختار من الأغذية : مؤلفه علاء الدين بن النفيس المتوفى عام ٦٩٦ هـ . فى الطب والنبات . وله أيضاً : موجز القانون وهو فى الطب .

ج ص ٥٠ ، س ٢٦٠

٢ ـ كمال الفرحة فى دفع السموم وحفظ الصحة : لمحمد القوصونى الطبيب . قدمه لقانصوه الغورى بإشارة منه . وبه تفاصيل مفيدة عن معالجة السموم .

ج ٣ ص ٢٥٠ س

٣ ـ مطالع الأنوار : لسراج الدين أبو الثناء الأرموى المتوفى عام ٦٨٢ هـ . وهو فى الحكمة والمنطق .

ج ص ٢٥٠

٤ ـ زيج ابن الشاطر : لابن الشاطر الموقت فى الجامع الأموى والمتوفى عام ٧٧٧ هـ وهو فى النجوم .

ج ص ٢٥١

٥ ـ خلاصة الأقوال فى معرفة الوقت ورؤية الهلال : لشهاب الدين بن طيبوغا القاهرى المتوفى عام ٨٥٠ هـ

ج ٣ ـ ٢٥١

٦ ـ حياة الحيوان الكبرى : مؤلفه كمال الدين بن عيسى الدميرى المتوفى عام ٨٠٨ هـ وهو فى علم الحيوان واللغة والأدب والتاريخ .

ج ص ٢٥٣

٧ ـ عين الحياة : وهو مختصر حياة الحيوان للدميرى . اختصره الدماميني .

ج ص ٢٥٤

٨ ـ ديوان الحيوان : وهو للسيوطى جلال الدين المتوفى عام ٩١١ هـ . وهو مختصر آخر لحياة الحيوان للدميرى

ج ص ٢٥٤

٩ ـ حاوى الحسان : وهو لمحمد بن عبد القادر الدميرى . وهو مختصر حياة الحيوان للدميرى كمال الدين .

ج ص ٢٥٤

---

(١) اعتمدنا فى هذه المؤلفات على كتاب جورجى زيدان ج ٣ ، وعلى حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ، وعلى فهرس دار الكتب المصرية . ـ ولم نذكر شيئا فى كتب التاريخ والتقويم فقد سبق لنا ذكرها .

١٠ ـ تحفة المجاهدين فى العمل بالميادين : مؤلفه الأمير لاجين بن عبد الله الذهبى الحسامى الطرابلسى المتوفى عام ٧٣٨ هـ وهو فى الحركات العسكرية ـ وينسب لابنه محمد . ج س ٢٥٤

١١ ـ كشف الكروب فى معرفة الحروب : لعماد الدين موسى بن محمد اليوسفى المصرى المتوفى عام ٧٥٩ هـ وهو فى فن الحرب ونظام الجند مرتب على عشرة أبواب . ج س ٢٥٤

١٢ ـ كتاب الفروسية : لبدر الدين بكتوت الرماح الخازندارى نائب الأسكندرية سنة ٧٧١ هـ . ج س ٢٥٤

١٣ ـ الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية : مؤلفه محمد بن منكلى نقيب الجيش فى زمن الأشرف شعبان . وهو فى فن القتال وجميع آلاته وحركاته وله أيضاً . التدبيرات السلطانية فى سياسة الصنائع الحربية . ألفه للسلطان الأشرف شعبان . وله أيضاً : أنس الملا بوحش الفلا .

ج س ٢٥٤ ، ٢٥٥

١٤ ـ بغية القاصدين فى العمل بالميادين . مؤلفه محمد بن لاجين الحسامى الطرابلسى الرماح المتوفى عام ٧٨٠ هـ . وهو فى الفروسية ألفه للأمير سيف الدين المارديني صاحب حلب . وله أيضاً . غاية المقصود من العلم والعمل بالبنود . وله أيضاً : كتاب فى الرماح .

ج س ٢٥٧

٢٥ ـ الأنيق فى المجانيق . مؤلفه . . . ارنبغا الزردكاش المتوفى سنة ٨٦٧ هـ

ج س ٢٥٧

٢٦ ـ الحجة والبرهان على فتيان هذا الزمان . مؤلفه صفى الدين أدريس ابن بيدكين بن عبد الله التركمانى . وهو من تلاميذ ابن تيمية الحرانى . وفى هذه الرسالة ينتقد شبان زمانه . ج س ٢٥٨

٢٧ ـ بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاة الأمور وسائر الرعية : فى

السياسة والإدارة وهو بحث شرعى فى واجبات السلطان والولاة والرعية، مؤلفه نجم الدين أحمد بن محمد بن الرفعة المصرى محتسب القاهرة المتوفى عام ٧١٠ هـ ج س ٢٥٨

١٨ — آثار الأول فى تدبير الدول : وهو فى السياسة أيضاً ألفه حسن بن عبدالله العباسى ، للملك المظفر بيبرس المنصورى . وبه كلام عن قواعد المملكة وأحوال الملك مع خواصه وخدمه والأمور المختصة بما شيته والحروب وشروطها برا وبحرا . وغير ذلك ج س ٢٥٩

١٩ — محاسن الملوك : كتبه أحد أدباء القرن الثامن الهجرى للسلطان برقوق وبه بحوث عن الآداب السلطانية وواجبات السأطان نحو الرعية .

ج س ٢٥٩

٢٠ — الدرة الغراء فى نصائح الملوك والولاة والوزراء : وهو فى السياسة ، ألفه محمود بن اسماعيل الجيزى المتوفى نحو عام ٨٤٥ هـ ، وقد ألفه للسلطان أبى سعيد چقمق . وهو فى عشرة أبواب ج س ٢٥٩

٢١ — زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك : وهو فى السياسة ، ألفه غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى المتوفى عام ٨٤٠ هـ ، وبه بحوث شتى منها قسم فى تاريخ بعض الخطط بمصر ، ومنها فى وصف السلطان ومحاسنه ومواكبه وملابسه ، وكذلك الحنفية والقضاة ، وكبار الرجال فى الدولة ، وأبناء الملوك ونظام الملك والأمراء والخزانة والأسلحة والمطابخ والاسطبلات والممالك التابعة لمصر ، فهو كتاب سياسى اجتماعى إدارى .

ج ٣ س ٢٦٠

٢٢ — البرهان فى فضل السلطان : فى السياسة أيضاً . مؤلفه شهاب الدين توغان المحمدى الأشرفى المتوفى عام ٨٨٠ هـ . ألفه للسلطان خشقدم . وله أيضاً منهج السلوك فى سيرة الملوك . فى السياسة أيضاً . وله كذلك : المقدمة السلطانية فى السياسة الشرعية : فى السياسة أيضاً .

ع س ٢٦٠ ، س ١٨٢

٢٣ — هدية العبد الفاصر إلى السلطان الملك الناصر: فى السياسة . ألفه عبدالصمد ابن يحيى بن أحمد بن يحيى الصالحى قدمه للملك الناصر محمد بن الملك الأشرف قايتباى . ذكر فيه مآثره وبه بحوث عن أحوال الرعية والشكاوى وواجبات الولاة والعمال إلى غير ذلك

ج ص ٢٦٠

٢٤ — نيل الرائد فى النيل الزائد : ألفه أبو الطيب شهاب الدين الحجازى الأنصارى المتوفى عام ٨٧٤ هـ . وهو عبارة عن جداول لزيادات النيل حسب الزمان

ج ص ١٢٦

٢٥ — طوالع البدور فى تحويل السنين والشهور : مؤلفه أبو البقاء بن يحيى بن الجيعان المتوفى عام ٩٠٠ هـ . وهو فى علم الميقات

ج ص ١٨٣

٢٦ — بهجة الخلد فى نصح الولد : وهى أرجوزة فى التربية نظمها بهاء الدين محمد بن يوسف الباعونى الدمشقى المتوفى عام ٩١٠ هـ .

ج ص ١٩٧

٢٧ — مقدمة ابن خلدون : واضعها ولى الدين بن خلدون الشهير المتوفى عام ٨٠٨هـ وهى مقدمة تاريخه العبر . وقد أثبتناها هنا لما بها من فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع .

ج ص ٢١٢

٢٨ — كتاب السياسة فى علم الفراسة : مؤلفه شمس الدين أبو عبد الله الدمشقى المتوفى عام ٧٢٧ هـ

ج ص ٢١٥

٢٩ — المنائح لطالب الصيد والذبائح : مؤلفه برهان الدين الفزارى المتوفى عام ٧٢٩ هـ .

ج ص ٢١٩

٣٠ — اللؤلؤ التظيم فى روم التعلم والتعليم : مؤلفه زين الدين أبو يحيى زكريا الأنصارى المتوفى عام ٩٢٦ هـ . ذكر فيه أصناف العلوم وحدودها .

ج ص ٢٤٣

٣١ — أخبار النساء : واضعه شمس الدين بن القيم المتوفى عام ٧٥١ هـ . ويشتمل على أخبار النساء وأوصافهن وما يقال فى التحذير منهن ومن غدرهن . وهو فى وصف إحدى نواحى المجتمع .

ج ص ٢٤٦

٣٢ — المدخل : لأبى عبد الله محمد بن محمد العبدرى الفاسى المالكى الشهير بابن الحاج ، المتوفى بالقاهرة عام ٧٣٧ هـ . وهو فى أربعة أجزاء ، وفيه نقد لحالة البلاد الاجتماعية والخلقية ، وعاداتها وتقاليدها المرعية عند العوام وغيرهم ، وعلاج ذلك علاجا شرعيا . م

٣٣ — القواعد : صنفه شمس الدين محمد بن محمود الاصبهانى المتوفى بالقاهرة عام ٦٨٨ هـ . وهو فى الجدل والمنطق . س س ٢٦٠

٣٤ — كتاب الترياق : للمفضل بن هبة الله الحميرى الإسنائى ، ٧٦٩ هـ ،
س س ٢٦١

٣٥ — إغاثة الأمة بكشف الغمة : لتقى الدين المقريزى ، ٨٤٥ هـ ، وهو فى وصف المجاعات وحوادث الغلاء التى وقعت مصر فى . وبه وصف لعاداتها وطوائفها وقد تولى الأستاذان محمد مصطفى زيادة وجمال الدين محمد الشيال نشر هذا الكتاب عام ١٩٤٠ م .

٣٦ — نفائس المجالس السلطانية : ألفه حسين محمد الحسينى للسلطان الغورى . وفيه وصف لمجالس هذا السلطان وبحوثه ومناقشاته مع علمائه فى الفقه وغيره . وقد نشر هو وكتاب « الكوكب الدرى فى مسائل الغورى » مختصرين ، عام ١٩٤١ هـ . تولى نشرهما الدكتور عبد الوهاب عزام .

٤٠ — تقويم البلدان : لأبى الفداء اسماعيل وهو الملك المؤيد صاحب حماة المتوفى عام ٧٣٢ هـ .

٤١ — التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية : لشرف الدين يحيى بن المقر المعروف بابن الجيعان الذى كان موجودا عام ٧٧٧ هـ . ذكر فيه بلدان مصر ، ومساحة كل منها بالفدان ، كما كانت حالتها عام ٧٧٧ هـ . أى فى عهد الأشرف شعبان . م

٤٢ — خريدة العجائب وفريدة الغرائب : لزين الدين بن الوردى ، ٧٤٩ هـ ، تكلم فيه عن الأقاليم ومعادنها إلى غير ذلك من محتوياتها . م

٤٣ — مبدأ النيل على التحرير : للجلال المحلى « ٨٦٤ هـ » ، وهو فصل فى مبدأ النيل ومنتهاه . ويليه نبذة فى النيل للسيوطى جلال الدين .

٤٥ — الخضراوات السبعة : للجلال السيوطى « ٩١١ هـ » ، فى الزراعة

٤٦ — مباهج الفكر ومناهج العبر : لجمال الدين محمد بن ابراهيم بن يحيى الوراق المعروف بالوطواط المتوفى عام ٨١٨ هـ وهو فى الزراعة .

٤٧ — اللؤلؤ النظيم فى روم التعلم والتعليم : لزكريا الأنصارى « ٩٢٦ هـ » .

الكتب الجامعة

من مميزات عصر المماليك : وضع كتب جامعة واسعة النطاق ، تحدثت فى مواد علمية وأدبية كثيرة . يُستطرد فيها إلى هذه المواد حسب المناسبات . فترى فيها أحيانا : التقويم ومرة التاريخ أو الأدب شعرا أو نثرا ، أو الفكاهات الطريفة أو الاشارة إلى الحوادث السالفة ، أو مزايا نوع من النبات أو الحيوان ، أو الحديث عن قوم حديثا يفصح عن عاداتهم ، أو الكلام عن خلق أو الإشارة إلى سياسة أو النزوع إلى طب . . وهكذا . فهى موسوعات علمية أو دوائر معارف جليلة النفع عظيمة الأثر .

وقد ضممنا فيما سبق ، كل موسوعة إلى باب من أبواب المواد العلمية ، واعتبرنا فى ذلك المادة الأساسية التى وضعت الموسوعة لأجلها ، لا المواد الفرعية التى استطرد إليها .

وتدلنا هذه الكتب الجامعة على سعة جعبة واضعيها ، ومقدار اطلاعهم البعيد المدى ، ومقدار كرمهم بما تعى صدورهم من معلومات مفيدة . ضنوا بها على النسيان ، فسطروها أو قل سجلوها فى هذه الكتب الخالدة ، وتحيلوا فى إيجاد مناسباتها التى تخول لهم ذكرها . وصبروا العمر الطويل على تدوينها مما يدخل فى حيز الخيال ويبعد عما يطيقه الجهد .

ونحن وإن آخذناهم بالخلط بين هذه المواد ، وبعدم العناية بوحدة الموضوع واستقلال الفكرة ، وبسعة الاستطراد حتى ليضيع الزمن على الباحث بسببه ، نثبت لهم يدهم الطولى فى تدوين هذه المعلومات ولا سيما التاريخية والأدبية منها ، فهى ذخيرة ثمينة . بل وبقية المعلومات الأخرى ، لأنها على الأقل ترينا مقدار ما كان يفهمه أهل هذه العصور فى مسائل العلم المختلفة ونظرياته . . ونشكر لهم مبادرتهم بتعويض العلم عما فقده فى حوادث التتار والصليبيين والفرنجة امة .

ثم نتحى على أنفسنا بعد ذلك باللملام ، ونؤاخذها بما قصرت فيه من طبع هذه المؤلفات فى وقت مبكر ، وفى تزويدها بالفهارس النافعة المنظمة للاستفادة منها ، وفى تهذيبها هى وتفريغها فى قالب جديد ، وفى البحث فى أبوابها المختلفة واستخلاص النواحى المؤتلفة فيها المتفرقة بين صفحاتها ، وحشدها فى صعيد واحد ، تيسر العلم على طالبه ، وتسهل سبيل الأدب على مجتازه . وما تلك البحوث التى نقرؤها فى الصحف والمجلات أحيانا يكتبها المتعالمون إلا قشور من ذلك اللباب . وهكذا .

ولا أريد أن أقصر هذه الموسوعات على ما قصرها عليه مؤرخو الأدب فى العصر الحديث ، بل أدخل فى عدادها عددا آخر من المؤلفات فى التراجم والتاريخ والتقويم والحديث والتفسير والفقه والأدب ، ففى كثير منها استطرادات قيمة جدا فى بحوث شتى .

وقد جدّت الهمة منذ أعوام لطبع هذه المؤلفات طبعاً نافعاً مع العناية بفهارسها . ولكن أقول والأسى يملأ الفؤاد إن العمل فى هذه الناحية بطىء بطئا يدخل اليأس على الأمل . ولا تزال مؤلفات قيمة مقيمة على خطيتها بلا طبع حتى اليوم ، ولا يدرى أهل عصرنا عن أمرها شيئا . وبعضها طبع طبعا سقيما كثير الأخطاء وبعضها مشتت فى مكاتب الأمم الأخرى لم تبذل إلا عناية جزئية لرد بعضها أو نقله مصورا .

ومن الموسوعات ذات الأهمية مما سبق بيانه أو سيأتى ذكره ما يلى :

١ — لسان العرب : وهو المعجم اللغوى المشهور . مؤلفه ابن منظور الإفريقى

المتوفى عام ٧١١ هـ، وفيه غير اللغة ومفرداتها أدب وتاريخ وتفسير وحديث. وهو فى أكثر من عشرين جزءا.

٢ — طبقات الشافعية الكبرى: وهو فى تراجم أعلام الشافعية مؤلفه تاج الدين السبكى المتوفى عام ٧٧١ هـ، وهو ملىء بالآثار الأدبية ذات القيمة التاريخية وملىء بالنوادر الطريفة، وملىء بمسائل الفقه الكثيرة العدد. وهو فى ستة أجزاء.

٣ — تاريخ ابن إياس: وهو المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور. أو تاريخ مصر. مؤلفه ابن إياس الحنفى المتوفى عام ٩٣٠ هـ وهو كتاب تاريخى جامع ترى فى تضاعيفه عادات وتقاليد ونظم إدارة وسياسة.

٤ — إرشاد السارى إلى شرح البخارى: وهو مؤلف جليل الشأن فى الحديث. مؤلفه شهاب الدين القسطلانى المتوفى عام ٩٢٣ هـ وفى ثناياه بحوث تاريخية وفقهية. وهو فى عشرة مجلدات.

٥ — فتح البارى بشرح البخارى: وهو مؤلف قيم فى الحديث. وضعه ابن حجر العسقلانى المتوفى عام ٨٥٢ هـ. وفى ثناياه بحوث فقهية وتاريخية. وهو فى عشرة مجلدات ضخام. ومقدمته ثمينة جدا.

٦ — مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار: كتاب كبير فى أكثر من عشرين مجلدا، وبه بحوث فى التقويم والتاريخ وتاريخ الخطط وتراجم الأعلام وبه النوادر الطريفة والنظريات العلمية فى الجغرافيا والتاريخ الطبيعى. مؤلفه شهاب الدين ابن فضل الله العمرى المتوفى عام ٧٤٨ هـ. وقد طبع منه حديثا جزء واحد.

٧ — صبح الأعشى فى صناعة الإنشا: مؤلفه شهاب الدين القلقشندى المتوفى عام ٨٢١ هـ وهو فى نحو عشرين مجلدا. وفيه استطرادات تاريخية نادرة، وتراجم، ونصوص أدبية ثمينة، ودراسة للعادات والتقاليد الديوانية، هذا فوق

موضوعه الأصلى وهو الكلام فى صناعة الإنشاء وما يتصل بها من علم وأدب وخط ورسم .

٨ — نهاية الأرب فى فنون الأدب : مؤلفه شهاب الدين أحمد النويرى المتوفى عام ٧٣٢ هـ . وهو فى نحو ثلاثين جزءا كبيرا .

٩ — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : لأبى المحاسن بن تغرى بردى المتوفى عام ٨٧٤ هـ وهو مجلدات عدة . وقد طبع منه نحو تسعة أجزاء بدار الكتب المصرية ، وهو فى التقويم والتاريخ والأدب والنبات والحيوان والطب والفلك والسياسة وغير ذلك .

١٠ — التقاية : للسيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ وهو فى التنفيذ والحديث والفقة وأصول الدين والطب والتشريح والتصرف والنحو والبلاغة وغير ذلك وتسمى الأصول المهمة فى علوم جمة .

ج

وهذا قل من كثر ، ذكرناه على سبيل المثال مما بين أيدينا من الكتب التى تناولها الطبع . فما بالك بما لم يطبع وهو موجود مخطوطا بدور الكتب ويعرفه المطلعون . ثم ما بالك بما لا يعرفه المطلعون منه .؟ ثم ما بالك بما يقال عنه إنه مفقود كالروضة البهية لمحيى الدين بن عبد الظاهر . أو مشتت كالوافى بالوفيات لصلاح الدين الصفدى — ولقد كان مسالك الأبصار غير معروف إلى عهد قريب ، ثم نقله أحمد زكى باشا مصورا إلى مصر .

والمسألة فى نظرنا تحتاج إلى تأليف لجنة علمية كبيرة يكون عملها البحث عن هذه المؤلفات النفيسة ثم طبعها طبعاً حديثاً مزودا بالفهارس . على أن يكون لها مال خاص .

ثم تكوين لجنة أخرى يكون همها النشاط العلمى التأليفى ولاسيما التأليف فى تاريخ مصر . فإنه على الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلت وتبذل فى هذا السبيل ، لا يزال تاريخ مصر مبتورا ناقصا . وأعنى بتاريخ مصر تاريخ أحداثها السياسية

وأحوالها الاجتماعية ووصف قوانينها وتقاليدها وعاداتها واتجاهاتها الأدبية وجهودها العلمية وتراجم رجالها فى كل دور من أدوار حياتها .

خاتمـــة

أثبتنا فيما سبق ، عددا من مؤلفات العصر ، فى كل مادة من المواد العلمية . أثبتناه على سبيل المثال ، لا على سبيل الاستقصاء . أما الاستقصاء فلا مقدرة لنا عليه الآن ، ولا نستطيع ادعاءه اليوم ، غير أنه كان بودنا ، لو وفقنا إليه ، وتغلبنا عليه ، ووجدنا بين صفحات كتابنا هذا متسعاً له ، إذا لتمت لنا أمنية عزيزة ، وتحققت رغبة غالية . لأننا إنما نقصد من حشد هذه المعلومات فى هذا السفر ، وترتيبها وتبويبها ، أن نبرز فيه مفاخر العصر ، ونظهر مآثره ، حتى تكون ماثلة للعيان ، غنية عن الإشارة بالبنان . وبذلك يكون هذا السفر سجلا لها ، يجد فيه كل ذى حاجة حاجته وكل صاحب ضالة ضالته . ويجد البانى الجديد ، أساسا راسخا واضح المعالم ، يبنى عليه ، و « خامة » معدة يتخذ منها غزله ونسيجه . غير أننا خشينا أن نُرمى بأننا حولنا بعض الكتاب إلى فهارس مكتبية .

وفى الحق ، إنه لأمل أن نعود إلى مراجع هذه الأسفار ، ككتب تراجم الأعلام ، وفهارس دور الكتب بالقاهرة وغيرها ، وكشف الظنون ، وكتب الفهارس الحديثة ، وما إلى ذلك ، فنستخلص منها ما يختص بالعصر المملوكى ، من مؤلفات أبنائه . مع التعريف الموجز المناسب ، بكل مؤلف منها ، ومحتوياته ، والإشارة إلى الموجود منها والمفقود ، وإلى المطبوع منها والمخطوط ، وإلى المغترب منها والمتوطن .

وفى تحقيق هذا الأمل ، نفع ـ لا ريب ـ عظيم . فلعل الظروف تسعد ، والأيام تواتى ، والزمان يجود .

وكنا قد استخلصنا من دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ما فى فهارسها من مؤلفات هذا العصر . وكنا على وشك إثبانه فى هذه الصفحات لولا أن عنّ لنا الاكتفاء بما أثبتناه فيما مضى من الصفحات ، وما سنذكره فى الصفحات التالية بعون الله ، وفى ذلك كله كفاء وغنية .

غير أننا لا نترك هذا المقام ، دون إبداء ملاحظات :

فمنها أن كثيرا من مؤلفات العصر ، مما ورد فى تراجم أعلامه ، وأثبتنا بعضه فيما سبق ، مفقود ، لا وجود له فى فهارس دور الكتب المصرية — على مقدار اطلاعنا — ، ولا فى فهارس دور الكتب الأخرى خارج مصر ، على ضوء ماروا ه جورجى زيدان فى كتابه : تاريخ آداب اللغة العربية . وكتب الفهارس الحديثة الأخرى ، كفهرس سركيس .

ومنها أن كثيرا من هذه المؤلفات مغترب عن مصر ، يقاسى ألم الاغتراب ، فى دور الكتب الأجنبية . ولم تؤهل غربته حتى اليوم .

ومنها أن كثيرا من هذه المؤلفات — وإن كان موجودا بدار الكتب المصرية مثلا — لايزال مخطوطا لم يقدم للطبع ، يعيش فى القرن الرابع عشر الهجرى ، كما كان يعيش قبل ذلك فى القرن الثامن أو التاسع مثلا .

ولقد أحصينا منها نحوا من ألف وخمسمائة مؤلف فى علوم مختلفة ، بالدار المذكورة ، من بينها نحو ألف مؤلف مخطوط .

وبين هذه الأسفار المغتربة أو المخطوطة ، ما يلقى أضواء ساطعة على تاريخ مصر وآدابها . فلعل الأيام تسعد الغريب بالإياب . والمخطوط بجديد الثياب .

الفصل الرابع

تراجم تفصيلية

يضيق نطاق هذا الكتاب، مهما اتسع، عن أن نسطر فيه كل ما يعن لنا من الحديث عن علماء العصر، ومؤلفاتهم. لننوه بآثارهم، ونصف جهودهم، ونشهر تاريخهم، وهم بذلك كله — وأكثر منه — حريون.

ولو أننا ذهبنا نفصل الحديث عنهم جميعاً، تفصيلا، مدونين حوادثهم، واصفين نشاطهم فى نشر العلم والتأليف فيه، معترفين بآثارهم العلمية، لما أسعفتنا فى ذلك جملة أسفار ضخام.

ولو أننا ذهبنا نوجز الحديث عنهم، وكان حسبنا منه الأثارة الدالة، والإشارة المقتضبة، لضاعت من تاريخهم معالم، ولخفيت من أعمالهم آثار. ولتضاءل أمام القارىء، ذلك الجمال والجلال الذى نشعر به لمؤلفاتهم.

لهذا كله قسمنا الحديث عنهم إلى ثلاثة أبواب: باب للتراجم التفصيلية، تتاح لنا فيه الفرصة للتعريف ببعض الرجال وعرض مؤلفاتهم عرضا مناسبا. وباب للتراجم الموجزة، نجمل فيه الحديث عن المئات منهم، قانعين فى هذ المقام بالتسجيل. وباب للتعريف ببعض المؤلفات النافعة، التى لم تسعفنا التراجم التفصيلية بعرضها، مع أهميتها. وبذلك نستطيع بلوغ مأربنا، مع الإحاطة المناسبة.

فهذا الباب الرابع، هو باب الحديث المسهب عن بعض العلماء المؤلفين ذوى الأثر البارز فى حياة معاصريهم، أو فى حياة العلم، ممن زادوا الإنسانية تراثا، وأضافوا إلى الزمان مجدا، وخلدوا على صفحاته مآثر.

فيما يلى، إذاً، توضيح لحياة رجال العصر، وعرض لمؤلفاتهم، مع ذكر

المراجع التى اعتمدنا عليها ، فى أعقاب كل ترجمة .

وسنصف هذه المؤلفات ، وصفا ، اعتمدنا فى تقريره ، على اطلاعنا ودراستنا إذ ناجينا أصحابها فيها ، فناجونا ، وسامرناهم فسامرونا ، واستوحيناهم فأوحوا إلينا. لذلك لا نغلوا إذا قلنا إن القارىء الكريم سيجد خلال حديثنا شيئا جديدا ممتعاً .

ونحب مع هذا كله — وعلى الرغم من هذا كله — أن نذكر القارىء أنه ليس من غرضنا الاستيعاب والاستقصاء ، ولا النقد بشتى نوازعه واتجاهاته وعمقه وتحليله وتعليله . وهذه مسألة نوهنا بها فى مقدمة الكتاب . ولو أردنا الاستيعاب والنقد ، لاحتاج كل رجل من رجال العصر ، إلى سفر خاص ، وهو بذلك قمين .

ومع هذا فسيجد محبو الاستيعاب ، ومحبو النقد ، شيئا منهما يروقهما .

وقد أغفلنا تراجم بعض الأفذاذ ، ممن نبغوا فى الشعر أو الكتابة ، مدخرين الحديث عنها ، إلى الجزء الثالث والرابع من كتابنا هذا . والله الموفق والمعين .

والتراجم الآتية مرتبة حسب الوفيات .

---

١ - عزالدين بن عبد السلام ٥٧٧ هـ - ٦٦٠ هـ

هو الإمام المجتهد القدوة ، عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم بن حسين ابن محمد بن مهذب السلمى . سماه تلميذه ، تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى ، بسلطان العلماء ، لعلمه الغزير ، واطلاعه الواسع ، وإيمانه القوى ، وحجته البالغة ، وزهده وحبه للحق . وكان شافعى المذهب .

مولده ووفاته :

ولد سنة ٥٧٧ هـ ، وقيل سنة ٥٧٨ هـ . ببلاد الشام — وتوفى فى ٩ جمادى الأولى عام ٦٦٠ هـ [١] . وقد عاش نحوا من ٨٣ سنة .

---

١ — روى السبكى فى طبقاته ج ٦ ص ١٠٢ ، أن وفاته كانت فى يوم ٩ جمادى الأولى ، وعاد فذكر فى ص ١٠٣ أنها كانت يوم ١٠ منها ، وروى السيوطى وفاته يوم ١٠ .

وقد حكى ابن حجة الحموى فى كتابه « ثمرات الأوراق ص ٢٢ » : أن شخصا جاء إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام الشافعى ، سلطان العلماء ، فقال : رأيتك فى المنام تنشد :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة * ورجل رمى فيها الزمان فشُلّت

فسكت الشيخ عز الدين ، ثم قال : أعيش ثلاثا وثمانين سنة . . . فإن هذا الشعر ، لكثير عزة ، وقد نظرت ، فلم أجد بينى وبينه نسبة ، فإنى سُنّى ، وهو شيعى . وطويل وهو قصير . وهو شاعر ، ولست بشاعر . وأنا سلمى ، وهو خزاعى . وشامى وهو حجازى . فلم يبق إلا السن ، فأعيش مثله ، قال : فكان كذلك .

بعض شيوخه :

وقد أغرم بالعلم منذ صغره ، ويفهم من سيرته أنه ولد ببلاد الشام ، وتتلمذ لكثير من أفذاذها ، ومن شيوخه : فخر الدين بن عساكر[1] . وسيف الدين الآمدى والحافظ أبو محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبى القاسم بن عساكر . وشيخ الشيوخ عبد اللطيف بن اسماعيل بن أبى سعد البغدادى ، وعمر بن محمد بن طبرزد ، وحنبل ابن عبد الله الرصافى . والقاضى عبد الصمد بن محمد الحرستانى ، وبركات بن ابراهيم الخشوعى .

طرف من حياته :

عاش الشيخ عز الدين ، زمنا طويلا ، فى أيام حكم الأيوبيين . وطاب العلم حيث كان منشؤه . وقيل إنه سمع هاتفا يقول له : « يا ابن عبد السلام ، أتريد العلم أم العمل ؟ » فقال : « العلم ، لأنه يهدى إلى العمل » .

وقد فتح الله عليه ، وهداه إلى العلم ، وعبد له طريقه ، وذلل سبله . فحفظ منه الشىء الكثير ، فى زمن وجيز . وقد أقبل على عبادة الله ، حتى صار أعبد أهل

---

١ — لفخر الدين بن عساكر ترجمة فى طبقات السبكى ج ، من ٦٦ ، وقد توفى عام ٦٢٠

زمانه ، وأحد متصوفيه، الذين يعبدون الله على علم وهدى وبصيرة وحسن معرفة ، وأصبح علما يشار إليه بالبنان .

ولقد برع فى الفقه والأصول ، والحديث والتفسير والتوحيد . وتولى كثيرا من المناصب الهامة ، خدمة للعلم ، ورغبة فى النفع العام . ومن المناصب : التدريس فى الزاوية الغزالية وغيرها بدمشق. والخطابة بالجامع الأموى ، والإمامة به كذلك

قال عنه شهاب الدين أبوشامة ، وهو أحد تلاميذه : « وكان أحق الناس بالخطابة والإمامة » .

ولما خرج من الشام إلى مصر ، عام ٦٣٩ هـ تقريبا ، ولاه سلطان مصر ، الصالح نجم الدين الأيوبى الخطابة بجامع عمرو بن العاص ، والقضاء بمصر والوجه القبلى . فلبث فى دست القضاء زمنا . ثم ولاه هذا السلطان تدريس فقه الشافعية بمدرسته الصالحية ، التى بناها بين القصرين بالقاهرة . وفوض إليه كذلك ، عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة .

ومما يذكر أنه عزل نفسه مرارا من القضاء ، والسلطان الصالح يعمل على إعادته إليه . وهو بين هذا وذاك ، لا ينى ينشر العلم ، ويستكثر من تلاميذه .

واتصل الشيخ عزالدين بعدد من سلاطين عصره ، وعظمت مهابته فى نفوسهم ولم يرتفعوا فى نظره إلا بمقدار حرصهم على مصالح المسلمين ومحافظتهم على الدين . مع شدة منه فى معاملتهم ، وقسوة فى إسداء النصيحة إليهم .

حادثة خروجه من دمشق إلى مصر :

وممن اتصل بهم ، سلطان دمشق ، الملك الصالح اسماعيل ، المعروف بأبى الحبيش وهو من سلائل الأيوبيين. وكان هذا السلطان قد استعان بالفرنجة من الصليبيين ، على منازعيه فى الملك من بنى أيوب . كما كان يتوجس خيفة من ملك مصر ، الصالح نجم الدين الأيوبى . فاتفق معهم على أن يعاونوه على عدوه . ويسلم إليهم لقاء هذا ،

مدينتى صيدا والقشيف ، وغيرهما من حصون المسلمين . وسهل لهم دخول دمشق لابتياع السلاح .

شق هذا الاتفاق والتسليم والتفريط ، على الشيخ عزالدين ، وحز فى نفسه أن يتعاون سلطان دمشق المسلم ، مع أعداء الدين ، على إخوانه المسلمين ، مهما يكن سبب الخلف بينهم .

فما يصنع عزالدين ؟ لقد أهمل الدعاء لهذا السلطان ، على المنبر . وجهد معه فى هذا الأمر رأس مالكية زمانه ، أبو عمر بن الحاجب . فكان هذا منهما إيذانا بالعصيان ، وتحريضا للناس . فغضب السلطان عليها واعتقل الشيخ زمنا ، ثم أطلق سراحه ، خوفا من استشراء الفتنة .

عول الشيخ عز الدين على الرحيل من دمشق إلى القاهرة . وكان ذلك فى عام ٦٣٩ هـ تقريبا . وخرجت معه دمشق تودعه .

وقد قيل إن ملك دمشق أرسل رسولا خلف الشيخ ، يراوده على العودة . فأدركه وهو ببيت المقدس فقال له الرسول : « بينك وبين أن تعود إلى مناصبك ، وما كنت عليه وزيادة ، أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير » . فقال له الشيخ : « والله مسكين ما أرضاه أن يقبل يدى ، فضلا عن أن أقبل يده . ياقوم أنتم فى واد ، وأنا فى واد . والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم » . قيل ، فاعتقله الرسول . وكانت هناك حرب بين جيوش مصر ودمشق ، فانهزمت جيوش دمشق ، فأطلق سراح الشيخ وسار إلى مصر فى عودة جنودها . وهناك تلقاه صديقه سلطان مصر الصالح نجم الدين الأيوبى . وولاه التدريس والقضاء ، وعاش بهذه البلاد مرموق المكانة مهيب المنزلة ، معترفا له بالفضل .

النزاع بينه وبين مبتدعة الحنابلة :

وممن اتصل بهم ، الملك الأشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب ، ملك دمشق ، قبل الصالح أسماعيل . وكان هذا الملك — موسى — يجل الشيخ ويعظمه

ويضمر له فى نفسه مكانة سامية . غير أنه كان ميالا إلى جماعة من مبتدعة الحنابلة الذين يقولون بأن لله سبحانه وتعالى ، حرفا وصوتا ، ويعتقد معتقدهم . وهذا المذهب غير مذهب الأشاعرة . مع أن المبتدعين أفهموه أن مذهبهم هو مذهب السلف الصالح ، وأنه رأى ابن حنبل .

وقد هال جماعة المبتدعين من الحنابلة ، ماللشيخ عز الدين ، من منزلة لدى السلطان الأشرف . فحقدوا عليه ، وخشوا على منزلتهم منه . فسعوا لديه بالوشاية ، وقالوا للسلطان الأشرف : إن الشيخ أشعرى العقيدة ، يخطىء من يعتقد الحرف والصوت ، ويعده مبتدعا . وأنه يقول كما يقول الأشعرى : إن الخبز لا يشبع ، والماء لا يروى ، والنار لاتحرق .

وانتهى الأمر بهذه الوشاية ، أن كتبت فتيا فى هذه المسائل ، ودفعت إلى الشيخ ليبدى فيها رأيه . فكتب الشيخ رأيه فى هذه المسألة ، ببيان واضح ، وأسلوب جميل ، مقررا مذهب السلف وابن حنبل والأشاعرة ، وبين أن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة . وقد حمل فى بيانه هذا ، حملة شعواء على المبتدعين .

وقد أثبت تاج الدين السبكى فى طبقاته ، نص هذا البيان .

فلما اطلع عليه السلطان ، هاله الأمر . ووقعت بينه وبين الشيخ مشادات ومراسلات ، أدت إلى أن أصدر أمره بمنع الشيخ من الفتيا ، وعدم الاجتماع بالناس ، وأن يلزم بيته .

وقد فرح الشيخ بهذا الأمر ، وقال لرسول السلطان :

« إن هذه الشروط من نعم الله الجزيلة علىّ ، الموجبة للشكر لله تعالى ، على الدوام . أما الفتيا فإنى كنت والله متبرما منها ، وأكرهها . وأعتقد أن المفتى على سفير جهنم . ولو لا أنى أعتقد أن الله أوجبها علىّ ، لتعيّنها علىّ فى هذا الزمان ، لما كنت تلوثت بها . والآن ، فقد عذرنى الحق ، وسقط عنى الوجوب ، وتخلصت ذمتى ، ولله الحمد والمنة .

وأما ترك اجتماعى بالناس، ولزومى لبيتى، فما أنا فى بيتى الآن، وإنما أنا فى بستان ».

وكان الشيخ فى تلك السنة، قد استأجر بستانا متطرفا عن البساتين ..

ثم قال الشيخ :

« من سعادتى لزومى لبيتى، وتفرغى لعبادة ربى. والسعيد من لزم بيته، وبكى على خطيئته، واشتغل بطاعة الله تعالى. وهذا تسلية من الحق، وهدية من الله تعالى، إلىّ أجراها، على يد السلطان، وهو غضبان، وأنا بها فرحان. »

ثم قال للرسول : « والله ياغرز لو كانت عندى خلعة تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة، لخلعت عليك، ونحن على الفتوح. خذ هذه السجادة صل عليها ».

وما زال أمر الشيخ أو السلطان على هذه الحال، حتى أصلح بينهما العلامة جمال الدين الخضيرى شيخ الحنفية فى زمانه. وأفهم السلطان أن عقيدة الشيخ، هى عقيدة السلف وأهل السنة والجماعة. ومن ذلك الحين عادت صلة الشيخ بالسلطان إلى ما كانت عليه. وأخذ السلطان فى استرضائه، تكفيرا عما اقترف فى حقه فيما سبق وأخذ نفسه بقراءة مؤلف للشيخ اسمه « مقاصد الصلاة ».

ولما مرض السلطان مرض الموت، استقدم الشيخ إليه ليسدى إليه النصح الأخير. فكان مما نصحه به أن يصلح ما بينه وبين أخيه الكامل ملك مصر، حينذاك، وأن يبطل المفاسد المنتشرة فى عهده من زنا وشرب خمر، فرسم بإبطال ذلك.

وبعودة المياه إلى مجاريها بين الشيخ والسلطان، انخذل المبتدعة وأهل الضلال ممن يدعون الحنبلية.

موقفه من السلطان الظاهر بيبرس :

وممن اتصل بهم الشيخ ، السلطان الظاهر بيبرس ، ملك مصر . وكان بيبرس يهاب الشيخ ، ويجله ويخشاه ، ويستشيره فى أموره . ولم يبايع خليفة من الخليفتين اللذين بايعهما من بنى العباس ، قبل أن يبايعه الشيخ عز الدين .

ومن مواقفه الرائعة مع بيبرس أنه حينما أراد أن يأخذ البيعة لنفسه بالسلطنة، جمع الناس من الأمراء والقضاة والعلية ، وكادت البيعة تنعقد له ، لولا أن امتنع الشيخ عز الدين عن مبايعته . لأنه لم يثبت لديه عتق بيبرس وحريته . وقال له : « ياركن الدين ! أنا أعرفك مملوك البندقدار . . . ».

فاستحضر بيبرس شهودا شهدوا بخروجه من ملك البندقدار ، وأنه صار حرا فبايعه الشيخ . . . قيل : إن الشيخ لما توفى ، ومرت جنازته تحت القلعة ، وشاهد الملك الظاهر كثرة الخلق فيها ، قال لبعض خواصه : « اليوم استقر أمرى فى الملك ، لأن هذا الشيخ ، لو كان يقول للناس : اخرجوا عليه . لانتزع الملك منى ».

أمثلة من قسوته فى الحق :

فى سيرة الشيخ حوادث ، تنبىء بما كان عليه من قسوة فى التمسك بالحق ، وحرص على تنفيذ رأيه ما دام صوابا وعدلا ، فمنها .

بيع الأمراء :

لعل هذه القصة من أبدع قصصه وأروعها . وبخاصة لأنها وقعت فى ذلك العصر الذى طغى فيه الأمراء الحاكمون ، فتصدى الشيخ عز الدين ، وهو الحر الأعزل إلا من قوة إيمانه ، وأشهر بعض كبار هؤلاء الأمراء فى مزاد علنى . . .

لقد ثبت له أن هؤلاء الأمراء ، لم يعتقوا ، وأنهم بذلك من حق بيت مال المسلمين . . وجهر بذلك بين الأمراء وأعلن أن حكم الرق لا يزال مصاحبا لهم ، وينبغى — إذا أرادوا العتق — أن يشهر بيعهم ويحصل ثمنهم ويضم إلى بيت المال! ثم أفتى أن تصرفاتهم من بيع وشراء وعقود نكاح ، ونحو ذلك ، لا تنعقد .

فأفسدت هذه الفتوى على الأمراء حياتهم ، فقد توقف الناس عن التعامل معهم ، فعطلت مصالحهم . وكان فى جملتهم نائب السلطنة فاستشاط النائب غضبا ، وملأ الحنق نفسه ، وعجب من جرأة هذا الشيخ على الحاكمين بأمرهم . وأقسم ليشجن رأسه ، وليقدن هامته بحد حسامه . وليلقين عليه درسا فى معاملة الأمراء . . وقال: « كيف ينادى علينا هذا الشيخ ، ويبيعنا ، ونحن ملوك الأرض . والله لأضربنه بسيفى هذا » .

أسرع الأمير إلى دار الشيخ ، ممتطيا صهوة فرسه ، قابضا على قائم سيفه ، وشرر الغضب يتطاير من عينيه . وطرق الباب ...

نزل الشيخ للقاء الأمير . وابنه يرتعد فرقا على أبيه . وأبوه يقول له : « ياولدى ! أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله . »

بهذا الإيمان الراسخ ، وبتلك العزيمة الثابتة ، لقى الشيخ هذا الأمير الثائر .

هنا ، وقعت المعجزة ، وظهرت كرامة الشيخ ! فقد يبست يد الأمير ، وسقط السيف منها وارتعدت مفاصله . . . فبكى ، وسأل الشيخ أن يدعو له . . . واستطلعه رأيه فى مسألتهم . . .

فطلب الشيخ أن يباعوا ويضم ثمنهم إلى بيت المال ، فكان له ما أراد ، وأشهروا فى مزاد علنى ، وقف الشيخ فيه ، وغالى فى ثمنهم ، وأضاف الثمن إلى بيت المال .

وسواء أكانت يد الأمير قد يبست رهبة من الشيخ وهيبة ، أم هى كرامة من كراماته أيبستها ، فإنما يعنينا تخاذل الأمير وجبنه عن أن يلحق أى أذى بالشيخ ، كما يعنينا ثبات الشيخ وقوة نفسه التى أذلت له هؤلاء الطغاة .

يروى السبكى فى طبقاته هذه القصة رواية الواثق بما يروى ، الحريص على تفاصيلها ، بما لا يدع لإنسان مجالا للشك فى صحتها .

وقد قيل بصددها إن الشيخ سمع أن السلطان أنكر عليه تدخله فيما لا يعنيه . فعول الشيخ على الرحيل من مصر ، عائدا إلى بلاد الشام ، فلحق به كثير من

المسلمين، حتى خشى السلطان مغبة الأمر، وأسرع باسترضائه فعاد.

إسقاط الأستادار فخر الدين[1] عثمان:

وهذا الأستادار، كان ذا حول وطول فى عهد الملك الصالح نجم الدين الأيوبى وكان الشيخ حينذاك، قاضيا بمصر والوجه القبلى. فعلم أن فخر الدين هذا، قد بنى «طبلخاناه» — مكانا للموسيقا — فوق سطح أحد المساجد بمصر. فحكم بهدم هذا البناء، ومضى بنفسه ومعه أولاده، وهدمه. وعزل نفسه من القضاء، بعد أن أفتى بإسقاط فخر الدين الأستادار، — أى أنه أصبح غير عدل.

وقد قيل إن السلطان الصالح أرسل بعد ذلك، رسولا إلى خليفة بغداد، فى أمر ما، فسئل الرسول عمن شافهه فى هذا الأمر، فقال: إنه الأستادار فخر الدين عثمان. «فقيل له: إن رسالته لا تقبل، لأن المذكور أسقطه ابن عبد السلام، فلا تقبل روايته...

عظته للسلطان:

وكان ذلك فى يوم عيد وأبهة. قيل: دخل الشيخ على السلطان الصالح أيوب، فى يوم عيد بالقلعة، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ومجلس المملكة حافل، والسلطان قد خرج على القوم فى زينته، وأخذ الأمراء يقبلون الأرض بين يديه والتفت الشيخ إليه وناداه: يا أيوب! ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوىء لك ملك مصر؟ ثم تبيح الخمور؟» فقال: «هل جرى هذا» فقال: نعم! الحانة الفلانية، يباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة»... وكان الشيخ يناديه بهذا بأعلى صوته، والعساكر واقفون.

فقال السلطان: «ياسيدى؛ هذا ما أنا عملته. هذا من زمان أبى». فقال الشيخ: «أنت من الذين يقولون «إنا وجدنا آباءنا على أمة»؟ فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة.

(١) فى السلوك ج ١ ص ٣١٢، أن اسمه «معين الدين» وأنه كان وزيرا للصالح نجم الدين

قيل إن أحد تلاميذ الشيخ سأله عن هذه الحادثة وقال : كيف الحال ؟ فقال له الشيخ : يابنى ! رأيته فى تلك العظمة ، فأردت أن أهينه ، لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه . فقال : « يا سيدى أما خفته » فقال : ، والله يابنى ، استحضرت هيبة الله تعالى ، فصار السلطان قدامى كالقط » .

آثاره وأقوال المؤرخين فيه :

للشيخ مواقف عدة على غرار ما سبق . وتنسب إليه كرامات كثيرة . ويقال إنه لبس خلعة التصوف . وكان يستثيره الوجد فى مجلس أبى العباس المرسى الصوفى المشهور .

واشتغل بالتدريس زمنا طويلا وتتلمذ له جماعة بيضوا من الزمان صفحته ، وجددوا للعلم بردته ، وكانوا من بعده أمناء على الدين . وعلى رأسهم : تقى الدين ابن دقيق العيد القشيرى .

ولما يمم شطر مصر ، هاجرا بلاد الشام ، أكرمه حافظها الكبير ، وزاهدها ، الشيخ عبد العظيم المنذرى ، وامتنع عن الفتيا ، تعظيما له . قائلا : « كنا نفتى قبل حضور الشيخ عز الدين ، وأما بعد حضوره ، فمنصب الفتيا متعين فيه » .

وقال عنه السبكى فى طبقاته : « شيخ الإسلام والمسلمين ، وأحد الأئمة الأعلام سلطان العلماء ، إمام عصره بلا مدافعة ، القائم بالأمر المعروف ، والنهى عن المنكر فى زمانه ، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها ، العارف بمقاصدها ، لم ير مثل نفسه ، ولا رأى من رآه ، مثله علما وورعا ، وقياما فى الحق ، وشجاعة ، وقوة جنان وسلاطة لسان . »

وقال فيه الذهبى فى كتابه : العبر : « انتهت إليه معرفة المذهب مع الزهد والورع ، وبلغ رتبة الاجتهاد ، وقدم مصر ، فأقام بها أكثر من عشرين سنة ، ناشرا للعلم ، آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر . »

وقال فيه ابن كثير فى تاريخه : « انتهت إليه رياسة المذهب ، وقصد بالفتوى من سائر الآفاق ، ثم كان فى آخر عمره لا يتعبد بالمذهب ، بل اتسع نطاقه ، وأفتى بما أدى إليه اجتهاده » .

وقال تلميذه ابن دقيق : « كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء » وابن دقيق هو الذى أطلق عليه : سلطان العلماء .

وقال عنه جمال الدين بن الحاجب : « ابن عبد السلام أفقه من الغزالى » .

هذا وللشيخ عز الدين جملة من الفتاوى والمؤلفات . ومن محاسنه أنه كان إذا أفتى برأى مرة ، ثم تبين له فساده ، نادى على نفسه فى مصر والقاهرة بألا يعمل أحد بفتواه .

من مؤلفاته ورسائله :[1]

١ — الفتاوى الموصلية . ٢ — مختصر النهاية واسمه « الغاية » . ٣ — تحفة المعارف . ٤ — القواعد الكبرى فى الشريعة . ٥ — القواعد الصغرى وهى مختصر الكبرى . ٦ — كتاب مجاز القرآن ، فى الشريعة . ٧ — الدلائل المتعلقة بالملائكة والنبيين . ٨ — تفسير القرآن فى مجلد مختصر . ٩ — مختصر صحيح مسلم . ١٠ — مختصر الرعاية « والرعاية للمحاسبى » ١١ — بداية السول فى تفضيل الرسول . ١٢ — الفرق بين الإيمان والإسلام . ١٣ — فوائد البلوى والمحن . ١٤ — الجمع بين الحاوى والنهاية . يبدو أنه لم يتمه . ١٥ — الإمام فى أدلة الأحكام . ١٦ — بيان أحوال الناس يوم القيامة . ١٧ — الفتاوى المصرية . ١٨ — مقالة فى الرد على الحشوية والمبتدعة من مدعى الحنبلية . ١٩ — مقاصد الصلاة . ٢٠ — مسائل الطريقة فى علم الحقيقة ويعرف « بالستين » ٢١ — حل الرموز ومفاتيح الكنوز .

---

١ - رؤينا هنا ما أورده تاج الدين السبكى ، فى ترجمة ابن عبد السلام .

بعض هذه الرسائل موجود بدار الكتب . منه مخطوط كالفتاوى الموصلية . والغاية والقواعد الكبرى . ومطبوع مثل حل الرموز ومسائل الطريقة ، ومجاز القرآن واسم الاشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز .

التعريف ببعض هذه الرسائل :

١ - مقالته فى الرد على الحشوية ومبتدعة الحنابلة :

قد بينا فيما سبق ، ملخص النزاع بينه وبين الحنابلة المبتدعة ، ورده عليهم ، مما أدى إلى وقوع النفرة بينه وبين الملك الأشرف موسى. ونلخص هنا ما قال فى رده.

تقول الحشوية ومبتدعة الحنابلة أن كلام الله سبحانه وتعالى ، بحرف وصوت، وأن الأشياء لها فعل مؤثر فى غيرها بنفسها ، كالنار فهى محرقة ، وكالماء فهو مزيل للعطش ، وكالخبز فهو مزيل للجوع . وهكذا . وينكرون أن الإحراق والرى والشبع ، وما ماثلها ، من الله سبحانه وتعالى .

وقد فند الشيخ عز الدين فى هذا المقال مزاعم هذه الفئة ، وقرر مذهب الأشاعرة .

بدأ فى مقاله ، بحمد الله وتنزيهه عن الولد ، وعن مماثلة الحوادث ، وتعاليه عن الزمان والمكان ، وعن الاستواء الحسى على العرش ، وبيّن أنه مطلع على هواجس الضمائر ، محيط بكل شىء علما ، قديم متكلم ، لا بصوت ولا بحرف .

وبيّن أن أسماءه مندرجة فى أربع كلمات هن الباقيات الصالحات ، وهن :

« سبحان الله » . اندرج تحتها نحو القدوس والسلام ، وهى تتضمن تنزيهه سبحانه عن كل نقص وعيب .

« والحمد لله » : ويندرج تحتها نحو العليم والقدير والسميع والبصير ، وتتضمن إثبات كل كمال له وكل جلال .

و « الله أكبر » : بمعنى أنه أجل مما نُفى عنه ، ومما أثبت له . ويندرج تحتها نحو الأعلى والمتعالى .

« فالجواب » : أن تقول : « على الشيخ ثلاثة أشياء : التسليك فى البداية ، والتبليغ فى النهاية والحفظ فى الرعاية ـ والمريد يجب عليه ثلاثة أشياء : « امتثال أمره وكتمان سره وتعظيم قدره » .

٢ — « مسألة » : إن قيل لك : « الجهل على كم قسم » . فقل : « على قسمين: جهل مركب وجهل بسيط . فالجهل المركب هو اعتقاد أمر على خلاف ما هو عليه والجهل البسيط هو عدم إدراك أمر من الأمور بخلاف المركب . وهكذا »

٣ — حل الرموز ومفاتيح الكنوز :

للشيخ عز الدين كتاب فى التصوف بهذا الاسم ، مطبوع مع كتاب للشيخ زكريا الأنصارى اسمه « فتح الرحمن بشرح رسالة للولى رسلان » ، بمطبعة جريدة الإسلام بمصر عام ١٣١٧ هـ . وقد جُلدا فى مجلد واحد وهو تحت رقم ١٨٤ باب التصوف والأخلاق بدار الكتب بالمنصورة .

وكتاب « حل الرموز ومفاتيح الكنوز » لعز الدين بن عبد السلام يقع فى نحو ٨٦ صفحة من القطع المتوسط .

وقد تصفحت هذا الكتاب . وموضوعه تصوفى خلقى إسلامى . وقد دفع المؤلف إلى تأليفه ما رآه من بعض المعترضين على الصوفية ، وعلى من تأخذهم أحوالها ، فيتفوهون بعبارات غريبة المجاز خفية الكناية بعيدة التأويل ، أو يظهرون بمظهر مضطرب يأباه الذوق وترفضه الكياسة ، أوقد يناقض الشريعة وظاهرها . — فأحب أن يبين لهؤلاء المعترضين سبب هذا التجوز أو الاضطراب أو التناقض وأن يفصح لهم عن كنه هذه الرموز ويجلّى لهم حلها حتى لا يتورطوا فى شىء لا يعلمون حقيقته ، وينزلقوا إلى حكم جائر على مظهر لا يدركون سره ، ولا يسبرون غوره ، ولم يطلعوا على باطنه .

وقد قال فى المقدمة فى معرض الاستدلال ، الحكاية التالية :

« وقد بلغنى عن « قضيب البان » بالموصل ، وكان عظيم الشأن ، وكان قد برز للناس بالوله والاختلال وترك الصلاة لا يأوى إلا المزابل ، ولا يتوقى النجاسة .

والناس متحيرون فى حاله مختلفون فى أمره . فقوم يقولون : زنديق . وقوم يقولون صدّيق . فبينما يوم من الأيام ، كان قاضى المدينة مارا إذ رآه على مزبلة ، وقد بال على ساقيه . فقال القاضى فى نفسه . « تبا لمن جعلك صديقا ، وما أنت إلا زنديق » فما استتم الخاطر ، حتى قال قضيب البان : « يا قاضى ! قد أحطت بجميع علم الله » ؟ قال له : « لا والله » . قال « فأنا من ذلك العلم الذى لا تعلمه ، وما عليك إن كنتُ صديقا أو زنديقا » .

فلهذه الحالة وأشباهها ، وما يكتنفها عادة من غموض وما يلابسها من عبارات مبهمة على أهل الظاهر ألف الشيخ عز الدين كتابه هذا . وقد قال بعد أن سرد القصة السالفة :

« فلما رأيت هذه الأقوال الصادرة عن أهل الأحوال ، وقد أشكل على الأفهام تعليلها ، وعزب عن الأوهام تأويلها ، أحببت أن أشرح منها ما انشرح له صدرى ، وسنح به فكرى ، وبلغ إليه قدرى . وذكرت فيه من العبارة ماليس فيه استعارة ، وقدمت ذكر هذه الأحاديث وما معها من الألفاظ المأثورة عن الرجال ، وجعلتها أسا للكلام وبينة لثبوت الأحكام لتكون منوالا أنسج عليها ماكان حالا لا محالا ، وسميتها « حل الرموز ومفاتيح الكنوز » وإنما سميتها بهذه التسمية لأنها تشير إلى المقام الأشرف المعروف منه « كنت كنزا لا أعرف » .

ويشتمل الكتاب على عدة فصول مكتوبة بأسلوب جذاب واضح وضوحا نسبيا ، على الرغم من خطورة موضوعاته وصعوبتها على أهل الظاهر أمثالنا . . . وهو يسجع أحيانا إذا صفا له السجع ، ويسترسل إذا طاوعه اللفظ ، وسهل به توضيح المعنى . ويستشهد بآى القرآن أو كلام النبى عليه السلام ، ويفسر ويشرح أحيانا ، ويستنبط أحيانا أخرى ، كما يستشهد ببعض العبارات والأشعار المأثورة وقد يسوقه وجد ما هو بصدد شرحه من معانى فيأدُب ويخف ويظرف ، ويسوق لنفسه الأبيات الشعرية الطريفة من باب الاستشهاد والتدليل . وهو — مع ذلك — بعض الأحيان تغلبه العبارات المنطقية .

وأهم ما تناول الكلام عنه فى الفصل الأول : بيان الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان . وشرح معنى التوبة وأقسامها .

وتكلم فى فصل عن العقبات الستة التى لا بد من قطعها حتى يصل المرء إلى منازل القربات . وبيّن ما يترتب على تخطى كل عقبة من فتوح . . وهى على التوالى: فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية ، وفطم النفس عن المألوفات العادية ، وفطم القلب عن الرعونات البشرية ، وفطم السر عن الكدورات الطبيعية ، وفطم الروح عن التجارات الحسية ، وفطم العقل عن الخيالات الوهمية . .

وتكلم فى فصل عن فناء المحب فى المحبوب وطريقة ذلك وعما تبعه من فيض ، مفسرا قول النبى عليه السلام . مخبرا عن الله سبحانه « لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا وفؤادا » .

وقد سار فى بقية الفصول موضحا ضروبا من عقائد الصوفية . وكلها تدور على تحليل الصلة بين العبد وربه وبيان حقيقتها وكيفيتها — ولا يمكننا تفصيل كل ذلك فى هذا المقام .

مختارات مما قاله فى هذا الكتاب :

١ — فى بيان الفرق بين العلم والعمل والحال :

اعلم أن العلم مقدمة، نتيجتها العمل . والعمل مقدمة نتيجتها الحال .. فالعلم والعمل كسبى ، والحال وهبى . قال الله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » فالمجاهدات بالعلم والعمل . والهداية مواهب الله تعالى فى الأحوال . وهذا معنى قوله عليه السلام . « من عمل بما يعلم ورثه الله علم مالا يعلم » . فالذى أورثه الله لعبده لم يكن من كسبه ، بل بفضل الله وبرحمته . وبذلك منّ الله على نبيه عليه السلام ، فقال : « وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » .

٢ — فى بيان الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان .

« ثم اعلم أن مراتب السلوك إلى منازل الملوك ثلاثة : الإسلام والإيمان والإحسان . فالإسلام أو مراتب الدين لعامة المؤمنين . ثم الإيمان أول مدارج

القلب لخاصة المؤمنين . ثم الإحسان أول معارج الروح لخاصة المقربين . »

وقد أورد بعد هذه العبارة، تدليلا عليها ، حديث عمر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما أتاه جبريل على هيئة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر . . . وجلس إليه يسأل عن الإسلام فقال له النبي عليه السلام : « أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان ، وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلا » . . ثم سأله عن الإيمان فقال النبي عليه السلام : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » : ثم سأله عن الإحسان فقال له عليه السلام : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

ثم قال فى موضع آخر : « فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث أن أدب السلوك فى خدم الملوك ثلاثة ، فالإسلام قيام البدن بوظائف الأحكام . والإيمان قيام القلب بوظائف الاستسلام . والإحسان قيام الروح بمشاهدة الملك العلام . » .

٣ — وقال من فصل يوضح بعض الحالات عند من تخطى العقبات الست :

« هنا لك تغيب بما تشاهد من اللطائف الأنسية عن الكثائف الحسية . فإذا أرادك لخصوصية الاصطفائية ، سقاك بكأس محبته شربة تزداد بذلك ظمأ ، وبالذوق شوقا وبالقرب طلبا وبالسكون قلقا . » — وبعد أن روى أبياتا شعرية مناسبة قال — وعباراته هنا تحتاج إلى روية فى فهمها — « فإذا تمكن منك هذا السكر أدهشك . فإذا أدهشك حيرك . فأنت هنا مُريد . فإذا أدام لك تحيرك أخذك منك وسلبك عنك . فتبقى ثم مسلوبا مجذوبا ، فأنت حينئذ مُراد . إذ أنت معه بلا أنت وعنده بلا أين . مشاهدُه بلا كيف . فإذا فنيت ذاتك وذهبت صفاتك قام بصفاته عن صفاتك ، وببقائه عن فنائك . وخلع عليك خلعة « فبى يسمع وبى يبصر » . فيكون هو متوليك ومواليك . فإن نطقت فبأذكاره ، وإن نظرت فبأنواره ، وإن تحركت فبأقداره . فهنا لك ذهبت الانينية ، واستحالت

البينية . فإذا رسخ قدمك وتمكن سرك ، وحار سكرك قلت: « هو » . وإن غلب وجدك وتجاوز بك سكرك عن حد الثبوت قلت . « أنا » . فأنت فى الأول متمكن وفى الثانى متلون . ومن هنا أشكل على الأفهام حل رمز هذا الكلام . فقائل يقول: « زنديق فيقتل » . وقائل يقول : صدّيق فيحمل « وقائل يقول » مغلوب عليه فيهمل . فهو من حيث تحقيق حاله محقق فى علمه . والذى حكم فى قتله مصيب فى حكمه . إذ الشريعة لها حدود ، من تعداها أقيمت عليه الحدود . قال الله تعالى « تلك حدود الله فلا تعتدوها » والحقيقة لها شهود خارج عن طور هذا الوجود » إلى آخره . . — وفى هذا ما يكفى .

قبل أن نترك الكلام عن هذا العالم الجليل نذكر أن الروح الأدبية تبدو من خلال عباراته ، وإن كان ذلك بمقدار يسير . غير أن له نفس الأديب وطرب الأديب . ألا ترى أنه كان يسجع ويطابق ويجانس فى كلامه ويستشهد بالأشعار .. ثم ألا تسمع ما قاله فيه القطب البونى :

« وكان مع شدته وصلابته حسن المحاضرة بالنوادر والأشعار يحضر السماع ويرقص فيه »

هذا مع أنه صوفى ومؤلف فى التصوف وكان يحضر مجالس علماء الصوفية ويستمع من أبى العباس المرسى وأبى الحسن الشاذلى . ثم لعل الصوفى الخالص هو الأديب فى أسمى مراتبه . .

ولقد قال فيه ابن كثير أيضا : « كان لطيفا ظريفا يستشهد بالأشعار » .

هذا ، وقد ذكر السبكى فى طبقاته فى سياق ترجمة هذا الرجل أنه أنشد لنفسه بيتا على تلاميذه وطلب إليهم أن يجيزوه . وهو :

لو كان فيهم من عراه غرام ما عنفونى فى هواه ولاموا

فأجازه شمس الدين عمر بن عبدالعزيز بن الفضل الأسوانى قاضى أسوان فقال أبياتا منها .

لكنهم جهلوا لذاذة حسنه وعلتها ولذا سهرت وناموا
لو يعلمون كما علمت حقيقة جنحوا إلى ذاك الجناب وهاموا
إلى آخـــرها . —

وقد قال السبكى بصدد البيت المذكور « ولم يكن له من النظم غيره » ولا أدرى هل نفهم من هذه العبارة أن ليس له شعر غيره مطلقا ، أو إلى ذلك الحين فقط أى حين إنشاد البيت لتلاميذه . . . نقول ذلك لأن للشيخ عز الدين شعرا كثيرا فى كتابه « حل الرموز ومفاتيح الكنوز » . ومنه قوله فى ص ١٦ بعد أن شرح كيفية اتصال النار بالماء فيصبح حارا مع بقاء حقيقته السائلة . قال « ولقد أشرت إلى ذلك فقلت » :

نار المحبة أحرقت أحشائى ومدامعى تنهل كالأنواء
فأنا الحريق بأضلعى وأنا الغـــريق بأدمعى يا منقذ الغرقاء
ومن العجائب أن نار تحرقى تزداد وقدا عند فرط بكائى
فالنار والمـــاء القراح تآلفا هذا لعمرى أعجب الأشياء

وله فى الكتاب المذكور أشعار كثيرة على هذا النمط وهى متوسطة الجودة وكلها فى التصوف ، ولذلك تراها كثيرة المجازات خفية الكنايات كثيرة الزمور والاشارات .

للشيخ ابن اسمه « عبد اللطيف » ذكره السبكى فى طبقاته ج ٥ ص ١٣١ — توفى عام ٦٩٥ هـ .

« ترجمته فى طبقات السبكى الكبرى ج ٥ ص ٨٠ ، فوات الوافيات ج ١ ص ٣٦٦ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٩٢ ، و ج ٢ ص ١٠٩ ، ح ١ من ابن اياس ص ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١١٢ وسلوك المقريزى فى موضع عدة »

٢ — محيي الدين النووى ٦٣١هـ - ٦٧٦هـ

وهذا قطب آخر من أقطاب العلم ، ومثل عال من أمثلة الورع والزهد ، والدأب فى سبيل إحياء مآثر الدين وعلوم الإسلام ، والعكوف على الدرس والتحصيل ، والبحث والاستقصاء ، والانكباب على التصنيف والتدوين .

وهو ممن وهبوا النفس للعمل الصالح ، ووقفوا الجهد على خير الناس ، حتى أصبح قدوة يقتدى بها ، وسراجا يستضاء به ، ورأسا متبعا فى جيله ، وما بعد جيله .

اسمه : محيي الدين أبو زكريا يحيي بن شرف بن مرى بن حسن بن حسين بن حزام ابن محمد بن جمعة الحرانى النووى ، شيخ الإسلام .

مولده ووفاته : ولد بنوى إحدى قرى الشام ، قرب دمشق . فى المحرم سنة ٦٣١هـ وتوفى بها كذلك فى ٢٤ رجب سنة ٦٧٦ هـ ودفن بها .

طرف من حياته :

يستخلص من سيرته ، أن أباه كان مستوطنا بنوى . فولد محيي الدين بها . وقيل إنه لما بلغ السابعة ، انتبه من رقدته فى إحدى ليالى رمضان — وكان نائما بجوار أبيه — فقال . يا أبت! ماهذا الضوء الذى ملأ الدار؟ فأدرك والده أنها ليلة القدر ، واستيقظ أهله جميعا ، ولم يروا من الضوء شيئا . .

لعل أبسط ما ندرك من قصة الضوء ، أن النووى كان مبروك الطالع ميمون الحظ ، موفقا ، منذ صغره .

ويفهم من سيرته كذلك ، أنه وهو صبي ، كان عازفا عن ملاهى الصبيان ،

أبيا على مشاركتهم فى مسلياتهم ، عيوفا عن أن ينغمر فى لغوهم ، مفضلا جانب الهدوء والسكينة ، على اللجاج معهم فى ألعابهم ، حتى كانوا يضطرون إزاء صمته وجموده ، إلى إكراهه على اللعب معهم ... فكان يفر منهم باكيا ... ولكن إلى أى شىء كان يفر ؟ كان يفر إلى قراءة القرآن ...

هذه حالة تدعو — بلاريب — إلى الإعجاب بهذا الطفل الصغير . وتسوق المشاهدين إلى أن يتوسموا فيه الخير ، ويتوقعوا له المستقبل الكريم . فكان منهم من يتقدم إلى أبيه ، فيبشره ويوصيه به خيرا .

وهكذا حرص أبوه على العناية به ، حتى حفظ القرآن الكريم ، وختمه وقد ناهز البلوغ . فكان ذلك معينا له — بلا ريب — فى حياته الدينية الجليلة .

أخذ نفسه بالدرس والاطلاع ، والمواظبة على مجالس العلم ، والقعود إلى الأساتذة . مع رغبة ملحة فى التحصيل والفهم . غير مبال فى سبيل ذلك بتعب أو إجهاد. قيل إنه كان يقرأ كل يوم اثنى عشر درسا على مشايخه شرحا وتصحيحا ، درسين فى الوسيط ودرسا فى المهـــذب ، ودرسا فى الجمع بين الصحيحين ، ودرسا فى صحيح مسلم ، ودرسا فى اللمع لابن جنى ، ودرسا فى إصلاح المنطق ، درسا فى التصريف ودرسا فى أصـــول الفقه ، ودرساً فى أسماء الرجال ، ودرسا فى أصول الدين [١] وقد قال عن نفسه . « وكنت أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل ، ووضوح عبارة ، وضبط لغة ، وبارك الله فى وقتى »

لم يجد النووى عناء وجهدا فى توجيه نفسه هذه الوجهة ، وفى انتحائه هذا المسلك بل كان يجد لذة وسعادة ، لاتفاق هذا النهج مع ميوله وآماله .

وكان يستعين على نفسه وادخار وقته ، بالإقلال من الطعام ، والقناعة بالضئيل الخشن منه ومن الثياب . لا يثقلها بالترف ، أو يشغلها بمضاعفاته ..

---

١ — هذه عبارة الذهبى ، وهى تنقص درسا .

ثم كان لابد له من الطواف والرحيل من مكان إلى مكان ، طلباً للحديث والفقه — وقد كان شافعى المذهب — فقدم إلى دمشق عام ٦٤٩ هـ ، وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، فسكن فى الرواحية ، واكتفى بخبز المدرسة . وحفظ كتاب التنبيه فى أربعة أشهر ونصف . وربع كتاب المهذب ، فى بقية السنة ، وقرأه على شيخه كمال الدين بن أحمد . ثم يمم شطر الحجاز مع أبيه ، فأقام بالمدينة شهرا ونصفا ، مرض خلالها زمنا ، ثم عاد إلى الشام . وقد ولى عدة مناصب ، منها مشيخة دار الحديث عام ٦٦٥ هـ ، فلبث بها حتى توفى .

وقبل وفاته زار بيت المقدس ، وعاد إلى نوى ، فمرض عند والده ، وحضرته منيته فى ٢٤ رجب عام ٦٧٦ هـ ، وهو فى نحو الخامسة والأربعين من عمره .

قال الذهبي نقلا عن بعضهم : إن قبره ظاهر بنوى يزار . — كان ذلك على عهد الذهبي .

بعض صفاته وعلمه :

تطالعنا من سيرته جملة صفات ، تحلى بها ، منها : الورع والزهد ، والعيوف عن الدنيا وملاذها ، والصبر على مشقات الحياة ، وما يتطلبه طلب العلم من ريث وجهد ورغبة جامحة فى التزود للدار الآخرة بالعلم والعمل .

ولقد امتلأ رأسه بمعارف عصره من حديث وفقه وغيرهما ، فكان حافظ عصره وفقيه جيله ، ورأسا من شافعية زمانه .

وكان جريئا فى الحق ، وفى الدعوة إليه ، سريعا إلى إرشاد الظالم ولو كان غشوما ، وقيل إنه أرسل إلى الملك الظاهر بيبرس ، شكوى ، يصف له فيها ما يعانيه أهل الشام من ضيق وضنك ، وفيها يطلب إليه الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر . واشتط فى نصيحته له ، حتى اضطر بيبرس إلى نفيه زمنا . وحكى عن الظاهر أنه قال : « أنا أفزع منه » .

هذا ، مع دأب فى العبادة ، والتزام للذكر والحمد ، واشتغال بالتصنيف والتدوين

وقد نبه — كما أشرنا — فى الحديث والفقه ، وأضاف إليهما اللغة والمنطق والأصول . وخطر له الاشتغال بالطب وغيره من الكونيات ، فلم يجد فى نفسه إقبالا عليه ، فهجره إلى ما شغف به من علوم الدين واللغة . فسمع وتفقه ، حتى حدث وروى وأفتى ، وصنف وجمع وشرح . فكان آية فى كل خطوة يخطوها ، وقدوة فى كل مرحلة يرتحل إليها . حتى أحبه الناس ، وتبركوا به .

قال الذهبى ما مؤداه : « إن شيخه ابن فرح ، قال مرة : « إن الشيخ محيى الدين قد صار إلى ثلاث مراتب ، كل مرتبة لو كانت لشخص ، لشدت إليه الرحال : العلم والزهد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . »

وروى تاج الدين السبكى فى الطبقات ، أن أباه تقى الدين السبكى ، لما سكن فى قاعة الحديث الأشرفية ، كان يخرج فى الليل إلى إيوانها ، فيتهجد تجاه الأثر الشريف ، ويمرغ وجهه على بساطه ، حيث كان يجلس النواوى وقت درسه . وأنشد لنفسه :

وفى دار الحديث لطيف معنى على بسط لها أصبو وآوى
عسى أنى أمس بحر وجهى مكانا مسه قدم النواوى

بعض شيوخه :

سمع الحديث من الرضى بن البرهان ، وشيخ الشيوخ عبد العزيز الأنصارى ، وزين الدين بن عبد الدايم ، وعماد الدين بن عبد الكريم . وشرح أحاديث الصحيحين على المحدث أبى إسحق إبراهيم المرادى . وأخذ الأصول عن القاضى التفليسى ، وتفقه على الكمال إسحق المعرى ، وشمس الدين عبد الرحمن الإربلى . وقرأ اللغة على الشيخ أحمد المصرى . وقرأ على ابن مالك النحوى كتابا من تصنيفه .

بعض تلاميذه :

تخرج به تلاميذ فضلاء ، كانوا علماء عصرهم ، منهم : الخطيب صدر الدين سليمان

الجعفرى ، وشهاب الدين أحمد بن جعوان ، وعلاء الدين بن العطار . وحدث عنه ابن أبى الفتح ، والمزى ، وابن العطار .

أقوال المؤرخين فيه :

قال الذهبى : « قال الشيخ قطب الدين اليونينى : كان أوحد زمانه فى العلم والورع والعبادة والتقلل وخشونة العيش — وقال الشيخ شمس الدين بن الفخر الحنبلى : كان إماماً بارعاً حافظاً متقناً ، أتقن علوماً جمة وصنف التصانيف الجمة ، وكان شديد الورع والزهد » . وقال ابن العطار : ذكر لى شيخنا — رحمه الله تعالى — يعنى النواوى — أنه كان لا يضيع له وقتا ، لا فى ليل ولا نهار ، حتى فى الطريق . وأنه داوم ست سنين ، ثم أخذ فى التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق . قلت : مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه ، والعمل بدقائق الورع ، والمراقبة وتصفية النفس من الشوائب ، ومحقها من أغراضها . »

وقال التاج السبكى عنه : « الشيخ العلامة شيخ الإسلام ، أستاذ المتأخرين وحجة الله على اللاحقين ، والداعى إلى سبيل السالفين »

استدراك على السبكى :

قال تاج الدين السبكى فى طبقاته يصف النواوى ومؤلفاته ، فى سياق ترجمته له ، فقال بالنص :

« لا يخفى على ذى بصيرة ، أن لله تبارك وتعالى ، عناية بالنووى وبمصنفاته . ويستدل على ذلك بما يقع فى ضمنه من فرائد حتى لا تخلو ترجمته من فوائد . فنقول : « ربما غيّر لفظا من ألفاظ الراتعى ، إذا تأمله المتأمل ، استدركه عليه . وقال : لم يف بالاختصار ولا جاء بالمراد » . ثم نجده عند التنقيب قد وافق الصواب ونطق بفصل الخطاب . وما يكون من ذلك عن قصد منه ، لا يعجب منه ، فإن المختصر ربما غير كلام من يختصر كلامه لمثل ذلك . وإنما العجب من تغيير يشهد العقل بأن لم يقصد إليه . ثم وقع فيه على الصواب » .

ثم ضرب السبكى لذلك مثلا ، ما قاله الرافعى فى كتاب « الشهادات » فى فصل « التوبة عن المعاصى الفعلية فى التائب » قال الرافعى : « إنه يُختبر مدة يغلب على الظن فيها أنه أصلح عمله وسريرته ، وأنه صادق فى توبته » ثم قال : « وهل تُقدر تلك المدة » ؟ . ثم أورد خلافا بين أصحاب المذهب على ذلك . فمنهم من لا يقدرها والمُعتبر فيها غلبة الظن بصدق التائب فتختلف باختلاف الأشخاص والظروف ومنهم من يقدرها ، وأكثر هؤلاء يقدرونها بستة أشهر .

ثم أورد السبكى كلام النواوى فى هذه المسألة ، فى كتابه « الروضة » حيث قال: « إن الأكثرين على تقدير المدة بسنة » . وواضح أن هناك خلافا بين تقريرى الرافعى والنووى .

ثم أورد السبكى جملة من آراء أهل المذهب ، خلص منها بأن أكثرهم على تقدير المدة بسنة . وهو مطابق لما قرره النواوى . ثم عقب السبكى على ذلك بقوله: فظهر حسن صنع النووى ، وإن لم يقصده ، عناية من الله تعالى به . . .

اعتقادنا أن السبكى لم يوفق تماما فى عباراته التى وصف بها النواوى . وعناية الله غاية ما يتمناه المرء لنفسه ، ولكن ذكرها فى مقام البحث العلمى الذى مرجعه إلى ذهن الباحث وإحاطته بمتفرقات بحثه ، ودقة جمعها وملاءمته بينها ، وصواب استنباطه منها ، ودقة التعبير عن رأيه فيها ، يستر تحته غضا من هذا الذكاء .

ولعل كثيرين من الشافعية ، وكثيرين من غيرهم أيضاً ، يدفعهم إلى مثل هذا الضرب من التقدير — وهم بصدد الحديث عن النووى — كثرة مؤلفاته ، وسعة محيطه ، وعمق نظرته ، وحضور بديهته ، وتوفيقه فى تعبيره . وهى مزايا لا يتسع لها مثل هذا العمر القصير ، الذى عاشه النووى ، وهو خمس وأربعون سنة .

مؤلفاته :

للنووى جملة من المؤلفات ، تعتبر فى طليعة المؤلفات الدينية فى الفقه والحديث وهى أسس ودعائم فى فقه الشافعية ، بنى عليها أئمة المذهب من بعده . فتناولها كثيرون منهم بالشرح والتفصيل ، أو الاختصار ، وبخاصة كتاباه : المنهاج والروضة

وقد عنى هو نفسه ، بكتب المتقدمين من أئمة مذهبه ، فتناول بعضها ، تصحيحا أو شرحا أو اختصارا ، مثل كتب الرافعى وأبى إسحق الشيرازى .

هذا عدا ما كتبه فى التصوف ونحوه .

وفى دار الكتب المصرية عدد من مؤلفات النووى ، منها مخطوطات طبعت ، ومخطوطات لا تزال بدون طبع . فمن المطبوع ، اعتمادا على فهرس الدار ، ومعجم سركيس ، ما يلى :

١ — الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار فى التصوف . ٢ — الأربعون حديثاً النووية ٣ — الإيضاح فى المناسك ٤ — التبيان فى آداب حملة القرآن فى التصوف ٥ — الترخيص والقيام لذوى الفضل والمزية من أهل السلام ، ٦ — تصحيح التنبيه ، ويسمى « عمدة المفتى والطالب النبيه فى تصحيح التنبيه » . والتنبيه كتاب لأبى اسحق الشيرازى فى الفقه ٧ — التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير ، فى أصول الحديث ، لخص به كتابه الذى اختصره من كتاب علوم الحديث لابن الصلاح . ٨ — تهذيب الأسماء واللغات . ٩ — حلية الأبرار وشعار الأخيار فى تلخيص الدعوات والأذكار ، ويعرف بأذكار النواوى فى التصوف . ١٠ — روضة الطالبين وعمدة المفتين : فى الفقه . ١١ — رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين : أحاديث صحيحة فى الترغيب والترهيب والزهد ورياضة النفس . ١٢ — مقاصد النووى : فى التصوف ونحوه ١٣ — منهاج الطالبين وعمدة المفتين : مختصر لكتاب المحرر فى فقه الشافعى . ومعه كتاب « الدقائق » للمؤلف فى شرح منهاجه . ١٤ — المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج : فى الحديث وهو مطبوع على هامش شرح البخارى للقسطلانى . ١٥ — المجموع وهو فى شرح تهذيب الرافعى ، فى الفقه ، لم يتمه . « سنشير إليه عند ترجمة التقى السبكى »

ومن المخطوط .

١ — بستان العارفين : فى التصوف ، ٢ — حزب النووى : فى التصوف — ولعله حلية الأبرار . ٣ — التحرير : فى الفقه ، وشرح فيه ألفاظ كتاب « التنبيه »

لأبى إسحق الشيرازى — ولعله « تصحيح التنبيه » . ٤ — شرح المهذب : فى الفقه . والمهذب لأبى إسحق الشيرازى . ٥ — فتاوى النووى : فى الفقه. ٦ — المنثورات وعيون المسائل المهمات : فى الفقه — لعلها الفتاوى المذكورة . ٧ — مقدمة شرح المهذب للشيرازى . ٨ — خلاصة الإحكام من مهمات السنة وقواعد الإسلام : فى الحديث .

وذكر له الذهبى جملة من المؤلفات ، لم يرد ذكرها فيما سبق ، وهى :

١ — الإرشاد فى علوم الحديث . ٢ — التقريب مختصر الإرشاد ٣ — المبهمات ٤ — المناسك ، وله ثلاثة كتب فى المناسك ، غير كتابه الأول المسمى « الإيضاح فى المناسك » ٥ — شرح قطعة من صحيح البخارى ٦ — شرح قطعة من الوسيط ٧ — قطعة فى الأحكام. لعلها « خلاصة الإحكام » المذكورة فيما سبق : ٨ — مسودة فى طبقات الفقهاء .

ملحوظة : توجد مؤلفات كثيرة تتصل بمؤلفات النواوى ، شرحا لها أو اختصارا أو تعليقا أو نحو ذلك . وضعها علماء أفاضل منهم التقى السبكى والبدر الغزى وابن قاضى شهبة والسيوطى . فنلفت إليها النظر . وكثير منها مطبوع ، وموجود بدار الكتب المصرية « راجع الفهرس ، باب الحديث والفقه والتصوف » .

التعريف ببعض مؤلفاته :

١ — رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين :

تصفحت نسخة من هذا الكتاب ، بمكتبة معهد الاسكندرية الدينى ، وهى مطبوعة بمكة عام ١٣٠٣ هـ ، فى حجم كبير وورق أصفر تبلغ صفحاته نحو ٢٣٩ .

أما موضوع هذا الكتاب ، فكما ذكره النواوى فى مقدمته إذ قال : « رأيت أن أجمع مختصرا من الأحاديث الصحيحة ، مشتملا على ما يكون طريقاً لصاحبه إلى الآخرة ، ومحصلا لآدابه الباطنة والظاهرة ، جامعاً للترغيب والترهيب ، وسائر أنواع آداب السالكين ، من أحاديث الزهد ، ورياضات النفوس ، وتهذيب

الأخلاق، وطهارات القلوب، وصيانة الجوارح وإزالة اعوجاجها، وغير ذلك من مقاصد العارفين . . . الخ».

فهو كتاب جامع لكثير من أحاديث الرسول عليه السلام، فى موضوعات مختلفة يجمعها كلها أنها تروض النفوس وتهذب الأخلاق وتبصر المرء بخير مسالك الحياة وأبرها وأشرفها، حتى ينجو من شرورها، ويحظى بالنعيم فى آخرته.

وقد التزم المؤلف، ألا يذكر فيه، إلا حديثاً صحيحاً منسوباً إلى مصدره من كتب الحديث الصحيحة. ولم يُعن بتدوين الإسناد، وذكر الرواة، إلا الأقربين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد أكثر من النقل من صحيحى البخارى ومسلم.

وكثيرا ما يفتتح الفصل بذكر ما اتصل به من آيات قرآنية، فيروى آية أو أكثر، ثم يثنى برواية الأحاديث المتصلة بهذا الفصل. وكثيرا ما يخلل ذلك بشروح قيمة من عنده فى الموضوع.

والرجل بجانب أنه محدث، فقيه وزاهد. لهذا ظهرت خصوصياته الثلاث فى كتاب «رياض الصالحين»، ولعل أمرأ يظن أنه يرسم للناس طريق الزهادة، على نهج الصوفية. والواقع أنه كان فى كتابه هذا، محدثا أولا فالكتاب، لهذا، كتاب حديث. يخلله بشروح شتى تفصل مسائل عدة من الأحكام الشرعية. فهو بعدُ، كتاب فقه. وإذا نظرنا إلى موضوعه، وهو الحديث فى الزهد عن الدنيا والعيوف عن مباهجها ومتاعها، رأيناه فى النهاية كتاب تصوف ولكنه تصوف من النوع الشرعى السهل الانسانى، الذى لا تعقيد فيه.

وأسلوب الكتاب سهل لطيف واضح المعانى، يحلو للقارىء أن يخلو بنفسه حينا، ويقرأ فصوله للعظة المسلية، والتعليم المحبوب.

وفيه فصول كثيرة، منها فصول فى العبادات والأخلاق: كالتوبة والصبر، والصدق، والتعاون على البر والتقوى، والوصية بالنساء، وحق الزوج على امرأته، والنفقة على الأولاد، وحق الجار، وبر الوالدين، والخوف والرجاء، والزهد والقناعة والكرم، واستحباب العزلة. ومنها فصول فى الطعام وتناوله، والثياب وما يتصل بها، وآداب السفر، والاستئذان. إلى غير ذلك.

٢ — الأربعون حديثا النووية :

من الكتب المشهورة طبع ، ومنه نسخ مخطوطة بدار الكتب .

وقد ألفه النووى استجابة لقول الرسول صلوات الله عليه : « من حفظ على أمتى أربعين حديثاً من أمر دينها ، بعثه الله تعالى يوم القيامة فى زمرة الفقهاء والعلماء » . فدوّن أربعين حديثا من الأحاديث النبوية الشريفة التى يحفظها .

وقد استجاب لهذه الدعوة كثير من العلماء غير النووى ، ولهذا ترى عددا محمودا من كتب « الأربعين حديثا » ، تزدان بها مكتبة الحديث . وفى مقدمتها كتاب النووى ، وليس أول كتاب من نوعه . فقد تقدمته كتب عدة .

غير أن النووى خالف من تقدموه فيما سجّله من الأحاديث . فقد رأى بعضهم جمع أحاديثه فى الأصول ، وبعضهم فى الفروع ، وبعضهم فى الجهاد ، وبعضهم فى الزهد ، وبعضهم فى الآداب ، إلى غير ذلك . أما هو فقد رأى أن تكون أحاديثه عامة شاملة لأنواع كثيرة . وكل حديث منها قاعدة جليلة من قواعد الدين .

وقد التزم النواوى فى أحاديثه الأربعين أن تكون صحيحة ، معظمها مما رواه البخارى ومسلم ، ذكرها بلا أسانيد ، إلا راويها الأول عن الرسول عليه السلام . وأول هذه الأربعين قول الرسول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » .

٣ — منهاج الطالبين وعمدة المفتين :

توجد من هذا الكتاب ، فى دار الكتب المصرية عدة نسخ مخطوطة ، وأخرى مطبوعة ، منها المطبوع فى مصر ، والمطبوع فى غيرها .

تصفحت نسخة مطبوعة فى بتيفيا عام ١٨٨٢ م ، ٨٣ ، ٨٤ ، فى ثلاثة مجلدات ، كل مجلد فى سنة ، على التوالى ، بإشراف أحد الإفرنج وهو « فاندنبرج » وحروفها العربية ضخمة . وبها ترجمتها وتعليقات عليها باللغة الفرنسية .

والكتاب — كما قال مؤلفه — مختصر لكتاب آخر هو « المحرّر » للإمام أبي القاسم الرافعي، في فقه الشافعية. وقد رأى النواوى أن كتاب الرافعى المذكور، على أهميته العظيمة، ضخم الحجم يحتاج إلى الاختصار. فاختصره، ولكنه راعى فى اختصاره جملة أمور، منها أنه ضم إليه بعض النفائس المستجادة، التى لا توجد فى الأصل، ومنها التنبيه على قيود فى بعض المسائل، وكانت هذه القيود محذوفة من الأصل. ومنها النص على بعض مواضع ذكرها الرافعى فى محرره، مخالفا فيها المختار من المذهب. ومنها إبدال بعض ألفاظ « المحرر » مما يُعد غريباً أو موهما غير الصواب. ووضع مكانها ألفاظا وعبارات، أكثر وضوحا، وأشد اختصارا. وقد وضع النووى بجوار هذا جملة من الألفاظ الاصلاحية التى تعبر عن وجهات النظر المختلفة فى الأحكام.

وقد سار فى كتابه وفق المعهود فى كتب الفقه ترتيبا للأبواب والفصول، فأولها مثلا: كتاب الطهارة وأسباب الحدث، فباب الوضوء فالمسح على الخفين، فالغسل... الخ.

وأسلوب الكتاب سهل ميسور الفهم، وإن كان محتاجا إلى شيء من المرانة والمعالجة، من بعض القراء، لما فيه من مصطلحات فى اللفظ والأسلوب.

٤ — كتاب الأذكار المنتخب من كلام سيد الأبرار:

ويعرف « بالأذكار النووية »، وهو كتاب فى حديث رسول الله عليه السلام، مما يتعبد به أحيانا، أو مما يستحسن قوله، أو عمله فى مناسبات الحياة، غير العبادات المفروضة. كاستقبال النوم أو الذهاب إلى دار الخلاء، أو التطهر أو الإملاك، أو الدخول بالزوجة أو نحو ذلك من الشئون الخاصة. يصف النواوى ماينبغى انتهاجه من العمل، أو التفوه به من القول، فى كل مناسبة من هذه المناسبات. ثم يتبع هذا الوصف بالمأثور عن الرسول من قول أو عمل، فى مثلها.

وقد اعتمد النواوى على كتب الحديث الخمسة : البخارى ومسلم وأبى داود ، والترمذى والنسائى ، فاستخرج من صحيحها أحاديثه المختارة فى كل مقام .

وهذا الكتاب مطبوع على ورق أصفر، وهو كثير الأبواب لطيف الأسلوب جم النفع جليل الإرشاد .

٥ — بستان العارفين :

هذا كتاب لا يزال مخطوطا ، وهو موجود بدار الكتب المصرية . ولكنه قليل الحجم .

أما موضوعه ، فيخيل لقارىء العنوان أنه فى التصوف ، يرشد إلى طريقه ، وينبه إلى أحواله ، ويسير به إلى الشهود . والحق أنه كتاب يمتزج فيه تفسير القرآن الكريم مدعما بالحديث النبوى وشرحه .

وقد رأى المؤلف أن الدنيا دار فناء لا بقاء ، ومرحلة نفاد لا خلاد . فالعاقل من تزود منها إلى آخرته ، وزهد فى متاعها ورغب عن زخارفها الخادعة .

وأراد أن يرسم للعابد الزاهد طريق السلوك . ويدله على سبيل التخلق بالأخلاق الجميلة الفاضلة . ويزوده بجمل من نفائس اللطائف وحقائق المعارف ، تعينه على بلوغ أربته ، والوصول إلى طلبته .

وقد سلك المؤلف بأسلوبه سبيل الوضوح ، فلا معاظلة ولا تعقيد ولا مصطلحات . ويسوق الآيات القرآنية فى مناسباتها مصحوبة بتفسيرها ، والأحاديث النبوية فى معناها ، مرفقة بأقاويل السلف والمأثور عن الأخيار من حكايات وأشعار . وعُنى فى السياق عناية خاصة بالأحاديث يبين صحيحها وحسنها وأحوال رواتها والخفى من مراميها ، والمشكل من معانيها ، إلى غير ذلك . على أنه لم يلتزم ذكر الإسناد فى كل حال . ويستطرد إلى مسائل ومشاكل كلامية يوضحها مثل مسألة كسب العبد .

فهو كتاب يهدى إلى الطاعة ، ويعالج أدواء النفس ، ويسموبها مستعملا التعاليم الشرعية . ومن أبوابه على سبيل المثال : « ١ » باب فى الاخلاص وإحضار النية فى جميع الأعمال الظاهرة والباطنة . « ٢ » باب فى كرامات الأولياء .

« ترجمته فى : (١) طبقات السبكى ج ٥ (٢) تذكرة الحفاظ للذهبى ج ٤ (٣) صدر كتابه « رياض الصالحين » (٤) فى ذيل الروضتين لأبى شامة « مخطوط بدار الكتب المصرية » (٥) المنهاج السوى فى ترجمة النووى للجلال السيوطى « لم نطلع عليه » (٦) طبقات الأسدى (٧) الفوائد البهية . (٨) مفتاح السعادة ج ١ . »

٣ـ تقى الدين بن دقيق العيد (١) ٦٢٥هـ-٧٠٢هـ

هو أحد رجال العصر البارزين الممتازين فى نواحى متعددة ، علمية وأدبية . ويعتبر أحد الأئمة المجتهدين .

وهو قاضى القضاة العالم العامل الراوية الخطيب الأديب ، الكاتب الشاعر المؤلف الفقيه ، الورع الزاهد العف ، أبو الفتح تقى الدين محمد بن على بن وهب ابن مطيع بن أبى الطاعة القشيرى ، المعروف بابن دقيق العيد .

ولد بجهة ينبع يوم السبت ٢٥ شعبان عام ٦٢٥ هـ ، وتوفى يوم الجمعة ١١ صفر عام ٧٠٢ هـ .

ولد من أبوين كريمين . وأبوه الشيخ العالم مجد الدين بن دقيق العيد ، كان أحد فقهاء قوص . وقد توفى فى عهد الظاهر بيبرس .

نفر والده هذا من قوص بلده إلى الحجاز ، ليؤدى فريضة الحج ، فولد له ابنه تقى الدين فى طريقه بجهة ينبع . ولما بلغ مكة ، حمله وطاف به حول الكعبة داعيا له الله أن يجعله من العلماء العاملين . فاستجاب الله دعاءه .

نشأ تقى الدين بمدينة قوص ، ببلاد الصعيد . وكانت ذات صيت على ذائع فى تلك السنين . نشأ جم العفاف ورعا مواظبا على الدرس والتحصيل ، دقيقا فى فهم القول وأداء العمل . وتفقه على مذهب مالك ، وكان مذهب أبيه . ثم عدل عنه إلى مذهب الشافعى ، حتى أصبح فيه حجة يقتدى به .

لم يقتصر نبوغ ابن دقيق العيد ، على الفقه فحسب ، بل تناول الحديث والأصول والنحو . وكذلك كان شاعرا محمود الشعر ، وكاتبا حسن الكتابة ، وواعظا بليغ العظة . كما يعتبر أحد فقهاء المؤلفين فى عصره . وكان كثير الاطلاع والتلاوة والتهجد ، يبلى فى ذلك ، جدة لياليه .

ولشدة ورعه وعفته ، طلب إليه تولى منصب قاضى قضاة الشافعية ، بعد وفاة

---

(١) كتبنا عنه كلمة فى باب القضاء ، بالجزء الأول من هذا الكتاب .

قاضيها تقى الدين بن بنت الأعز عام ٦٩٥ هـ ، فأبى إباء شديدا ، فهدد بأن يولى القضاء من لا يحسنه ولا يصلح له ، فرأى حينئذ أن العدالة تقضى عليه بأن يتقدم لحمايتها وولايتها . . غير أنه عزل نفسه من القضاء مرات عدة ثم يُعاد إليه . فلبث على ذلك زمنا ، حتى توفى عام ٧٠٢ هـ . (١)

وقد تثقف ابن دقيق العيد ، على عدد من كبار العلماء ، منهم أبوه ، ومنهم ابن المقير ، وابن رواح ، وابن الجميزى ، والسبط ، وابن عبد الدائم ، والزين المنذرى وقد سمع الحديث من هؤلاء .

وفى مقدمة شيوخه : عز الدين بن عبد السلام ، الفقيه المجتهد . ونشعر أن ابن دقيق ، كان أنبه تلاميذ الشيخ ، ووارث علمه واجتهاده وتقواه . ويعتبره بعضهم « العالم المبعوث على رأس السبعمائة » . وينسبون إليه كرامات كثيرة ، ذكر السبكى بعضها فى طبقاته .

وتخرج بابن دقيق كثير من الأئمة .

أقوال المؤرخين فيه :

قال فيه صاحب الطبقات : « الإمام شيخ الإسلام ، الحافظ الزاهد ، الورع الناسك ، المجتهد المطلق ، ذو الخبرة التامة بعلوم الشريعة ، الجامع بين العلم والدين ، والسالك سبيل السادة الأقدمين ، أكمل المتأخرين ، وبحر العلم الذى لا تسكدره الدلاء ، ومعدن الفضل الذى لقاصده منه ما يشاء . وإمام المتـــأخرين ، كلمة لا يجحدونها ، وشهادة على أنفسهم يؤدونها ، مع وقار عليه سيما الجلال ، وهيبة لا يقوم الضرغام عندها لنزال . هذا مع ما أضيف إليه من أدب أزهى من الأزهار . وألعب بالعقول — لا أدرى بين يدى هذا الشيخ ما أقول ، أستغفر الله — من العقار » .

وقال عنه أبو الفتح بن سيد الناس اليعمرى ما ملخصه : « لم أر مثله فيمن رأيت ، ولا حملت عن أجل منه فيما رأيت ورويت . وكان للعلوم جامعا ، وفى

(١) ذكر ابن إياس أنه توفى عام ٧٠٤ هـ .

فنونها بارعا . مقدما فى معرفة علل الحديث على أقرانه ، منفردا بهذا الفن النفيس فى زمانه ، لا يشق له غبار ، ولا يجرى معه سواه فى مضمار . إذا قال لم يترك مقالا لقائل . وكان حسن الاستنباط للأحكام والمعانى من السنة والكتاب ، مبرزا فى العلوم النقلية والعقلية ، والمسالك الأثرية والمدارك النظرية » .

وقال عنه الشهاب محمود الحلبي : « لم ترعينى آدب منه »

ومدحه العلامة ركن الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمن التونسى المعروف بابن القوبع بقصيدة قال فيها :

صبا للعلم صبا فى صباه ... فأعلِ بهمة الصب الصبي
وأتقن والشباب له لباس ... أدلة مالك والشافعى

هذا . ومما يذكر فى سيرته أنه لما ولى القضاء ، امتنع عن أن يلبس الخلعة الحريرية التى اعتاد القضاة ارتداءها بهذه المناسبة ، وأمر بتغييرها إلى الصوف ، فاستمر ذلك تقليدا من بعده فى القضاء

كان الرؤساء يعظمونه . حضر مرة عند السلطان لاچين ، فقام إليه السلطان وقبل يده . . فلم يزد ابن دقيق عن قوله له : أرجوها لك بين يدى الله » .

وكان ابن دقيق معنيا بشئون منصبه ، وبنواب حكمه فى الأقاليم . وكان يكتب إليهم الرسائل المطولة يعظهم ويوصيهم بالعدل بين الناس ومراعاة الشريعة .

وكان كثير السكينة يفضل الصمت على الكلام ، حتى إنه لم يتصد لابن تيمية إيثارا للصمت على مناظرته ، وأنفة من اللجاج فى الحجاج .

ولما مات ابن دقيق ، رثاه الشريف محمد بن محمد بن عيسى القوصى ، بقصيدة طويلة ، مطلعها :

سيطول بعدك فى الطلول وقوفى ... أروى الثرى من مدمعى المذروف

ومن أبياتها :

لو كان يقبل فيك حتفك فدية ... لفديت من علمائنا بألوف
أو كان من حمر المنايا مانع ... منعتك سمر قنا وبيض سيوف

ومنها :

يا مرشد النمتيا إذا ما أشكلت طرق الصواب ، ومنجد الملهوف
من للضعيف يعينه أنى أتى مستصرخا يا غوث كل ضعيف
من للبتامى والأرامل كافل يرجونه فى شتوة ومصيف

هذا ، وللتقى بن دقيق العيد ، ولد يسمى « محب الدين » توفى عام ٧١٦ هـ ، كان مشتغلا بالعلم ، ودرس ببعض مدارس القاهرة [١].

مؤلفاته . « كما ذكرها السبكى وغيره » ويبدو لنا أن أغلبها مفقود . ومنها .

(١) الإمام : كتاب جليل فى الحديث . (٢) الإلمام ، وقد شرحه ولم يتم شرحه . (٣) إحكام الأحكام . وهو شرح لكتاب (عمدة الأحكام) تأليف عبد الغنى المقدسى . فى الحديث والفقه . (٤) شرح كتاب العنوان . فى أصول الفقه ، (٥) شرح مختصر ابن الحاجب فى فقه المالكية ، ولم يتمه . (٦) شرح مختصر التبريزى . فى فقه الشافعية . (٧) علوم الحديث . (٨) شرح مقدمة المطرزى . فى أصول الفقه . (٩) كتاب الأربعين فى الرواية عن رب العالمين (١٠) ديوان خطبه .

التعريف ببعض مؤلفاته :

١ - إحكام الأحكام :

هذا الكتاب شرح لكتاب آخر هو « عمدة الأحكام » لمؤلفه العلامة الحافظ عبد الغنى بن على بن مسرور المقدسى الجماعيلى الدمشقى الشافعى : المتوفى عام ٦٠٠ هـ .

و « العمدة » يحتوى على مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة ، مذكورة بروايتها . مبوبة أبواب الفقه . مثل باب الطهارة ، وباب الوضوء ، وباب التيمم . وقد تناوله كثير من الشراح بالشرح والبيان . ومنهم ابن دقيق العيد .

١ - ذكره السبكى فى الطبقات ج ٦ ص ٢٤١ ، والسيوطى فى حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٧

وقد شرحه ابن دقيق فى كتابه « الإحكام » المذكور بأسلوب سهل واضح ، حسن التقسيم لطيف الترتيب . إذا تصدى لحديث ، أوضح ألفاظه ومعانيها ، وتكلم عن ضروب البيان فيه ، وما يستنبط منه من الأحكام . وذكر أقوال الفقهاء فيه ، واتفاقاتهم أو اختلافاتهم حياله ، واتجاهاتهم فى الاستنباط منه . وهكذا .

وعند إبداء رأيه فى مسألة ما ، يستشهد بكثير من الأدلة ولا سيما آيات القرآن الكريم وتفاسيرها ، وما فهمه منها رجال السلف الصالح .

وأسلوب الكتاب مرسل لا قيود فيه ، سوى ألفاظ اصطلاحية قليلة ، لم تخرجه عن وضوحه وسهولة تناوله .

وقد أملى ابن دقيق العيد ، هذا الكتاب على تلميذه الشيخ عماد الدين بن الأثير الحلبى الشافعى ، بطلب منه .

ويقع فى أربعة أجزاء ، عنى بنشره للمرة الأولى إدارة الطباعة المنيرية بمصر عام ١٣٤٢ هـ . وعلق عليه « محمد منير عيده » أغا النقلى الدمشقى الأزهرى .

٢ — فتاوى ابن دقيق :

لابن دقيق جملة من الفتاوى والمباحث ، والفوائد القصيرة ، ولكنها على مايبدو ليست بالكثرة التى تنهض بها مذهبا ، أو حتى تجتمع فى كتاب مبوب فى أبواب فقهية كاملة على نمط فتاوى ابن تيمية مثلا ، فهى لا تعدو أن تكون آراء فى الفقه والأصول والحديث ، أكثر فيها من إيراد آراء الفقهاء ، والترجيح بينها ، والأدلاء برأى فيها .

وقد أورد السبكى فى طبقاته نموذجا لها ، بعضها فى مسائل الطلاق . وقد قال فى أولها : « فوائد الشيخ تقى الدين ومباحثه أكثر من أن تحصى ، ولكنها غالبا متعلقة بالعلم من حيث هو حديثا وأصولا وقواعد كلية » .

ابن دقيق الأديب :

من يقرأ عن ابن دقيق ، ويسمع عن شهرته فى عالم الفقه والقضاء ، وفى عالم

الزهد والنسك ، تروعه هذه الشهرة عن أن يعى أن لابن دقيق الفقيه الشافعى الضليع ، نشاطا محمودا فى عالم الأدب والكتابة ، والشعر . ولو لم يتجه ابن دقيق هذا الاتجاه العلمى الدينى ، وينفق فيه جل مجهوده ، لجرفه الأدب فى تياره ولأصبح رأسا من رءوس الأدب شعراً وكتابة فى عصره . وما ذلك إلا لأن فيه روح الأديب وظرفه وكياسته ، وخفته ورقته وحساسيته وإنتاجه .

ولعل أظهر ضروب أدبه ، خطابته فقد كان خطيباً منشئاً ينزع فى خطابته إلى العبارات المؤثرة التى تثير فى النفس حماسة وعاطفة . وطبيعى أن يكون متجها فى هذه الخطابة إلى الناحية الدينية ، لذلك يعتبر واعظا دينيا ممتازا . فإذا ارتقى منبرا فى يوم جمعة ، مثلا سمعت منه العظة البالغة والمثل الأخاذ والحكمة العالية ، مع توجيه النظر إلى المساوىء العامة وبيان طرق تلافيها ، والدعوة إلى الله واتباع دينه الكريم والإشادة بما يلقاه العبد المؤمن من مولاه من حسن الثواب وجمال العاقبة ، وما يلقاه العاصى من عذاب وسوء مصير . وقد ذكر السبكى أن لابن دقيق ديوان خطب معروفا .

ومن مظاهر نزعته الخطابية تلك الرسائل البليغة التى كان يدبجها إلى نواب حكمه بالأقاليم حينما كان قاضيا يعظهم فيها ويدعوهم إلى مراعاة العدل وتلافى الظلم ، ومراقبة الله فى الأحكام ، والفصل بين الناس بالحسنى .

وقد قلنا إنه نزاع إلى اللهجة الخطابية المثيرة للعاطفة ، وكان إلى جانب ذلك يعتمد على الأسلوب الأدبى الكتابى المرعى فى عصره ذى السجع المقصود والفقار الطويلة ، والذى يكثر فيه الاستشهاد والاقتباس والتضمين وما إلى ذلك من بديع . ومع ذلك لم أجد فيه إلا مايشوق غير مستشعر مللا لبدو الإيمان منه والإخلاص .

ومن مظاهر نزعته الخطابية أيضاً وحبه لبث العظة والعبرة للناس ، ما كتبه فى صدور مؤلفاته من خطب عظيمة القيمة جليلة النفع يبين فيها مزايا العلم ومنزلة الرسول عليه السلام ومزايا الدين ، ثم الحاجة التى دعته إلى التأليف . . وإليك بعض نماذج من نثره تدل على هذا كله .

١ — ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٣ ابن دقيق العيد وقال مما ذكره : « ومن لطائفه ما كتب إلى نائبه باخميم :

صدرت هذه المكاتبة إلى مجلس مخلص الدين ، وفقه الله تعالى لقبول النصيحة ، وأتاه لما يقربه إليه قصدا صحيحا ، ونية صحيحة . أصدرناه إليه بعد حمد الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويمهل حتى لا يلتبس الإمهال بالإهمال على المغرور . ونذكره بأيام الله . وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون . ونحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون . عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه ، وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار فإنى أخاف أن يتردى فيخرّ من ولاه معه والعياذ بالله . والمقتضى لإصدارها ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن تقاعد الهمم مما يجب للرب على المربوب . ومن أنسهم بهذه الدار وهم يزعجون عنها ، وعلمهم بما بين أيديهم من عقبة كئود وهم يتخففون منها . ولا سيما القضاة الذين تحملوا أعباء الأمانة على كواهل ضعيفة ، وظهروا بصور كبار وهمم نحيفة . ووالله إن الأمر عظيم ، والخطب جسيم ولا أرى مع ذلك أمنا ولا إقرارا ، ولا راحة ولا استمرارا . اللهم إلا رجلا نبذ الآخرة وراه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصر همه وهمته على حظ نفسه ودنياه » إلى آخر ما قال .

« وسنوردها بتمامها فى باب الوعظ بعون الله فى الجزء الرابع

٢ — وذكر السبكى فى طبقاته ج ٦ ص ١٣ ، خطبة ابن دقيق فى صدر كتابه شرح مختصر ابن الحاجب . فمنها :

« الحمد لله منزل الكتاب ، ومفصل الخطاب وفاتح أبواب الصواب . ومانح أسباب الثواب . أحمده وهبنا بره بغير حساب . وأعبده وإليه المرجع والمآب . وأرجوه وأخافه فبيده الثواب والعقاب . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مقدمات دلائلها مبينة الأسباب . ونتيجة اعتقادها جنة مفتحة الأبواب . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله ، وقد طال زمن الفترة ونسيت الآداب . وبعُد عهد النبوة فزال الحق وانجاب . فمنازل الهدى خراب . ومعاهده لا تعتاد

ولا تنتاب . وللناس بالشهوات والشبهات إعجاب . حتى أفرد النظار بالدنيا وادعى تعدد الأرباب . فاختار الله محمدا فى أشرف الأنساب وخيرة الأحساب . نذيرا بين يدى العذاب . وبشيرا لمن أطاع الحق وأجاب . وأيده بمعجزات تدفع عارض الارتياب . وتكشف أنوار اليقين ليس دونها حجاب . وتدع القلوب مطمئنة لا ترتاع من جانب الشهاب ولا ترتاب . فصلى الله على سيدنا محمد صلاة وسلاما يدخل فيهما الآل والأصحاب . » إلى آخرها وهى طويلة .

شعره :

ولِمَ لا يكون ابن دقيق شاعرا ، أليس له نفس الأديب وطرب الأديب . إن إيغاله فى أحراج العلم لم يمنع خياله من السراح ، ولم يقف دون عاطفته أن تمتد إلى ما وراء الأفق . . ولم تقف خشونة ما أخذ به نفسه من العلم ووعورة ماراض نفسه عليه من النسك ، عقبة فى سبيل ظهور شاعريته . فكان شاعرا لا بأس بشعره وشعره إلى الملاحة والطلاوة أقرب .

وأهم أغراضه مدح النبي عليه الصلاة والسلام . والغزل والتذكر والفخر والشكوى ، وهو أحد الذين تمنوا الشيب وأنسوا به لما فيه من جلال ووقار . وله أشعار فى العظة وذم الخمر ، وإن كانت معانيه تقليدية .

وأسلوبه الشعرى وسط بين الجودة والركاكة . وفيه أثارة من البديع ولوثة من المصطلحات التعليمية وألفاظ الفقهاء . وله المقطوعات والمطولات والموشحات والدوبيت وله شعر كثير فى طبقات الشافعية ج ٦ .

ومن نماذجه :

١ — قال يذكر النبي عليه السلام ويمدحه :

يا سائرا نحو الحجـــاز مشمرا ... أجهد فديتك فى المسير وفى السرى
وإذا سهرت الليل فى طلب العلا ... فحذارِ ثم حذارِ من خدع الكرى
فالقصد حيث النور يشرق ساطعا ... والطرف حيث ترى الثرى متعطرا

قف بالمنازل والمناهل من لدن ... وادى قبـــاء إلى حمى أم القرى
وتوخ آثار النبي فضع بهـــا ... متشرفا خـــديك فى عفر الثرى
وإذا رأيت مهابط الوحى التى ... نشرت على الآفاق نورا أنورا
فاعلم بأنك ما رأيت شبيههـــا ... مذ كنت فى ماضى الزمان ولا ترى
ولقد أقول إذا الكواكب أشرقت ... وترفعت فى منتهى شرف الذرا
لا تفخرى زهوا فإن محمدا ... أعلى علا منهـا وأشرف جوهرا
نلنا به ما قـــد رأينا من علا ... مع ما نؤمل فى القيامة أن نرى

« الفوات ج ٢ ص ٣٠٥ »

---

٢ — وقال يتغزل :

بالذى استعبـــد أرواح المحبـــين لِذاتك
وبلطف من معانيـــك يرى من حركاتك
وبنور الحسن إذ يحـــويك من كل جهاتك
وبسرّ فوق ما يدركه طرفى [١] من صفاتك
لا تُذقنى الموت فى صـــدك عـــنى بحياتك

« الطبقات ج ٦ ص ١٠ »

٣ — وقال يتذكر :

دقت معانى حسنكم فى المـــلاح ... عن نظر الواشى وفهم اللواح
لله أيام مضت لى بـــكم ... بين ربا نجـد وتلك البطاح
أيام وصل نلت فيهـــا الذى ... أهوى وأكثرت من الإقتراح
وقد بقيت اليوم من بعدها ... كطائر قـد قُص منه الجناح

ومنها :

أبيت أرعى من نجوم الدجى ... أسير ليل ماله من براح
علمت يا ظالم بعد اللقـا ... وقسوة القلب حال الصباح

« الطبقات ج ٦ ص ٩ »

---

(١) فى الأصل ، ينقص البيت كلمة « طرفى » فأضفناها للوزن والمعنى .

٤ — وقال يتغزل ويشكو فى صدر قصيدة لعلها من مدائحه النبوية ، قال :

لقد بعدت ليلى وعز وصالها ... كما عز بين العالمين مثالها
فمن لى بنوق لا تزال تمدها ... قواها ولا يدنو إلىّ كلالها
ولكنها جسم يذوب وصبره ... يحول وأرواح يخاف زوالها
لعمرى لقد كلفتها فى مسيرها ... بلوغ مدى قد قل فيه احتمالها
وتسألنى رفقا بها وبضعفها ... ولو خف من شوقى أجبت سؤالها
وللعيش آمال بليلى تعلقت ... أخاف المنايا قبل كونى أنالها
يقرب لى من وصلها حسن لطفها ... ويبعدها استغناؤها ودلالها
وإنى لأرضى اليوم بعد تشوق ... إلى أن أراها أن يزور خيالها

الخ (الطبقات ج ٦ ص ١١)

٥ — وقال يتمنى الشيب ويعلل لذلك :

تمنيت أن الشيب عاجل لمتى ... وقرب منى فى صباى مزارَه
فآخذ من عصر الشباب نشاطه ... وآخذ من عصر المشيب وقاره

(الفوات ج ٢ ص ٣٠٦)

٦ — وقال يشكو الحياة :

أفكر فى حالى وقرب منيتى ... وسيرى حثيثا فى مصيرى إلى القبر
فينشىء لى فكرى سحائب للأسى ... تسح هموما دونها وابل القطر
إلى الله أشكو من وجودى فإننى ... تعبت به مذ كنت فى مُبتدا العمر
نروح ونغدو والمنايا فجائع ... تكدره والموت خاتمة العمر ..

٧ — وقال يذكر عهد شبابه ، وهو من الدوبيت » :

يا عصر شبيبتى ولهوى أرأيت ... ما أسرع ما انقضيت عنى ومضيت
قد كنت مساعدى على كيت وكيت ... واليوم فلو رأيت حالى لبكيت

(الفوات ج ٢ ص ٣٠٧)

٨ - ومن جناسه قوله :

تهيم نفسى طربا عندما أستملح البرق الحجازيا
ويستخف الوجد عقلى وقد لبست أثواب الحجا زيا
يا هل أقضى حاجتى من منى وأنحر البزل المهاريا
وأرتوى من زمزم فهى لى أرق من ريق المها ريا

« الفوات ج ٢ ص ٣٠٦ »

« ترجمه: فى «١» طبقات الشافعية للسبكى ج ٦ ص ٢ ، «٢» فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٠٥ . «٣» حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٣ ، ١٦٧ - ج ٢ ص ١١٣ «٤» بدائع الزهور لابن إياس ج ١ ص ١١٢ . «٥» تذكرة الحفاظ للذهبى ج ٤ رقم ٩ فى الطبقة العشرين . «٦» الطالع السعيد للإدفوى رقم ٤٦٢ »

تقى الدين بن تيمية الحرانى ٦٦١ هـ - ٧٢٨ هـ

نتصدى الآن للحديث عن عيلم بعيد الغور ، وجهبذ فى مقدمة الفحول ورجل من ذوى الآراء الحرة ، والنزعات المستقلة . سما إلى مرتبة الإمامة بعد أن ذاد عنها وشاكس ، ودافع ونافس ، بقوة شكيمة ، وحدة عزيمة . فشق إليها سبيله وقدم حجته ودليله . لا رائد له إلا الحق ، ولا سائق إلا الإيمان والصدق . رجل قوى النفس عظيم الروح ، امتلأ صدره بالعلم ، وماجت فيه الآمال ، أن يصلح بالعلم قومه ، وأن يهديهم سبيل الرشاد ، وأن يبلغ بهم طريق الدين الحق ، وأن يبصرهم بمواطن السعادة ، وأن يكون لهم عونا على ما يصلحهم فى الدارين . ليس له من وراء ذلك ، هم فى الدنيا يصيبه ، ولا نزوة نفس يتلمس إليها ، إلا أن يرى قومه على حال من التوفيق ، تهدأ له نفسه وتقر بها عينه . فهو رجل من أهل الرسالات فى الناس . تزوده الأقدار بثقوب بصرها وبعيد نظرها ، بأدوات الجهاد من علم راسخ وأدب جم وخلق كريم وذكاء وفطنة . ثم تنفث فى نفسه ، أشبه ما يكون الوحى أو الإلهام ، فتنطلق شعلة متقدة لا تهدأ حتى ينزل الناس عليها ، يقبسون من نورها ، ويسيرون على سراجها ، بعد أن ينفى عنهم الزيف ، ويجنبهم مهاوى الباطل .

ذلك الرجل ، هو ابن تيمية الحرانى ، الذى شغل الناس فى عصره ، وانقسموا فيه إلى فريقين : متعصب له ، ومتعصب عليه . وأوقد بوجوده حركة فكرية جليلة كان له فيها الأنصار الأخيار ، والأعداء الألداء . وهو لا يبالى وسط ذلك كله إلا بالحق الذى يعتقده ، والرأى الذى يدين به ، ولو أوذى فى سبيله أشد الأذى ، وجوهد من أجله أشق الجهاد . غير عابىء بالكائدين يكيدون له ، ولا بالحاقدين يتآمرون عليه ، ولا بالحرمان يُصب فوقه ، ولا بالسجن يقذف فيه ، فهذه كلها من أوضار الجهاد ، لا ينجو مجاهد من خبثها ، ولا يفر مجالد من عبثها وعبثها .

اسمه ونسبه :

وهو تقى الدين أبو العباس : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم بن محمد بن الخضر بن محمد بن تيمية الحرانى الحنبلى .

مولده ووفاته :

ولد ابن تيمية فى حران قرب دمشق ، يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول عام ٦٦١ هـ — وقيل فى ١٢ منه — وعاش نحوا من سبع وستين سنة ، وتوفى فى سجنه بدمشق ليلة الاثنين ٢٠ من ذى القعدة عام ٧٢٨ هـ .

أسرته :

ولد ابن تيمية فى أسرة مليئة بعلمائها ، غنية برجالها وفضلائها . فمنهم الفقيه الجليل ، والواعظ القدير ، والزاهد العيوف الأبى . وتصدَّر منهم من تصدَّر ، للدرس والفتوى والتأليف والتصنيف .

فهذا فخر الدين بن تيمية : كان عالما زاهدا خطيباً مفسراً ، ومات عام ٦٣٩ هـ .

وهذا مجد الدين بن تيمية : ابن أخى فخر الدين ، وهو أيضاً جد تقى الدين بن تيمية صاحب الترجمة . كان مجد الدين عبد السلام ، عالما فقيها مؤلفا . قال عنه جمال الدين بن مالك النحوى : « ألين الفقه للشيخ المجد ، كما ألين الحديد لداود » وقد توفى عام ٦٥٣ هـ .

وهذا شهاب الدين بن تيمية : وهو عبد الحليم بن عبد السلام ، والد تقى الدين ابن تيمية ، ولد بحران عام ٦٢٧ هـ ، وسمع حديث الرسول عليه السلام ، من والده ومن غيره . ودرس الفقه وعالج الأدب ، وكان شيخ حران وخطيبها ، وله يد طولى فى علم الفرائض والحساب والهيئة . مع دين وتواضع ودماثة خلق . قال عنه شمس الدين الذهبى : « وكان شهاب الدين من أنجم الهدى . وإنما اختفى بين نور القمر وضوء الشمس » . يشير بذلك إلى أبيه مجد الدين ، وإلى ابنه تقى الدين

وقد هاجر شهاب الدين من حران إلى دمشق عام ٦٦٧ هـ . واتخذها موطنا له ولأولاده . وكانت هذه الهجرة فرارا من وجه التتار الذين اجترحوا ما اجترحوا فى العراق ، وأخذوا يهومون نحو الشام من أطرافها . فلما استقر شهاب الدين بدمشق ، باشر مشيخة دار الحديث السكرية بالقصاعين ، وكان يسكن بها ، وخصص له بالجامع كرسى يلقى عليه دروسه للناس فى أيام الجمع . وقد توفى عام ٦٨٢ هـ . بعد أن سجل لنفسه عدة تعاليق ومصنفات فى جملة علوم .

وهذا شرف الدين بن تيمية : وهو أخو تقى الدين ، ولد بحران عام ٦٦٦ هـ وتوفى عام ٧٢٧ هـ ، وبرع فى فقه الحنابلة ، وفى الفرائض والحساب والهيئة وعلوم العربية والحديث .

وبعد فهذه أسرة ابن تيمية ، له أن يباهى بها الزمان ، ويزهو بها على الأقران وينافس بجليل علمهم وجميل فضلهم ، ويقول لمن يفاخره : أولئك آبائى فجئنى بمثلهم .

كلمة تيمية :

هى نسبة إلى تيماء . وتيماء موضع قرب تبوك . وقد قيل إن أحد أجداد تقى الدين ، ذهب للحج ، وكانت امرأته حاملا . فلما كان بتيماء ، رأى جارية حسنة الوجه . فلما وضعت امرأته ، وضعت أنثى جميلة ذكرته بجارية تيماء . فقال لها : يا تيمية يا تيمية . . تشبيها لها بها . ثم كان من نسلها آباء تقى الدين .

وقيل إن أم جده هذا ، كانت تسمى « تيمية » ، وكانت واعظة ، فنسب أبناؤها إليها .

عصره وبيئته ، وطرف من حياته :

ولد ابن تيمية — كما رأينا — فى أسرة كريمة ، اتخذت الدين هداية ، والعلم غاية . حتى صار ذلك فى بيتها سنة متبعة وخلة موروثة . فلو لم يكن لتقى الدين ، ما كان له من ذكاء نفس ورهافة حس ، وكبير قلب ، وعظيم لب ، مما شغله بالعلم شغلا ،

وحمله إلى المجد حملا ، لكان حسبه ما تُقدِّر من دوافع الوراثة والبيئة المنزلية معاً .

عاش تقى الدين نحوا من ثلاثين سنة ، فى القرن السابع الهجرى ، ونحوا من ثلاثين أخرى فى القرن الثامن . أما الثلاثين الأولى فنستطيع أن نقول إنه جعلها سنى درس وتحصيل . قضى منها عهد طفولته فى حران أولا ، ثم فى دمشق ثانياً ، حيث هاجر مع أبيه ، وهو فى نحو السادسة من عمره . فشب فى دمشق ، وهو يشعر بما للتتار من خطر ، وبما ابتلى به المسلمون على يديهم من فزع وسوء .

أكب تقى الدين على طلب العلم ، وتمذهب بمذهب أبيه وأسرته ، وهو مذهب الإمام ابن حنبل . وتعلم على أبيه ، وعلى أكابر علماء عصره ، ومنهم : شمس الدين ابن قدامة . وزين الدين بن المنجا . ومجد الدين بن عساكر . كما أخذ علوم العربية عن ابن عبد القوى . وقرأ كتاب سيبويه ، وكتب الحديث الستة . وأقبل على التفسير والأصول والفرائض والحساب والجبر والمقابلة . وقرأ كتبا فى المذاهب كلها ، حتى أصبح ملما بمسائلها وضروب الخلاف بينها . ونظر فى كتب الفلاسفة وقرأ ما ترجم منها عن اليونانية ، وطالع كتب الطبقات وغير ذلك .

وهو فى كل ما يدرس ، يسلط منظار ذكائه ، ومجهر عقله ، ليستبين وجه الحق ويستوضح جانب الصواب . وسواء فى ذلك ، درسه تلقينا عن شيخ ، أو قراءة فى كتاب ، أم مشافهة وتجربة .

وكان العالم الإسلامى حينذاك يموج موجا بما فيه من طوائف تختلف فى عقائدها اختلافا أدى بها إلى التحاقد والتنابذ والتفرق . فمن شيعة ذات شعب وفرق . وجهمية ومعطلة ومن أشاعرة وصفاتية ، ومن مبتدعة حنابلة وصوفية ، إلى غير هؤلاء وهؤلاء ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

وأمام هؤلاء عدوان لدودان ، يكيدان للدين ، ويتربصان بالمسلمين ، هما التتار الوثنيون بالمشرق ، والفرنجة المسيحيون المتعصبون بالمغرب .

ولكى تعرف مقدار الخطر على المسلمين من جراء هذا التفرق فى العقيدة ،

والتخاذل عن درء الأعداء ، نقول إن هذه الخلافات المذهبية كان لها فى ذلك الحين أثرها الكبير فى توجيه الأفكار فى الشعوب ، وتلوين اتجاهاتها . ومن ثم كان تعصب كل فريق لعقيدته ، قائما على قدم وساق . فالعقائد المذهبية والاختلافات الدينية فى تلك العصور الوسطى ، شبيهة بما لدينا اليوم من عقائد سياسية ومبادىء حزبية ، ومذاهب اقتصادية واجتماعية ، لها أثرها الهام فى صبغ الأفكار والعقول ، والأخذ بناصية النفوس وتوجيهها وجهات خاصة . ومن ثم ، أصبح لهذه العقائد والمذاهب أثرها الأول البارز فى سياسة الشعوب وعلاقات بعضها ببعض ، وعلاقة كل طائفة فى الشعب الواحد بغيرها من الطوائف .

رأى ابن تيمية ما رأى من حال قومه : جهل وضلال ، وأهواء وتفرق . وخور وتخاذل . فهاله ما رأى . فأقسم أو كأنما أقسم ، بينه وبين ربه ، أن يبذل قصاراه فى رأب الصدع ، ونفى الزيف ، ونشر الحق ، لا يهمه من دنياه إلا زاده لآخرته . وإلا كلمة ينطلق بها فمه ، أو يخطها قلمه ؛ فيرضى عنها ربه ومولاه .

قضى تقى الدين الثلاثين سنة الأولى فى تحصيل العلم ، وكأنما كان يعبىء فيها قواه ، ويستجمع جنده . ومع هذا فقد روى أنه تصدى للفتوى فى سن السابعة عشرة ، وللتدريس فى الحادية والعشرين .

ثم حج عام ٦٩١ هـ ، وسنه ثلاثون سنة وكأنما أراد بذلك أن يستكمل قوى نفسه ويحتفل بسنى تحصيله . ثم عاد وهو مشروع القناة ، مسنون الشباة . ففتح من سجل حياته ، صفحته الخالدة ، صفحة الجهاد والجلاد . وأخذ فى التعرض لأرباب المذاهب والمعتقدات الدينية ، ممن يرى فيهم الانحراف عن عقيدة السلف ، يرجو من وراء ذلك أن يهديهم الله سواء السبيل ، غير عابىء بما لهم من حول وطول ، وجاه وسلطان ، لدى العامة وبين الأمراء الحاكمين . — وشرع كذلك يضع الفتاوى فى الأحكام الشرعية ، لا يبالى فى ذلك بما تقرر منها فى المذاهب الأربعة ، وما تواضع عليه الأئمة ، وكل همه أن تكون فتاواه مناسبة لحاجات عصره متمشية

مع عقول الناس فيه، مادامت موافقة للعدل، غير خارجة عن أقوال السلف، متمشية مع روح الكتاب والسنة. حتى لا يشق على الناس فى حياتهم، ويسر لهم سبيل الحلال، ويجنبهم سبيل الباطل.

بهذا ألّب تقى الدين على نفسه، كثيرا من الطوائف، من الكلاميين والصوفية حتى فقهاء المذاهب. وكان لا بد له، وقد وضع نفسه هذا الموضع، أن يستعد للنضال والمصاولة، والنزال والمطاولة، والمناظرة والمحاورة. لذلك كانت حياته فى الثلاثين سنة الأخيرة، صورة رائعة من صور الجهاد، عقد له فيها علم الظفر والانتصـــار.

غير أنه لم يكن فى نضال سلبى فكرى فحسب. فمن شأن رجل مثله، أن يكثر حساده، والناقمون عليه، والكائدون له، والمؤتمرون به، والزاعمون فيه. فلقى من ذلك كله كثيرا من الأذى والعذاب، ولكنه كان فى كل حالة، الرجل يستعذب الأذى فى نضاله، والبطل يستحلى العذاب فى نزاله. لقد حوكم تقى الدين وشرد، وسجن. فماذا قال؟ قال: «ما يصنع أعدائى بى؟ أنا بستانى فى صدرى، أين رحت فهو معى. أنا حبسى خلوة وقتلى شهادة وإخراجى من بلدى سياحة.»

صور من كفاحه:

ولتقى الدين بن تيمية آراء فى العقيدة، وأحكام فى الشريعة، متعددة. سنعرض لذكر بعضها فيما بعد. غير أننا نشير هنا إلى أهمها، مما كان سببا مباشرا لاستشراء النضال بينه وبين مخالفيه، وسببا مباشرا لمحاكماته وسجنه.

١ — فمنها حديثه عن صفات الله سبحانه وتعالى مثل الاستواء، والنزول وإثبات الصورة والعين واليد وحديثه عن القرآن وأنه قديم، إلى غير ذلك من المسائل والمشاكل، التى تدور عليها كلاميات علماء العقائد من المسلمين.

وقد تكلم عن هذه الموضوعات، بما لا يخرج عن نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف، ومعتقد السلف الصالح الأولين. فأثبت لله سبحانه وتعالى،

الاستواء والنزول والصورة والعين واليد إلى غير ذلك، كما وصف الله نفسه به فى القرآن، وكما وصفه به رسوله الكريم، ولكن بدون كيفية ولا تمثيل ولا تشبيه بالمخلوقات. فلم يجنح ابن تيمية إلى التجسيم كما جنح بعض مبتدعة الحنابلة أو متأخرى الأشاعرة، أو غيرهم، إذ فى ذلك تشبيه له بمخلوقاته، كما أنه لم يعطل الصفات، فإن الله قد أثبتها لنفسه فى قرآنه المنزل، وكذلك لم يؤول فى فهم الآيات كما أول المعتزلة ومن لف لفهم، ممن قالوا فى الاستواء: الاستيلاء. وفى اليد: القدرة، وفى العين: الرعاية، ونحو ذلك. إذ لا يصح صرف ظاهر الآيات القرآنية ومدلولاتها اللفظية، إلى معانى أخرى، لغير حاجة وبدون دليل، فإن الله سبحانه وتعالى خاطب الناس بما يفهمونه من مدلولات لفظية، دون تعمية أو تعمد إبهام.

هذه المسائل ونحوها مما يسمى فى علم الكلام: المتشابهات، كانت مثار الجدال بين ابن تيمية وخصومه. فهو — كما يقول الثقات — إنما كان يقرر مذهب السلف الصالح فى فهم القرآن والحديث.

وقد اتضحت آراؤه هذه واحتجاجاته لها فى كثير من كتبه ورسائله، كرسالته «العقيدة الحموية الكبرى».

كتب ابن تيمية هذه الرسالة، إجابة على سؤال ورد عليه من حماة — وكانت الرسائل والاستفتاءات ترد عليه تباعا من بلاد المسلمين تستوضحه وتستهديه فى المعتقدات والأحكام — كتب ابن تيمية رسالته الحموية. بين الظهر والعصر فى ست كراريس. فرجح مذهب السلف — كما قلنا — واحتج له وبين أن السلف أثبت قولا وأصدق فعلا وأرجح نظرا وأعلم خبرا. وبالمقالة موازنات عدة بين المذاهب المختلفة فى الصفات، ودحض للمخالف لرأى السلف منها. وقد صدرت منه هذه المقالة الحموية فى ربيع الأول عام ٦٩٨ هـ.

وكأنه كان يرمى من وراء ذلك — فضلا عن أنه الحق الذى يراه — إلى جمع فرق المسلمين على كلمة واحدة فى عقائدهم. ومذهب السلف — فى الواقع —

صريح ومريح فى الوقت نفسه ، وحسبه أنه يثبت الصفات لله سبحانه وتعالى كما أثبتها الله ورسوله ، ويعفى المرء من الوقوع فى التجسيم ، أو الجنوح إلى التأويل . وأحسب من السهل — إذا تصافت القلوب وخلصت النوايا — أن يتلاقى المختلفون فى هذا المعتقد السليم .

ثارت ثائرة الكلاميين والفقهاء ، وأولوا فى كلام ابن تيمية ، ونسبوه إلى القول بالتجسيم ، كسائر المبتدعة من الحنابلة ، وهو من ذلك براء . وتحزب قوم عليه وأرادوا إيذاءه . فعاونهم على ذلك قاضى الحنفية بدمشق آنئذ وهو جلال الدين الحنفى ، ومشى مع المتآمرين إلى دار الحديث الأشرفية ، وطلب إليه المثول بين يديه ، — باعتباره قاضيا — ليحاكمه على مقاله . فرفض ابن تيمية المثول والجلوس للمحاكمة ، وقال للقاضى : « إن العقائد ليس أمرها إليك . وإن السلطان إنما ولاك لتحكم بين الناس . وإن إنكار المنكرات ليس مما يختص به القاضى » فزاد حنق القاضى عليه . وأمر بالنداء على بطلان عقيدته فى المدينة . فنودى . ثم تصدى للمنادين بعض أعوان الشيخ تقى الدين ، فاختفوا . .

وقيل بخصوص هذه الحادثة : إن بعضهم حمل الشيخ تقى الدين وطافوا به فى المدينة ينادون الناس بألا يستفتوه . . .

وقيل أيضا إن ابن تيمية قرأ رسالته الحموية بعد قليل فى شهر كتابتها ، أمام جمع حاشد ، بينهم القاضى « إمام الدين الشافعى » . وظل فى قراءتها يومين ، وهو يوضح للناس ما أشكل عليهم من مراميها . حتى اقتنعوا بصحة رأيه وصواب معتقده ، وقال القاضى إمام الدين : « كل من تكلم فى الشيخ ، فأنا خصمه » .

٢ — ومنها تعرضه للصوفية الذين ينتمون إلى ابن عربى وابن سبعين ، ممن يقولون بوحدة الوجود ، والاتحاد ، وهى أقوال تشعر بأن العبد يصل من وراء عبادته إلى مرحلة تتجلى فيها به الذات الإلهية ، ويزول العبد ولا يبقى إلا الذات ، أو يصير العبد والذات شيئا واحدا . وهذا كله معناه الحلول والتجسيم والتشبيه .

وكان بمصر حينذاك رجل من الصوفية ذو سطوة وجاه لدى الأمراء، وبخاصة الأمير « ركن الدين بيبرس الجاشنكير، الذى كان أتابكا، ثم ملك البلاد سنة ٧٠٨ هـ وتلقب بالظافر. هذا الرجل اسمه « الشيخ نصر المنبجى »، وقد علم ابن تيمية، وهو بدمشق، أن المنبجى هذا وأتباعه يدينون بمعتقد ابن عربى وابن سبعين، فكتب إليه مقالا فى ثلثمائة سطر، أنكر فيها مذهبه وأوضح له خطأه. وكان ذلك عام ٧٠٥ هـ. فى عهد الناصر محمد بن قلاوون.

حنق المنبجى على ابن تيمية وجرأته، وأذاع القالة عنه إنه مبتدع مجسد يخشى منه على الناس. واستعان فى ذلك بالأمير بيبرس المذكور. وأقنعوا قضاة مصر بهذا الاتهام، فكتب السلطان الناصر أمراً إلى نائبه على الشام، بامتحان الشيخ تقى الدين وسؤاله عن معتقده. فجمع له النائب مجلسا من القضاة والعلماء بدمشق فى رجب عام ٧٠٥ هـ، وقرئت فيه رسالته « العقيدة الواسطية »، وتوقش فيها، وناظره فيها بعض مخالفيه فى الرأى ومنهم الشيخ صفى الدين الهندى وقاضى قضاة الشافعية كمال الدين بن الزملكانى. وانتهى المجلس على أن معتقد الشيخ صحيح، ولم يخرج عن مذاهب السلف.

ويبدو أن ذلك الحكم الذى وصل إليه المجلس، لم يصادف ارتياحا من أعداء الشيخ بمصر، وكأنهم أرادوا من وراء محاكمته إيذاءه وكبته، فلما لم يظفروا بذلك فى دمشق، أكثروا من الدعوى عليه والقالة، فى مصر، وكان فى مقدمة الضالعين ضده قاضى المالكية بمصر، ابن مخلوف، فأرسل السلطان الناصر إلى دمشق فى رمضان عام ٧٠٥ هـ، باستحضار الشيخ إلى مصر لسؤاله ثانية عن معتقده ومحاكمته فأبى نائب الشام، ثم رضخ فى النهاية، وأرسل الشيخ إلى مصر. وخرجت دمشق فودعته وداعا حرا، مقدرة فيه الجرأة والحرية والذود عن العقيدة الصحيحة، ومناوئة أهل الضلال والفساد.

دُفع الشيخ إلى مجلس القضاء حيث تصدر القاضى ابن مخلوف. وندب لرفع الدعوى عليه « شمس الدين بن عدلان »، فادعى أن الشيخ يقول: إن الله فوق

العرش حقيقة » . وأنه يتكلم بحرف وصوت ، وأنه يشار إليه إشارة حسية ، وطلب إلى المجلس عقابه . فسأله القاضى عما يقول فى ذلك . فبدأ ابن تيمية فى الإجابة ، فحمد الله وأثنى عليه . . فقال له القاضى : « ما جئنا بك لتخطب » . فقال : «ومن الحاكم فىّ ؟» . فقيل له : « القاضى المالكى » . قال : « كيف يحكم فىّ وهو خصمى ؟ » . وغضب غضبا شديدا ، وبدا عليه الانزعاج والفزع والثورة . فاقتيد إلى البرج فحبس به أياما ، ثم نُقل إلى « الجب » فحبس به ومعه أخواه شرف الدين عبد الله ، وزين الدين عبد الرحيم . .

وظلوا يستحضرونه للإجابة مرة بعد مرة ، وهو فى كل مرة يناظر ويتصر على على خصومه . غير أن ذلك لم يكن شافعا له فى إطلاق سراحه . فلبث فى سجنه نحو ثمانية عشر شهرا . ثم أطلق سراحه فى ربيع الأول عام ٧٠٧ هـ بشفاعة الأمير العربى « حسام الدين بن مهنا »

ومما يذكر أنه عقدت مناظرة بينه وبين فئة من العلماء ، قبيل خروجه من سجنه وذلك فى صفر عام ٧٠٧ هـ . فناظره منهم : بدر الدين جماعة ، ونجم الدين بن الرفعة وعلاء الدين الباجى ، وفخر الدين بن بنت أبى سعد ، وعز الدين التمراوى ، وشمس الدين بن عدلان .

ثم أخذ بعد خروجه من السجن ، ينشر العلم بمصر ويفتى الناس ويعظهم . ويفسر لهم كتاب الله . قيل إنه صلى يوم جمعة فى مسجد الحاكم ، فطلب إليه الناس بعد الصلاة ، أن يعظهم . فأخذ فى تفسير قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » حتى حانت صلاة العصر ، والناس يزدحمون على سماعه .

٣ — لم يهدأ ابن تيمية . وأخذ ينتقص الحلوليين والاتحاديين القائلين بوحدة الوجود كابن عربى وابن سبعين والقونوى وغيرهم من أرباب الطرق ، ومدعى الصوفية ، وعاب عليهم كثيرا من الحيل التى يحتالون بها على الناس مدعين أنها كرامات . وشدد النكير فيما خالف ظاهر الكتاب والسنة . فشكاه الصوفية إلى السلطان فى نفس عام ٧٠٧ هـ ، الذى أطلق سراحه فيه . وكان على رأس الشاكين

« كريم الدين الآملى » شيخ الصوفية بالقاهرة . فخيّر ابن تيمية بين السفر إلى دمشق أو الإسكندرية ، حتى تهدأ فتنته ، أو السجن . . فاختار السجن . غير أنه حُمل إلى دمشق ، ثم أعيد من الطريق ، وسُجن فى سجن القضاة بحارة الديلم بالقاهرة . — فلعلهم خشوا فتنته على بلاد الشام .

لم يجرؤ أحد من القضاة فى هذه المرة أن يحكم عليه ، بل هو الذى اختار السجن من تلقاء نفسه . وقعد فيه يعظ الناس ويشرح لهم أمور دينهم ومعتقداته الصحيحة . فقصد الناس السجن من مختلف النواحى لسماع عظاته ، وتحول السجن بفضله إلى جامعة علمية كبرى . . ولعل ذلك كان سببا فى نقله بعد مدة ، إلى سجن الاسكندرية .

فى هذه الأثناء كان السلطان الناصر محمد ، قد خلع من عرشه ، ووثب على السلطنة « بيبرس الجاشنكير » ، فلبث ابن تيمية فى سجنه ، حتى عاد الناصر إلى عرشه عودته الثانية عام ٧٠٩ هـ . فاستقدم الشيخ من السجن ، وتلطف به ، وأكرمه ، وأطلعه على بعض ما تقدم به إليه أعداؤه من الشكاية رغبة منهم فى استعدائه عليه . ولعل الناصر كان يرمى من وراء ذلك إلى تصريح من الشيخ بالبطش بهؤلاء ، حتى يبطش بهم . ويبدو أنهم ضاعوا مع الجاشنكير ضد الناصر إبان خلعه . فلم يزدْ ابن تيمية على أن هدّأ ثائرة الناصر عليهم ، وتلطف به حتى عفا عنهم . وهكذا تكون أخلاق الرجال . . وقد عجب ابن مخلوف نفسه وقال: « ما رأينا أعفى من ابن تيمية ، لم نبق ممكنا فى السعي عليه . ولما قدر علينا عفا »

٤ — ظل ابن تيمية مطلق السراح بمصر حتى عام ٧١٢ هـ ، فعاد إلى دمشق فى ذلك العام ، فسر الناس بمقدمه . وظل على سجيته ينشر العلم ويعلم الناس . ويؤلف رسائله ويكتب مقالاته . ظل كذلك حتى عام ٧١٨ هـ وكان قد أفتى بأن الطلاق بالثلاث يقع واحدة فقط . (١) فهاج عليه الفقهاء ، حتى أمر الناصر بن قلاوون بمنعه من الفتوى . وكان بعض أنصاره قد نصحه بترك الفتوى بذلك ،

(١) أصبح مقتضى هذه الفتوى أخيرا قانونا رسميا تقضى به المحاكم الشرعية فى مصر .

فلم ينتصح قائلا : لا يسعنى كتمان العلم. ويبدو أن ابن تيمية راعى فى ذلك ، منطق أهل عصر ، إذ هم يطلقون بالثلاث لفظا ، ولا يقصدون منها غير طلقة واحدة. وذلك لجريان الثلاث على اللسان ، وأكثر الناس من العامة والدهماء ، لا يفرقون ولا يميزون . والدين يسر لا عسر ، غايته الكبرى سعادة الناس فيما لا معصية لربهم فيه . والفتوى بواحدة خير على كل حال من اللجوء إلى المحلل . وابن تيمية فى فتواه — كما يقول الثقات أيضاً — لم يخرج عن روح الكتاب والسنة ، وآراء بعض السلف ، غير أنه رجح رأى هـــذا البعض — ولو لم يأخذ به الأئمة — لظروف العصر وحاجة الناس .

وقد عقد لابن تيمية مجلس جديد لمحاكمته وسؤاله عن فتواه فى الطلاق عام ٧٢٠ هـ . وعلى إثره سجن ، فلبث خمسة أشهر وثمانية عشر يوما ، ثم أطلق سراحه يوم عاشوراء عام ٧٢١ هـ .

٥ — وبعد زمن ، صدرت فتواه بتحريم السفر إلى قبور الأنبياء والصالحين قصدا فى زيارتها . وقد تكلم بهذه المناسبة فى مسألة زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور ، وله رسالة قيمة فى هذا الموضوع . وهو يرمى من وراء ذلك إلى رد المسلمين إلى روح الشريعة الصحيحة ، وتعليمهم أنه لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد . ويريد أن يقف حجر عثرة دون الانحدار نحو الوثنية ، فإن من مظاهر الوثنية تقديس القبور والتمسح بها ، والاعتقاد فى الصلحاء والقديسين أن لهم من الأمر شيئا . وهكذا أراد ابن تيمية من فتواه تطهير العقيدة من أوضارها وشياتها .

غير أن القضاة لم تعجبهم هذه الفتوى ، فأفتوا بحبس ابن تيمية بسببها ، فأمر السلطان الناصر بذلك ، فى شعبان عام ٧٢٦ هـ بعد أن سعى أعداؤه لديه بقتله .

كان هذا السجن آخر عهد ابن تيمية بالحرية وبالناس . فقد أقام فى قلعة دمشق من عام ٧٢٦ هـ إلى ليلة الاثنين ٢٠ من ذى القعدة عام ٧٢٨ هـ مسجونا ، ومعه تلميذه الوفى شمس الدين بن القيم . وقد مرض قبل ذلك بنحو عشرين يوما . ثم

وافاه أجله المحتوم فى تلك الليلة المذكورة ، بعد حياة حافلة بالجهاد فى سبيل الله ودينه وكلمته .

وكان فى سجنه مداوما على الكتابة والتأليف . ثم خيف مما يكتبه فمنعوا عنه أدوات الكتابة ، فعكف على الذكر والتلاوة والعبادة والتهجد .

ومات ابن تيمية بعد شغل الناس فى عصره بفتاواه وآرائه ورسائله ومحاكماته. وانبرى للرد عليه علماء أجلاء كتقى الدين بن السبكى .

ومات ابن تيمية ، ولكن هل وضع الموت حدا بينه وبين منازعيه . كلا ! فلم يزل يأتى فى الناس من بعده من يتنقصه ويحمل عليه . كما أنه لم يعدم فى كل جيل عددا من التلاميذ والأتباع ، وهكذا شأن العظماء وقادة الأفكار .

وفاته :

مات عام ٧٢٨ هـ — كما أشرنا — فاجتمع فى جنازته خلق كثير ، وأغلقت حوانيت دمشق ، وصلى عليه عدة مرات . وبكاه الناس باحتفال رهيب ، ودفن بمدافن الصوفية ، أولئك الذين ناوأهم فى حياته .

وقد رثاه بعض أحبابه وعارفى فضله فى الشام ومصر والحجاز والعراق والغرب منهم ابن فضل الله العمرى ، ومحمود بن الأثير الحلبى . وابن الحصرى — ومنهم زين الدين بن الوردى حيث يقول :

عثا فى عرضه قوم سلاط ... لهم من نثر جوهره التقاط
تقى الدين أحمد خير حبر ... خروق المعضلات به تخاط
توفى وهو محبوس فريد ... وليس له إلى الدنيا انبساط

بعض أخلاقه :

كان ابن تيمية مناضلا من الطراز الأول ، وفيا للحق ، صبورا على الأذى ما دام فى سبيل الله . متعففا ، لا مطلب له فى الدنيا ، ولذلك لم يعرف المحاباة ولا المجاملة ، ولا السعى إلى أبواب الرؤساء . ولا التطلع إلى منصب . ولو أراد لسعت إليه الدنيا ، وأغدقت عليه الأموال .

ويبدو لنا أنه كانت به حدة . ونزوع أصيل إلى الهجوم ، لا يبالى فى سبيل ذلك ، وفى سبيل بلوغ غايته ، بأن يجامل صديقا ، أويداهن رفيقا . ومن كان هذا شأنه ، ولد الهيبة لنفسه فى نفوس الناس ، ولكن ولد بجوارها شيئا من الحقد والبغيضة .

قيل إنه فى رجب عام ٧٠٤ هـ ذهب فى جمع من تلاميذه إلى مسجد التاريخ بدمشق . وقطعوا بأيديهم صخرة هناك كانت تزار ويندر لها . فأراح الناس من أحد مظاهر الشرك .

وكان أبو حيان النحوى الأندلسى يحبه ، فلما وفد ابن تيمية على مصر ، تلاقيا وعقدت الصداقة أواصرها بين الرجلين ، حتى لقد امتدحه أبو حيان بأبيات شعرية . ثم تناظرا فى مسائل نحوية ، فاختلفا ، فاحتج عليه أبو حيان بكتاب سيبويه فقال له ابن تيمية : « ما كان سيبويه بنى النحو ، ولا معصوما . بل أخطأ فى « الكتاب » فى ثمانين موضعا لا تفهمها أنت » . فكان هذا الهجوم العنيف سببا فى الفرقة بينهما . حتى إن أبا حيان حمل حملة شعواء على ابن تيمية وعلى آرائه فى تفسير « البحر » ، وفى مختصر « النهر » .

هذا وقد قيل عنه إنه كان قليل المأكل خشن الملبس بلا شذوذ ، كأنه من أواسط الناس حتى لا يلفتهم إليه بملبسه يعود المريض ، ويغيث الملهوف . جريئاً على الملوك ، دخل على غازان ملك التتار ، حينما ظهر بدمشق ووعظه ألا يريق دماء الناس . وقد أطلق غازان بسببه عددا من الأسرى .

وهو على جرأته هذه ، كان جم التأدب فى حضرة من يعترف لهم بالعلم . وقد روى السبكى فى طبقاته — ج ٦ ص ٢٢٨ — فى ترجمة العلاء الباجى ، وهو عالم زمانه . قال : « إن ابن تيمية جلس مرة فى حضرته ، ولم يتكلم بلفظ . والشيخ يقول له تكلم نبحث معك . وابن تيمية يقول له : مثلى لا يتكلم بين يديك . أنا وظيفتى الاستفادة منك . » .

أقوال بعض العلماء فيه :

قال عنه ابن الوردى : « كان لابن تيمية خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ، ومعرفة فنون الحديث مع حفظه لمتونه حفظا انفرد به . وهو عجيب فى استحضاره ، واستخراج الحجج منه — وكان يكتب فى اليوم والليلة من التفسير أو الفقه أو من الأصلين ، أو من الرد على الفلاسفة ، نحوا من أربعة كراريس — وله الباع الطويل فى معرفة مذاهب الصحابة والتابعين . قلّ أن يتكلم فى مسألة ، إلا ويذكر فيها مذاهب الأربعة . وقد خالف الأربعة فى مسائل معروفة ، وصنف فيها ، واحتج لها بالكتاب والسنة وبقى سنين يفتى بما قام الدليل عليه عنده . »

وقال عنه تقى الدين بن دقيق العيد : « رأيت رجلا سائر العلوم بين عينيه ، يأخذ ماشاء منها . ويترك ما شاء ، فقيل له : لم لاتتناظران ؟ . فقال : « لأنه يحب الكلام وأحب السكوت . »

وقال العلامة كمال الدين بن الزملكانى : « كان إذا سئل عن فن من الفنون ، ظن الرائى والسامع أنه لايعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحداً لايعرف مثله . وكان الفقهاء من سائر الطوائف ، إذاجلسوا معه ، استفادوا فى سائر مذاهبهم منه ، ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك . ولايعرف أنه ناظر أحداً ، فانقطع معه ، ولاتكلم فى علم من العلوم ، سواء كان من علوم الشرح أو غيرها ، إلا فاق فيه أهله ، والمنسوب إليه . وكانت له اليد الطولى فى حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين . »

وقال الذهبى : « له خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ، ومعرفة بفنون الحديث ، وبالعالى وبالنازل ، وبالصحيح وبالسقيم ، مع حفظه لمتونه التى انفرد بها . فلا يبلغ أحد فى العصر رتبته ، ولا يقاربه . وهو عجيب فى استحضاره واستخراج الحجج منه ، وإليه المنتهى فى عزوه إلى الكتب الستة ، والمسند ، بحيث يصدق عليه أن يقال : كل حديث لايعرفه ابن تيمية فليس بحديث . ولكن الإحاطة لله . غير أنه يغترف فيه من بحر ، وغيره يغترف من السواقى . » .

وبعد فابن تيمية الكاتب القدير ، والخطيب الموهوب ، وله بجانب هذا شيء من الشعر سنشير إلى شيء منه فى الجزء الثالث .

بعض فتاواه وآرائه ومؤلفاته :

رأينا ابن تيمية عالما حرا مجتهداً . فهو وإن كان مقلدا لمذهب الإمام بن حنبل ، لم يتقيد به فى بعض آرائه وفتاواه ، كما أنه لم يتقيد برأى غيره من الأئمة . فقد رأى — وقد كملت له أدوات الاجتهاد — أنه حرى أن يبدى من الرأى مايشاء ، مما يراه مناسبا وضروريا لحاجة عصره . مادام غير خارج فيما يذهب إليه عن كتاب الله وسنة نبيه ، ورأى السلف الصالح .

ولم يألف الناس ، منذ زمن بعيد ، عالما حرا جريئاً مجدداً صريحا صارم الحجة ، كابن تيمية ، ولم تشهد الطوائف معارضا مناضلا ملحا فى نضاله ومعارضته قوى البرهان ، لا يعرف المهادنة ولا المصابرة ، كابن تيمية . فكان طبيعياً أن يُرمى من أعدائه بكل كبيرة وصغيرة ، وأقرب ما اتهموه به ، الكفر والزندقة . وهى تهمة الجهلاء يوجهونها جزافا إلى العلماء . وكان طبيعياً أن هذا الرجل الذى ملأ آذان الناس بآرائه وفتاواه ، وشغلهم بما جدد من الأفكار ، وشغل العلماء بمناظراته ومحاوراته ، أن يكون له عدد ضخم من الرسائل والمؤلفات ، ولا سيما أنه عُرف بطواعية قلمه وخاطره . فسجل فى مؤلفاته هذه ما ذهب إليه من رأى ، وما أبرزه من فتوى مدعما بحججه وبراهينه .

وقد كتب ابن تيمية أكثر ما كتب فى المعتقدات ومسائل علم الكلام . وفى حديث رسول الله ، وفى تفسير كتاب الله . وأحكام شريعته الغراء ، وذلك على مذهب ابن حنبل ، وإن كان قد خالفه فى بعض آرائه ، وخالف المذاهب الثلاثة الأخرى .

فمن فتاواه التى خالف فيها الأئمة الأربعة :

١ - توريث المسلم من الكافر ٢ - المفطر فى رمضان عمدا ، أو تارك الصلاة

بلا عذر ، لاقضاء عليه ٣ ـ سجود التلاوة لا يشترط فيه وضوء ٤ ـ تقصر الصلاة فى السفر مطلقا ، طويلا كان أو قصيرا ٥ ـ جواز بيع الفضة بالفضة مع التفاضل ، والفضل نظير الصناعة ٦ ـ من أكل فى رمضان معتقدا وجود الليل ، ثم بان أنه النهار ، لاقضاء عليه ٧ ـ إباحة وطء الوثنيات بملك اليمين ٨ ـ الحلف بالطلاق يصح التكفير عنه ٩ ـ طلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة وهى إحدى فتاواه التى جرت علية المحن . وقد ألف فيها كتابه « الفرق المبين بين الطلاق واليمين » . ١٠ ـ تحريم تعمد السفر لزيارة قبور الموتى ، وأن الرحال لاتشد إلا لثلاثة مساجد وهى إحدى فتاواه أيضاً التى جرته إلى السجن .

أما مؤلفاته :

فقد روى منها « جميل العظم » فى كتابه « عقود الجوهر » ، أكثر من مائتى كتاب وفتوى ورسالة وقاعدة . وذكر له كل من جورجى زيدان ومحمد جميل الشطى ، عددا منها . وكذلك كتب تراجمه ، وفى دور الكتب بالقاهرة والمنصورة ودمنهور ، لحسن الحظ عدد كبير منها . وكثير منها مطبوع . ونذكر للقارىء عددا منها على سبيل المثال لا الحصر . فمن ذلك :

فتاوى ابن تيمية : وهو خمسة مجلدات . منتقى الأخبار فى ثمانى مجلدات . الإيمان : وهو من أهم كتبه . الجمع بين العقل والنقل . منهاج السنة النبوية فى نقض الشيعة القدرية . الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان . الواسطة بين الحق والخلق وفى أوله ترجمة للمؤلف . الصارم المسلول على شاتم الرسول . مجموع الرسائل الكبرى . التحفة العراقية فى الأعمال القلبية . تفسير سورة الإخلاص . تفسير سورة النور . معارج الوصول إلى أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول ، ومعه رسالة له فى « المظالم المشتركة » . قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة . تفسير المعوذتين . رسالة فى معنى القياس . رسالة فى الكلام على الفطرة . رسالة فى حكم السماع والرقص . رسالة فى القصاص . رسالة فى مناسك الحج . التبيان فى نزول القرآن . فتوى فى قوله عليه السلام : أنزل القرآن على سبعة

أحرف . العبودية . زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور . الرسالة البعلبكية . الرد على النصيرية . تنوع العبادات . رفع الملام عن لائحة الأعلام . رسالة فى توحيد الله والشرائع وتنوعها وتوحيد الدين الملى دون الشرعى . رسالة فى خلاف الأمة فى العبادات ومذهب أهل السنة والجماعة . الوصية الصغرى فى الدين والدنيا . النية فى العبادات . الرسالة العرشية . الإرادة والأمر . الوصية الكبرى بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وبيان فضل أمته على سائر الأمم . رسالة فى قوله عليه السلام : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد . الاستقامة . مراتب الإرادة . رسالة القضاء والقدر . بيان العقود المحرمة . رسالة فى سنة الجمعة . العقيدة الحموية الكبرى وهى من بواعث محنه . العقيدة الواسطية وكانت أيضاً محل نقاش ومناظرة . الأكاليل المتشابهة والتأويل . المناظرة فى العقيدة . رسالة فى الجواب عن قول القائل : أكل الحلال متعذر لا يمكن وجوده فى هذا الزمان . رسالة تتضمن السؤال عن الاستغاثة برسول الله صلى الله عليه وسلم . الإيمان . الحسبة فى الإسلام . شرح حديث النزول . اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم . بغية المرتاد فى الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية وتعرف «بالسبعينية» بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، وهو فى نقض كلام الشيعة والقدرية ، فى أربعة أجزاء . شرح حديث أبى ذر . شرح العقيدة الاصفهانية . الفتاوى الحديثة . الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح . تعارض العقل والنقل فى أربع مجلدات . شرح العمدة لابن قدامة ، فى الفقه . جواب الاعتراضات على الفتاوى الحموية فى أربع مجلدات . بيان تلبيس الجهمية فى تأسيس بدعهم الكلامية ، فى ست مجلدات ضخمة . المحنة المصرية . المسائل الاسكندرية . الفتاوى المصرية ، فى سبع مجلدات . بيان الدليل على بطلان التحليل ، فى مجلد . تحقيق الفرقان بين الطلاق والأيمان . . . إلى غير ذلك

التعريف ببعض مؤلفاته :

١ — فتاوى ابن تيمية :

من أهم كتب ابن تيمية . تصفحت منه نسخة مطبوعة فى عام ١٣٢٦ هـ ، بمطبعة كردستان بمصر . ويقع فى خمسة أجزاء كبار . ويحتوى على مئات من الفتاوى فى موضوعات مختلفة ، بعضها فى الفقه ، وبعضها فى الأصول ، أو الحديث ، أو التفسير ، أو العقائد ، أو التاريخ أو غير ذلك ، فهو موسوعة علمية عظيمة القدر .

وهذه الفتاوى هى ردود ابن تيمية على بعض ما ورد إليه من الأسئلة فى الدين . جمعها بعض فضلاء العلماء . وقد وضع كل سؤال فى مقدمة الجواب عنه . وأيدت الإجابة — على عادة ابن تيمية — بآيات القرآن والحديث ، وما أثر عن الصحابة والتابعين .

ومن الفتاوى ما هو فى الطهارة والوضوء والتيمم والصلاة وقراءة القرآن . وفى العقائد والأدعية . ومنها فى الحلف والطلاق ، وفى المعاملات . ومنها فى الوقف ، واللقطة ، والوصية ، وأبواب النكاح ، والولاء ، والطلاق ، والعدة ، والرضاع ، إلى غير ذلك .

وقد تخلل الجزء الثالث كتاب مستقل اعتبر ملحقا له ، وهو كتابه « إقامة الدليل على إبطال التحليل » كما أن الجزء الخامس يحتوى على ثلاثة كتب مختلفة فى الفتاوى .

وبعد فهذا الكتاب من أهم كتبه كما ذكرنا ، ويستطيع المطلع الباحث فيه ، أن يكون لابن تيمية منه — بالإضافة إلى ما عُرف من المذهب — مذهبا خاصا .

٢ — اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم :

كتاب مطبوع كذلك فى عام ١٣٢٦ هـ يتحدث عن موضوعات دينية عدة ، أهمها النهى عن التشبه بالكفار . ويحتوى على جملة فصول منها : فصل فيما دل من الكتاب والسنة والإجماع ، على الأمر بمخالفة الكفار ، والنهى عن مشابهتهم

فى الجملة ، ومنها . فصل فى أن ما يشبه الأمر بمخالفة الكفار ، الأمر بمخالفة الشياطين . ومنها : فصل فى دحض الأدلة التى تقول إن شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد شرعنا بخلافه ، اعتمادا على قوله تعالى : « فبهداهم اقتده » وقوله « واتبع ملة ابراهيم حنيفا » . . . الخ .

وقد بين المؤلف فى فصول عدة كيفية المشابهة للكفار وموضعها وزمنها .

والكتاب فى فصوله ، غزير المادة قوى الحجة واضح المنطق جلى الأسلوب ، يدل على علم راسخ وعقل سليم . وقد زوده مؤلفه — على عادته — بالمناسب من الآيات القرآن والأحاديث النبوية ، يستنبط منهما ويستشهد بهما ، وابن تيمية فى هذا الضرب من الحديث فياض العبارة يتدفق تدفق السيل الغامر ، تواتيه حججه أرسالا دون جهد .

٣ — الإيمان :

كتاب مطبوع فى مجلد ، مع كتابه السابق . وموضوعه الحديث عن : الايمان وقد وفى المؤلف الكلام عن كل ما يتصل بمعنى الإيمان فى عدة فصول . منها فى الفرق بين الإسلام والإيمان . الفرق بين الحقيقة والمجاز . مذهب الأشعرى فى الإيمان . الإيمان عند الجهمية وحجج من نصرهم . معنى الإيمان إذا ما قرن بالاسلام والعمل الصالح . معنى الإيمان إذا أطلق فى القرآن والسنة . غلط الجهمية فى الايمان . . . الخ .

وأسلوب الكتاب من الوضوح والقوة والحجة والاستشهاد بالآيات والأحاديث ، على نمط من كتابه السابق . مع تفسير مستشهداته وشرحها .

٤ — الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان :

كتاب صغير ، ولكنه ممتع . خاص بالتفرقة بين أولياء الشيطان ، وتمييز كل فريق عن الآخر . وقد عنى المؤلف فى مقدمة كتابه بإيراد الآيات القرآنية الدالة على وجود كل نوع منهما . كقوله تعالى : إلا إن أولياء الله لاخوف

عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون » . وكقوله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون . »

وقد بسط فى الفصل الأول ، صفات أولياء الرحمن فمنها : التقوى والايمان الكامل بمحمد عليه السلام . وبما جاء به . وبأنه الوساطة بين الله وخلقه فى تمييز حلاله من حرامه . . . إلى غير ذلك .

ودعم ما بسطه بأسلوبه الواضح وحجته المتينة المستمدة من القرآن والحديث . متعرضا لتزييف بعض الأحاديث غير الصحيحة ، مبينا بطلان مزاعم من يدعون الولاية ولا يتبعون محمدا عليه السلام . ودلل على أن أسمى الأولياء هم الرسل والأنبياء : محمد وابراهيم ونوح وموسى وعيسى ، وهم الرسل أهل العزم ، وأسماهم جميعا محمد صلى الله عليه وسلم .

وزيّف من يزعم ولاية أهل الصُّفَّة ، ولو لم يتبعوا الرسول ، بدعوى أنهم فى غنى عن رسالته ، وأنه لم يرسل إليهم . وبين أن أهل الصفة أنفسهم ، كان منهم حقا المؤمن الحسن الإيمان مثل سعد بن أبى وقاص وأبى هريرة . ولكن كان منهم غير ذلك . بل كان منهم من ارتد وقتله النبى عليه السلام .

وأنكر الأحاديث التى يدعى فيها واضعوها أن الأولياء بالشام . وما قيل فى الأبدال والنقباء والنجباء والأوتار والأقطاب وهلم جرا من مدعيات الصوفية . وأبطل قول القائلين بأن النبى له شريعتان : ظاهرة وباطنة .

وتحدث عن أنواع شتى من الإيمان . وقال « فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى » الخ

وقد نفى فى بعض فصوله ، أن يكون المجنون ولياً لله وأن يكون للولى لباس

مخصوص ، أو مظهر مخصوص . ونفى أن يكون الولى معصوما ، وجوّز أن يكون جاهلا ببعض أمور الشريعة .

وأخذ فى بعض الفصول يعرف « الحقيقة » ، وقال إنها شريعة الله رب العالمين ، وأنها دين محمد عليه السلام .

وبعد ، فهذا كتاب ملىء بالحديث عن المسائل الكلامية كالإرادة والأمر والقضاء والإذن ، وفيه تسفيه كثير لمن أدعى الولاية ولا يملك أدواتها من علم أو دين أو استقامة أو خلق ، وفيه حملة على الصوفية ومدعى الوصول . ودحض لشبه الملاحدة والمتفلسفة . إلى غير ذلك .

٥ — الواسطة بين الخلق والحق :

هذه رسالة قيمة ، وإن تكن صغيرة . موضوعها « الوساطة » بين الله والناس . وهى من الموضوعات الهامة التى لاتزال تشغل بال الناس حتى اليوم . كتب ابن تيمية رسالته فيها ردا على مسألة فى هذا الموضوع . ويتلخص رده فيما يأتى :

ا — أثبت أنّ الوساطة بين الله والناس موجودة ، إذا كان المراد منها هذه المخلوقات من الرسل أو الملائكة الذين يبلغون رسالته . وقد قال تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » إلى غير ذلك .

ب — أما الوساطة بمعنى الأشياء التى تجلب النفع وتدفع الضر ، فالاعتقاد بها شرك بالله . فقد قال تعالى : « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون . » . إلى غير ذلك .

ج — وهذا لا يمنع اعتقاد الشفاعة ، لمن أذن الله له تعالى ، لقوله « لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن » . . إلى غير ذلك من الآيات .

د — وإن كان المراد بالواسطة أو الوسائط ، أنهم بالنسبة لله كالحجاب بالنسبة للملوك ، يتقرب الناس إليهم بهم ، لأنهم أقرب الناس إلى الملوك . . فهو كفر بالله

وشرك . والله يرزق الخلق ويقضى الحوائج بغير حاجة إلى هذا الضرب من الوساطة . ومن قال بذلك فهو مشبّه كافر يجب أن يستتاب ، وإلا قُتل .

وقد نزه ابن تيمية الله سبحانه وتعالى عن هذه الوساطة . إذ يُفهم منها أن الله لايدرى من أمر خلقه إلا ما تقدمه له وسائطه . وأنه لايستطيع تدبير خلقه إلا بهم ، وأنه لا يرحم عباده ولا يرزقهم إلا إذا دعوه إلى ذلك . فتعالى الله عن ذلك كله علوا كبيراً .

وقد تكلم ابن تيمية عن شفاعة الرسول عليه السلام ، كلاما مسهبا فأثبتها وبين الفارق بينها وبين الوساطة كما يفهمها العامة وأشباه العامة .

نكتفى إلى هنا بهذا القدر من الحديث عن ابن تيمية وحياته وعلمه . ونقول للمرة الثانية إن من حسن الحظ أن كثيرا من رسائله موجود ومطبوع . والله أعلم .

« ترجمته فى (١) الدرر الكامنة ، (٢) تاريخ ابن الوردى ، (٣) فوات الوفيات ج ١ ص ٤٤ و ٣٥٠ ، (٤) طبقات ابن مفلح ، (٥) شذرات الذهبي وتذكرة حفاظه أيضا ، (٦) مقدمة رسالته « الواسطة بين الخلق والحق » ، (٧) مختصر طبقات الحنابلة للشطى ص ٥٤ ، (٨) جورجى زيدان ج ٣ ص ٢٤٣ (٩) عقود الجوهر لجيل العظم ج ١ ص ١٦٦ ، (١٠) الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ص ٣٤ (١١) تحفة الاحباب للسخاوى على هامش نفح الطيب ص ٣٢ (١٢) الرد الوافر لشمس الدين الشافعى المتوفى عام ٨٤٢ هـ ، (١٣) القول الجلى للسيد صفى الدين الحنفى (١٤) الكواكب الدرية للشيخ مرعى بن يوسف الكرمى . وذكر فيه أن ابن فضل العمرى ترجم لابن تيمية فى مسالك الأبصار . وأن الشيخ سراج الدين أبا حفص البزاز ترجم له أيضا فى كتابه « الاعلام العلية فى مناقب ابن تيمية » ، (١٤) ذكره السبكى فى طبقاته فى أكثر من موضع منها فى سياق ترجمته لوالده ج ٦ ص ١٥٦ وما بعدها ، وفى ترجمة العلاء الباجى ج ٦ ص ٢٢٨ ، (١٥) جلاء العينين بقضاء الدين فى محاكمة الاحمدين : لمؤلفه السيد نعمان خير الدين بن الآلوسي من علماء القرن الثالث عشر الهجرى . »

٥ - أبو الفداء «الملك المؤيد» صاحب حماة ٦٧٢ هـ - ٧٣٢ هـ

مدينة حماة :

بمناسبة الكلام عن هذا الرجل الجليل الشأن، وأعني به الملك المؤيد أبا الفداء اسماعيل العالم المؤلف، الذى اقترن اسمه باسم مدينة حماة، حتى أصبح معروفا بصاحب حماة، نلخص كلمة هنا عن هذه المدينة وتاريخها استطرادا للفائدة [1]. فنقول :

يقال : إن هذه المدينة قديمة، يرجع تاريخها إلى ما قبل ميلاد المسيح بنحو ألفين وخمسمائة عام. إذ سكنها قوم من الكنعانيين الآتين من ناحية الخليج الفارسى يسمون «الحثيين». وكان الكنعانيون المذكورون أربع فرق هم : الإسرائيليون والفينيقيون والعمالقة والحثيون، تغلبوا على الآراميين سكان سوريا الأصليين وتوطنوها. وكان الحثيون أعظم هذه الفرق. وهم الذين أسسوا «حماة» على نهر العاصى، وكذلك مدينة صور وإرواد وقادس وحمص وكركميش «ايرابوليس»، وذلك فى الناحية الشمالية من الشام. وإليها تنسب التوراة جميع هذه البلاد إذ تسميها «حمث».

ودخلت «حماة» فى حكم المصريين مع سائر بلاد الشام، فى عهد تحتمس الأول قبل الميلاد بنحو ١٨٠٠ سنة. ولما نما مُلك الآشوريين، خضعت «حماة» لسيطرتهم مرارا. وتغلب الآشوريون على الحثيين، وأبادوهم حوالى سنة ٧١٧ ق.م. وانتشر فى حماة من بعدهم، عدد من الآراميين سكان دمشق الأولين المنسوبين إلى سام. فتكون جيل جديد فى حماة من بقايا الحثيين ومن الآراميين والآشوريين، الممتزجين جميعا معا. وخضعت حماة من بعدُ، لحكم الاسرائيليين ثم المصريين. وهكذا، حتى ملكها الأسكندر المقدونى قبل الميلاد بنحو ٣٣٢ سنة. ثم ملكها ملك سوريا «سلوقلس»، حوالى سنة ٣١٢ ق.م. وبنى قلعتها.

---

(١) راجع كتاب «تاريخ حماة» لأحمد بن ابراهيم الصابونى.

ثم استولى عليها الرومان سنة ٦٤ ميلادية . ثم ملكها العرب ودخلها الإسلام سنة ١٨ هجرية . ثم تداولتها حكومات العرب . ودخلت فى حكم السلاچقة من بعد . ثم تبعت ملك دمشق « طغتكين » . وصارت بين هذين حتى حكمها « نورالدين محمود ابن زنكى » عام ٥٤١ هـ . فجددها . ثم حكمها فى جملة بلاد الشام صلاح الدين الأيوبى عام ٥٧٠ هـ ، فأصبحت تابعة لمصر من ذلك الحين . وولى أمرها أحد أمراء الأيوبيين وهو ابن أخى صلاح الدين ، وسمى « الملك المظفر » . ثم ورثه فيها أبناؤه ، واتسع نطاقها الإدارى . ولما آل الحكم إلى سلاطين المماليك المصريين ، انضوت تحت لوائهم ، وجعلوها نيابة من نياباتهم ، وبعثوا إليها بأمرائهم : الأمير تلو الأمير ، نوابا عنهم . وصارت لها إداة مستقلة ، كأنها مملكة تابعة . ومن بين نوابها فى ذلك الحين عدد من أبناء المظفر الأيوبى ومنهم « الملك المؤيد أبو الفداء اسماعيل » .

وظلت حماة تابعة لمصر كبقية نيابات الشام ، حتى دخلت الشام ومصر فى حكم العثمانيين . ثم آل حكم الشام إلى الفرنسيين على ما هو معروف .

وحماة كثيرة الخيرات جمة المبانى والمؤسسات ، أنجبت كثيرا من المبرزين فى أدوار حياتها المختلفة . منهم : أبو الفداء . ومنهم بدر الدين بن جماعة . وشيخ الشيوخ عبدالعزيز الأنصارى . وتقى الدين بن حجة الحموى . وأفراد أسرة البارزى . وغيرهم.

الملك المؤيد أبو الفداء اسماعيل :

هو عماد الدين صاحب حماة . ابن السلطان الأفضل نورالدين أبى الحسن على ابن السلطان الملك المظفر تقى الدين أبى الفتح محمود ، ابن السلطان المنصور محمد ، ابن السلطان المظفر تقى الدين عمر ، ابن شاهنشاه بن أيوب بن شادى ، وأيوب هذا هو والد السلطان صلاح الدين الأيوبى .

لما ملك صلاح الدين الأيوبى بلاد الشام ، أناب عنه فى مملكة حماة ابن أخيه ، وهو المظفر عمر بن شاهنشاه . وتلقب بالملك . وورث مملكته من بعده على التوالى

ابنه الملك المنصور محمد بن عمر . ثم ابن المنصور هذا ، وهو الملك الناصر قلج أرسلان بن محمد ثم الابن الثانى للمنصور ، وهو أخو الناصر . واسمه الملك المظفر محمود بن محمد . ثم ابن المظفر محمود ، وهو الملك المنصور محمد . بدأ حكمه صغيرا عام ٦٤٢ هـ . وفى عهده خرّب هولاكو ، التترى بلاد الشام ، واستسلم له أهل حماة . ففر ملسكها المنصور محمد إلى مصر ، وكان الحكم فيها قد انتقل إلى سلاطين المماليك . وكان ملسكها إذ ذاك المظفر قطز . فأعد العدة للقاء التتار . وسار إليهم ومعه المنصور محمد فهزمهم فى بلاد الشام ، وأعاد المنصورَ محمدا إلى مملكته حماة . وجعله نائبا عليها من قبله . فظل فى منصبه نحو إحدى وأربعين سنة حتى عام ٦٨٣ هـ . فأقام المنصورُ قلاوون ملكُ مصر ، ابنَ المتوفىَّ ، ملكا على حماة مكان أبيه ، وهو الملك المظفر محمود . فلبث حتى توفى عام ٦٩٨ هـ . فرأى سلطان مصر أن يُعين أحد أمرائه نائبا على حماة . وبذلك انقطع ملك هؤلاء الأيوبيين عن حماة . وتولاها أمراء من المصريين حتى كانت سنة ٧١٠ هـ ، فى هذه السنة مات نائب حلب الأمير سيف الدين قبجق . وكان نائب حماة الأمير استدمر ، ولم تكن له رغبة فى الانتقال منها . ولكن سلطان مصر إذ ذاك ، الناصر محمد بن قلاوون ، نقله إلى حلب ، وعين مكانه فى حماة ، أبا الفداء اسماعيل مترجمنا ، وهو من بقايا الأيوبيين .

كان أبو الفداء ، قبيل هذا ، مقيما بدمشق . ثم انضم إلى الملك الناصر محمد وقت مُقامه فى الكرك معزولا ، وبالغ فى العناية به وخدمته . فوعده الناصر بنيابة حماة ، إذا عاد إلى الملك . فلما عاد وفى له بذلك ، وعينه نائبا عنه بها ، وذلك عام ٧١٠ هـ . ومنحه لقب سلطان وملك ، وجعلها مملكة له ، كما كانت فى عهد أسلافه . وهكذا عادت حماة إلى سلالة الأيوبيين ، بعد ما قبضت عنهم قرابة اثنى عشر عاما .

قيل : « وجعله سلطانا يفعل فيها ما يشاء ، من إقطاع وغيره . وليس لأحد من الدولة بمصر من نائب ووزير معه حكم . وأركبه فى القاهرة بشعار الملك وأبهة السلطنة ، ومشى الأمراء والناس فى خدمته ؛ حتى الأمير سيف الدين أرغون

النائب . وقام له القاضى كريم الدين بكل ما يحتاج إليه فى ذلك المهم من التشاريف والإنعامات على وجوه الدولة وغيرهم . ولقبوه الملك الصالح ثم بعد قليل لقبه الملك بالمؤيد .

وكان كل سنة يتوجه إلى مصر بأنواع من الخيل والرقيق والجواهر وسائر الأصناف الغريبة . هذا إلى ماهو مستمر طول السنة بمايهديه من التحف والطرف .

وتقدم السلطان الملك الناصر إلى نوابه ، بأن يكتبوا إليه : « يقبل الأرض » . وكان الأمير سيف الدين يشكر ، رحمه الله تعالى يكتب إليه « يقبل الأرض » . و « بالمقام العالى الشريف المؤيدى السلطانى الملكى المولوى العمادى » . وفى العنوان « صاحب حماة » . ويكتب إليه السلطان الناصر « أخوه محمد بن قلاوون » و « أعز الله أنصار المقام الشريف العالى السلطانى الملكى المؤيدى العمادى — بلا مولوى » .

وهذه المخاطبات كلها تدل على تعظيمه ، وعلى ماله من الحرمة فى نفوسهم . وقد لبث فى منصبه هذا حتى مات عام ٧٣٢ هـ . فى سن الستين تقريبا . وخلفه ابنه الأفضل فى ملكه . وبقيت مملكة حماة فى عقبه زمنا ، ثم تقلص ظلها عنهم وعادت نيابة كما كانت .

بعض أخباره :

أبو الفداء — كما شهدنا — من بقايا الأيوبيين حكام حماة . ولما أخذ سيل التتار يتدفق على هذه المملكة ، فر أهله إلى دمشق . وفى هذه المدينة ولد أبو الفداء فى شهر جمادى الأولى عام ٦٧٢ هـ ، بدار النجيلى .

ولما عاد مُلك حماة إلى أسرته ، عاد معها ، وترقى فى سلك الإمارة حتى صار أمير عشرة عام ٦٩٠ هـ فى عهد ملكها المظفر محمود . واشترك مع الجنود المجتمعة لفتح عكا ، يوم أن حاصرها سلطان مصر الأشرف خليل بن قلاوون وفى عام ٦٩٢ هـ ، ترقى أمير طبلخاناة « أمير أربعين فارسا » . واشترك عام ٦٩٧ هـ ، مع جنود المظفر ، فى فتح بلاد الأرمن زمن المنصور لاچين ، سلطان مصر .

ولما انقطعت نيابة حماة عن بقايا الأيوبيين أجداد المؤيد ، ظل هو فى خدمة

نائبها الجديد الأمير « قراسنقر » . ومع ذلك لقى من هذا الأمير بعض الحيف .

ثم آل أمره أخيراً إلى أن صار نائبا للناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر ، على حماة ، عام ٧١٠ هـ

ولما عُين فى نيابة حماة . نقل منها نائبها « استدمر » . وكان ذلك على الرغم منه ، ورفض الانتقال منها ، وكادت الحرب تقع بين الأميرين بسببها . لولا أن قدمت نصيحة إلى استدمر بالإقلاع عن هذه المشاحنة ، والانصياع لأوامر السلطان — على أن استدمر حاول ، من بعد ، أن يكيد للمؤيد ، فلم يفلح .

استقل المؤيد بنيابته ، فطلب إلى الناصر بن قلاوون ، أن يفد عليه فى مصر ، فأذن له .

خرج المؤيد من حماة فى مستهل شوال عام ٧١٠ هـ ، فبلغ القاهرة ولقى السطان ، فى أول القعدة ، وقدم إليه الهدايا الحافلة ، ولبث مدة فى جواره ، ثم عاد من لدنه مكرما . فبلغ حماة فى الثلاثاء السابع من ذى الحجة من نفس العام .

وفى عام ٧١٢ هـ ، وفد ثانية على مصر . فخرج من حماة يوم الأثنين ١٨ ربيع الأول ، فلقى السلطان فى ١٠ ربيع الآخر ، وقدم هداياه إليه فأكرمه السلطان وخلع عليه وأعطاه ثلاثين ألف درهم وقطع أقمشة وفرسا مطهمة . وكتب له تقليداً بولاية حماة والمعرة وبارين . ثم خرج من القاهرة يوم الثلاثاء ٢ جمادى الأولى عام ٧١٢ هـ مارا بدمشق ، فبلغ حماة فى نفس الشهر وقرىء تقليده على الناس . . وبعد قليل خرجت المعرة من إدارته ، وضمت إلى حلب ، بسبب طمع أمرائها فى المعرة ، بل وفى حماة نفسها . وثار نزاع بسبب ذلك . فنزل المؤيد عن المعرة حسما له . وذلك عام ٧١٣ هـ .

وفى نفس العام استأذن المؤيدُ سلطانَ مصر الناصر فى الذهاب إلى الحج . فأذن له وأهدى إليه ألف دينار . فخرج من حماة فى ١٤ شوال على الخيل والبغال حتى الكرك . ثم ركب الجمال منها إلى المدينة سابقا ركب المحمل الشامى . فزار ثم

يمم مكة وأدى فريضة الحج وعاد إلى حماة فى ١١ المحرم عام ٧١٤ هـ، وزار فى طريقه مدنا عدة. وهذه هى حجته الثانية. — أما حجته الأولى فكانت عام ٧٠٣ هـ أيام أن كان أميرا.

وقد سافر إلى مصر مرة أخرى عام ٧١٥ هـ فبلغ القاهرة مساء الأحد ١٨ جمادى الأولى، فلقى السلطان ولقى لديه ما تطيب له نفسه من الإكرام. وأعاد إليه مدينة المعرة، وكتب له تقليدا بذلك. ومدحه بهذه المناسبة كاتب الإنشاء شهاب الدين الحلبى بقصيدة ذكر فيها كرم السلطان، وعود المعرة إلى المؤيد ومن هذه القصيدة:

بك تزهى مواكب وأسرة ولك الشمس والقواضب أسرة

وبأيامك التى هى روض للأمانى تجنى ثمار المسرة

بك كل الدنيا تهنى ويضحى قدرها عاليا وكيف المعرة

ثم عاد إلى حماة ويداه مملوءتان بالأعطيات الوفيرة والمنح الكثيرة عام ٧١٥ هـ. ولكن ما لبثت المعرة أن خرجت من يده مرة أخرى فى ذى القعدة من العام المذكور.

وخرج فى عام ٧١٩ هـ صحبة سلطان مصر الناصر إلى الحج. فقدم أولا إلى مصر فى أواخر شوال، وظل بها حتى خرج فى ركب السلطان. ثم عاد معه إلى مصر. وحينئذ منحه السلطان الناصر لقب «سلطان»، وأركبه بشعار السلطنة. ويفهم من هذا أنه كان إلى عام ٧١٩ هـ نائبا فقط. ثم عاد إلى حماة ودخلها صباح السبت ٢٦ المحرم عام ٧٢٠ هـ.

وقد زار مصر زورة أخرى عام ٧٢١ هـ ثم عاد إلى حماة. وزارها مرة عام ٧٢٢ هـ وزار الأهرام بصحبة السلطان وعاد عام ٧٢٣ هـ وزارها مرة أخرى عام ٧٢٤ هـ وعاد عام ٧٢٥ هـ وزارها مرة أخرى فى عام ٧٢٧ هـ ليشترك فى الصيد مع السلطان.

وقد تردد المؤيد على مصر مرارا . وكان فى كل مرة يجد ما تطيب له نفسه من إكرام السلطان واحتفائه به وهداياه له . كما كان يتقدم إلى السلطان هدايا عدة ثمينة فى كل مرة . وكان يشترك بجنوده فى الحروب حسب أمر الناصر محمد .

ومما يذكر هنا أن المؤيد حينما كان يتناول سيرة الملك الناصر محمد ويذكر حروبه وتنقلاته ، وذلك فى كتاب تاريخه « المختصر » كان يعبر عنه بأرق الألفاظ وأعذبها وأكثرها إشعارا بالحب والتعظيم .

علمه وأخلاقه :

يتضح من سيرة هذا الرجل أنه كان وديع الأخلاق جم التواضع . ولذلك أحبه من حوله وكرّمه عارفوه ، وعلى رأسهم سلطان مصر العظيم الشأن الناصر ابن قلاوون . ولا يخلو مثله من دهاء وتحيل ، لحفظ هذه المنزلة العظيمة التى بلغها وفضل بها سائر نواب الدولة ، حتى صار سلطانا وملكا . وهذه الحالة كان من الطبيعى أن تخلق له بعض الأعداء الغيورين الحاسدين . غير أن ثقة الناصر به وحبه له لسابقة يده عنده ، كانت تدرأ عنه نتائج الغيرة وعواقب الحسد .

ويظهر أن وداعته وتواضعه ، ودهاءه وتحيله فى هـــذه الدولة الشاسعة الأطراف التى تعج بالطامعين المتنابذين من الأمراء ، حتى استطاع أن يستديم لنفسه منصبه قرابة ثنتين وعشرين سنة ، وهى مدة قل أن ترى أميراً من هؤلاء الأمراء احتفظ بمركزه الممتاز فى مدة تساويها . — أقول إن هذه الأخلاق لابد أن اكتسبها من ممارسته للعلم ومن حبه للاطلاع ومن ولعه بالأدب . فقد اشتهر هذا الرجل بحبه للعلم والأدب ، وعطفه على العلماء والأدباء ، وإحاطة نفسه بعدد منهم يشجعهم ويعينهم ، وإنه ليعيد إلى الذاكرة فى هذا العصر الكردى التركى صورا من أمراء العرب فى العصور الماضية ، ممن يُراحون للشعر ، ويهتزون للأدب ، ويهيمون بالنوادر الطريفة ومجالس العلم .

ومما يذكر أنه آوى إليه « أمين الدين الأبهرى [١] » ، فاقام عنده ورتب له ما يكفيه . وأقام فى كنفه ردحا طويلا أمير شعراء عصره جمال الدين بن نباتة المصرى ورتب له كذلك ما يكفيه . ولما أقام ابن نباتة فى دمشق رتب له كل سنة ستمائة درهم غير مايتحفه به من الهدايا . وكان ابن نباتة يخرج معه أحيانا للصيد . وله فيه وفى ابنه الأفضل قصائد مدح طنانة خالدة أبقت ذكرى هذا الملك عاطرة مؤرجة . — وكذلك فعل مع الشاعر صفى الدين الحلى فقد رتب له مثل مارتب لابن نباته . ولصفى الدين فيه أمداع أخرى . وتجد هـــذه القصائد فى ديوانى الشاعرين : [٢]

ومما شغل به تعمير مدينة حماة وإنشاء الرباع والحمامات والمؤسسات المختلفة بها . وبنى بظاهرها « جامع الدهيشة » وزوده بمكتبة حافلة .

واشتغل الملك المؤيد بعلوم عدة . وله فيها مؤلفات ذات أثر وقيمة . كما اشتغل بالأدب ونظم الشعر وله فيه أبيات رائقة . كما كان ولوعا بالرحلات والطواف ، زار مصر مرارا وطوف كثيرا فى آفاق بلاد الشام وزار القدس وبارين وبعلبك والكرك وبيروت وغيرها .

قيل : « وكان الملك المؤيد فيه مكارم وفضيلة تامة من فقه وطب وحكمة وغير ذلك . وأجود ما كان يعرفه علم الهيئة لأنه أتقنه وإن كان قد شارك فى سائر العلوم مشاركة جيدة » .

ويفهم من سيرته أنه كان مشاركا فى الفقه الشافعى ، وإن لم يبرز فيه تبريزا يُعده من فقهائه . وكان مشاركا كذلك فى النحو والأدب ونظم الشعر . وكان كثير النظر فى كتب التاريخ محبا له ، ولذلك ألف كتابه النافع « المختصر » . وكان ذا علم

---

(١) أمين الدين الأبهرى ذكره ابن حجر فى الدرر . رحل بعد موت أبى الفداء إلى حلب ومات بها عام ٧٣٣ هـ . وذكر بعض المراجع أنه أثير الدين الأبهرى ولكن أثير الدين هذا توفى عام ٦٦٣ هـ وهو مؤلف إيساغوجى وهداية الحكمة ، راجع جورجى زيدان ج٣ ص ١٠٥ .

(٢) انظر ترجمة الحلى وابن نباتة ، وشعرهما فى المؤيد ، فى الجزء الثالث من كتابنا هذا .

محمود بتقويم البلدان ، فألف كتابه فيه . هذا كله فوق ما عُرف عنه من ميله إلى الطب ومعاطاته . ويحكى عنه أنه: « توجه فى بعض السنين إلى مصر ومعه ابنه الملك الأفضل محمد . فمرض ولده وجهز إليه السلطان الناصر ، الطبيب ، جمال الدين ابن المغربى ، رئيس الأطباء . فكان يجىء إليه بكرة وعشية فيراه ، ويبحث عنه فى مرضه ، ويقدر الدواء ويطبخ الشراب بيده فى دست فضه — أى المؤيد يصنع هذا — فقال له ابن المغربى : ياخوند ! والله ما تحتاج إلىّ وما أجىء إلا امتثالا لأمر السلطان . ولما عوفى ، أعطاه بغلة بسرج وكنبوش مزركش وأقمشة وعشرة آلاف درهم والدست الفضة . وقال يا مولاى ! اعذرنى فإنى لما خرجت من حماة ما حسبت مرض هذا الابن » .

وهكذا كان الرجل خيرا محسنا بجانب علمه وأدبه . وقد قيل إنه لما حانت منيته فرّق بعضا من كتبه على أصحابه ووقف البعض الآخر .

ولما مات المؤيد رثاه الشعراء وفى طليعتهم ابن نباتة والصفى الحلى . ومطلع قصيدة ابن نباتة .

ما للندى لا يلبى صوت داعيه أظن أن ابن شادى قام ناعيه
ما للرجاء قد استدت مذاهبه ما للزمان قد اسودت نواحيه

شعره :

قلنا إنه كان شاعرا ، سماعا للشعر ، مثيبا للشعراء ، فيه أريحية أدبية كانه سيف الدولة بن حمدان العربى . وشعره متوسط الجودة رقيق اللفظ واضح المعنى قليل التكلف تشوبه أحيانا أخطاء لغوية أوضرورات شعرية . يقوله فى أغراض نفسية كغزل أو شكوى ومنه قوله فى التشوق :

اقرأ على طيب الحيـــا ة سلام صب مات حزنا
واعـــلم بذاك أحبة بخل الزمان بهم وضنا
لو كان يشرى قربهم بالمـال والأرواح جـــدنا
متجرعا كأس الفرا ق يبيت للأشواق رهنا

صب قضى وجدا ولا يقضى له ما قد تمنى

* * *

ومن موشحة له يعارض بها موشحة ابن سناء الملك .

عسى ويا قلما تفيد عسى أرى لنفسى من الهوى نفسا
مذبان عنى من قد كلفت به قلبى قد لج فى تقلبه
وبى أذى . شوق عاتى ومدمعى يوم شاتى
لا أترك اللهو والهوى أبدا وإن أطلت الغرام والفندا
إن شئت فاعذل فلست أستمع أنا الذى فى الغرام أتبع
وتحتذى . صباباتى وتدعينى . عاداتى
بى ملك فى الجمال لا بشر يُظلم إن قيل إنه قمر
يحسن فيه الولوع والوله وعز قلبى فى أن أذل له
خذى حذا . أن يأتى ويرتعى حشاشاتى

مؤلفاته :

له مؤلفات هامة تعتبر مراجع فى بابها ولا سيما « المختصر » و « التقويم » وقد اهتم بها الأجانب وترجموهما إلى عدة لغات . فمن مؤلفاته :

١ — المختصر فى أخبار البشر : وهو فى التاريخ العام . وهو المعروف بتاريخ أبى الفداء . ٢ — تقويم البلدان : وهو فى الجغرافيا ووصف الأقاليم . ٣ — الكناش : وهو فى النحو ، فى عدة مجلدات ٤ — نظم الحاوى : وهو فى فقه الشافعية . ٥ — كتاب الموازين . ٦ — التبر المسبوك فى تواريخ الملوك : به أخبار عن السلاجقة وسلاطين المماليك فى مصر والشام . ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية . ولنتكلم الآن عن بعض هذه المؤلفات .

١ — المختصر فى أخبار البشر :

كتاب مشهور متداول بين رواة التاريخ ومحبيه . طبع منذ أمد . تصفحته وهو

فى أربعة أجزاء مختصرة . وهو فى التاريخ العام من بدء الخليقة إلى عام ٧٢٩ هـ . — وقد ألحق به تذييل فى الجزء الرابع نقلا عن كتاب زين الدين عمر بن الوردى المعروف « بتتمة المختصر » وهذا التذييل من سنة ٧٣٠ هـ إلى سنة ٧٤٩ هـ . أما « التتمة » نفسها فمن سنة ٧٠٩ هـ .

وكتاب المختصر شبيه بكتاب بدائع الزهور لابن إياس وشبيه ببعض كتب التاريخ الأخرى التى وُضعت فى هذا العصر ، من ناحية سرد حوادث كل عام على حدة ، مع ذكر ما يتصل بهذا العام ، من تعيين ولاة أو عزل عمال أو تنصيب قضاة أو نحو ذلك . وكذلك وصف حالة النيل أحيانا ، ووصف النواحى الاجتماعية أحيانا أخرى .

وقد عُنى المؤلف بإيراد حوادث مصر ، وحوادث الدول المعاصرة لها كل عام متتابعة ، وكل حادث منها تحت عنوان خاص . وكتاب « العبر » لابن خلدون شبيه بكتاب « المختصر » من هذه الناحية .

وقد صرح المؤلف فى مقدمة كتابه أنه رتب حوادثه على السنين حسب تاليف « الكامل » لابن الأثير . — واعتمد كذلك على كتب كثيرة نقل عنها . ولكنه قل أن نسب إليها فى صلب كتابه شيئا ، بل أغفلها مكتفيا بالنص عليها فى مقدمة الكتاب . ومنها : الكامل لابن الأثير الجزرى . تجارب الأمم لابن مسكويه . وكتاب البيان لأبى عيسى أحمد بن على المنجم . والتاريخ المظفرى للقاضى شهاب الدين بن أبى الدم الحموى . ووفيات الأعيان لابن خلكان . وتاريخ اليمن لعمارة اليمنى . وغير ذلك .

وقد قسمه إلى مقدمة وخمسة فصول .

أما المقدمة فتتضمن ثلاثة أمور : تكلم فى الأمر الأول عن اختلاف التواريخ القديمة وضرب الأمثلة لذلك . وتكلم فى الأمر الثانى عن معرفة نسخ التوراة الثلاث وهى السامرية والعبرانية واليونانية . وبين ما فى تواريخها من متناقضات . وقد اعتمد

المؤلف التوراة اليونانية ، وقال إنها هى التى اختارها المؤرخون . وليس فيها مايقتضى الإنكار من جهة الماضى من عمر الزمان .

وعرض فى الأمر الثالث ، جدولا طريفا ، يتضمن التواريخ المشهورة ، والمدة بين كل تاريخ منها وآخر . وبين فيه الفروق الزمنية بين الأحداث التاريخية العظمى ، كهبوط آدم ، والطوفان ، ومولد ابراهيم ، ووفاة موسى ، وابتداء ملك بختنصر ، وغلبة الأسكندر المقدونى ، وظهور أغسطس على كليوبترا ، وحكم دقليديانوس ، ثم الهجرة .

وقد حقق هذه الأمور تحقيقا نافعا ، يدل على خبرة وروية ودراية وحسن نظر . ونحن وإن أهمتنا النتائج التى وصل إليها ، يهمنا فيها حبه للبحث والموازنة ، وتحرى الدقة ، وبغية الوصول إلى الصواب .

أما الفصول : فالأول فى التواريخ القديمة وذكر الأنبياء ، وحكام بنى اسرائيل ، والثانى فى ملوك الفرس وما يتصل بهم . والثالث فى فراعنة مصر وملوك اليونان والروم والقياصرة . والرابع فى ملوك العرب قبل الإسلام فى الحيرة واليمن أو الشام أو غيرها . والخامس فى ذكر أمم العالم ، وهو أوسع فصوله استغرق أكثر الجزء الأول والأجزاء الثلاثة الأخرى .

وقد أورد المؤرخ حوادث السيرة النبوية فى الفصل الخامس ، وسلسلة حوادث دول العرب منذ عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى نهاية الدول العباسية . متتبعا أخبار مصر ودولها ودول التتار والمماليك لعهده حتى سنة ٧٢٩ هـ . كما ذكرنا . وذكر فى سياق حديثه تواريخ الدول المعاصرة كبلاد اليمن والمغرب والأندلس وغيرها .

ولا ريب أن ما أورده المؤرخ من حديث عن العصور القديمة البائدة ، اعتمد فيه على كتب التاريخ السالفة الذكر . أما الجزء الأخير الذى عاش فيه ، فإنه أرخه تأريخ شاهد سامع مبصر مشترك فى حوادثه . لذلك يعد فى هذا الجزء مرجعا من خير المراجع وأدقها .

ولاننس أن نذكر أنه أورد فى سياق الحوادث ميلاد كثير من العلماء والأفذاذ ووفاتهم ، ويعتبر أحد المراجع فى ذلك أيضاً . وقد اهتم كثير من المؤرخين بهذا الكتاب . وقال عنه جورجى زيدان : « ولهذا الكتاب منزلة رفيعة عندعلماء أوربا وهو من أقدم كتب التاريخ الإسلامى التى اهتموا بنشرها وترجمتها . »

أسلوبه :

أسلوب المختصر سهل لطيف رقيق واضح قليل الاستطراد قريب المأخذ ، متوسط الجودة نادر العامية ، قليل الابتذال ، حديث مسرود لا تكلف فيه ، قل أن سقط إلى مستوى العامية ، كما سقط من بعده بعض المؤرخين . لا يلتزم البديع إلا لماما . وقد يستطرد إلى ذكر حوادث أدبية طريفة يروى فيها بعض المنثور أو المنظوم . وهكذا ترى ما لهذا الكتاب من أهمية فى التاريخ والأدب .

هذا وقد ألف أبو الفداء كتابه « المختصر » ، وذكر فيه الحوادث حتى أواخر عام ٧٢٩ هـ ، ولبث يتحدث فيه عن نفسه وعن تنقلاته وأعماله . ويقول مثلا : وصل إلىّ . وسافرتُ ، وتوجهتُ . الخ

وقد طبع الكتاب ، وزيدت عليه حوادث أواخر عام ٧٢٩ هـ إلى أواخرعام ٧٤٩ هـ ، نقلا عن كتاب « تتمة المختصر » لابن الوردى ، الذى اختصر فيه كتاب أبى الفداء ، وذيّل له .

وقد صرّح ابن الوردى فى « التتمة » أن أبا الفداء وقف فى « مختصره » عند أواخر سنة ٧٠٩ هـ ، — فيما علم — ، ولهذا وضع تتمته على المختصر ، من أواخر سنة ٧٠٩ هـ ، إلى أواخر عام ٧٤٩ هـ .

ويبدوأن أبا الفداء أكمل مختصره حتى عام ٧٢٩ هـ ، ولم يطلع عليه ابن الوردى ، وعثر عليه الناشرون فأضافوه ، فأصبح كتاب المختصر كاملا .

٢ — تقويم البلدان :

طبع هذا الكتاب بأشراف المستشرق رينود ، والبارون ماك كوكين دى سلان فى باريس عام ١٨٤٠ م

تصفحت منه نسخة بمكتبة بلدية الإسكندرية، على ورق جيد وبحروف واضحة، وإن كانت من النوع القديم .

وقد قدمه المؤلف بمقدمة وجيزة بين فيها الدافع له على تأليفه، فقال: « لما طالعت الكتب المؤلفة فى البلاد ونواحى الأرض من الجبال والبحار وغيرها لم أجد فيها كتابا موفيا بغرضى » ثم تعرض لذكر عدة من هذه المؤلفات وبين نواحى النقص فيها . ومنها ما لم يذكر الطول والعرض ومنها ما لم يضبط الأسماء ولم يبين الطول والعرض . ومن بين هذه الكتب : كتاب ابن حوقل وفيه صفات البلاد ولم يضبط فيه الأسماء ولم يذكر الأطوال ولا العروض . ومنها كتاب الشريف الإدريسى فى الممالك والمسالك ، وكتاب ابن خرداذبة ، وهما مثل ابن حوقل فى كتابه . ومنها كتاب الأنساب للسمعانى . والمشترك لياقوت الحموى . وكتاب مزيل الارتياب عن مشتبه الأنساب، وكتاب الفيصل ، كلاهما لأبى المجد اسماعيل ابن هبة الله الموصلى ولم يتعرض لتحقيق الأطوال والعروض . الخ . . فأحب المؤلف أن يجمع فى كتابه هذا ما تفرق فى الكتب المختلفة مع ضبط الأسماء وذكر الأطوال والعروض . ولم يدع الإحاطة .

وقارىء الكتاب يشعر شعوراً جليا بعدة أمور، منها : دقة المؤلف فى التعبير عن الحقائق العلمية المعروفة فى عهده ، دقة تُشعر أيضاً بالحُنكة وحسن الفهم واكتمال الملكة العلمية . ثم يشعر بإحاطة المؤلف بكل ما يختص بموضوعه مع عنايته بالتحقيق والضبط . هذا إلى أنه بغير شك ، قد تقدم علم التقويم فى زماننا تقدماً كبيراً جداً وأحاط بالكثير من المجهولات ، ووصل إلى الكثير من القوانين ، فأحدث ذلك تغيراً فى النظريات القديمة . فإذا كان المؤلف أورد ضروبا من هذه النظريات والقوانين والتقاسيم ، فليس ثمت ما يؤخذ به ، ولا غبار عليه ، فهو لسان عصره ، وكتابه مرآة له، وأحد الحدود التى بلغها علم التقويم فيه من تقدم ورقى . ومع هذا كله ، فلا يزال عدد كبير من نظرياته صحيحا . فمن النظريات الصحيحة كروية الأرض

والبراهين عليها . ونقص أيام السائر نحو المغرب عن أيام السائر نحو المشرق ، وحديثه عن خط الاستواء والجهات المسكونة من الأرض فى حينه . وبلوغ الشمس منزلة الأوج وهى عمودية على مدار الجدى ، ومنزلة الحضيض وهى عمودية على مدار السرطان . وكلامه عن البحر المحيط إلى حدٍ ما وغير ذلك . ومن النظريات التى تطرق إليها الوهن، قصر العمار على الأقاليم السبعة ، لأن أمريكا لم تكن كشفت إلى ذلك الحين . كما قد تغيرت أسماء كثير من الأماكن ، مدنا وبحارا وخلجانا الخ . وكذلك تغيرت طريقة التحديد وقياس الأطوال الآن عنها فى الزمن القديم . والمعلومات الجغرافية إلى ذلك الحين ، كان يتنابها — إلى حد ما — الحدس والتخمين . فلم تكن كلها وليدة المشاهدة والرحلة . ومما تغير بلاشك، ماكان يُزعم عن منابع النيل وفيضانه ، وهنا نقول إن المؤلف قال عنه « ومبتداه وأوله الخراب الذى هو جنوب خط الاستواء ، ولذلك تعسر الوقوف عليه ، ولم يتصل بنا من أخباره إلا ما نقل عن اليونان ونسب إلى بطليموس، أنه ينحدر من جبل القمر من عشرة مسيلات منه ، بين كل نهر منها والآخر درجة فى الطول » الخ . ويعجبنا من المؤلف أنه لم يتورط بكثرة الكلام عن النيل، واعترف بقلة ما اتصل به من أخباره، إلا ماروى عن اليونان . ثم إن ما رواه عن النيل قليل، وهو دليل على قصر المعلومات عن هذا النهر الكبير فى ذلك الحين — هذا كله فى المقدمة . ثم تحدث المؤلف عن بعض النواحى المعمورة واصفا وصفا إقليميا فيذكر الحدود والبلاد المتاخمة ، والأنهار والجبال والمدن والنواحى المختلفة ، والأجناس واللغات أحياناً ، إلى غير ذلك، ضابطا الأسماء ضبط اللغويين، مستطرداً أحياناً إلى بعض الطرائف التاريخية، معقبا على شروحه واستطراداته ، بجداول مقسمة ، يذكر فيها أسماء الجهات والمدن، وأمامها عروضها وأطوالها ، وضبطها بالحروف على نمط ضبط ابن خلكان فى وفياته ، ثم أوصافها وأخبارها العامة ، كلٌ فى نهر خاص من الجدول المذكور . ناقلا عن كثير من الكتب السالفة ، ذاكرا لكل من نقل عنه. ومن الديار التى تكلم عنها : جزيرة العرب ، ومصر ، والشام ، والمغرب، والسودان

والأندلس ، والعراق ، وفارس ، والهند ، والصين ، وبلاد الروم ، وأرمينية ، وخراسان ، وما والاها إلى بلاد ما وراء الهند .

ومهما يكن من شيء ، فكتاب التقويم يعد مفخرة من مفاخر مصر فى العصر المملوكى ، وعمدة من عمد التقويم فى العصور الوسطى .

وحسبنا هذا فى التنويه بقدر أبى الفداء .

﴿ توجد ترجمته فى فوات الوفيات ج ١ ص ٢٠ - وطبقات الشافعية الكبرى للسبكى ج ٦ ص ٨٤ - وتاريخ آداب اللغة ج ٣ ص ١٨٧ - وتاريخ حماة للصابونى وابن اياس ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ - والدرر الكامنة ج ١ - وفى كتابه « المختصر » فى أوله وفى الجزء الرابع منه فى مواضع كثيرة . - وذكره ابن حجة فى ثمرات الأوراق وتأهيل الغريب » .

٦- شمس الدين بن قيم الجوزية ٦٩١هـ - ٧٥١هـ

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية، أحد العلماء الأعلام، الذين كشف الله عن بصيرتهم، وآتاهم من العلم حظا عظيما. وليس فى علماء هذا العصر من هو أقرب شبها بابن تيمية، من تلميذه ابن القيم، الذى تأدب على ما ئدته، وتناول كأس العلم من يده. ولازمه زمنا طويلا، وابتلى مثله بكثير من الأعداء كما ابتلى، وسجن مرارا كما سجن. ومن بينها مرة سجن فيها بسببه، وهى آخر مرة سجن فيها ابن تيمية بقلعة دمشق. فسجن كذلك ابن القيم فى ناحية بعيدة عن أستاذه، ولم يطلق سراحه إلا بعد وفاة ابن تيمية.

فابن القيم شبيه أستاذه فى العلم والمذهب وحوادث الحياة. وحتى فى الأسلوب الكتابى، ترى كلا منهما فياضا كالسيل، واضح الآراء، ثبت اللفظ كثير الاستشهاد بالآيات والأحاديث وأقوال السلف، حاضر البديهة، وحتى فى الاتجاه العلمى، فقد كان كل منهما بحرا زخارا فى الفقه الحنبلى، كثير التعرض للفرق الخارجة ذات المذاهب الملتوية غير المستقيمة، كالرافضة والجهمية والحلولية، يفند مذاهبهم ويكذب مزاعمهم، ويفرى براهينهم ويقطع حججهم، ويوضح مذهب أهل الكتاب والسنة بحجة فارعة وبرهان قوى.

وكثيرا ما وافق ابن القيم أستاذه ابن تيمية، فى مسائل عدة مما أفتى بها، كتحريم السفر إلى زيارة بعض القبور. كما أن بين الاثنين شبها كبيرا فى الورع والتقوى وزهادة الدنيا، والميل الطبيعى إلى التقشف والصلابة فى الحق. وبين الاثنين شبه فى الشغف بالعلم وحب التأليف فيه، فكما ترك لنا ابن تيمية بضع مئات من المصنفات ترك لنا تلميذه ابن القيم، الكثير منها فى فروع دينية عدة.

ولعل من الفروق بينهما، أن ابن تيمية — وهو فى مظهره ومخبره متصوف حقيقة — لم يلج فى الطريق كما يلج الصوفية، ولم يدع الأحوال كما يدعون، ولم يتحيل

كما يتحيلون . بل حمل عليهم أحيانا فى عداد من حمل عليه . وفند بعض ما يقولون وما يصنعون . وقد عرفنا ما أصابه من جراء تصديه للشيخ نصر المبنجى ولغيره من رجال الطرق .

أما ابن القيم — وهو على غرار أستاذه علما وتصوفا ومعرفة وإيمانا — فقد خاض فى التصوف وكتب بعض المؤلفات فيه وشرحها ، وعرف مصطلحاته معرفة الخبير بها ، وكتب عنها كتابة أهل العلم ، ولكنه لم يحد قط عما يسنه القرآن والحديث . ومما تناوله من هذا القبيل كتاب « منازل السائرين » للهروى المتصوف ، فقد شرحه ابن القيم شرحا جليلا ، فى ثلاثة مجلدات سماه : « مدارج السالكين » . وهو فى ذلك طراز من حجة الإسلام الغزالى .

اسمه وشىء من حياته :

هو العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعى ثم الدمشقى الفقيه الحنبلى المفسر النحوى الأصولى المتكلم الشهير بابن قيم الجوزية . —

قال الآلوسى فى كتابه « جلاء العينين » مايلى : « قال ابن رجب : ولد شيخنا سنة إحدى وتسعين وستمائة . ولازم الشيخ تقى الدين بن تيمية ، وأخذ عنه ، وتفنن فى كافة علوم الإسلام . وكان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى . وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه لا يلحق فى ذلك . وبالفقه والعربية ، وله فيها اليد الطولى . وبعلم الكلام والتصوف .

حُبس مرة لإنكاره شد الرحيل إلى قبر الخليل . وكان ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى . ولم أشاهد مثله فى عبادته وعلمه بالقرآن والحديث وحقائق الإيمان . وليس هو بالمعصوم ، ولكن لم أر فى معناه مثله .

وقد امتحن وأوذى مرات ، وحبس مع شيخه شيخ الإسلام تقى الدين فى المرة الأخيرة بالقلعة ـ أى قلعة دمشق ـ منفردا عنه . ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ . وكان فى مدة حبسه مشتغلا بتلاوة القرآن ، وبالتدبر والتفكر ، ففُتح

عليه من ذلك خير كثير . وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة. وتسلط بسبب ذلك على الكلام فى علوم أهل المعارف ، والخوض فى غوامضهم . وتصانيفه ممتلئة بذلك . وحج مرات كثيرة ، وجاور بمكة . وكان أهل مكة يتعجبون من كثرة طوافه وعبادته . وسمعت عليه قصيدته النونية فى السنة ، وأشياء من تصانيفه غيرها . وأخذ عنه العلم خلق كثير فى حياة شيخه ، وإلى أن مات ، فانتفعوا به .

قال القاضى برهان الدين الزرعى : « وما تحت أديم السماء أوسع علما منه » . ودرس بالصدرية ، وأمّ بالجوزية ، وكتب بخطه ما لا يوصف كثرة . وصنف تصانيف كثيرة جدا فى أنواع العلوم ، وحصل له من الكتب ما لم يحصل لغيره.»

وقال السيد رشيد رضا — من علماء العصر الحديث — وناشر كتاب « مدارج السالكين » فى تقديمه ، بعد أن تحدث عن أهل الحق : « وأجدر هؤلاء المهديين ببيان التحقيق الذى يزيل الخلاف من كان جامعا بين المنقول والمعقول ، غير متعصب لمذهب من المذاهب التى تعزى إلى أفراد العلماء . ولم نر فى هذا الصنف أوسع علما وأنهض حجة وأقوى عارضة من شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، وتلميذه الإمام المحقق محمد بن أبى بكر الشهير بابن القيم أو ابن قيم الجوزية . فقد جمع الله لكل منهما بين الرسوخ فى علوم السنة حفظا وفهما واستحضارا واستنباطا ، وبين التمكن من سائر العلوم التى دونت بالعربية ومذاهب الفرق وأدلتها ، فبينا فى كتبهما الممتعة ، ما أخطأ فيه الذين انحرفوا عن الكتاب والسنة من أهل هذه المذاهب . وقد كان ابن تيمية السابق إلى تحرير تلك المسائل ، وتلاه ابن القيم ، فكان الموضح المكمل لها ، والمستدرك المدرك لما فاته منها . وأهم ما انفرد به ابن القيم فيما نعلمه الإطالة بتحرير علوم الصوفية ، ووضع الموازين القسط لمعارفهم ، وأذواقهم ومقاماتهم وأحوالهم ، بشرحه لكتاب « منازل السائرين » لشيخ الإسلام أبى إسماعيل الهروى . »

وقال ابن كثير : كان يقصد للإفتاء بمسألة الطلاق ، حتى جرت له بسببها ، أمور يطول بسطها ، مع ابن السبكى ، وغيره .

وكان جماعا للكتب . فحصل له منها ما لا يحصر ، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرا طويلا ، سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم .

وهو طويل النفس فى مصنفاته يتعانى الإيضاح جهده ، فيسهب جدا ، وله فى ذلك ملكة قوية . وكان كثير العبادة ، لا أعرف فى زماننا من أهل العلم من هو أكثر عبادة منه . » . ونوّه ابن حجر أيضاً بحبه للكتب .

وقال عنه ابن حجر كذلك : « كان جرىء الجنان واسع العلم ، عارفا بالخلاف ومذاهب السلف : وغلب عليه حب ابن تيمية ، حتى كان لا يخرج عن شىء من أقواله ، بل ينتصر له فى جميع ذلك . وهو الذى هذب كتبه ونشر علمه » .

شيوخه :

تتلمذ ابن القيم لكثيرين من جلة علماء جيله ، وعلى رأسهم شيخه الأول تقى الدين بن تيمية ، وقد لازمه منذ عودته من مصر إلى دمشق عام ٧١٢ هـ . وقد سمع الحديث من التقى سليمان ، وأبى بكر بن عبد الدائم ، وابن الشيرازى ، والمطعم ، واسماعيل بن مكتوم . ودرس العربية على ابن أبى الفتح ، والمجد التونسى . وقرأ الفقه على المجد الحرانى ، والتقى بن تيمية . وقرأ فى الأصول على الصفى الهندى ، وابن تيمية أيضاً .

عمله وتلاميذه :

اشتغل ابن القيم بتحصيل العلم ، ثم قام بنشره فصنف المصنفات النافعة فى جدال الكلاميين ، والمنحرفين فى نظره عن مذهب السلف وعقيدتهم . وفى تفسير كلام الله وحديث رسوله الكريم . واشتغل بالتدريس والإمامة والفتوى . وتخرج به تلاميذ أجلاء ، منهم : الحافظ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب ، صاحب طبقات الحنابلة ، — وقد نقلنا كلمته فى شيخه ، فيما سبق —

ومنهم شمس الدين محمد بن عبد القادر النابلسى صاحب مختصر طبقات الحنابلة ، لأبى يعلى . ومنهم والده الحافظ ابراهيم ، وعبد الله ، وغيرهم .

وله فى حياته جهاد وكفاح شبيهان بجهاد شيخه ابن تيمية وكفاحه ، فقد أفتى وصودر فى فتاواه ، وسجن بسببها ، وبسبب فتاوى ابن تيمية ، واعتقل معه فى قلعة دمشق . — قال ابن حجر عنه : « اعتقل مع ابن تيمية بالقلعة بعد أن أهين وطيف به على جمل ، مضروبا بالدرة » . وتعتبر حركة ابن القيم تتمة لحركة شيخه ، فى تحرير الفكر والرأى ، وفى الدعوة إلى عقيدة السلف . وفى توضيح مذهب ابن حنبل .

مولده ووفاته :

ولد ابن القيم فى دمشق عام ٦٩١ هـ ، ويبدو أنه أقام بها معظم حياته ، كما قيل إنه صحب ابن تيمية حين وفد على مصر ، وقد توفى فى ٢٣ رجب عام ٧٥١ هـ [١] . ودفن بجنازة حافلة ، بمقبرة الباب الصغير ، عند والديه ، بعد أن صُلى عليه فى مواضع عدة ، منها الجامع الأموى .

مؤلفاته :

تدور مؤلفات ابن القيم — كما أشرنا — حول الرد على المبتدعين والكلاميين والمنحرفين فى العقيدة عن مذهب السلف . وكذلك ألف فى التصوف ، تأليف العارفين — وفى هذا يفارق شيخه ابن تيمية . وكتب فى تفسير القرآن . وشرح الحديث ، وصنف فى فقه الحنابلة . وقد يمتاز ابن القيم عن شيخه بطول نفسه ، وإسهابه فى بعض مصنفاته ، على أنه فيض من بحره وقبس من نوره . وتعد مؤلفاته بالعشرات . ومنها كثير موجود ، وكثير مطبوع ومتداول . ومنها :

١ — تهذيب سنن أبى داود وإيضاح مشكلاته . ٢ — سفر الهجرتين وباب السعادتين ٣ — مراحل السائرين ٤ — الكلم الطيب والعمل الصالح ٥ — زاد المسافرين ٦ — زاد المعاد فى هدى خير العباد ٧ — نقد المنقول ،

---

(١) روى ابن حجر أن وفاته كانت فى ١٣ رجب عام ٧٥١ هـ ، وذكر ابن إياس أن وفاته كانت سنة ٧٥٢ هـ .

فى مجلد ٨ — نزهة المشتاقين : فى مجلد . [1] ٩ — أعلام الموقعين عن رب العالمين فى ثلاثة مجلدات . ١٠ — بدائع الفوائد ، فى مجلدين ١١ — الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١٢ — حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح . ١٣ — كتاب الداء والدواء ، فى مجلد ١٤ — مفتاح دار السعادة ، فى مجلد كبير . ١٥ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو الفرقة الجهمية ، فى مجلد . ١٦ — كتاب الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، ١٧ — عدة الصابرين ١٨ — إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان . ١٩ — كتاب الروح ٢٠ — الصراط المستقيم فى أحكام أهل الجحيم . ٢١ — الفتح القدسى . ٢٢ — التحفة الملكية ٢٣ — الفتاوى ٢٤ — هداية الحيارى فى الرد على اليهود والنصارى . ٢٥ — تحفة الودود فى أحكام المولود ، فى مجلد . ٢٦ — القصيدة النونية ، الشهيرة بالشافية الكافية فى الانتصار للفرقة الناجية وتبلغ نحو ستة آلاف بيت ، وقيل سبعة آلاف . ذكرها ابن حجر فى الدرر . ٢٧ — رفع اليدين فى الصلاة وهو مجلد واحد . ٢٨ — تفضيل مكة على المدينة فى مجلد واحد . ٢٩ — فضل العلم وهو فى مجلد واحد . ٣٠ — كتاب الكبائر وهو فى مجلد . ٣١ — حكم تارك الصلاة وهو مجلد واحد . ٣٢ — موت المؤمن وحياته وهو فى مجلد واحد . ٣٣ — التحرير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير . ٣٤ — جوابات عابدى الصلبان . ٣٥ — بطلان الكيمياء من أربعين وجها .

---

(١) يوجد لابن القيم كتاب اسمه « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » مطبوع فى دمشق ومنه نسخة بدار الكتب المصرية « فهرس الاداب » . تكلم فيه عن لغة الحب وفلسفته ومذاهب الناس فيه ، ولغة الشريعة وحكمها وأدبها ، وبه مزايا خلقية وفقهية وأدبية ولغوية . — فلعله هو كتابه « نزهة المشتاقين » .

٣٦ — الفرق بين الخلة والمحبة . ٣٧ — أمثال القرآن . ٣٨ — إيمان القرآن . ٣٩ — المسائل الطرابلسية . ٤٠ — كتاب الطاعون . ٤١ — جلاء الأفهام فى فضل الصلاة والسلام على خير الأنام . ٤٢ — عقد الإخاء بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى السماء . ٤٣ — بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل . ٤٤ — نكاح المحرم . ٤٥ — إغمام الهلال فى رمضان . ٤٦ — شرح على الأسماء الحسنى . ٤٧ — شرح على ألفية ابن مالك . ٤٨ — أخبار النساء ويشتمل على أخبارهن وأوصافهن وما قيل فى التحذير منهن وغدرهن . ٤٩ — شفاء الغليل فى مسائل القضاء والقدر والحكم والتعليل . ٥٠ — مدارج السالكين . وهو فى التصوف، شرح لكتاب « منازل السائرين » ٥١ — الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى . ٥٢ — الفوائد [1] . ٥٣ — الفروسية . ٥٤ — تفسير الفاتحة ٥٥ — تفسير المعوذتين .

التعريف ببعض هذه الكتب :

١ — مدارج السالكين :

أطلعت على نسخة منه مطبوعة بمطبعة المنار عام ١٣٣١ هـ ، فى حجم كبير ،

---

(١) فى دار الكتب المصرية كتاب لابن القيم اسمه كتاب « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان » فى فهرس البلاغة — مطبوع : فلعله كتاب الفوائد المذكور .

وفى ثلاثة أجزاء. واسمه الكامل « مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ». وهو شرح لكتاب « منازل السائرين » للهروى.

وقد عُنى بطبعه ونشره المرحوم السيد رشيد رضا صاحب المنار المعروف. وجمع لذلك عدة نسخ خطية، بعضها من الكويت، وبعضها مكتوب بأيدى نساخ نجديين. وجهد فى التصحيح حتى أخرجه محمود المظهر.

وقد وضع السيد رشيد مقدمة لهذا الكتاب، طريفة ممتعة، تحدث فيها بعض الحديث عن مؤلفه ابن القيم، وتحدث فيه بعض الحديث عن التصوف الصحيح وأهله، ومركز ابن القيم منه ومنهم. وقد نقلنا بعض هذه المقدمة فى صدر الكلام السالف عن ابن القيم.

أما كتاب « منازل السائرين » فهو عبارة عن متن مختصر اختصارا شديدا، وضعه شيخ الإسلام، أبو اسماعيل الأنصارى الحنبلى وهو عبدالله بن محمد بن على الهروى الصوفى المتوفى عام ٤٨١ هـ فى ذى الحجة. (١)

ويقع هذا الكتاب فى ثمانى صفحات. وموضوعه التصوف الإسلامى والعقائد الإسلامية. وصفها وذكرها بغير كثير جدال، ولا رد لغيرها من المذاهب. وهو فوق اختصاره، مملوء بالعبارات المبهمة والجمل الغامضة والمفردات المصطلح عليها عند الصوفية، مما له معانى خاصة عرفية لديهم، لا يُعين على فهمها عادةً، معرفةٌ بمتن ولا تذوق لتجوّز. وقد يضيق بفهمها غير العارفين.

أما كتاب ابن القيم « مدارج السالكين » فهو شرح لكتاب الهروى. وإن لم يشر ابن القيم إلى ذلك فى مقدمته. وهو شرح مستفيض جامع بين السنة والعقل والفقه، أو بين المنقول والمعقول. فلا هو إلى جماعة أهل الأثر، ولا هو إلى غلاة المتصوفة والمتأولين. فهو بينهما وسط صالح. وهذا الكتاب لا ستفاضة بحوثه وترامى أطرافها، لا يشعر المرء معه بوجود المتن الذى تصدى لشرحه. ويقع فى ثلاثة أجزاء:

---

(١) ترجمة الهروى بتفصيل فى تذكرة الحفاظ للذهبى ج ٣ الطبقة ٤.

أما الجزء الأول، فقد بذل المؤلف مجهودا فيه ضخما . إذ تناول فاتحة القرآن الكريم ،وطفق يفسر آياتها تفسيرا شائقا ، ساق فى خلاله مسائل خلقية كثيرة، فصل فيها الكلام تفصيلا وبيّن ما تحويه الفاتحة من أنواع التوحيد ومن المعانى الكثيرة المنثورة فى القرآن الكريم، والتى اكتنزت فى هذه الفاتحة . ـ وتكلم كذلك عن الهداية والوحى والرقية بالفاتحة . ورد على كثير من أهل الفرق المبتدعة . وتحدث عن الذنب والمعصية والتوبة والاستغفار وغير ذلك .

أما الجزء الثانى، فقد شرح فيه معنى الإخبات والورع والزهد والتبتل والرغبة والرعاية والمراقبة والاعتراض والإخلاص والتوكل المحمود والمذموم ، والاستقامة والشكر والإيثار والبخل والجود والمروءة وغير ذلك .

وفى الجزء الثالث، عرّف بالهمة والمحبة والغيرة والشوق والوجد والأمل والذوق والاغتراب والغيبة والمشاهدة ، والمعاينة والحياة والقبض والبسط والسكر والصحو والاتصال والمعرفة والفناء والبقاء وغير ذلك .

وهكذا ترى أن الكتاب كتاب خلق نفسى عظيم الشأن جليل الأثر . ويظهر أن ابن القيم أراد — كما أراد صاحب المتن — أن يتدرج بالسالك من حالته الأولى إلى الحالة العليا . فرفق به فى الجزء الأول مبينا له كيفية رياضة النفس . ثم بين له فى الجزء الثانى المقامات الحسنى والأخلاق النافعة التى إن ثبت عليها وثابر ، بلغ المرتبة الثالثة ، وهى الأخيرة التى يعى فيها أشياء ، ويتذوق أشياء ، ما كان يعيها ولا يتذوقها من قبل ، ولا يستطيع أن يعيها ولا أن يتذوقها رجل آخر سلك فى حياته السبيل العادية .

وأهم ما دار حوله كلامه ، ما تتضمنه الآية الكريمة « إياك نعبد وإياك نستعين» وبين بروح إسلامية ما فيها من الحقائق الرائعة والمعارف الجامعة .

وقد بين ابن القيم غرضه من تأليف هذا الكتاب فى خطبته . ونقتبس منها ما يلى . قال :

« ونحن بعون الله ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب ، وهى أم القرآن .

وعلى بعض ما تضمنتة هذه السورة من هذه المطالب . وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال وما تضمنته من منازل السائرين ، ومقامات العارفين . والفرق بين وسائلها وغاياتها ، ومواهبها وكسبياتها . وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها ولا يسد مسدها . ولذلك لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها . والله المستعان وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . »

أسلوب هذا الكتاب :

لا بن القيم فيه أسلوبان أدبى وعلمى . ويتمثل الأدبى فى خطبة الكتاب وقليل من فصوله . ويتمثل العلمى فى معظم فصوله . ولنتكلم عن كل منهما .

أسلوبه الأدبى :

كأنما أراد ابن القيم فى خطبة الكتاب أن يتابع رجال عصره الأدباء . لذلك تقيد بالسجع وبالفقرات الطويلة والاقتباس والتضمين وضروب أخرى من البديع مع حسن عبارة وجودة رصف ، ودقة تناسق وغزارة معنى وكثرة علم . وإنك لترى فيه هنا النزعة الخطابية والروح العاطفية . — ومن قوله فى تلك الخطبة يُعَرِّض ببعض الذين لم يفهموا كتاب الله حق الفهم ، ويتهكم بهم تهكما مرا :

« أنزلوا النصوص منزلة الخليفة فى هذا الزمان ، له السكة والخطبة ، وما له حكم نافذ ولا سلطان . المتمسك عندهم بالكتاب والسنة ، صاحب ظواهر مبخوس حظه من المعقول ، والمقلد للآراء المتناقضة المتعارضة ، والأفكار المتهافتة لديهم هو الفاضل المقبول . وأهل الكتاب والسنة المقدَّمون لنصوصها على غيرها ، جهال لديهم منقوصون . « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » . حُرموا — والله — الوصول ، بعدولهم عن منهج الوحى وتضييعهم الأصول . وتمسكوا بأعجاز لا صدور لها . فخانتهم أحرص ما كانوا عليها . وتقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها . حتى إذا بُعثر

ما فى القبور ، وحُصل ما فى الصدور . وتميز لكل قوم حاصلهم الذى حصلوه ، وانكشفت لهم حقيقة ما اعتقدوه ، وقدموا على ما قدموه . « وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون » . وسقط فى أيديهم عند الحصاد ، لما عاينوا غلة مابذروه . فيا شدة الحسرة عندما يعاين المبطل سعيه وكده هباء منثورا . ويا عظم المصيبة عندما يتبين بوارق أمانيه خلبا ، وآماله كاذبة غرورا . فما ظن من انطوت سريرته على البدعة والهوى والتعصب للآراء ، بربه ، يوم تُبلى السرائر . وما عذر من نبذ الوحيين وراء ظهره فى يوم لاتنفع الظالمين فيه المعاذر » . إلى آخره .

أسلوبه العلمى :

أكثر فصول الكتاب كتب بهذا الأسلوب . وقد انقسم الكلام فيه إلى فصول كثير منها موجز يقع فى سطور . ويُعنى المؤلف بتوضيح المعنى فى كل فصل ، وبيان الحقائق العلمية ، ولكن دون جفاف ، وفى كثير من التقسيم ، والإجمال ثم التفصيل ، والتقديم ثم الاستنباط ، والاستشهاد بالآيات والأحاديث والأقوال المأثورة . كل ذلك فى جمل هينة لينة قليلة اللبس نادرة الغموض ، تشوبها أحيانا عبارات ومفردات مصطلح عليها ، وأكثر ما تبدو عند رده على الكلاميين ، كما ترى فيها الأقيسة المنطقية على نمط يسير مما كان يكتب به ابن تيمية والعلامة الغزالى ، هذا وقد يعرض الغموض لعبارته ، وقد يتعمد السجع أحيانا ويتكلفه . وأكثر ما يبدو منه إذا غلبه الوجد ونال منه التحنان ، فيهتز متكلما عن عاطفة ، ويهزج كما يهزج المشتاق ، فيسجع طورا ويشعر طورا آخر .

ويضع المؤلف أحيانا عبارة المتن بين قوسين ، ثم يأخذ فى شرحها ويفيض . ومن محاسنه أن يستطرد إلى تفسيرات لغوية نافعة ، وذكر شروح طريفة منقولة ومنسوبة إلى قائليها ، وتدوين أدبيات مأثورة قيمة . وتاريخيات ثمينة .

ومما أخذه به الناشر ، عدم إرجاع ما استشهد به من الأحاديث النبوية إلى دواوينها

فى كتب الحديث ، تثبيتاً للقول وتمكيناً للحجة كما هو شأن ابن تيمية . ثم عقب الناشر بعد ذلك بأن نفى عنه أن ينزل إلى الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة أو المنكرة لأنه من حفاظ الحديث . — أقول ومع ذلك أراه ذكر فى كثير من الأحاديث عددا من رواتها .

ومما يجدر ذكره أن المؤلف كثيرا ما استشهد بأقوال أستاذه ابن تيمية ، وهذه النزعة فيها معنى الوفاء ، فوق ما فيها من الأمانة العلمية . وبهذه المناسبة نقول إن الذى يدرس أحد الرجلين لاغنى له عن دراسة الآخر .

وإلى القارىء نموذجا من كتابته العلمية : كتب فصلا حينما تكلم بصدد سورة الفاتحة ومزاياها وما اشتملت عليه ، فقال منه ، ص ٣٣ ج أول ، يرد على من يقول بوحدة الوجود .

« ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهرُ للعقول والفطر من وجود النهار . ومن لم ير ذلك فى عقله وفطرته ، فليتهمها . وإذا بطل قول هؤلاء ، بطل قول أهل الإلحاد القائلين بوحدة الوجود ، وأنه ما ثم وجود قديم خالق ، ووجود حادث مخلوق . بل وجود هذا العالم هو عين وجود الله ، وهو حقيقة هذا العالم . فليس عند القوم رب وعبد ، ولا مالك ولا مملوك ، ولا راحم ولا مرحوم ، ولا عابد ولا معبود ، ولا مستعين ومستعان به . ولا هادى ولا مهدى ، ولا منعم ولا منعم عليه . ولا غضبان ومغضوب عليه . بل الرب هو نفس العبد وحقيقته ، والمالك هو عين المملوك ، والراحم هو عين المرحوم والعابد نفس المعبود . وإنما التغاير أمر اعتبارى بحسب مظاهر الذات وتجلياتها . فتظهر تارة فى صورة معبود كما ظهرت فى صورة فرعون . وفى عبد كما ظهرت فى صورة العبيد . وفى صورة هاد كما ظهرت فى صورة الأنبياء والرسل والعلماء ، والكل من عين واحدة ، بل هو العين الواحدة . فحقيقة العابد ووجوده ، أو أينيته هى حقيقة المعبود ، ووجوده وأينيته .

والفاتحة من أولها إلى آخرها ، تبين بطلان قول هؤلاء الملاحدة وضلالهم » .

وبعد ، فيضيق نطاق القول عن إيفاء هذا الكتاب قدره من الوصف .

٢ — كتاب الفروسية :

طبع هذا الكتاب عام ١٣٦٠ هـ بمطبعة الأنوار ، وموضوعه ينطق به عنوانه ، فهو فى « الفروسية » ، ويُقصد بها ضروب الألعاب والرياضة البدنية ، التى اشتهر بها الرسول عليه السلام .

وقد عقد المؤلف لذلك جملة فصول ، تكلم فى كل منها عن نوع من هذه الألعاب ، كالسباق والمصارعة ، راويا ما ورد فى كل نوع من الأحاديث التى تثبت مزاولة الرسول عليه السلام ، له . أو مشاركته فيه مشاركة ما .

وقد أشار فى فاتحة كتابه إلى هذه الأنواع حيث قال : ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سابق بالأقدام ، وثبت عنه أنه سابق بين الإبل ، وثبت عنه أنه سابق بين الخيل ، وثبت عنه أنه حضر نضال السهام ، وصار مع إحدى الطائفتين ، فأمسكت الأخرى ، وصار مع الطائفتين كلتيهما ، وثبت عنه أنه رمى بالقوس ، وثبت عن الصدّيق أنه راهن كفار مكة على غلبة الروم للفرس ، وراهنوه على ألا يكون ذلك ، ووضعوا الخطر بين الجانبين ، وكان ذلك بعلم النبى عليه السلام وإذنه . وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه طعن بالرمح وركب الخيل مسرجة ومعراة ، وتقلد السيف ، الخ .

وأخذ يذكر كل نوع ويؤيده بالأحاديث التى تدل على مشاركة النبى عليه السلام فيه وكثيرا ما رواها بأسانيدها . ولم يخل الكتاب من استطرادات نافعة وأدبيات وأشعار طريفة .

وكثيرا ما أيد كلامه بالحوادث التاريخية والآيات القرآنية وأقوال العلماء . ونرى من هذا كله أن الكتاب شاهد بفضل ابن القيم وغزارة علمه ، وإحاطته بمثل هذه الموضوعات الفريدة .

ولدراسة هذا الموضوع ، ومثله ، أهمية كبرى لبيان روح الإسلام ، ومبلغ رقيه ومدنيته . واتجاهه فى التربية والتعليم .

٣ — جلاء الأفهام :

واسمه الكامل : « جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام ، على خير الأنام » وحجمه صغير ، ويقع فى أكثر من ٤٠٠ صفحة . ومطبوع فى « أمرتسار » .

تصفحت نسخة منه بدار الكتب بالمنصورة ، وقد وضع بفهرس التصوف ، ولكنه فى الحديث ورجال الحديث . وموضوع من الموضوعات الشائقة ، التى فطن لها ذهن ابن القيم ، فهو من هذه الناحية شبيه بالكتاب السابق : « الفروسية » أما هذا الموضوع فهو التكلم فى « الصلاة والسلام على النبى » وما يتصل بها ، وذكر الأحاديث المروية فيها . وقد روى المؤلف كل حديث منها ، برواياته العدة المختلفة موازنا بين كل رواية ورواية ، مجرحا للرجال أو معدلا ، مستشهدا على ما يقول بما ورد عنهم ، من كلام ثقات الرواة والحفاظ والفقهاء وعلماء الحديث .

وهذا الكتاب منقطع النظير فى بابه — فيما أعلم[1] — إذ خصصه المؤلف فى نوع واحد من الأحاديث دون سواه ، وأعنى به بابا واحدا من باب الحديث ، وهو باب الصلاة على النبى عليه السلام . ووفاه حقه ، من إيراد أحاديثه ، وتاريخ رجاله .

وبين فى أحد أبوابه ، من روى أحاديث الصلاة على النبى . وفى باب آخر ، أحاديثها المرسلة والموقوفة ، وفى باب ثالث : معنى الصلاة على النبى ، والصلاة على آله . وتفسير الآل . ووجه الشبه بين الصلاة على النبى ، والصلاة على ابرهيم وآله من بين سائر الأنبياء . « وهو ما يقرأ فى التشهد » . ومعنى ختام الصلاة بالحميد المجيد . إلى غير ذلك .

---

(١) ختم تقى الدين السبكى كتابه « شفاء السقام » بجملة من أحاديث الصلاة على النبى . وذكر فى مقدمتها أن أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن على بن عبد الرحمن النميرى ، جمع تلك الأحاديث والروايات فى كتابه المسمى : « كتاب الاعلام بفضل الصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام »

وفى الكتاب بحوث فى اللغة ونحوها، وبخاصة مادار حول كلمة «اللهم» مستطردا منها إلى مسائل صوفية، وضروب من الرياضة النفسية، مع استشهادات وتحقيقات تاريخية. وقد ذكر خصائص سامية لآل النبى عليه السلام. فهو كتاب ممتع لعشاق الرسول عليه الصلاة والسلام، وآله الكرام.

٤ — الفوائد:

هذا كتاب آخر لابن القيم تصفحت نسخة منه مطبوعة فى حجم متوسط يقع فى أكثر من مائتى صفحة، طبعة حسنة، بإدارة الطباعة المنيرية بمصر بالكعكيين عام ١٣٤٤ هـ نقلا عن نسخة خطية.

ويحتوى على جملة فصول متنوعة، يحتوى كل منها على الكلام عن مسألة من المسائل الدينية الخاصة بالعقائد. وذلك كمسألة البعث وصفات أهل الجنة. وقرب الله سبحانه وتعالى إلى كل نفس «وهو أقرب إليكم من حبل الوريد». والسعادة والشقاء. والقدر والظلم والعدل.

وبه فصول جليلة تحدث فيها عن الأخلاق فوصفها وبين الطريق الموصل إلى الحسن منها. وبه فصول أخرى قيمة معقودة لتفسير بعض آيات الذكر الحكيم، وشرح بعض الأحاديث النبوية. ومن ذلك تفسير الفاتحة، وتفسير قوله تعالى «إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد». وكلام عن سورة «ق». وغير ذلك مع استتباعات كثيرة مفيدة منقولة عن السلف.

وتبدو الروح الصوفية الصحيحة فى خلال الكتاب فهو كتاب تصوف وأخلاق وتفسير وشرح حديث، وتربية وتهذيب عال. ولننقل منه فصلا فى الأخلاق المذمومة والفاضلة لنتبين منه ما نقول. قال فى ص ١٤٣ ما يلى:

«أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة. وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة. فالفخر والبطر والأشر والعُجب والحسد والبغى والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر والإعراض وإباء قبول النصيحة والاستئثار وطلب العلو وحب الجاه والرياسة. وأن يُحمد بما لم يفعل. وأمثال ذلك كلها ناشئة من الكبر.

وأما الكذب والخسة والخيانة والرياء والمكر والخديعة والطمع والفزع والجبن والبخل والعجز والكسل والذل لغير الله ، واستبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير ، ونحو ذلك ، فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس .

وأما الأخلاق الفاضلة كالصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم والعفو والصفح ، والاحتمال والإيثار وعزة النفس عن الدناءات ، والتواضع والقناعة والصدق والأخلاق والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل ، والتغافل عن زلات الناس ، وترك الاشتغال بمالا يعنيه ، وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك . فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة . والله سبحانه أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة ثم ينزل عليها الماء فتهتز وتربو ، وتأخذ زينتها وبهجتها . فكذلك المخلوق منها إذا أصابه حظه من التوفيق .

أما النار فطبعها العلو والإفساد ثم تخمد فتصير أصغر شيء وأرذله . . . وكذلك المخلوق منها . فهى دائماً بين العلو إذا هاجت واضطربت ، وبين الخسة والدناءة إذا خمدت وسكنت .

والأخلاق المذمومة تابعة للنار والمخلوق منها . والأخلاق الفاضلة تابعة للأرض والمخلوق منها . فمن علت همته وخشعت نفسه اتصفت بكل خلق جميل . ومن دنت همته وطغت نفسه اتصفت بكل خلق رذيل . »

٥ — مفتاح دار السعادة :

اسمه الكامل : « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » . تصفحت منه نسخة مطبوعة فى حجم متوسط بمطبعة السعادة من عام ١٣٢٣ هـ إلى عام ١٣٢٥ هـ ، بعد تصحيحه على نسختين خطيتين . وهذه طبعته الأولى وهو جزآن فى مجلد واحد يقع كل منهما فى نحو ٣٠٠ صفحة .

وهو كتاب ذو عبارة مرسلة ومعانى واضحة ومفردات مفهومة ، وتراكيب سهلة جيدة ، تتخللها أحياناً روح منطقية ومفردات اصطلاحية واستقصاء للجزئيات ، وسير خلف المعانى حتى يستوفيها ، إذا عرض لتفسير آية أو شرح حديث ، أو رد على

أهل مذهب . ويدور الكتاب — فى رأينا — حول موضوع كلى واحد ، هو توجيه نظر الإنسان إلى كثير من الحكم التى اتضحت فيما خلقه الله وما قدره وما نظمه ، لتبدو من وراء ظهوره قدرة الله العلى ، وإرادته وحسن صنعه وتمام سيطرته وجمال تقديره ، وهذا حرى بأن يدفع الإنسان اليقظ البصير المتدبر إلى عبادة الله سبحانه وتعالى عبادة نقية صافية لا تشوبها شائبة . ولا يحوم حولها ريب . وفى هذا سعادة لا تحد .

هذا الموضوع الكلى هو أساس الكتاب . والكلام فيه مشعب النواحى . وقد يظهر للمطلع عليه أنه لا جامع فيه يجمع بين فصوله . ويخيل إليه أنها فصول منثورة فى موضوعات شتى تختلف طولا وقصرا فحسب . فمن بينها فصل فى « بيان الأسرار التى بدت فى هبوط آدم من الجنة » ، ومن بينها فصل فى « وصف الجبال وبيان مزاياها » . ومن بينها فصل فى « علم المنطق واختلاف العلماء فيه » . ومن بينها فصل فى « بيان الحكمة فى كثرة بكاء الأطفال » . وفصل فى « بيان حاجة الناس إلى الشريعة » . وفصل فى « المنجمين » وهكذا .

من أجل ذلك يشعر من يتصفح الكتاب لأول وهلة أن فصوله متناثرة لا رابطة بينها ولا جامع يجمعها — والحقيقة أن بينها ارتباطا تاما وصلة وثيقة . وهو ما أشرنا إليه من أن المؤلف يتوخى أن يبدى للناس الحكمة ووجه الصواب فيما خلق الله ، وما شرع لخلقه ، وما قدر عليهم ، مع بيان قدرته وسيطرته . حتى إذا ما تبصروا وتذكروا ، كان فى ذلك عبرة لهم تهديهم إلى العبادة الحقة والخضوع التام لله سبحانه وتعالى .

ومن العبث أن نحصى المواضع التى تعرض المؤلف للكلام عنها فى مؤلفه هذا لأنها كثيرة جدا . وإذا قلنا إننا قلّ أن نجد مظهرا من مظاهر الكون لم يتناوله المؤلف بالبحث والبيان ، لم نكن مبالغين . وهو يدعم كلامه عادة بآى الذكر الحكيم والحديث الشريف مستطردا إلى تفسير ما يذكر من ذلك .

وفى الكتاب كلام عن الجنة ، وعن العلم وشرفه . وعن الإنسان وما أودعه

الله فيه من مميزات . وعن الأجرام السماوية . وعن مظاهر الطبيعة من ريح وزلزال وغيرهما . وعن التضاريس الأرضية ومزاياها وما فى الأرض من المعادن والنبات والماء والحيوان والإنسان . وعن الفروق بين الرجل والمرأة . وفيه حديث عن الصوت وغيره فى الإنسان . وعن بعض الأخلاق والصفات فيه . وعن علم الساعة واستئثار الله سبحانه به وفائدة ذلك للإنسان . وفيه تتبع لكلام المنجمين مع الرد عليهم وتزييفهم . وهكذا .

فالقارىء يرى أن الكتاب به فقه وتشريع وتفسير وشرح حديث وتاريخ وكلام عن العقائد ، وتصوف . وهو كتاب تحليلى نفسى وكتاب تربية وأخلاق فوق ما به من استطرادات أدبية نافعة يروى فيها بعض المأثور من الشعر أو النثر .

وقد لا يُعجب علماء التقويم اليوم بما كتبه ابن القيم فى كتابه هذا عن الأرض والجبال وغيرهما مما يدخل فى علم التقويم ، لأنها ليست بذات دقة علمية يرتضيها العلماء الآن ، ولا تتلاقى مع جدة العبارات وحنكتها فى وصف خواص الأشياء فى عصرنا الحديث . والمؤلف على كل حال له عذره فى ذلك .

وبعد فحسبنا ما أثبتنا تعريفاً بهذا الرجل ومؤلفاته .

« ترجمته فى : (١) جورجى زيدان ج ٣ ، (٢) طبقات الحنابلة للشطى ص ٦١ — (٣) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ١٠٦٧ — (٤) جلاء العينين للسيد نعمان الآلوسى — (٥) بدائع ابن إياس ج ١ ص ١٩٥ — (٦) فى صدر كتبه : مدارج السالكين ، وحادى الأرواح ، والفروسية . »

٧- تقى الدين السبكى ٦٨٣ هـ — ٧٥٦ هـ

علم من أعلام مصر، وأحد أئمة العصر. جهبذ فقيه، وفاضل نبيه. اجتمع فيه الذكاء والزهادة، والورع والعبادة، كما اجتمع العلم والأدب. وقد ترجم له ابنه تاج الدين السبكى فى طبقاته الكبرى ترجمة مستفيضة اقتبسنا منها واعتمدنا عليها.

اسمه :

على بن عبد الكافى بن على بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام بن حامد بن يحيى ابن عمر بن عثمان بن على بن مسوار بن سوار بن سليم السبكى.

مولده ووفاته :

ولد بمصر فى قرية « سبك العبد »[1]، فى صفر عام ٦٨٣ هـ. وتوفى فى ليلة الاثنين ٤ جمادى الآخرة عام ٧٥٦ هـ.[2]، بجزيرة الفيل على شاطىء النيل بظاهر القاهرة. ودفن بباب النصر.

طرف من حياته :

شب تقى الدين زاهدا بفطرته، عفًّا، مكبوح النفس عن لذات الحياة، خالص القلب لله. لم يكن يشغله شاغل عن عبادته سبحانه، وعن طلب العلم. قيل إنه تزوج فى مبكر شبابه، فلم تدم هذه الزيجة بسبب انصرافه إلى العلم.

رضى تقى الدين من الدنيا بالكفاف، فكان ذلك خير معين له على الاحتفاظ بعزة نفسه وكرامته، فزادت مهابته فى العيون. وسمت منزلته فى القلوب وكان متقللا من أكل اللحم، ندر أن صام إلا فى رمضان والأيام الستة. ويعزو ولده ذلك، إلى ضعف جسمه عن مجالدة الصوم، لاشتغال ذهنه بتحصيل العلم.

---

١ ـ هذه رواية ابن حجر فى الدرر الكامنة.

٢ ـ وقيل توفى عام ٧٥٥ هـ.

وكان ذا حياء جم ، وتواضع وكرم . عكف على طلب العلم بالقاهرة أولا ، ثم رحل إلى الاسكندرية ، وزار بلادا عدة منها : دمشق والقدس والخليل ، كما حج إلى مكة .

وسعد تقى الدين فى مطلع حياته العلمية بعدد من جلة العلماء . تثقف بثقافهم وتهذب بأدبهم وتخرج بعلمهم وفتحوا أمام ذهنه الوقاد فجاج المعرفة ، حتى بلغ منها حدا لم يبلغوه ، ووصل إلى مدى لم يخطوا إليه . حتى أصبح إمام الشافعية فى زمانه ، كما كان من قبله . العز بن عبد السلام ، والتقى بن دقيق العيد .

ولم يقتصر نبوغه على الفقه ، بل تناول كثيراً من علوم زمانه ، كالأصول والحديث شرحا ورواية ، والتفسير والكلام والجدال ، والنحو واللغة والمنطق والكتابة والشعر .

ومن أساتذته :

أبوه القاضى زين الدين ، تفقه عليه . ثم تفقه على فقيه زمانه نجم الدين بن الرفعة . وأخذ الأصول والمعقولات عن علاء الدين الباجى . والمنطق عن شرف الدين البغدادى . والتفسير عن علم الدين العراقى . والقراءات عن تقى الدين بن الصائغ . والفرائض عن عبدالله الغمارى المالكى . والحديث عن الحافظ شرف الدين الدمياطى ، وسعد الدين الحارثى وغيرهما . وأخذ النحو عن أبى حيان ، والتصوف عن تاج الدين بن عطاء الله . وكثيرون غيرهم .

ولما استوى علمه ، واعتدل منطقه ، واتزن فكره ، وعذب لسانه ، وانطلق جنانه ، انبرى للفتيا والتدريس والإفادة ، وجنح للتأليف والتصنيف . وازدحم الطلاب على دروسه .

وقد ربطت الصداقة أواصرها بينه وبين كثير من أفذاذ عصره ، وقرّبه تواضعه إلى قلوب الناس ، فاتسع جاهه ، ونفذت كلمته . وقل أن تجد من وقعت

بينه وبين هذا الشيخ ، عداوة أو ملاحاة . وإن تكن ، فبسبب من العلم وثيق . أو بسبب وظيفة فى يد الشيخ ، امتدت إليها الأبصار .

وممن وقعت بينه وبين الشيخ ، الوقائع ، الشهاب بن فضل الله العمرى ، الكاتب المشهور — ولم يذكر ابنه سببها — ومنهم التقى بن تيمية ، وقد كانت بينهما مناظرات ، بسبب رأى ابن تيمية فى الطلاق وزيارة القبور ، وقد قرر فيها السبكى مذهب الشافعية .

وقال ولده فى الطبقات [1] فى ترجمة عمر بن أبى الحمراء الكنتانى ، وكانت بينهما مجادلات : « وكان ابن الكنتانى أسن من الشيخ الإمام . ثم حصل للشيخ الإمام من الرواج والشهرة والعظمة فى أنفس الناس ، ما هو جدير بأضعافه . فصار بهذا السبب عند الثلاثة : ابن الكنتانى وابن عدلان وابن الأنصارى ، ما يكون بين أهل العصر . ولم يكن فيهم إلا من هو أعلى سنا من الشيخ الإمام رحمهم الله . »

وبهذه المناسبة نذكر أن حياة تقى الدين السبكى كانت موزعة بين مصر والشام . ويفهم مما كتبه عنه ولده أنه دخل القاهرة قادما من بلده قرب وفاة الشيخ ابن دقيق العيد أى فى نحو عام ٧٠٢ هـ أى وسنه فى نحو العشرين . وكانت هذه هى المرة الثانية . أما المرة الأولى ففبل هذه بزمن طويل . ثم رحل إلى الشام عام ٧٠٦ هـ . طلبا للحديث وعاد إلى القاهرة عام ٧٠٧ هـ . وذهب إلى الحجاز حاجا عام ٧١٦ هـ ثم عاد واستقر بمصر زمنا طويلا زاول فيه الإفتاء والتدريس والتأليف ، وازدهر فيه بصفة خاصة تأليفه ، ورد فى تلك الحقبة على ابن تيمية . وكان بيده من الوظائف فى ذلك الحين مشيخة جامع ابن طولون ، ثم نُزعت منه عام ٧١٩ هـ . ثم عادت إليه عام ٧٢٧ هـ فاستمرت فى يده إلى سنة ٧٣٩ هـ . ثم ولى قضاء الشام وذلك فى عهد الناصر محمد بن قلاوون . طلبه السلطان المذكور فى تلك السنة بعد وفاة قاضى الشام جلال الدين القزوينى وأراده على ولاية منصبه ، فأبى . فمازال به السلطان حتى ألزمه قبوله . فظل به حتى عام ٧٥٦ هـ : وهناك فى الشام جلس فى دار للحديث

١ ـ الطبقات ج ٦ ص ٢٤٥ .

تدعى « الكلاسة » وطفق يقرأ الحديث فيهـــا . وولى دار الحديث الأشرفية بعد وفاة شيخها الحافظ المزى . ثم ولى التدريس بالمدرسة الشامية البرانية ، لمامات مدرسها الشيخ شمس الدين بن النقيب . ووكل إليه أيضاً تدريس المدرسة المنصورية بعد عزل شيخها قاضى القضاة جمال الدين الزرعى . وبسبب هذه المدرسة وقعت الأحقاد بين الشيخ وبين نائب الشام الأمير أرغون فإنه كان صديقاً للزرعى - وكان وقت تولية الشيخ بالحجاز يحج - فلما عاد عزم على إعادة الزرعى إليها ولكنه فوجىء بمؤامرات ضده لم تمكنه من تنفيذ عزمه .

ظل القاضى تقى الدين السبكى زمنا طويلا ببلاد الشام - وكان يفضلها عن مصر نظرا لتوافق هوائها ومزاجه الجسمانى . حتى وافت سنة ٧٥٥ هـ فضعف جسده ولحقه هزال الكبر ، فأعد العدة للرحيل إلى الديار المصرية فسار عام ٧٥٦ هـ فلبث بها أياماً انتابه بعدها الموت المحتوم (١) . فدفن بجنازة حافلة قال ابنه تاج الدين يصفها مانصه :

« أجمع من شاهد جنازته على أنه لم ير جنازة أكثر جمعاً منها ، قالوا إنه لمامات ليلا بالجزيرة ، ما انفلق الفجر إلا وقد ملأ الخلق ما بين الجزيرة إلى باب النصر . ونادت المنادية : « مات آخر المجتهدين ، مات حجة الله فى الأرض . مات عالم الزمان . وهكذا . ثم حمل العلماء نعشه وازدحم الخلق بحيث كان أولهم على باب منزل وفاته وآخرهم فى باب النصر . وقيل لم يحاك ما يقال على جنازة الإمام أحمد ابن حنبل سوى جنازة الشيخ الإمام فى كثرة اجتماع الناس تغمده الله برحمته » .

ولما مات رثاه كثيرون من أدباء زمانه ومنهم الأديب ابن نباتة ، وصلاح الدين الصفدى وكانا صديقين له . ومنهم برهان الدين القيراطى :

فمن قصيدة ابن نباتة جمال الدين فى المطلع :

نعاه للفضل والعليـاء والنسب ناعيه للأرض والأفلاك والشهب

---

(١) روى جورجى زيدان قال إن تقى الدين انقطع فى آخر حياته بقرية على شاطىء النيل ، بسبب حزن أصابه على موت ابنه ، حتى دفن سنة ٧٥٦ هـ

وكما رثاه الشعراء فى وفاته ، مدحه الكثيرون منهم فى حياته ، وفى هذا دلالة على ماله من سمو المنزلة وعلو الجاه .

أقوال المؤرخين فيه [١] :

١ — ذكره شمس الدين الذهبى فى معجمه المختصر ، وفى معجم شيوخه ، وفى تذكرة الحفاظ . ومما قاله عنه وهو ممن شهده : « القاضى الإمام العلامة الفقيه المحدث الحافظ فخر العلماء . . . وكان صادقا ثبتا خيرا دينا متواضعا حسن السمت من أوعية العلم يدرى الفقه ويقرره ، وعلم الحديث ويحرره . والأصول ويقررها ، والعربية ويحققها . ثم قرأ بالروايات على تقى الدين بن الصائغ ، وصنف التصانيف المتقنة ، وقد بقى فى زمانه الملحوظ إليه بالتحقيق والفضل . سمعت منه وسمع منى وحكم بالشام وحمدت أحكامه . فالله يؤيده ويسدده . سمعنا معجمه بالكلاسة . »

٢ — وذكره ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار . وكانت بينهما وحشة فيما قال :

« حجة المذاهب ، مفتى الفرق ، قدوة الحفاظ آخر المجتهدين ، قاضى القضاة تقى الدين أبو الحسن صاحب التصانيف التقى البر العلى القدر ، سمّى على كرم الله وجهه الذى هو باب العلم ، ولا غرو إن كان هذا المدخل إلى ذلك الباب . والمستخرج من دقيق ذلك الفضل هذا اللباب . والمستمير من تلك المدينة إلى ذلك الباب » . وكلمته فيه مطولة مكتوبة بأسلوبه الأدبى المسجوع . . وقال فى آخرها : « انتهت إليه رياسة العلم فى القرآن والحديث والأصلين والفقه » .

٣ — وذكره صلاح الدين الصفدى خليل بن أيبك فى كتابه أعيان العصر . وكانت بينهما مودة . ومما قاله : « الإمام العالم العامل الزاهد العابد الورع الخاشع البارع العلامة ، شيخ الإسلام حبر الأمة مفتى الفرق المقرىء المحدث الرحلة المفسر الفقيه الأصولى البليغ الأديب المنطقى الجدلى النظار جامع الفنون علامة

(١) نقلا عن طبقات السبكى وحسن المحاضرة .

الزمان قاضى القضاة أوحد المجتهدين . » وكلمته فيه مطولة أيضاً على أسلوبه الكتابى الفاضلى وعلى نمط كتابة ابن فضل الله .

ومما قال له فيه الصفدى أيضاً « الناس يقولون : ما جاء بعد الغزالى مثله ، وعندى أنهم يظلمونه بهذا وما هو عندى إلا مثل سفيان الثورى » .

٤ — وقال عنه شهاب الدين بن النقيب صاحب مختصر الكفاية :

« جلست بمكة بين طائفة من العلماء ، وقعدنا نقول : لو قدر الله تعالى بعد الأئمة الأربعة فى هذا الزمان مجتهدا عارفا بمذاهبهم أجمعين ، يركب لنفسه مذهبا من الأربعة ، بعد اعتبار هذه المذاهب المختلفة كلها ، لا زدان الزمان به ، وانقاد الناس له . فاتفق رأينا على أن هذه الرتبة ، لا تعدو الشيخ تقى الدين السبكى ولا ينتهى لها سواه . » .

بحوثه ومؤلفاته :

لتقى الدين السبكى بحوث كثيرة العدد ، وفتاوى لا تحصى فى مسائل شرعية وغير شرعية ، وقد أثبت ابنه تاج الدين فى طبقاته كثيرا من مقالاته وفتاويه . ومن بين فتاويه الشرعية ما وافق مذهب الشافعية ، ومنها ما صدر عنه باجتهاده .

وله عدد من المؤلفات والرسائل ضخم ، فى التفسير والحديث والفقة والنحو والأصول وغير ذلك . وكثير منها لم يكمله ، كما أن منها رسائل صغيرة فى ورقات . وعُنى — كعناية علماء عصره ومنطق اتجاههم — بشرح الكتب المتقدمة أو اختصارها .

ومما ذكره ولده من مؤلفاته ما يلى :

١ — الدر النظيم فى تفسير القرآن العظيم ، لم يكمل . ٢ — تكملة المجموع فى شرح المهذب . وهو تكملة لشرح الكتاب المذكور مبنيا على ماشرحه منه النووى . وصل فيه السبكى من باب الربا إلى أثناء التفليس : فى خمس مجلدات . ٣ — التحبير المهذب فى تحرير المذهب ، وهو شرح مبسوط على المنهاج . كتب بعضه . ٤ — الابتهاج فى شرح منهاج النووى ، وصل فيه إلى أوائل الطلاق . ٥ — الابهاج

فى شرح المنهاج فى أصول الفقه . كتب بعضه ، وأكمله ابنه تاج الدين ٦ — رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب : كتب بعضه ، ولم يعثر ابنه له على أثر . فوضع من عنده كتابا جديدا سماه نفس الاسم ، وكتاب تاج الدين موجود بدار الكتب المصرية . فى أصول الفقه . ٧ — كتاب التحقيق فى مسألة التعليق : وهو رد على ابن تيمية فى مسألة الطلاق . ٨ — شفاء السقام فى زيارة خير الأنام ، وهو رد على ابن تيمية فى إنكار السفر للزيارة . ٩ — السيف المسلول على من سب الرسول صلى الله عليه وسلم . ١٠ — التعظيم والمنة فى «لتؤمنن به ولتنصرنه» . ١١ — نور الربيع من كتاب الربيع ، وهو حافل ، وضعه على كتاب الأم للشافعى : كتب بعضه . ١٢ — الإقناع فى الكلام على أن «لو» للامتناع . ١٣ — وشى الحِلى فى تأكيد النفى بلا . وهو رد على ابن الكنتانى . ١٤ — الاعتبار ببقاء الجنة والنار . ١٥ — ضرورة التقدير فى تقويم الخمر والخنزير . ١٦ — السهم الصائب فى قبض دين الغائب . ١٧ — فصل المقال فى هدايا العمال . ١٨ — إبراز الحكم من حديث رفع القلم . ١٩ — القول الصحيح فى تعيين الذبيح . ٢٠ — الاقناع فى تفسير قوله تعالى «ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع» . ٢١ — الإغريض فى الحقيقة والمجاز والكناية والتعريض . ٢٢ — المواهب الضرورية فى المواريث الصفدية . ٢٣ — الطريقة النافعة فى المساقاة والمخابرة والمزارعة ٢٤ — الغيث المنهمل فى ميراث ابن المعتق ٢٦ — نور المصابيح فى صلاة التراويح ٢٧ — الكلام على حديث: «إذا مات ابن آدم ، انقطع عمله إلا من ثلاث» . ٢٨ — القول المحمود فى تنزيه داود . ٢٩ — عقود الجمان فى عقود الرهان والضمان . ٣٠ — تفسير قوله تعالى : «يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا» . ٣١ — كشف الدسائس فى هدم الكنائس . ٣٢ — معنى قول الإمام المطلبى : «إذا صح الحديث فهو مذهبى» . وله غير ذلك .

وكثير من رسائله ومصنفاته مفقود ، والموجود منها أكثره مخطوط . ومما له فى دار الكتب المصرية : إبراز الحكم من حديث رفع القلم . وشرح قول الشافعى

« إذا صح الحديث فهو مذهبي » . وهما فى الحديث . وشفاء السقام فى زيارة خير الأنام . وهو فى علم الكلام : ورسالة فى العام المخصوص ، والعام الذى أريد به الخصوص ، وهو فى أصول الفقه . والقول المحمود فى تبرئة سيدنا داود : فى الحديث . وأحكام كُلٌّ وما تدل عليه : فى النحو . وكنز الذخائر وهدية المسافر .

التعريف ببعض مؤلفاته :

١ — إذا صح الحديث فهو مذهبي :

هذه العبارة مأثورة عن الإمام الشافعى رضى الله عنه . وقد كتب تقى الدين السبكى رسالة تقع فى نحو ثمانى صفحات ، فى توضيحها وبيان مراد الإمام منها . وذلك ردا على سائل سأله فى هذا الموضوع .

قرأت هذه الرسالة مطبوعة ، بدار الكتب بالمنصورة . وهى مجلدة مع عدة رسائل أخرى لعلماء آخرين ، منهم التقى بن تيمية .

وقد بدأ الرسالة بذكر جميع الروايات — أو كثير من الروايات — التى رُوى بها هذا القول المأثور ، عن الإمام الشافعى ، على نمط من ذكر روايات الأحاديث النبوية .

وقد بدأ الحديث بقوله مخاطباً من سأله : « سألت وفقك الله عن قول إمامنا الشافعى رضى الله عنه : « إذا صح الحديث فهو مذهبى » . وهو قول مشهور عنه ، لم يختلف الناس فى أنه قاله . ورُوى عنه معناه أيضاً بألفاظ مختلفة » .

وطفق الشيخ بعد ذلك ، يذكر روايات هذا القول بأسانيدها .

ثم عقد فصلاً أورد فيه كيفية العمل بقول الشافعى المذكور . وأنه قد يعمل تابع الشافعى بحديث صح عنده ، ويترك رأى الشافعى فى مسألته ، إذا كان مخالفا للحديث . وبيّن أن الشافعى قد يكون لديه من الأسباب ما منعه من الأخذ بهذا الحديث فتركه . وهكذا . وأخذ يضرب لذلك أمثالا عدة بأحاديث وحوادث معينة ذكرها برجالها .

وقد عقد بعد هذا الفصل ، فصولا أخرى تدور على ما دار عليه الفصل الأول ، مع استشهادات جديدة ، ومع استطرادات موضحة .

٢ — تكملة المجموع [١] :

يعتبر رجال الفقه الشافعى ، كتابَى « الوسيط » للإمام أبى حامد الغزالى ، المتوفى عام « ٥٠٥ هـ » ، و « المهذب » لأبى إسحق الشيرازى المتوفى عام « ٤٧٦ هـ » من أمهات كتب مذهبهم . وقد حظى الكتابان بعناية الشافعية دراسة وشرحا ، وما إلى ذلك .

وقد كان من نصيب « المهذب » أن تناوله فيمن تناول ، رجلان من رءوس الشافعية فى العصر المملوكى ، هما : محيى الدين النووى ، وتقى الدين السبكى . فشرح كل واحد منهما جانبا من كتاب المهذب . أما النووى فهو أسبق من السبكى فى الشرح ، وقد سمى شرحه « المجموع » ، وهو فى شرح المهذب من أول أبوابه إلى الربا . وفى دار الكتب المصرية ، يوجد هذا الشرح مخطوطا فى خمسة مجلدات .

أما السبكى فقد بنى على ما شرحه النووى ، وأراد أن يكمل على نمطه شرح المهذب ، فبدأ حيث انتهى النووى ، من باب الربا . غير أنه وصل إلى أثناء التفليس . ولم يتم شرحه إلى نهاية المهذب . ويسمى شرح السبكى « تكملة المجموع » ، وفى دار الكتب المصرية ، يوجد من هذا الشرح أربعة مجلدات مخطوطة .

وقد تكونت فى عام ١٩٢٥ م لجنة كبيرة من أفاضل علماء الأزهر ، وبذلوا الهمة فى طبع المجموع والتكملة . وهو مجهود مشكور — ويا حبذا لو بذلوا الهمة فى إكمال شرح المهذب إلى نهايته ، على نمط من شرح النووى والسبكى : إذن لتم للشافعية كتاب ضخم قيم فى فقه مذهبهم . ونرجو أن يوفقوا فى القريب .

وقد بدءوا فى طبع « المجموع » للنووى ، فبلغ تسعة أجزاء ضخمة . ثم بالتكملة

---

(١) استدراك هام : وعدنا فى ص ٢٠٢ ، فى سياق ترجمة النووى أننا سنشير إلى كتابه (المجموع) عند ترجمة التقى السبكى ، وها نحن أولاء نشير إليه . وبهذه المناسبة نقول إننا رأينا بالصفحة المذكورة أن المجموع هو شرح تهذيب الرافعى . والصواب أنه شرح مهذب أبى إسحق الشيرازى . وقلنا فى ص ٢٠٣ ، أن شرح التهذيب للنووى لم يطبع . والصواب أنه مطبوع ، كما بينا فى أعلى هذا الكلام .

فبلغت ثلاثة أجزاء على نمطها ، وقد جعلوا شرحى هذين الفاضلين فى أعلى الصفحات أما أسفلها فقد طبع فيه كتاب « فتح العزيز فى شرح الوجيز » ، وهو لأبى القاسم الرافعى المتوفى عام ٦٢٣ هـ . ويليه كتاب « التلخيص الحبير فى تخريج أحاديث الرافعى الكبير » ، وهو لابن حجر العسقلانى المتوفى عام ٨٥٢ هـ .

ويعتبر كتابا المجموع والتكملة مجتمعا لزبد آراء أصحاب المذهب . فهما لذلك عمدة فيه . وعبارة الكتابين سهلة واضحة ، وإن احتاجت إلى مرانة للانسياب وقت مطالعتها مع أساليب الفقهاء .

وبدهى أن الشارحين الجليلين اعتمدا على عشرات من كتب أصحاب المذهب المتقدمين ، وما اتصل بهما من كتب الحديث والتاريخ والطبقات ونحو ذلك ، للإفادة منها . وقد ذكر بعض هذه المؤلفات فى التقديم .

ونحن وإن شدنا هنا بمجهود تقى الدين السبكى ، لا ننسى فضل النووى وتوفيقه السريع فى شرحه وضبط عباراته ودقة ألفاظه ، حتى عبرت — كما قال التاج السبكى — عن خلاصة آراء أصحاب المذهب ، حتى كأنه ألهم معرفتها عن غير قصد . . .

٣ — شفاء السقام فى زيارة خير الأنام :

وهذا كتاب قيم لطيف للتقى السبكى ، دفعه إلى تأليفه ، ما أثاره تقى الدين ابن تيمية ، بشأن تحريم زيارة القبور فهـــو كأنه رد على بعض ما ذهب إليه ابن تيمية . وقد أورد فيه المؤلف كثيرا من الأحاديث المروية فى زيارة قبر الرسول عليه السلام ، واستحبابها ، سواء أكانت مروية عن الرسول أم عن غيره من فضلاء الصحابة ، ذاكرا نصوص العلماء الأجلاء القاطعة باستحباب زيارة قبر الرسول عليه السلام . مبينا أن الزيارة والسفر إليها قربة من القربات ، داحضا أقوال المنكرين المحرمين للزيارة الذين يدعون أن أحاديث الزيارة موضوعة ، وأن السفر إليها بدعة غير مشروعة . وتناول بالحديث عدة موضوعات منها التوسل والاستعانة والشفاعة .

واختتم كتابه بخاتمة فى الصلاة والسلام على النبى الكريم . فصلى عليه بجملة من الأحاديث المروية فى طريقة الصلاة عليه .

والكتاب سهل هين الأسلوب واضح المعانى تفتتح فصوله غالبا بآيات من القرآن الكريم مناسبة لموضوع الفصل ، ويأخذ المؤلف فى شرحها ، مستنبطا منها الحجج والأدلة على صدق ما ذهب إليه من الرأى . ويدعم ذلك بالمناسب أيضاً من الحديث النبوى ، والمأثور من أقوال العلماء ، وآراء السلف الصالح .

وقد افتتح أحد فصوله بالآية الشريفة : « ولو أنهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما » . والظاهر من الآية أن الكلام ، فيمن يجيئون إلى النبى عليه السلام ، وهو حى . فيستغفرون لديه الله سبحانه وتعالى . ويستغفر لهم الرسول . حينذاك يجدون الله توابا رحيما . وهذه منزلة للنبى عليه السلام لا تنتهى بموته . بل تبقى له بعد وفاته . تكريما له وإعلاء لشأنه . ومن هنا يتضح استحباب زيارة قبره الشريف . وعلى نسق من هذا سار السبكى فى هذا الكتاب النافع . وقد طبع منذ أمد بمطبعة بولاق الأميرية .

فتاواه :

للتقى السبكى فتاوى كثيرة ، أورد ابنه تاج الدين فى طبقاته ، كثيرا منها . وقد ذهب ابنه ، إلى أن الفتاوى التى اجتهد فيها الشيخ ، ولو خالف فيها النووى - وهو المعمول برأيه - يلزم المقلد فى المذهب ، العمل بها ، ولا ينبغى له الخروج عنها . ما لم يصل إلى رتبة الاجتهاد . وعلل ابنه رأيه هذا بقوله فى أبيه « لأنه إمام مطلع على مأخذ الرافعى والنووى ، ونصوص الشافعى ، وكلام الأصحاب . وكانت له القدرة التامة على الترجيح ، فمن لم يلته إلى رتبته . وحسبه من الفتيا النقل المحض ، حق عليه أن يتقيد بما قاله . » الخ .

ونورد هنا بعض هذه الفتاوى التى خالف فيها النووى ، وقد يخالف فيها الرافعى نوردها باختصار فمنها : (١) أن المنى ينقض الوضوء (٢) أن فضلات النبى عليه السلام طاهرة . (٣) أن تحلية الكعبة وسائر المسجد بالذهب والفضة حلال .

(٤) أن العاصى بسفره ، لا يتيمم ، لأن سفره معصية ، فلا يتعلق به رخصة. فعليه أن يعود ، لا سيما إذا أمكنه الرجوع والصلاة بالماء ، قبل خروج الوقت. (٥) أن الحائض والجنب لا يجيبان المؤذن إذا سمعاه. (٦) أن وقت الأذان الأول للصبح قبل طلوع الفجر — قال وهو وقت السحر. (٧) أن العبد الفقيه فى إمامة الصلاة ، أولى من غير الفقيه ، وإن كان حرا . (٨) أنه لا يجوز جمعتان فى بلد واحد ، وإن عظم وعسر اجتماع أهله فى جامع واحد. الخ.

أدبه :

كان تقى الدين السبكى أديباً على مثال ابن دقيق العيد. فيه روح الأديب ، وإن غلبت عليه النزعة العلمية. وحسبنا ما دبجته يراعته من المؤلفات العلمية دليلا على كتابته. وله فضلا عن ذلك شعر رائق. روى منه ابنه فى طبقاته شيئا ، وتدور أغراضه الشعرية حول : الحكمة وإسداء النصيحة ، وإظهار الزهد ، وإعلان التوكل على الله ، وشىء من التصوف ومن الفخر والمدح والتهكم والغزل. وله أراجيز علمية ، وقصائد علمية كثيرة ، فى النحو ، وعلم الكلام ونحوهما. وقد مدح النبى عليه السلام بقصيدة لطيفة تائية تزيد على مائتى بيت تعرف بكنز الذخائر. وهى مخطوطة بدار الكتب. ولها شرح مخطوط جليل منسوب إلى الجلال المحلى ، بالدار أيضاً.

وترى الروح الدينية سارية فى أشعاره ، ولفظه سهل لطيف واضح المعانى ، وإن خالطته مصطلحات وأقيسة منطقية وتقاسيم علمية. ومن شعره مما روى فى الطبقات :

١ — قال فى وصف الرافضة [1] ، وكان قد وقف على كتاب لابن تيمية فى الرد على ابن المطهر الرافضى : فذكرهم وذكره معهم :

---

(١) الرافضة : فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن على ، ثم قالوا له : تبرأ من الشيخين (أبى بكر وعمر) ، فأبى وقال : كانا وزيرى جدى ، فتركوه — المحيط.

فقال :

إن الروافض قوم لا خلاق لهم ... من أجهل الخلق فى علم وأكذبه
والناس فى غنية عن رد إفكهم ... لهجنة الرفض واستقباح مذهبه
وابن المطهر لم تطهر خلائقه ... داع إلى الرفض غال فى تعصبه
لقد تقول فى الصحب الكرام ولم ... يستحى مما افتراه غير منجبه
ولابن تيمية رد عليه وما ... بمقصد الرد واستيفاء أضربه
لكنه خلط الحق المبين بما ... يشوبه كدرا فى صفو مشربه ... الخ

٢ — وقال فى الغزل :

قلبى ملكت فما به ... مرمى لواش أو رقيب
قد حزت من أعشاره ... سهم المعلى والرقيب
يحييه قربك إن منحت ... ولو بمقدار تغيب
يا متلفى ببعاده ... عنى أما خفت الرقيب

٣ — وقال فى الحكمة والدعوة إلى طلب العلم :

كمال الفتى بالعلم لا بالمناصب ... ورتبة أهل العلم أسنى المراتب
هم ورثوا علم النبيين فاهتدى ... بهم كل سار فى الظلام وسارب
ولا فخر إلا إرث شرعة أحمد ... ولا فضل إلا باكتساب المناقب
وبحث وتدقيق وإيضاح مشكل ... وتحرير برهان وقطع مغالب ... الخ

هذا وقد بارك الله سبحانه وتعالى فى أسرة السبكى ، فمنها الإمام تقى الدين ، وابناه تاج الدين صاحب الطبقات ، وبهاء الدين أبو حامد . وقد طبع حديثا أحد الفضلاء كتابا فى تاريخ هذه الأسرة ، ورجالها .

(ترجمته فى (١) طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى ج ٦ ص ١٤٦ ، وفى مواضع كثيرة من هذا الجزء ، وبخاصة فى تراجم المعاصرين . (٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٥ ، ١٦٧ (٣) عقود الجوهر لجميل العظم ج ١ ص ١٨١ (٤) جورجى زيدان ج ٣ ص ٢٤٠ (٥) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ١٤٨ . (٦) وفى دار الكتب مخطوط مستقل فى ترجمته ، جمعه ابنه تاج الدين من طبقاته (تاريخ ١٦٣٤)

٧ـ ولى الدين بن خلدون ٧٣٢هـ ٨٠٨هـ

لم يطاوعنى ضميرى فى أن أترك ترجمة هذا الرجل الفذ النادر المثال، دون أن أبرزها بين تراجم رجال مصر وجهابذتها، فى العصر المملوكى، ودون أن أضيف مجده إلى مجدها.

وحقا يضاف هذا الرجل إلى بلاد المغرب، حيث موطنه وموطن أجداده، وحيث منشؤه، ومرابعه ومراتعه فى شبابه وصباه. تلك البلاد التى تناول رحيق العلم من ينابيعها، وكئوس الأدب من مناهلها. ولابس أهلها وعاشرهم، واتصل بدولها وملوكها ورجالها، وتربع فى كثير من مناصبها الرفيعة.

ولكن للرجل بمصر صلة وثيقة، تؤهله لأن يكون رجلا من رجالها، وبطلا من أبطالها. فقد وفد عليها، وتوطنها نحو ثلاث وعشرين سنة. وتقلد منصب قضاء المالكية فيها عدة مرات. وخرج مع سلطانها مرة، فى حربه مع التتار ببلاد الشام، وأسره التتار فيمن أسروا من علماء مصر. وأخيرا مات ودفن فى أرضها.

اسمه:

هو ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر ابن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون التونسى الحضرمى الاشبيلى المالكى.

مولده ووفاته:

ولد ابن خلدون فى تونس، فى أول رمضان عام ٧٣٢ هـ، وتوفى بمصر فى ٢٦ رمضان عام ٨٠٨ هـ، ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر.

أسرته:

ولد ابن خلدون من أسرة عريقة فى المجد، اشترك كثير من أفرادها فى العلم والسياسة. ووصلوا إلى الرياسة فى بعض الأحيان.

ويرجع نسبها إلى أصل عربى، فهم ينتسبون إلى وائل بن حجر، من عرب

اليمانية المقيمين فى حضر موت فى الزمن القديم . وكان قيلا من أقيالها ، وفد على النبي عليه السلام ، فبسط له رداءه ، ودعا لولده .

ولما فتح العرب بلاد الأندلس ، وجلت إليها قبائل عدة ، كان فيمن جلا إليها فى القرن الثالث الهجرى ، خلدون بن عثمان بن الخطاب ، من نسل وائل المذكور . وهو أول جد لهذه الأسرة ، نزل ببلاد الأندلس . وقد وفد إليها فى عداد جنود اليمانية . فنزل فى مدينة « قرمونة » ، واستقر بها حينا ، ثم نزح إلى « أشبيلية » وهناك عرفت أسرته واشتهر أمرها . وعلا جدها . واشترك منهم رجال ذوو همة فى سياسة الدولة وقيادة الجند ، وما إلى ذلك ، فى أيام حكم بنى أمية ، أواخر القرن الثالث الهجرى .

وقد اطردت مشاركتهم هذه ، وارتقى بعضهم إلى مرتبة الوزارة فى عهد بنى عباد ملوك أشبيلية ، زمن الطوائف ، ثم فى عهد المرابطين والموحدين من ملوك البربر . وحظوا — بخاصة — لدى أبى حفص زعيم هنتاتة ، ووالى أشبيلية من قِبَل الموحدين .

ولما ضعف أمر الموحدين بالأندلس ، واشتد أزر الفرنجة ، ولم يستطع بنو الأحمر ، أن يحتفظوا بأشبيلية ، فاضطرب الأمر فيها ، وساء العيش فى رحابها ، رحل بنو خلدون منها إلى سبتة . ثم نزح كبيرهم ، وهو الحسن بن محمد بن خلدون — الجد الرابع للمترجم — إلى مدينة بونة مقيما فى كنف أبى زكريا الحفصى أمير افريقية « تونس » ، وأسس بيتاً جديداً لبنى خلدون ، وذلك فى القرن السابع الهجرى وتمتع بنو خلدون فى دولة الحفصيين ، بنفوذ وجاه عريض .

ومن بنى خلدون : أبو بكر ، الجد الثانى للمترجَم . وقد ولى أمور الدولة الحفصية فى عهد سلطانها أبى اسحق ، ثم اعتقل فى بعض الحوادث . ثم هجر الاشتغال بالشئون العامة .

ومنهم ابنه ، وهو الجد الأول للمترجم ، وقد ولى منصب الحجابة فى ولاية بجاية ، لأبى فارس الحفصى بن أبى اسحق ، وكان مستقلا بهذه الولاية ، ثم مازال ، حتى هجر الحياة العامة كذلك .

ومنهم والد المؤرخ ، وهو محمد ، وقد غيّر نهج أجداده ، وعاف الاشتغال بالسياسة والإدارة ، وعكف على تحصيل العلم ، حتى صار أحد فقهاء زمانه ، وأدبائه ، وقد توفى عام ٧٤٩ هـ .

وهكذا ترى أن ابن خلدون انحدر من أسرة عريقة فى العلم والسياسة ، وهما قوام ما يتمنى المرء لنفسه من شرف ، فلا غرابة أن برز فيهما ابن خلدون ، ونزع منزع أهله ، إلى طلب المجد والسيادة . وعاونه على بلوغهما ذكاء فطرى ، وميل طبعى إلى العلم والأدب .

تعلمه وشيوخه :

ولد ابن خلدون بتونس ، وكانت حينذاك تموج بجلة من العلماء ، ممن نشئوا فيها ، أو جلوا إليها من المغرب الأقصى والأندلس لكثرة ماكان فيهما من ثورات وفتن . فانتفع بهم ابن خلدون . وأول ما تعلم على أبيه ، وحفظ القرآن الكريم ، ومبادىء اللغة ودرس الأدب والفقه ، وحفظ المعلقات وديوان الحماسة ، وأتقن القراءات السبع ، وأجاد النحو والأصول ، وتمذهب بمذهب مالك . وقرأ كتب الحديث والتفسير ، ودرس المنطق والفلسفة والكلام على مذهب الأشاعرة ، وغير ذلك من العلوم .

ومن أجل شيوخه : أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحيانى ، وأبو القسم محمد بن القصير ، وأبو سعيد البراذعى ، وقاضى الجماعة أبو عبد الله محمد بن عبد السلام ، وأبو عبد الله الوادياشى ، وأبو البركات البلفيقى ، وأبو عبد الله محمد بن سعد بن بزال الأنصارى وغيرهم كثيرون .

طرف من حياته :

١ — ابن خلدون فى تونس :

ظل ابن خلدون فى تونس يطلب العلم ، ويجد فى التحصيل ، حتى أصيبت بلاده — كما أصيب غيرها — بذلك الطاعون الجارف عام ٧٤٩ هـ . فهلك فيه أبوه وكثير من شيوخه وذوى قرابته ، فامتلأ حزنا عليهم . ولعل هذا الحادث قد عجّل به إلى الاندماج فى سلك الوظائف الإدارية ، يجرب فيها حظه ، ويدرج فيها نحو آماله .

وكان أول عمل تولاه هو كتابة « العلامة » لسلطان تونس أبى اسحق الحفصى . وهى « الحمد لله والشكر لله » ، وكانت تكتب بالخط الغليظ بين البسملة وما بعدها . ولما كان هذا العمل تافها بالنسبة لمواهب ابن خلدون الممتازة ، وآماله الواسعة فقد تطلع إلى عمل سواه .

٢ — ابن خلدون فى المغرب الأقصى :

وكان المغرب الأقصى حينذاك يحكمه أبو عنان المرينى ، الذى انتهز فرصة ، فأغار على تونس ، فتسلل إليه ابن خلدون فاحتفل أبو عنان بقدومه . واستدعاه من لدن أمير بجاية الخاضع له ، فوفد عليه بحاضرته فاس عام ٧٥٥ هـ . وكان أبو عنان مولعا بالعلم والعلماء ، وحشدهم فى بلاطه . فضم ابن خلدون عضوا بمجلسه العلمى ووكلت إليه بعض المناصب الإنشائية .

انتهز ابن خلدون فرصة لقائه بفضلاء علماء المغرب ، وأخذ يتلقن عنهم العلم تارة ، ويناظرهم فيه تارة أخرى ، فقضى بذلك مرحلة علمية هامة ، كان لها أكبر الأثر فى ثقافته ، كما كانت سببا فى تقدم منزلته لدى أبى عنان .

غير أنه أثار بذلك ثائرة الحقد والحسد ، فى نفوس بعضهم . فغيّروا خاطر السلطان عليه . ولا سيما أنه علم بتآمره ضده ، مع أمير بجاية . فوضعها فى السجن وأخذ ابن خلدون يستعطفه بشعره ، حتى وعد بإطلاقه . غير أن المنية عاجلت

أبا عنان ، وتولى السلطنة بعده ابنه الطفل ، فاستبد بدولته وزيره الحسن بن عمر . فأطلق سراح ابن خلدون ، ورد عليه وظائفه .

ثار أبو سالم المرينى أخو أبى عنان ، على ابن أخيه ووزيره . فانضم ابن خلدون إلى الثائر ، وعاونه حتى بايعت البلاد أبا سالم سلطانا عليها . فاتخذ ابن خلدون كاتبا لسره ، ومنشئا لرسائله ، ومستشارا . وبعد عامين ولاه خطة المظالم وهى منصب قضائى جليل الشأن .

أخذ الحقد والحسد يدب دبيبهما من جديد ، فى نفوس نظرائه ، فوشوا به إلى السلطان أبى سالم . حتى تغيرت عليه نفسه . فشعر بذلك ابن خلدون فسارع بالتآمر ضده ، مع الناقمين عليه . ونجح فى خلعه ، وتولية أخيه « تاشفين » المرينى . غير أن ابن خلدون لم يجد فى هذا الانقلاب الجديد ما يحقق مأربه ، وخشى على نفسه مغبة مغامراته ، فرحل عن البلاد بعد مشقة ، ويمم شطر الأندلس .

٣ ـ ابن خلدون فى بلاد الأندلس :

كان السلطان أبو عبد الله محمد بن الأحمر ملك غرناطة ، ووزيره لسان الدين ابن الخطيب ، قد فرا إلى المغرب الأقصى ، عقب ثورة جامحة استولى بسببها أخو السلطان ، وهو إسماعيل ، على سلطنة غرناطة . وهناك فى بلاد المغرب تعرف بهما ابن خلدون ، وعاونهما على حياتهما .

فلما نبا به المقام ببلاد المغرب ـ كما تقدم ـ وكان أبو عبد الله محمد بن الأحمر قد استرد عرشه ، ولحق به وزيره ابن الخطيب ، رأى ابن خلدون أن يقصدهما فى غرناطة . فقوبل هناك بحفاوة نادرة واستخدمه ابن الأحمر لبعض شئونه ، وضمه إلى حاشيته ، وبعثه سفيرا بينه وبين « بيدرو » ملك قشتالة ، فنجح فى سفارته ، وأعجب به بيدرو ، حتى عرض عليه البقاء معه ، فأبى .

غير أنه ما لبث أن شعر بتغير السلطان عليه ، وكان يخشى ابن الخطيب ، بينه وبين نفسه ، ويعلم أن ابن الخطيب ممن يحبون الانفراد بالمجد . وفعلا أحس بتدبير

ابن الخطيب ضده ، على الرغم من أنهما صديقان .. فتعجل ابن خلدون ، مستأذنا فى الرحيل . ويمم شطر بجاية مكرما ، فى منتصف عام ٧٦٦ هـ .

٤ — ابن خلدون بين إمارة بجاية ومملكة فاس :

كان أمير بجاية قد استرد إمارته ، بعد أن خلص من سجنه ، فاستدعى صديقه ابن خلدون من الأندلس ، ولقيه خير لقاء ، ووكل إليه أمر حجابته ، فأصبح المتصرف فى شئون الإمارة . غير أنه لعب لعبة خاسرة ، إذ أنه تراخى عن نصرة أميره وصديقه ، حيثما ثار عليه ابن عمه أمير قسنطينة وانتزع منه إمارته وقتله . وكان ابن خلدون يأمل فى أن يجد مركزا أرفع وجاها أوسع فى عهد الأمير المعتدى الجديد ، غير أنه ما لبث أن رأى أمله سرابا ، وأيقن بالشر ، ففر . فقبض الأمير على أخى ابن خلدون ، وصادر ممتلكات أسرتهما .

ثم اتصل ابن خلدون بأبى حمو سلطان تلمسان ، واتفقا على الانتقام من أبى العباس مغتصب بجاية ، فلم يفلحا . وسرعان ما تحول ابن خلدون تحولا جديدا إذ انضم إلى السلطان عبد العزيز المرينى ملك المغرب الأقصى ، وعدو سلطان تلمسان ـ وكانت قد خرجت من يده ـ

غير أن عبد العزيز توفى ، ووثب أبو حمو ، فاستعاد تلمسان ، ففر ابن خلدون من وجهه إلى مدينة فاس ، فلبث بها مكرما ، فى عهد سلطانها « السعيد » ووزيرها ابن غازى .

وكانت الأمور قد تحرجت بين حكومة فاس بالمغرب ، وحكومة غرناطة بالأندلس ، بسبب لسان الدين بن الخطيب . حتى أدى ذلك إلى انقلاب جديد فى حكومة فاس ، فتولى أمرها سلطان جديد ووزير جديد . فسلما ابن الخطيب لحكومة غرناطة ، وسجنا ابن خلدون . ثم أطلق سراحه بعد حين .

٥ — ابن خلدون فى عزلته :

إن الظروف الشائكة والمواقف الحرجة التى مرت بابن خلدون ، وطول

كفاحه ومغامراته ، ونجاحه طوراً ، وإخفاقه طوراً آخر ، قد دفعته إلى طلب الراحة والاستجمام . وكثيرا ماتدعو مثل هذه الظروف إلى لون من ألوان اليأس والملل ، يوجه المرء وجهة فى الحياة جديدة . وهذا هو ما وقع لابن خلدون ، فقد طفر فى هذه اللحظة ، حبه للعلم ورغبته فى مزاولته والانقطاع إليه ، على أنقاض تلك الحياة السياسية البالية . فجنح إلى العزلة والتأمل ، على الرغم من أن الدنيا حوله كانت صاخبة ، تدعوه إلى معاودة مغامراته .

اتصل ابن خلدون حينذاك ، ببعض أصدقائه من بنى عريف بقلعة سلامة فى غرب تونس . وانتحى ناحية بأحد قصورهم ، ناجيا من دنيا السياسة إلى دنيا العلم . وأخذ يبحث ويقرأ ويتأمل ، وينظر فى حوادث التاريخ ، ويطوف بين قبائل المغرب يتحسس أخبارها ويستطلع عاداتها وتقاليدها . ويستنبط من كل أولئك — بمعونة تجاربه الماضية — ما لاح لناظره من قوانين اجتماعية شاملة .

هنا دون ابن خلدون كتابه الخالد فى التاريخ ، ومقدمته الفريدة فى فلسفة التاريخ . وهما له وللناس ، خير من حياته السياسية ومغامراته وسط عواصفها .

وقد تحول بكتابه من أن يخصصه على تاريخ دول المغرب ، إلى تعميمه وجعله فى التاريخ العـــام ، يتكلم فيه على جميع الأمم المعاصرة له ، من مغربية وعربية وغيرهما .

وبعد أن لبث ابن خلدون فى عزلته أربع سنوات من ٧٧٦ هـ إلى ٧٨٠ هـ ، عاد إلى تونس ليستكمل بحوثه ، ويستتم مراجعاته فى كتب التاريخ بمكتباتها .

٦ — ابن خلدون فى تونس :

عاد ابن خلدون إلى مسقط رأسه تونس ، بعد أن زايلها زمنا طويلا . وكانت قد دخلت فى طاعة أبى العباس الحفصى أمير قسنطينة وبجاية ، ذلك الذى فر ابن خلدون من وجهه . فاستعاد ابن خلدون رضاه ، ووفد عليه فرحب بمقدمه وما إن علم بما يقوم به ، حتى بادر بتشجيعه ومعونته .

جنح ابن خلدون إلى الاطلاع ، وتردد على مجالس العلماء . ووجد فيه أبو العباس مستشارا نافعاً فى بعض أموره وفى وسط هذه البيئة زادت شهرته ، ووفد عليه الطلاب من الآفاق يتزودون من علمه ويقطفون من ثمار معارفه .

والزمان الذى دأب على محاربة ابن خلدون ، أخذ ينثر الأشواك من جديد فى طريقه . فغصت به نفوس ، وشرقت به حلوق ، وبدأت السعايات تزحف زحف الرقطاء . وكان ابن خلدون قد قصر فى زياراته للسلطان ، لاهيا فى مراجعاته ومدارسته ، فوجد الواشون سبيلهم معبدة مذللة .

شعر ابن خلدون بما يدبر له ، أو يراد به . فعجّل بالإفلات قبل الإطباق ، ولاذ بعد القرب ، بأسباب الفراق مدعياً أنه يخرج من تونس إلى حج بيت الله الحرام . فودعه محبوه وداعا حارا . وركب منها البحر عام ٧٨٤ هـ .

٧ — ابن خلدون فى مصر :

يمم ابن خلدون فى هذه المرة ، البلاد المصرية . وكانت شهرته قد سبقته إليها وكان برقوق سلطانها . وهى تموج فى عهده بنوابغ العلماء والأدباء ، وبينهم الوافدون منهم من أبناء الأمم الإسلامية . فما بلغها ابن خلدون حتى بهرته محاسنها وجذبته مفاتنها ، فحببت له الإقامة فى ربوعها .

تصدى ابن خلدون للتدريس بالجامع الأزهر ، وأقبل عليه الطلاب والعلماء من كل فج ، فاتسعت معرفته بالناس ، وزادت مكانتهم لديه . وتتلمذ له من أبناء مصر ، فحول نابهون ، منهم ابن حجر العسقلانى ، وتقى الدين المقريزى .

واتصل برجال مصر ، وعلى رأسهم سلطانها برقوق . فأكرم مثواه ، وأرغد عيشه ، وأسند إليه الوظائف الجليلة . ومنها التدريس بالمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو بن العاص . ثم أسند إليه منصب قاضى المالكية فى جمادى الآخرة عام ٧٨٦ هـ . ثم عزل فى جمادى الأولى عام ٧٨٧ هـ . ثم أسند إليه التدريس فى المدرسة الظاهرية التى أنشأها برقوق . ثم انتقل منها إلى المدرسة الصرغتمشية

فدرّس فيها موطأ مالك . ثم أسندت إليه مشيخة الخانقاه البيبرسية . ثم عاد إلى تولى قضاء المالكية ولبث أمره فى القضاء بين تولية وعزل ، حتى تولاه ست مرات .

وشهد ابن خلدون عصر السلطان فرج بن برقوق . وخرج معه فى جملة القضاة ، لمحاربة تيمور لنك التترى ، ببلاد الشام . ولكن الخلف دب دبيبه فى صفوف المصريين — ويا للأسف — فخشى السلطان مغبة الأمر ، وأسرع بالعودة إلى مصر ، تاركا معظم جيشه بالشام . فغامر ابن خلدون مغامرة جديدة وسعى إلى لقاء تيمور لنك . فلقيه هذا بحفاوة وإعجاب . وتوسط ابن خلدون لديه فيمن توسط ، أن يدخل دمشق دون إراقة دماء . ولكن — ويا للأسف أيضاً — بعد أن سلمت المدينة لجنوده عاثوا فيها فسادا ، وأتوا بها من الشر ما تقشعر منه الأبدان .

تحيل ابن خلدون على تيمور لنك ، مستأذنا منه فى العودة لمصر ، ليستحضر مؤلّفه وماله ، ثم يعود . فأذن له فسار وهو يحمد الله على النجاة . وكان ذلك عام ٨٠٣ هـ .

أرسل ابن خلدون إلى أسرته ، أثناء إقامته بمصر ، يستقدمها من تونس . فركبت إليه البحر ، فغرقت بها السفينة ، فكان ذلك مثارا لهمه وألمه .

ولم يسلم ابن خلدون فى هذه المرحلة الأخيرة من حياته ، من حساد يحسدونه على ما آتاه الله من فضل ، وعذال يشيعون حوله الأراجيف . وقد ذهب بعض الكاتبين إلى أن ذلك كان بسبب أنه مغربى . وهذه تهمة — فى الواقع — موجهة إلى مصر ، أكثر من توجيهها إلى شىء آخر . ومصر بريئة منها ، فمصر التى رحبت بأبناء الأمم الإسلامية ، فى ذلك الوقت العسير ، ووطأت لهم من كنفها ، ومهدت لهم فى خيراتها — والأدلة كثيرة على ذلك كما تقدم — لم تضق بابن خلدون قط . أما الحساد العذال فلقد لقيهم ابن خلدون فى كل مكان حل فيها ، وجدهم فى تونس وفى الأندلس ، وفى المغرب الأقصى . وهو نفسه سبب ذلك ، فليس بمحسود فتى وله ند .

لبث ابن خلدون فى مصر قرابة ثلاث وعشرين سنة ، يحاضر ويناظر ويُولى ويُعزل ، حتى وافته منيته — وكان فى دست القضاء — فى ٢٦ رمضان عام ٨٠٨هـ. فدفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر بالقاهرة .

أخلاقه وعلمه :

ابن خلدون أحد أفذاذ العالم ، الذين تزدهى بهم الإنسانية ، وتفخر ، يوم تسأل عمن أنجبت . وقد أخذ يتعلم منذ فجر حياته ، علوم زمانه ، من فقه وحديث وتفسير ، وأصول ، وكلام ، وقراءات ، وأشعار ، ولغة . ويدرس كتب الأولين فى المنطق والفلسفة والتاريخ . وقد وهب الله له ذكاء خارقا ، ولسانا ناطقا ، فأحسن فهم هذه العلوم ، كما أحسن التعبير عن آثارها فى نفسه .

وكان لذكائه وعلمه وبيئته ، أثر فى علو نفسه وسمو همته . فاندفع يفسح لهذه النفس ، المنزلة اللائقة بها ، والمكانة التى تصبو إليها . ويخترق طريق المجد ، وإن خفت بالأشواك . وينافس فى سبيل السؤدد وإن امتلأت بالمكاره . وانساق إلى الكيد ليصل إلى الظفر ، واندفع إلى الائتمار ليبلغ الانتصار وكان طبيعيا أن يَبغُض ويُبغَض ، وأن يطمئن به العيش والمقام طورا ، وينبو به طورا آخر . وقد اتضحت لنا هذه الظاهرة جلية فى ثنايا الحديث عن قصة حياته .

ومما لاريب فيه أنه كان يتغلب على مشاقه بسلاح علمه ، ويفتتح آفاقه بسنان قلمه . حتى وصل بعلمه وأدبه ومغامراته ، إلى الصفوف الأولى من صفوف رجال عصره . واستطاع أن يخلد اسمه فى أهم سجلات ما يشرف به الرجل ، وأعنى به سجل السياسة والعلم .

ومهما يكن من أمر ، فإن ابن خلدون قد ترك للعلم ولتاريخ التفكير والإنسانية ، ما تفخر به ، ترك مقدمته المشهورة التى سما بها ، وبطريقة وضعها ، وبموضوعها ، على أقرانه . وابتكر بها من العلم مالم يسبق إليه : ونظر فى المجتمع وأخبار الدول وتقاليدها ونشوئها وتحولها ، حتى استخلص منها قوانين كاملة . واستدرج جزئياتها حتى لاحت له كلياتها . فسجّل كل ذلك ، وأنشأ علم الاجتماع .

هذا فضلا عما دوّنه فى تاريخه الكبير من سير البربر وغيرهم مما ندر أن نجد له مرجعاً سواه . وفضلا عما له من رسائل وشعر .

عناية المؤرخين به :

أبدى كثير من المؤرخين قديما وحديثا آراءهم فى ابن خلدون . فمن القدماء : الجمال البشبيشى ، ولسان الدين بن الخطيب ، وابن حجر العسقلانى ، والركراكى ، وابن عمار ، والعينى والمقريزى ، وغيرهم . وقد لخص السخاوى فى كتابه « الضوء اللامع » آراء كثير منهم .

وقد حظى ابن خلدون فى عصرنا الحديث ، بعناية ملحوظة من بعض الفضلاء ودرس فى بعض دور التعليم دراسة موفقة . وممن كتب فى تاريخه وأدبه وفلسفته : أستاذى المرحوم الشيخ أحمد الاسكندرى . والشيخ محمد الخضر حسين . والدكتور طه حسين ، والأستاذ عبد الله عنان .

وألهم ابن خلدون كثيراً من الباحثين والدارسين ، وترجمت مقدمته إلى اللغات الأجنبية فكان لها أثر محمود فى تفكير الأوربيين .

ومن مساوئه فى نظر بعضهم ، ما نُسب إليه من محبة الأحداث ، ولينه وتواضعه خلال عزله عن المناصب وبعده عن الوظيفة ، ثم شموخه وصلفه إذا عاد إليها . وما ينسبه له البعض من كراهيته لآل علىّ . ولهذا جهد فى نسبة الفاطميين إليهم . لا حبا فى الفاطميين ، وإنما ليضيف مساوئهم إلى آل علىّ . وما ينسبه له بعضهم من ضعف فى الفقه ، ولهذا كان لا يستحق — فى نظرهم — ولاية القضاء . وقد قال الفقيه ابن عرفة المالكى مفتى تونس — وكان من أعداء ابن خلدون — حينما بلغه أن ابن خلدون قد ولى منصب القضاء بمصر ، قال : « كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب ، فلما بلغنا أن ابن خلدون ولى القضاء ، ، عدنا بالضد من ذلك . »

ومن محاسنه فى نظر بعضهم : أنه ولى القضاء بعفة ونزاهة ، وكان جم الفضائل فصيحاً مفوها كثير الحفظ ، قوى البأس متقدما فى الفنون العقلية والنقلية جيد

النقل . وأن له مؤلفات قيمة ، وأنه كان يسلك فى إقراء الأصول مسلك الأقدمين كالغزالى والفخر الرازى . وينعى على طريقة المتأخرين التى تعنى بمناقشة الألفاظ ، والوقوف طويلا فى التعاريف عند الحد والرسم . هذا . وقد أعجب المقريزى بابن خلدون كل الإعجاب ، لأنه أثبت نسب الفاطميين - والمقريزى ينسب نفسه إليهم . فقال عن مقدمة ابن خلدون : إنه لم يُعمل مثلها .

وأحب أن أختتم هذه الكلمة بما قاله أستاذى المرحوم الشيخ أحمد الإسكندرى عن ابن خلدون فى إحدى مذكراته لطلاب دار العلوم . قال :

« كان ابن خلدون أحد نوابغ العالم الذين عاشوا أفذاذا فى عصور مظلمة ، لم يعضدهم فيها مشاكل . أو تعرف قدرهم أمتهم . فكانت حياتهم بين الأمة التى عاشوا فيها ، كلها شقاء ومحنة . فقد أداه نفوذ خاطره وصدق نظره ، إلى الاهتداء إلى كثير من علل الحوادث ، التى تنتاب الاجتماع البشرى . وعرف ما بينها من الارتباط والتشابه ، حتى وقرت فى نفسه بصور قوانين عامة وأقيسة مطردة . سال بها قلمه دون أن يفطن لها أهل قرنه . ولم ينكشف سرها ويتضح للباحثين صدق انطباقها على سنن العمران والاجتماع ، إلا بعد انقضاء عدة قرون .

وهذا الذكاء الفائق فى ابن خلدون ، مراتب الذكاء المعتاد ، فيمن نشأ على نظام التربية والتعليم المتبع فى عصره ، هو الذى جعل تفكيره يتسامى إلى أفق أعلى من أفق التفكير عند أهل عصره . فبعدت الشقة بينه وبينهم . فزالت المؤالفة والتراضى وحسن الاغتباط بالصحبة . وإلى هذا يرجع شقاء كثير من أذكياء العالم ، على أيدى أهل القرن الذى نشئوا بين ظهرانيهم ، فلم تثمر أعمالهم فى عصرهم ، وقد يحفظها التاريخ لمن يفطن لها ممن يأتى بعدهم ، ويقتبسون من نورها فى حياتهم وآرائهم ، كما فطن هو بثاقب نظره إلى آراء كثير من فحول التفكير الذين سبقوه بقرون ، وباحوا بما جاشت به نفوسهم من قوانين وحقائق ، لم يشعر بها أهل زمانهم . فمخضها واستخرج منها زبدة من آراء لم يعرفها العلماء إلا بعد تهذيب العلوم وترقية

شئون التعليم والتثقيف . فكان وجوده سابقا بذكائه المتوقد ، للعصر الذى يلائم تفكيره بنحو أربعة قرون . »

مؤلفاته :

تبين من سيرته أنه ألف فى عدة علوم منها : الفقه والأصول وعلم الكلام والتاريخ وفلسفته ، والاجتماع . ومن مؤلفاته :

(١) تاريخه الكبير ومقدمته المشهورة . (٢) التعريف : وهو ترجمته كتبها بنفسه وصف فيها ما عاناه فى حياته . ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية . (٣) شرح بردة البوصيرى . (٤) تلخيص بعض كتب ابن رشد (٥) تعليق فى المنطق رفعه إلى السلطان محمد بن الأحمر ملك غرناطة . (٦) تلخيص كتاب « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » للإمام الرازى فى علم الكلام على طريقة الأشاعرة . (٧) كتاب فى الحساب (٨) شرح رجز ابن الخطيب فى أصول الفقه . (٩) كتيب فى تاريخ المغرب ودوله ، رفعه إلى تيمور لنك بأمر منه . (١٠) شعره ورسائله .

التعريف بتاريخه ومقدمته:

ذكر ابن خلدون فى خطبة كتابه ما نصه :

« ورتبته على مقدمة وثلاث كتب :

المقدمة : فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والإلماع بمغالط المؤرخين .

الكتاب الأول : فى العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع ، والعلوم ، وما لذلك من العلل والأسباب .

الكتاب الثانى : فى أخبار العرب وأجيالهم ودولهم ، منذ مبدأ الخليقة إلى هذا العهد ، وفيه الإلماع ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ، ودولهم ، مثل النبط والسريانيين والفرس وبنى إسرائيل والقبط ويونان والروم والترك والافرنجة .

الكتاب الثالث : فى أخبار البربر ومن إليهم زناتة ، وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول . » . الخ .

وقد سمى كتابه : « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذى السلطان الأكبر » .

أما المقدمة التى يشير إليها ، فهى فصل إجمالى شائق ، بيّن فيه مزايا علم التاريخ وفوائده . وأشار فيه إلى مسلك المؤرخين القدامى فى تدوين حوادثه ، وقص رواياته وأخباره . ومايعترى نقلهم من نقص ، وعدم تحرٍ للحقيقة ، ودون فحص للمعلومات بعقل ناقد بصير يميز الغث من السمين ، والصحيح من الفاسد . ونقد بعض الأخبار على سبيل المثال . فمنها ما نقله المسعودى وغيره من أن عدد جيوش بنى إسرائيل الذى أحصاه موسى ، بعد خروجهم من مصر ، ستمائة ألف أو يزيدون . وبين أن هذا وهم وغلط ، لذهول المؤرخين عن تقدير مصر والشام ، وسعتهما لمثل هذا العدد من الجيوش لكل مملكة . واستبعاد أن يقع بين مثل هذا العدد ، زحف أو قتال ، لضيق مساحة الأرض ، وبعد ما بين طرفى الجيش والمتحاربين . وله أدلة أخرى — ومنها ما ذكره بعضهم من أن قبائل صنهاجة وكتامة البربريتين أصلهما من العرب الحميريين ، تخلفوا ببلاد المغرب ، بعد أن استعمرها اليمنيون زمنا . وأبطلها ابن خلدون ذلك معللا بصعوبة الطريق بين اليمن والمغرب ، وأن الآتى من اليمن إلى المغرب لابد من أن يهبط إلى السويس ، ويمر بأعمال مصر ، وأن تصبح هذه الممرات تابعة له ، قبل أن يغزو بلاد المغرب . ليضمن الميرة والأذودة إلى غير ذلك . — ومنها ما فسر به المفسرون لفظ « إرم » فى قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد » فقالوا إنها مدينة عظيمة الصنع بناها شداد بن عاد . وقد أبطل ذلك التفسير ، مبينا أن عاد إرم من باب إضافة الفصيلة إلى القبيلة ، كما تقول قريش كنانة ، وإلياس مضر . أو أن العماد هى عماد الأخبية بل الخيام . أو العماد الأساطين للدلالة على قوة عاد ، وأنهم أهل بناء وأساطين —

ومنها ما نقله المؤرخون عن نكبة البرامكة ، وما قالوه فى سببها ، من أنه حَنَقُ الرشيد على جعفر البرمكى ، لا تصاله بأخته العباسة . وقد دافع ابن خلدون عن العباسة دفاعا حاراً معززاً ذلك بمكانها من الدين والأبوة ، واستبعد أن يُصهر الرشيد إلى العجم ، مع بعد همته وعظم إبائه . وعالل نكبة البرامكة باستبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية ، إلى غير ذلك . ثم تكلم عن نسب العبيديين « الفاطميين » ، وأبطل الروايات التى تزيف نسبهم إلى على ، وأثبت صحة هذا النسب .

وعلى هذا النحو سار ابن خلدون فى نقد كثير من المغالط التاريخية ، وأوهام المؤرخين . بأدلة قوية وحجج منطقية . ثم ختم مقدمته هذه ، بنبذ يسيرة فى الحروف وتكوينها ورسمها ، واختلاف ذلك فى لغة عن لغة . ثم أشار إلى طريقته فى كتابة ما يعرض له من كلمات بربرية ، فيها حروف لا نظير لها فى العربية . وذلك بأن استعان على كتابة الحرف البربرى ، بحرفين عربيين يكتنفانه ، أى يكون نطقه ، وسطا بين نطقهما . فيرسم بأحدهما . ثم يضع عليه ما يشير إلى الحرف الثانى ، كالنقط ، أو رسم الحرف نفسه . وبذلك يفطن القارىء إلى أن الحرف البربرى المراد وسط بين هذين الحرفين العربيين . وذلك كالكاف البربرية ، التى ينطق بها وسطا بين الكاف والجيم العربيتين . فإنها يرسمها كافا ، ويضع تحتها نقطة الجيم . وهكذا .

أما الكتاب الأول : فهو أول الكتب الثلاثة ، التى يتكون منها مؤلفهُ العظيم « العبر » . وهذا الكتاب هو المشهور « بالمقدمة » . وهو غير المقدمة السابقة التى هى بمثابة خطبة للكتاب . أما هذه ، فهى التى بنت مجد ابن خلدون وهى التى ضمنها فصوله ونظرياته عن العمران البشرى . وهو بلا ريب ، قد استفاد مما قرأه من كتب المتقدمين ، حين كتبها وحرر فصولها . واعتمد فى النقل على بعض منها . وكما قال أستاذى الإسكندرى ، إنه اعتمد فى كلامه عن العمران البشرى ، على رسائل إخوان الصفا وكتب الجغرافيين العرب ، الذين نقلوا عن بطليموس . وفى كلامه عن إدراك البشر للغيب ، على كتب التصوف وعلم الكلام والفلسفة . وفى كلامه

عن الخلافة والإمامة والمذاهب ، على كتب الكلام والملل والنحل للشهرستانى وابن حزم ، وكتاب الفرق بين الفرق ، والكامل للمبرد ، والعقد لا بن عبد ربه . وفى كلامه فى تاريخ العلوم والصناعات ، على أمثال كتاب الفهرست لا بن النديم ، وهكذا .

ومهما يكن من شىء ، فالمقدمة دالة على حدة ذهنه وشمول نظرته ، ووحدة تفكيره . وهذه سمات ضرب من العقلية العربية نادر الوجود .

وهو بلا ريب ، استفاد بجوار ما استفاد منه ، من تجاربه ، ومزاولته الأعمال العليا ، وصلاته ببلاط الحاكمين ، مما مكن له من الاطلاع المباشر ، على كثير من أسرار الاجتماع .

وتحتوى « المقدمة » أو الكتاب الأول على ستة فصول كبار :

الفصل الأول : موضوعه « العمران البشرى » ، وقد كتب فيه ست مقدمات ، بيّن فيها أن الاجتماع الإنسانى ضرورى ، وأن الإنسان مدنى بالطبع ، وأن بعض بنى الإنسان محتاج إلى البعض الآخر ، لاختلاف الصناعات والحاصلات ، فى بيئة عن الأخرى ، ولاحتياج أصحاب البيئة الواحدة إلى ما لدى أصحاب الأخرى من صناعات وحاصلات . ثم تكلم عن جغرافية الأرض وأن شكلها كروى ، وأشار إلى ما فيها من أشجار وأنهار وأقاليم ، وإلى أيها أكثر سكانا ، وفصّل الكلام على أقاليمها السبعة حسب الجغرافية القديمة وتقاسيمها واصطلاحاتها ، وتحدث عن الهواء وتأثيره فى لون الإنسان وخلقه ، ومظاهر الحياة وأسباب اختلافها فى ناحية عن أخرى ، وما ينشأ عن ذلك فى الأبدان والأخلاق . واختتم هذا الفصل بمقدمته السادسة ، فى أصناف المدركين للغيب من البشر . وهنا تناول الكلام عن الوحى والرؤيا والنبوة والكهانة والعرافة والولاية والتصوف وما إلى ذلك .

الفصل الثانى : موضوعه : « العمران فى البادية والأمم المتوحشة والقبائل » . ويحتوى هذا الفصل على نحو تسعة وعشرين فصلا ، قصيرة غالبا ، أبدع فى كتابتها

إيما إبداع . تناول فيها نشوء العمران فى البوادى، وعلى أى أساس يقوم ،وأنه طبيعى ويقوم على العصبية ، وبيّن أخلاق أهل البادية ، واستطرد فى هذه الفصول إلى أمور كثيرة ، وإلى حقائق واقعة، منها : أن الصراع من النسب إنما يوجد للوحشين، وأن الرياسة تكون لأهل العصبية ، وأن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها ، وأن من عوائق الملك الترف والنعيم والمذلة ، ومن علاماته التنافس فى الخلال الحميدة ، وأن المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب ، وأن الأمة إذا غلبت وصارت فى ملك غيرها أسرع إليها الفناء . وقد حمل فى بعض هذه الفصول على العرب ، وقال إنهم لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية ، وأنهم أبعد الأمم عن سياسة الملك .

الفصل الثالث: موضوعه: «الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية». تكلم فيه عن صلة الملك والدولة بالعصبية ، والقبيل والدعوة الدينية ، وصلة كل من هذه بالأخرى . ويحتوى هذا الفصل على زهاء ستين فصلا ، منها: فصل فى أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد ، وفصل فى أن من طبيعة الملك الترف . وهكذا . ومنها فصل فى أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة ، أقبلت الدولة على الهرم . ومنها فصل فى أن الدولة لها أعمال طبيعية كما للأشخاص . وفصل فى انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة .

وهكذا تكلم عن الدولة ، وكل مايمت إليها بصلة من طبيعة تكوينها، وأسباب بقائها وزوالها وأعمالها ، ومراتبها وشاراتها وحروبها وأخلاق أهلها . وفى عداد هذه الفصول، عقد فصلا فى معنى الخلافة والإمامة ، وفصولا فى اختلاف الأمة فى حكم هذا المنصب وشروطه ، وبين رأى المذاهب المختلفة فيها ومعنى البيعة وولاية العهد ، وغير ذلك مما يمت إلى الخلافة بصلة كالألقاب والأعمال والمشابهة ، كاسم البابا والبطرك والكوهن .

الفصل الرابع : موضوعه : « البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض فى

ذلك من الأحوال ، ويحتوى على نحو ٢٢ فصلا منها الموجز والمطول . تناول فيها الكلام عن نشأة المدن والأمصار، وصلة ذلك بوجود المُلْك . ومنها فصل فيما يجب مراعاته فى أوضاع المدن ، وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة » ، وذلك كإقامة الأسوار، أو إقامتها فوق هضبة أو فى حماية جبل أو باستدارة بحر أو نهر . وكانتقاء بقعتها طيبة الهواء صالحة لحياة الإنسان والحيوان . وكقربها من الماء الصالح للشرب ومن المرعى . وهكذا .

ومن بينها : فصل فى المساجد والبيوت العظيمة فى العالم . تكلم فيه عن المدينة المنورة ، وعن مكة وبيت المقدس ملمحا إلى طرف من تاريخ كل منها .

وتكلم عما يتصل بالمدن والأمصار من أسباب الازدهار أو الدمار، واختلاف أحوال سكانها وما لديهم من الصنائع ، وما لهم من العصبية وما بينهم من اللغات وغير ذلك .

الفصل الخامس : موضوعه : « فى المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال » وبه نحو ثلاثة وثلاثين فصلا . بين فى أولها حقيقة الرزق والكسب ، وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية .

وقد تناول فيها الكلام عن طبيعة كثير من الصناعات المعروفة . وتحدث عن المال والجاه والتجارة والاحتكار وغير ذلك . ومن الصناعات التى تكلم عنها : التجارة والحياكة والخياطة والتوليد والطب والخط والوراقة والغناء .

ومن نظرياته فى هذا الباب : أن الجاه مفيد للمال . وأن السعادة والكسب إنما يحصل غالبا لأهل الخضوع والتملق، وأن هذا الخلق من أسباب السعادة . وأن القائمين بالأمور الدينية كالقضاء والفتيا والتدريس وغيرها ، لا تعظم ثروتهم فى الغالب . وأن خلق التجار نازل عن خلق الأشراف والملوك وأن العرب أبعد الناس عن الصنائع . وغير ذلك .

الفصل السادس: موضوعه: « العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه،

وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال » . وفصوله أكثر من خمسين . وقد استغرقت نحو مائة وخمسين صفحة من المقدمة، أى ما يقرب من ثلثها . تكلم فيها عن أن العلم والتعليم فى العمران البشرى طبيعى . وفرّق بين العلم وبين صناعة التعليم، وكيف تختلف هذه الصناعة، بدليل اختلاف مصطلحاتها فى كل بيئة . وأشار فى الفصل الثانى إشارة إجمالية إلى مبلغ العلم فى بلاد المغرب، ونصيب هذه البلاد من صناعة التعليم مبيناً أسباب ذلك . مشيرا أيضاً إلى الصلات العلمية إذ ذاك بين دول المغرب والأندلس والمشرق، ومدنها، ووازن بينها جملة . متكلما خلال ذلك عن كيفية تكوين الملكة العلمية التى بها يستطيع المرء حذق العلم والإحاطة بمبادئه وقواعده، مع القدرة على استنباط فروعه من أصوله . وله نقدات طريفة على التعليم فى عصره، تتراءى الفينة بعد الفينة فى خلال كلامه هذا .

ومن لطيف ما ذهب إليه ابن خلدون فى الفصل المذكور، قضيتان : الأولى أن هناك فرقا بين صاحب الملكة العلمية وبين غيره، ولو تساويا فى فهم مسألة ما، من مسائل العلم ووعيها . الثانية : أن مستوى الذكاء فى الحضر والبادية واحد، وأنه لا تفاوت فى الإنسانية بين حضرى وبدوى ولا تفاوت بينهما فى الفهم والذكاء، إلا بالنظر والعلم والدأب على التفكير والتزام ضروب من العوائد والتقاليد والآداب الحسنة .

وقد تكلم عن العلوم المعروفة فى عصره، وعقد لكل منها فصلا، ذكر فيها تعريف كل علم وأنواعه وطرق التأليف فيه، منوها برجاله وأعمالهم، وهكذا ومنها: التفسير والحديث وعلومه والفرائض والفقه والجدل والتصوف والعلوم العقلية والعددية واللغوية والسيمياء والتنجيم والكيمياء وغير ذلك . وقد اختلط هنا الكلام عن هذه العلوم وتاريخها بالأدب وتاريخ الأدب والتاريخ والنقد والتربية . ومما عقده: فصل فى النظم والنثر، وفصل فى صناعة الشعر، وفصول أخرى فيما يتصل بذلك . وبها نظريات تدل على خبرة واضطلاع وحسن نظر وصدق حسّ . وبها كثير من الأمثلة التى لا تزال معينا للمؤرخين والأدباء فى عصرنا الحديث فى باب الاستشهاد .

وبعد ، فالقارىء يرى فى هذه المقدمة، روضة كريمة متنوعة الأزهار كثيرة الثمار، ذات علوم جمة ومعارف شتى . ولسنا هنا بصدد نقد المقدمة، والتعرض لآرائها بالبحث والتمحيص والتعقيب . وإنما هو التعريف بها والتنويه بنفاستها ومحتوياتها .

على أن كثيرا من أدباء الحديث ، تعرضوا لآراء ابن خلدون ونظرياته وهم ما بين معلل ومدلل ، وناقد ومبطل ، وجماع رأيهم : أن لابن خلدون ، نظريات لا تزال سليمة صادقة ، يسير العمران وفق ما قررته ، وأن له نظريات فاسدة ، أو برهن الزمان على فسادها . غير أن له عذرا أو شبه عذر فى ذلك ، لأنه استوحى نظرياته من ملابسات زمانه .

فمن نظرياته السليمة : أن الاجتماع البشرى لا يخلو من بداوة وحضارة . وأن البداوة والاخشيشان أصل لكل حضارة، وأن نشوء الحضارة أواضمحلالها ، لا يكون طفرة ، بل يقتضى انقضاء نصف قرن ، أو أربعين سنة على أقل تقدير ، حتى يكون تأثير كلّ ، قد شمل النشء والشبان والكهول . وأن تأسيس الدول أو غلبة أمة على أمة ، لا يكون إلا بدافع دينى أو سياسى . وأن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب ،فى شعاره وزيه ونحلته وعاداته . وأن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب، قل أن تحكم فيها دولة . . إلى غير ذلك .

ومن آرائه غير السليمة : أن الدولة لا يزيد عمرها على مائة وعشرين سنة . وأن التنافس والنزاع ضروريان بين الملك وأشراف الدولة وزعمائها ، وأن ذلك ينتهى بتغلب الملك . وأن العرب أبعد الناس عن سياسة الملك . وأن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط ، وأن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الفناء .. إلى غير ذلك .

ويعلل بعضهم تحامل ابن خلدون على العرب ، وتنقصه إياهم بأن أهل المغرب موتورون منذ القديم ، من العرب . ويعلل بعضهم بأن ابن خلدون إنما وصف

عرب البادية فى زمانه ، أما عرب الأمصار ، فلا يعنيهم بشىء من قوله . .

أسلوب المقدمة :

عقد ابن خلدون فصلا فى مقدمته وهو الخامس والأربعون من فصول القسم السادس بعنوان . « فصل فى انقسام الكلام إلى فنى النظم والنثر » . وقد حمل فيه على كتاب عصره من أهل البديع الذين أدخلوا فى النثر ، الأساليب الشعرية من كثرة الأسجاع والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدى الأغراض ، وغير ذلك . حتى أصبحت أساليبهم بعيدة عن الروح البلاغية ، إذ أنها غير مطابقة لمقتضى الحال . إلى آخر ما قال . وقد انتقل ابن خلدون من نقده إلى استملاح الترسل وعدم التقيد فى إيراد الحديث والاسترسال بغير بديع » .

وقد خالف ابن خلدون بهذا النقد ، الروح السارية فى عصره ، ولا سيما فى مصر والشام والمشرق عامة ، بين جميع الكتاب . إذ كانت هى الروح البديعية ونزعة الزخرف والزينة اللفظية . ويعتبر ابن خلدون لذلك ، فذا بين معاصريه ، ومجددا فى الأسلوب الكتابى بهذا الخروج .

ومن البدهى أن ينهج ابن خلدون فى كتابته ذلك النهج الذى استملحه ، ودعا إليه . وهو الاسترسال ونبذ القيود البديعية جانبا . — على أنه لم ينهج هذا النهج بدأب واستمرار ، فى كل مؤلفاته ورسائله ، كما نهج فى كتابة المقدمة . لأن لابن خلدون كتابة بديعية أخرى دعت إليها ظروف خاصة .

أما أسلوبه فى المقدمة ، فقد برىء ، أو كاد ، من المحسنات البديعية والقيود اللفظية ، وأمعن فى الاسترسال ، ولم يراع إلا مقتضى الحال على قدر استطاعته ، لذلك برز أسلوبه بليغا سهلا أخاذا ، كأنه الحديث المبثوث المرسل ، فى غير كلفة إلا رغبة الإفهام والتوضيح . لابن خلدون فى مقدمته خصوصية قل أن تجدها لسواه ، وهى حسن إبرازه للمعانى الدقيقة بألفاظ وجمل غاية فى الدقة والكياسة ، والدلالة . — هذا الوصف هو الشائع فى أسلوب مقدمته ولا يخلو مع ذلك من مآخذ وهنات نجملها فيما يلى :

فمنها العودة إلى الأسلوب البديعى فى خطبة الكتاب بصفة خاصة . بل لقد أمعن فى السجع إمعانا . وليته نوّع القافية ، ولكنه التزم القافية الواحدة فى أكثر من عشر جمل . ويخيل للمرء أنه أراد أن يستعيض عن هجر البديع فى سائر مقدمته بما التزمه فى هذه الخطبة .

ومنها وقوعه فى أخطاء لا يجيزها قواعد الإعراب ، ولا قوانين الصرف ولا مسموعات اللغة [1] . مثل : إدخال الواو فى خبر لابد ، فيقول : « لابد وأن » . وجعله الخبر أو جواب الشرط استثناء أو استدراكا ، فيقول : « إنه وإن كان الأمر كذلك إلا أنه أو ، ولكنه » . وتعديته تعوّد بعلى ، فيقول : « تعود على » . وإدخاله الباء على غير المتروك فى فعل استبدل وما شابهه ، والأرجح دخولها على المتروك . واستعماله لفظ « الجيل » بمعنى القرن واللدات ، مع أنه الطبقة من الناس المتعاصرة فى نحو أربعين عاما . واستخدامه لفظ « المنحال » اسم آلة لرفع الأجسام ، وتأبى ذلك قواعد الصرف . وغير ذلك .

ومن مآخذه الفصل بين جزئى الكلام فى الموضوع الواحد ، بكلام آخر مستطرد إليه ، حتى ليصعب أحيانا الربط بين هذين الجزئين . ومنها إغفاله خبر المبتدأ أو جواب الشرط ، وذلك لطول عبارته .

ومنها لجوؤه الكثير إلى الجمل الطويلة ، التى تستغرق سطورا ، حتى يشرح بها معنى واحدا . وهذا من شأنه أن يتعب القارىء ويتطلب منه ذهنا يكده لربط أول الكلام بآخره واستخلاص المعنى . ولو لجأ إلى الجمل القصار لكان أجمل . ومنها الإطالة المملة فى بعض الموضوعات ، والإيجاز المخل فى بعض آخر . ومنها تداخل جمله بعضها فى البعض الآخر ، تداخلا يزيدها غموضا ويفسح المجال للتأويلات ، واختلاف وجوه الإعراب ، ويستتبع ذلك غموض المعنى واضطرابه . ولعل هذا ناشىء من لجوئه إلى الجمل الطويلة كما ذكرنا . ومنها إكثاره من استخدام ألفاظ وتراكيب معينة حتى أصبحت كأنها « لوازم » لأسلوبه كقوله : فى الغالب وفى الأقل النادر . ومنها تداخل الجمل بعضها فى البعض الآخر بشكل يصعب معه عود

(١) راجع مذكرات الأستاذ أحمد الاسكندرى .

الضمائر إلى أصحابها . ومنها أنه منطق العبارة فى بعض الأحيان ذو أقيسة وموازنات، وهذا نكوص إلى الكتابة المقيدة .

هذا، ومما يذكر أنه لاشك ، نقل حملا عدة من كتب أخرى ، وقد يشير إلى ذلك ، ولكنه قليلا ما يشير . وهذا منه اعتداد بالنفس وثقة بالذهن ، وحفظ لوقت القراء من الضياع ، وحرص على أحاديثه أن تطغى عليها الأسانيد . ومما يذكر: أنه التزم غالبا افتتاح فصوله بقوله « اعلم » واختتامها بجملة يذكر فيها اسم الله كقوله « والله غالب على أمره » وكقوله « والله يهدى من يشاء » ، وقوله والله مصرف الأمور كيف يشاء » . . ولم تذكر هذا الافتتاح والاختتام فى مآخذه مع أنها من « اللوازم » ، لأنها أسلوب مستملح فى نظرنا، ولا مانع منه ولا بأس به .

ومهما يكن من شىء فإن لهذه المقدمة وأسلوبها أثرا عميقا فى نهضة الكتابة فى عصرنا الحديث . ولعل عصرا من العصور لم ينتفع بما فيها من علم غزير، وأدب كثير، وأسلوب كتابى مرسل سهل بليغ ، كما انتفع بها عصرنا الحديث . فكانت أستاذا لكتابه وأدبائه من مطالع العصر ، وكانت ذات أثر قيم ، فى رجوعهم عن الطريقة البديعية ، إلى الاسترسال والأسلوب الفطرى والعناية بالمعانى والأفكار .

نماذج من المقدمة :

توخينا فى هذه النماذج أن تكون من بيئات مختلفه من أسلوبه ، حتى نعاون القارىء على معرفة ما وصفناه به فنها .

١ — كتب فى خطبة المقدمة بعد حمد الله ، والثناء عليه ، والصلاة على نبيه، يصف فن التاريخ فقال :

« أما بعد فإن فن التاريخ من الفنون التى يتداولها الأمم والأجيال . وتشد إليه الركائب والرحال . وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال . وتتنافس فيه الملوك والأقيال . ويتساوى فى فهمه العلماء والجهال . إذ هو فى ظاهره، لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول ، تنمى فيها الأقوال . وتضرب فيها الأمثال،

وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال. وتؤدى إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال. واتسع للدول فيها النطاق والمجال. وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال. وفى باطنه نظر وتحقيق. وتعليل للكائنات ومباديها دقيق. وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق. وجدير أن يعد فى علومها وخليق. » الخ.

٢ — كتب فى أول فصل من المقدمة « أى من الكتاب الأول » مقالا عاما، قدم به ما يلى من الفصول، وذلك فى صحفة ٢٦. قال مبينا الأسباب التى تعرض للتاريخ وحوادثه، فتضطر الرواة إلى تشويهها، والتغيير فيها، وعدم ذكرها على حقيقتها:

« اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ، أنه خبر عن الاجتماع الإنسانى، الذى هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر، بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر مايحدث فى ذلك العمران بطبيعته من الأحوال.

ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته، وله أسباب تقتضيه، فمنها: التشيعات للآراء والمذاهب. فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال، فى قبول الخبر، أعطته حقه من التمحيص والنظر، حتى تتبين صدقه من كذبه. وإذا خامرها تشيع لرأى أو نحلة، قبلت ما يوافقه من الأخبار لأول وهلة. وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها، عن الانتقاد والتمحيص، فتقع فى قبول الكذب ونقله. » الخ

٣ — ونختتم نماذجه بذكر فصل مما حمل فيه على العرب. فمن ذلك الفصل التاسع من الفصل الرابع وهو فى صفحة ٢٥٢ قال بعنوان « فصل فى أن المبانى التى كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا فى الأقل »:

« والسبب فى ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه. فلا تكون المبانى وثيقة فى تشييدها. وله — والله أعلم — وجه آخر وهو أمس به. وذلك

قلة مراعاتهم لحسن الاختيار فى اختطاط المدن — كما قلناه فى المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعى . فإنه بالتفاوت فى هذه، تتفاوت جودة المصر ورداءته، من حيث العمران الطبيعى . والعرب بمعزل عن هذا . وإنما يراعون مرعى إبلهم خاصة ، لا يبالون بالماء طاب أو خبث ، ولا قل أو كثر . ولا يسألون عن ذكاء المزارع والمنابت والأهوية ، لانتقالهم فى الأرض، ونقلهم الحبوب من البلد البعيد. وأما الرياح ، فالقفر مختلف للهاب كلها . والظعن كفيل لهم بطيبها . لأن الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات . وانظر لمّا اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان ، كيف لم يراعوا فى اختطاطها إلا مراعى إبلهم ، وما يقرب من القفر ومسالك الظعن. فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعى للمدن ، ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم، كما قدمنا أنه يحتاج إليه فى حفظ العمران . فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار . ولم تكن فى وسط الأمم فيعمرها الناس . فلأول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التى كانت سياجا لها ، أتى عليها الخراب والانحلال ، كأن لم تكن والله يحكم لا معقب لحكمه . »

أما الكتابان الثانى والثالث : فهما فى التاريخ ، وقد طبعا فى ستة مجلدات .

ويتحدث فى الثانى عن العرب وأجيالهم ودولهم . الخ ، ويتحدث فى الثالث عن البربر ومن إليهم من زناتة . . الخ ، كما ذكر فى خطبة كتابه ، وأشرنا إليه فيما سبق.

وقيل إن ابن خلدون ، كان ينوى قصر تاريخه على دول العرب والبربر ، ولكنه أكمله على النمط الذى ظهر به ، بعدما وفد على مصر ، وضم إليه أخبار دول الأعاجم ببلاد المشرق .

ويعتبر أكبر موسوعة فى سرد تاريخ أمم البربر ودولها ببلاد المغرب ، ومن اتصل بهم من عرب المشرق، ممن كانوا يقيمون بالبادية ، وأغاروا على بلادهم مثل قبائل سليم وجشم وبنى هلال

وقد سجل حوادث كل دولة فى فصول على حدة ، ويفتتحها بعبارات موجزة فى بيان أسباب نشوء الدولة .

وقد عنى كثير من الفرنجة بطبع تاريخ ابن خلدون ، وترجمته ، كما عنوا بطبع مقدمته وترجمتها .

أدبه :

طغت شهرة ابن خلدون بمقدمته وتاريخه ، على أدبه . مع أنه قمين بأن يشتهر بالأدب كتابة وشعرا ، ويقعد فيهما مقعد الفحول، ولو لم يكن له مقدمة ولا تاريخ . فقد درج الرسائل الديوانية أيام أن اشتغل بكتابة السر ، والإنشاء فى الدواوين السلطانية ، وكتب الرسائل الإخوانية فى الشوق ونحوه . ونهج فى كتابة رسائله النهج الفاضلى المتبع فى المشرق ، فعنى بالسجع والطباق والجناس والتورية والتضمين وما إليه . واستمر على ذلك زمنا ، حتى رأى أن هذه الطريقة تباعد بين الأديب وبين مراعاة مقتضى الحال . فهجرها ونعى عليها ، وحمل على الكاتبين بها وكتب فى ذلك فى سياق أحد فصوله بالمقدمة . وعاد إلى الاسترسال ونفى عن قلمه قيود البديع ، فسمت بلاغته ، وحصفت عبارته . وكثرت معانيه ، وكان بذلك كله ، عجباً . فى عصر وُضعت موازين النقد الأدبى فيه على أساس من نهج القاضى الفاضل . غير أنه لم يخلص جملة من لوثات طريقته الأولى .

أما فى الشعر ، فلم يقل جودة وحذقا عن نظرائه من شعراء جيله ، مثل لسان الدين بن الخطيب أديب الأندلس « ٧٧٦ هـ » ، ومثل القيراطى « ٧٨١ هـ » ، والفخر بن مكانس « ٧٨٩ هـ » ، وشهاب الدين بن العطار « ٧٩٤ هـ » ، وغيرهم من شعراء مصر . والمشرق .

وقد نظم الشعر فى جملة أغراض منها المدح النبوى ، ومدح الملوك ، والغزل ، والإخوانيات . وأسلوبه الشعرى سهل لا كلفة فيه ، ولا لجاج بديعى . — وهو بجانب ذلك — مطيل فى قصائده .

ومن إخوانياته ما كتبه إلى صديقه لسان الدين بن الخطيب ، فى التشوق ردا على رسالته ، قال :

« سيدى مجدا وعلوا ، وواحدى ذخرا ومرجوا ، ومحل والدى برا وحنوا ،

ما زال الشوق مذ نأت بى وبك الدار ، واستحكم بيننا البعاد ، يُرعى سمعى أبناءك ، ويخيّل إلىّ من أيدى الرياح تناول رسائلك حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع ، وعهد غير مضاع ، وود ذى أجناس وأنواع . فنشر بقلبى ميت الشوق ، وحشر أنواع المسرات ، وقدح للقائك زنا والأمل . . الخ

ومن شعره من قصيدة طويلة :

صحا القلب لولا عبرة ونحيب ... وذكرى تُجد الوجدَ حينَ تثوب ،
وقلب أبى إلا الوفاءَ بعهده ... وإن نزحت دار وبان حبيب
ولله منى بعد حادثة النوى ... فؤاد بتذكير العهود طروب
يؤرقه طيف الخيال إذا سرى ... وتذكى حشاه نفحة وهبوب
خليلى لا تستدعيا قد دعا الأسى ... فإنى لما يدعو الأسى لمجيب
ألمّا على الأطلال يقض حقوقها ... من الدمع فياض الشئون سكوب
ولا تعذلانى فى البكاء فإنها ... حشاشة نفس فى الدموع تذوب

فرحم الله ابن خلدون وجزاه عن الإنسانية خيراً .

(ترجمته فى (١) مذكرات للأسكندرى كتبها عام ١٩٢٦ م (٢) حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية للشيخ محمد الخضر حسين ـ محاضرة القاها عام ١٣٤٣ هـ ـ منها نسخة مطبوعة بدار الكتب (٣) ابن خلدون : حياته وتراثه الفكرى للأستاذ محمد عبد الله عنان . (٤) ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية للدكتور طه حسين (٥) جورجى زيدان ج ٣ ص ٢١٠ . (٦) كتابا العبر والتعريف لابن خلدون (٧) الاحاطة لابن الخطيب (٨) الضوء اللامع للسخاوى ج ٤ رقم ٣٨٧)

٩ — تقى الدين المقريزى ٧٦٦ هـ - ٨٤٥ هـ

هو العلامة الكبير ، والمؤرخ القدير ، وصاحب الخطط الشهير ، أبو العباس تقى الدين ، أحمدُ بن على بن عبد القادر بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد. ويسمو بنسبه إلى العبيديين الفاطميين حكام مصر ، قبل صلاح الدين . معتمدا على ما قاله له أبوه حينما دخل معه إلى جامع الحاكم بأمر الله : هذا جامع جدك ! ولهذا جهد فى إثبات نسبهم والسمو بهم إلى بنى هاشم .

ويعرف بالمقريزى ، نسبة إلى حارة المقارزة ببعلبك ببلاد الشام . وقد كانت أسرته تقيم ببعلبك هذه ، وكان جده بها من كبار المحدثين . ورأى أبوه أن يتحول إلى القاهرة ، حيث ولى بعض المناصب فى القضاء ، وفى ديوان الإنشاء . ومن ذلك الوقت اتخذ مصر موطنا .

مولده ووفاته :

ولد المقريزى بالقاهرة عام ٧٦٦ هـ ،[1] وكانت وفاته بها فى عصر يوم الخميس ٢٦ من رمضان عام ٨٤٥ هـ بعد مرض طويل ، ودفن يوم الجمعة بحوش الصوفية البيبرسية .

شىء من حياته :

نشأ المقريزى بالقاهرة ، ومال إلى طلب العلم ، فحفظ القرآن الكريم ، وسمع الحديث من جده لأمه شمس الدين بن الصائغ الحنفى ، وتمذهب بمذهبه ، ثم عدل عنه بعد زمن طويل إلى مذهب الشافعى . وسمع من غيره كالبرهان الآمدى والعز بن الكويك والنجم بن رزين . وحج ، وسمع الحديث بمكة وبالشام عن جلة من الحفاظ ، وأجيز بالرواية من كثيرين . كأبى البقاء السبكى وأبى بكر ابن المحب ، ومن أفاضل شيوخه أيضاً : البرهان النشائى ، والناصر الحريرى والسراج

(١) هذه رواية السخاوى نقلا عن ابن حجر ، الذى حقق الوفاة بتلك السنة .

البلقيني والزين القراقي والشهاب الأدرعي والجمال الأسنوي . ولم يقتصر علمه على الفقه والحديث ، بل امتد أفقه إلى غيره كالنحو . وكان مولعا بالتاريخ، عكف على مطالعة أسفاره وجمع أخباره ، حتى استقامت له منه جملة فريدة وطائفة مفيدة ، أودعها بطون كتبه . هذا فضلا عن نثره وشعره .

وقد ولي جملة من الوظائف منها : النيابة في الحكم ، وكتابة التوقيع ، وحسبة القاهرة ، وليها مرارا ، والخطابة في جامع عمرو بن العاص ، ومدرسة السلطان حسن . والإمامة بجامع الحاكم ونظره . ودرّس الحديث في جامع المؤيد . وطاف بالبلاد ، وحج أكثر من مرة ، وتردد على دمشق ، وولي بها بعض المناصب ، من نظر وقف ، وتدريس ، وعُرض عليه قضاؤها في أوائل دولة الناصر فرج ، فأبى ، وقد رحل مع هذا السلطان إليها في عام ٨١٦ هـ . ومن قبله حسنت صلته بأبيه برقوق ، وقد صحب الأمير يشبك الدوادار ، وأصاب منه ثروة نافعة . وبعد تطوافه استقر في القاهرة وانقطع للعلم والتاريخ والتأليف .

وتتلمذ للمقريزي كثير من النابهين ، منهم أبو المحاسن بن تغري بردي صاحب النجوم الزاهرة ، ومنهم شمس الدين السخاوي صاحب الضوء اللامع . وحظي بدراسة كتبه لطلابه في حياته . ـ على أن الزمن أسعده في العصر الحديث باهتمام العلماء والمدرسين بدراسة مؤلفاته ، والرجوع إليها ، والعمل على نشرها .

المقريزي في ميزان السخاوي :

لا يخلو مؤلَّف ، مهما بلغ من الدقة والضبط والإحاطة ، من هفوات . لذلك ليس غريبا أن يكون للمقريزي مآخذ وهنات . وهو قد جمع إلى لطيف أخباره وطريف أسماره ، ما يُعد في جانب الأساطير . كما سترى من بعض ما نذكره بعدُ . ـ غير أن هذا وغيره ، لا يدع منصفا يتحامل عليه ويتجنى ، بل ينبغي أن يلتمس له المعذرة ، ويسد الثغرة . ويترفق حين ذكر العيوب وعدها . ووصف المآخذ ونقدها .

والسخاوي كما يعرفه رواد التاريخ ـ ناقد مر ، عظيم الخبرة ، دقيق النظرة ، لامع

الفكرة ، غير أنه سريع إلى التجنى والتحامل بما يشوب جوهر نقده ، وما يعيب خالص تمحيصه . ولم يسلم المقريزى من ضربات لسانه وخفقات بنانه . غير أنه — والحق يقال — قد أورد فى ترجمته له ، عددا من محاسنه ، وعددا من مساوئه لهما أهميتها . وأشنع ما أذاعه عنه ، أنه سطا على مسودات لشهاب الدين الأوحدى ، كتبها فى الخطط . فبنى عليها كتابه العظيم « الخطط المقريزية » ، وزاد عليها زيادات قليلة القيمة . ويشعر المرء بتحامل السخاوى عليه حين يقول عنه : « وكان مع ذلك ، يكثر الاعتماد على من لا يوثق به ، من غير عزو إليه » . ونعجب كيف عرف السخاوى أن من اعتمد عليه المقريزى فى كثير مما نقله ، لا يوثق به ، مادام لم يعزه إليه[1] . — ومهما يكن من شىء ، فلنلخص هنا بعض هذه المحاسن والمساوىء .

فمن محاسنه : أنه تفقه وتأدب على كثير بن من الأئمة . وأنه كان حسن السيرة فى وظائفه . وأنه أبى قضاء دمشق . وأنه عكف على مطالعة التاريخ والتأليف فيه ، حتى بعد صيته . وأنه كان حسن الخلق ، كريم العهد كثير التواضع ، عالى الهمة لقصاده . مداوما على التهجد حسن الصلاة . وأنه جمع فى كتابه « مجمع الفرائد ومنبع الفوائد » المشتمل على المعقول والمنقول ، وفى الجد والهزل ، ما شاهده بنفسه وسمعه ، مما لم ينقله من كتاب آخر .

ومن مساوئه : أنه كان يميل إلى أهل الظاهر ، ونقل السخاوى عن ابن حجر أن المقريزى كان يتهم بمذهب ابن حزم ، ولكنه كان لا يعرفه . ومنها اتهامه بسرقة مسودات الأوحدى وهذه أشنع تهمة نسبها السخاوى إليه . وأنه كان قليل المعرفة بالمتقدمين ، ولذلك ، وقع له التحريف والسقط فى متونهم وأسمائهم وأنسابهم . وضرب أمثلة كثيرة لذلك ، كالكرجى يجعلها الكرخى . وأنه يكثر من الاعتماد على من لا يوثق به من غير عزو إليه . . ومن ذلك اعتماده على قول أبيه حينما دخل مسجد الحاكم بأمر الله ، فقال له أبوه : هذا مسجد جدك . فاعتمد المقريزى على ذلك ، وانتسب إلى العبيديين . ومنها أنه غير ماهر فى استحضار الوقائع الإسلامية ،

(١) كتب الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه « مصر الاسلامية » فصلا ممتعا عن المقريزى وخططه ، دافع فيه عنه ودحض بعض دعاوى السخاوى عليه .

جاهل بالرجال وجرحهم وتعديلهم ومراتبهم . الخ . ومنها أنه ضعيف فى الفقه ومعرفة الحديث والنحو ، قليل الإلمام بأقوال السلف ومذهب أهل الكتاب . هذا ونسب إليه الكذب فى بعض أخباره .

وفى اعتقادنا أن نقدات السخاوى لم تضع من قدر المقريزى ، ولعلها سهلت السبيل إلى درسه ، وعبدت الطريق إلى الوقوف على مبلغ علمه وفضله ، ومؤلفاته المتعددة شاهدة بهذا العلم والفضل .

مؤلفاته:

عكف المقريزى على التأليف ، فقد كان من هواته ، وأغرم بالتاريخ غراما لا حد له ، ولم يقتصر غرامه به على نوع واحد منه ، بل تناول عدة أنواع . فكتب فى الخطط ، وفى التاريخ العام ، وفى تاريخ مصر ، وتاريخ رجالها ، وتاريخ الدول . وقد عاونه تقلبه فى الوظائف الإدارية على معرفة النظم الديوانية وأخبارها ، والولوع بالبحث عنها ، وتطورها ، وجره الحديث عن هذه النظم ، إلى وصف كثير من العادات والتقاليد الاجتماعية ، فكان بذلك كله فذا بين مؤرخى مصر . وأصبحت مؤلفاته من أهم المراجع فى تاريخها وتاريخ آثارها وخططها . ووضع سلسلة من مؤلفاته تكوّن عقدا ثمينا ، متصل الحبات فى تاريخ مصر ، وهى على التوالى : عقد جواهر الأسفاط فى تاريخ الفسطاط ، واتعاظ الحنفاء ، فى أخبار الفاطميين . والسلوك من عهد الأكراد إلى زمنه .

وكان طويل النفس مديد الباع فى بعض مؤلفاته ، التى بلغت — على ماقيل — نحو مائتى مجلد . من بينها كتابه « المقفى » . وهو تاريخ كبير كتب منه ستة عشر مجلدا ، ولم يتمه . وروى السخاوى أنه كان يقول ، لو كمل على ما يرومه ، لجاوز الثمانين مجلدا . ومنها كتابه « بجمع الفرائد ومنبع الفوائد » قيل : بلغت مجلداته نحو مائة .

ولم يقتصر تأليفه على التاريخ ، بل ألف فى النقود وتاريخها ، وله مؤلفات تحدث فيها عن الحديث والفقه والكلام مثل كتابه « تجريد التوحيد المفيد » .

وقد سعد المقريزى بأن شاهد مؤلفاته تقرأ وتدرس فى حياته . وقد قال تلميذه أبو المحاسن بن تغرى بردى: « وقرأت عليه كثيراً من مصنفاته » . وقال أيضاً: « وصنف كتباً كثيرة ، من ذلك : إمتاع الأسماع فيما للنبى صلى الله عليه وسلم من الحفدة والأتباع ، فى ستة مجلدات ، رأيته وطالعته ، وهو كتاب نفيس . وحدث به فى مكة » . هذا ومن حسن الحظ أن كثيراً من مؤلفات المقريزى موجود ، وبعضها فى دار الكتب المصرية وبعضها مطبوع .

ونذكر هنا بعض مؤلفاته فنها [1] :

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . (٢) السلوك لمعرفة دول الملوك . (٣) اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء ، وهو فى تاريخ الفاطميين . (٤) عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط ، وهو فى تاريخ مصر من الفتح العربى إلى قبيل تأسيس الدولة الفاطمية ، وبه يحمل سيرة النبى عليه السلام . (٥) المقفى ، قال عنه جورجى زيدان: إن المقريزى وصف فيه عيشة الأمراء والمشاهير الذين أقاموا فى مصر . كتب منه ١٦ مجلداً ، منها ثلاثة فى ليدن ، ومجلد فى باريس . كلها بخط المؤلف . (٦) الدرر المضيئة فى تاريخ الدولة الإسلامية : من مقتل عثمان إلى المستعصم آخر خلفاء بغداد . (٧) إمتاع الأسماع فيما للنبى من الحفدة والأتباع : فى ستة مجلدات ، وهو الذى حدث به بمكة أيام مجاورته . وتوجد منه نسخة بدار الكتب . (٨) الخبر عن البشر ، قال عنه : إنه جعله مدخلا لكتابه « إمتاع الأسماع » ، وتكلم فيه عن المخلوقات وكيفية خلق السموات والكواكب وأشكالها وحركاتها ، والأرض وتقسيمها وكيفية خلق آدم واختلاف لغات ذرياته . وعن ملوك اليمن وقريش وأنسابها ، وآباء النبى عليه السلام .. إلى غير ذلك . وبدار الكتب المصرية ، منه ستة أجزاء تقع فى ١٦ مجلداً مصورة تصويراً شمسيا .

---

(١) اعتمدنا فى ذكر هذه المؤلفات على فهرس دار الكتب المصرية ومعجم سركيس ، وجورجى زيدان . والضوء اللامع للسخاوى ، والمنهل الصافى لأبى المحاسن . وعلى ما قرأناه فى دور الكتب الأخرى .

(٩) نبذة العقود فى أمور النقود [1] . (١٠) المكاييل والموازين الشرعية . (١١) ضوء السارى فى معرفة خبر تميم الدارى . (١٢) النمل وما فيه من غرائب الحكمة . (١٣) الطرفة الغريبة فى أخبار حضرموت العجيبة، طبعت، ومنها نسخة بدار الكتب . (١٤) البيان والإعراب عما فى أرض مصر من الأعراب وقد طبع أكثر من مرة . (١٥) الإلمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الإسلام ، طبع . (١٦) معرفة ما يجب لآل البيت الشريف من الحق على من عداهم . (١٧) الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الملوك . (١٨) النزاع والتخاصم بين بنى أمية وهاشم ، ومنه نسخة بدار الكتب طبع ليدن . (١٩) الإشارة والإيماء إلى حل لغز الماء . (٢٠) إزالة التعب والعناء فى معرفة حال الغناء . (٢١) ذكر ما ورد فى بنى أمية وبنى العباس من الأقوال . (٢٢) البيان المفيد فى الفرق بين الإيمان والتاحيد . (٢٣) تراجم ملوك العرب . (٢٤) درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة: فى تراجم أعيان عصره ، يقع فى ٣ مجلدات . (٢٥) تجريد التوحيد المفيد ، طبع . (٢٦) مختصر قيام الليل ، وقيام رمضان وكتاب الوتر . والكتب الثلاثة لأبى عبد الله المروزى المتوفى عام ٢٩٤ هـ . (٢٧) ذكر دخول قبط مصر فى دين النصرانية، وبدار الكتب المصرية منه نسخة مطبوعة بأوربا سنة ١٨٢٨م مع مقدمة وترجمة باللاتينية . (٢٨) منتخب التذكرة : وفيه جملة من تاريخ الأعيان والملوك وأنسابهم وحوادثهم .. الخ ، مبتدئا بقصة آدم ، ورتبه على حسب السنين ، منه نسخة بدار الكتب بالتصوير الشمسى ، والمنتخب والتذكرة كلاهما للمقريزى . (٢٩) النقود القديمة والاسلامية ، ولعله هو كتابه « نبذة العقود » وكتابه « شذور العقود فى ذكر النقود » . (٣٠) الأخبار عن الأعذار . (٣١) والإشارة والكلام ببناء الكعبة بيت الله الحرام ، وله مختصره كذلك . (٣٢) حصول

---

(١) فى دار الكتب كتاب للمقريزى اسمه « شذور العقود فى ذكر النقود » فلعله هو (نبذة العقود) . ولعلها معا كتابه (النقود الاسلامية) .

الأنعام والمير فى سؤال خاتمة الخير . (٣٣) المقاصد السنية فى معرفة الأجسام المعدنية . (٣٤) شارع النجاة ، ويشتمل على جميع ما اختلف فيه البشر من أصول دياناتهم وفروعها مع أدلتها وتوجيه الحق فيها . (٣٥) قرض سيرة المؤيد لابن ناهض .

التعريف ببعض مؤلفاته :

١ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار :

هو الخطط المقريزية المشهورة ، وأحد الكتب الخالدة التى اهتم بها الناس قديما وحديثا ، وشرقا وغربا ، واعتمد عليه عدد ضخم من كبار المؤلفين الذين تصدوا للكتابة فى تاريخ مصر وآثارها وخططها .

وموضوعه قص أخبار وأوصاف ما فى ديار مصر والقاهرة من مبانى وآثار ، وطرق ومنشئات مختلفة ، والتنويه بذكر من له صلة من الأعلام بذلك كله . — وقد بيّن المقريزى فى خطبة هذا الكتاب موضوعه فقال :

« أردت أن ألخص منها — أى من الفوائد التى جمعها — أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية عن الأمم الماضية والقرون الخالية . وما بقى بفسطاط مصر من المعاهد ، غير ما كاد يفنيه البلى والقدم . ولم يبق إلا أن يمحو رسمها الفناء والعدم . وأذكر ما بمدينة القاهرة من آثار القصور الزاهرة . وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع . وحوته من المبانى البديعة الأوضاع . مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأماثل . والتنويه بذكر الذى شادها من سراة الأعاظم والأفاضل . وأنثر خلال ذلك نكتا لطيفة . وحكما بديعة شريفة . من غير إطالة ولا إكثار . ولا إجحاف مخل بالغرض ولا اختصار . بل وسط بين الطريقين ، وطريق بين بين » .

وقد نجح المقريزى فى حبك كتابه وفق الخطة التى رسمها ، نجاحا بعيد المدى . حتى أصبح كتابه هذا واسطة عقد كتب الخطط المصرية . وأغلى حباته وأنفسها .

والكتاب فى نظرنا يشتمل على ثلاث نقط ، الأولى : وصف الأماكن والآثار المصرية . الثانية : تراجم الأعلام . الثالثة : النكت اللطيفة والحكم الشريفة التى أشار إليها .

أما النقطة الأولى : فقد فصل الكلام فيها تفصيلا ، وتحدث عن النيل وخلجانه وقناطره . وجبال مصر وواحاتها ومدنها . والإسكندرية وما فيها . وذكر المساجد والجوامع والخوانق والزوايا والربط والمدارس والحمامات والأسواق والسجون ، ووصف القاهرة وما تحتويه من ذلك كله ، وشوارعها وطرقاتها وأزقتها وعمائرها وما إلى ذلك .

أما النقطة الثانية : فإنه لم يستوعب تراجم الأعلام إلا بقدر دعت إليه ضرورة ذكر ما اتصل بهم من آثار وأماكن وأبنية . فمثلا يترجم لمنجك اليوسفى عند ذكر مدرسته ، ويترجم لمحمود الأستادار عند وصف مسجده ، وهلم جرا . لذلك لا نستطيع أن نعُده من كتب تراجم الأعلام إلا بمقدار . ومع ذلك فقل أن تعثر على مثل تراجمه بأخبارها فى كتاب آخر . ومن أتى بعده من كتاب التراجم استمد منه واعتمد عليه بلا شك . — ومما يذكر هنا أنه دلف إلى ذكر بعض الدول المصرية وملوكها . فقد تحدث عن الفاطميين وعن ملوك بنى أيوب ثم سلاطين المماليك حتى عصره ، وحوادثهم . واستطرد إلى حوادث تاريخية أخرى .

أما النقطة الثالثة : فهى من أطرف ما فى الكتاب وقل أن نجد من المؤرخين من استطاع أن يسوق فى مؤلف واسع كهذا ، ذلك العدد الضخم من الطرائف التاريخية ، التى تصف الأخلاق والعادات والتقاليد والمذاهب الدينية ، ونظم الإدارة والوظائف واختصاصات كل وظيفة ، وتقلب الأحوال بكل منها . ويتغلغل هذا التغلغل فى وصف صميم الحياة بين الخواص والعوام ، ووصف مايجول فى نفوسهم من خواطر وأحاسيس . ويعرض ذلك فى بعض الأحيان بعبارة وصاف دقيق ، أو بأسلوب لذاع لناقد جم الألم شديد الحزن ، لما طرأ على بيئة عصره من فساد . .

ومما تكلم فيه من هذا النوع : ذكر الأذان بمصر وما كان فيه من الاختلاف، ج ٤ ص٤٣ - وذكر الأحباس وما كان يعمل فيها ، ج ٤ ص ٨٣ - وذكر مذاهب أهل مصر ونحلهم ، ج ٤ ص ١٤١ - وذكر فرق الخليقة واختلاف عقائدها وتباينها . وفرق أهل الإسلام ، ج ٤ ص ١٦٣ - وفصل فى أن الله سبحانه طلب من الخلق معرفته، ج ٤ ص١٨٨ - ذكر تاريخ اليهود وأعيادهم، ج ٤ ص٣٦١ . ذكر الروك الناصرى ، ج ١ ص ١٤١ . وذكر الديوان وديوان العساكر والخراج. وأراضى مصر وزراعتها ، ج ١ ص ١٠٧ إلى ١٦٦ . أعياد القبط ، ج ٢ ص ٢٤ تحويل السنة الخراجية القبطية إلى السنة الهلالية العربية ، ج ٢ ص ٣٩ . أحوال الفاطميين ودعواتهم ، ج ٢ ص ٢١٤ إلى ٢٣٣ . — الكلام على الدواوين كديوان المجلس والنظر والتحقيق والجيوش والإنشاء وغير ذلك، ج ٢ ص٢٣٥ وما بعدها . أعياد الفاطميين ومواسمهم ، ج ٢ ص ٣٨٤ وما بعدها — وغير هذه الموضوعات كثير، ككلامه عن الوظائف الهامة فى الدولة فى الجزء الثالث . وخاصة كلامه عن الحجوبية ومنشئها ، وعن السياسة وأصلها . وذكر جيوش الدولة التركية وزيها وعوائدها ، ج ٣ ص ٣٥٠ . وما ذكره عن المماليك وطرق تعليمهم تحت عنوان « الطباق بساحة الإيوان » ج ٣ ص ٣٤٦ .

ومن نقده اللاذع لهم فى هذا الفصل، قوله عن المماليك وعن السلطان الناصر فرج :

« ثم تلاشت الأحوال فى أيام الناصر فرج بن برقوق . وانقطعت الرواتب من اللحوم وغيرها ، حتى عن مماليك الطباق مع قلة عددهم . ورتب لكل واحد منهم فى اليوم مبلغ عشرة دراهم من الفلوس . فصار غذاؤهم فى الغالب الفول المسلوق ، عجزاً عن شراء اللحم وغيره . هذا . وبقى الجلب من المماليك إنما هم الرجال الذين كانوا فى بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد فى تنور خباز ، ومحول ماء فى غيط أشجار . . ونحو ذلك . واستقر رأى الناصر على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم . بل يتركون وشئونهم . فبدلت الأرض غير الأرض وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدرا وأشحهم نفساً ، وأجهلهم

بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضاً عن الدين . ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب . لا جرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات ، بسوء إيالة الحكام وشدة عبث الولاة ، وسوء تصرف أولى الأمر ، حتى أنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه » .

والكتاب أربعة أجزاء كما ذكرنا . ولا يستقل كل جزء بموضوع أو موضوعات معينة ذات صبغة خاصة أو فكرة مستقلة تميزها عن مثيلتها فى الجزء الآخر . بل الكتاب بأجزائه الأربعة ، ذو صبغة واحدة ، وفكرة واحدة ، تقسمتها هذه الأجزاء . ومع هذا نذكر أن من أبواب الجزء الأول : مسائل جغرافية خاصة بالأرض وبمصر . وأخبار النيل ومقياسه ، وخلجانه . أحاديث عن أعمال الديار المصرية وكورها وخراجها . وذكر الأهرام وأبى الهول والجبال الأخرى . وفصول عدة عن الإسكندرية ومنشآتها . ثم فصول عن المدن والقرى المصرية الأخرى .

ومن أبواب الجزء الثانى : تاريخ الخليفة . الأقباط وأعيادهم . كلام عن الفسطاط والقطائع والعسكر . نسب الفاطميين . أبواب القاهرة . قصور الخلفاء الفاطميين ووصف دعوتهم . الكلام عن الدواوين المختلفة . والخزائن . وبعض المناصب .

ومن أبواب الجزء الثالث : حارات القاهرة وأخطاطها ودروبها ورحباتها ودورها ، وحماماتها وأسواقها وفنادقها ، وأحكارها ، وقناطرها ، وبركها وجسورها ، وذكر بعض الوظائف الكبيرة . وموجز فى تاريخ ملوك الأيوبيين وسلاطين المماليك إلى عهد برسباى عام ٨٢٥ هـ .

ومن أبواب الجزء الرابع : ذكر المساجد الجامعة والمدارس والخوانق والربط والزوايا والجوامع .

ومن أهم ما يجب تذليله فى هذا الكتاب ، حتى يسهل على المطلعين تناوله والوصول السريع إلى المواضع التى ينشدونها فيه ، أن توضع فهارس كاملة لما فيه من الحوادث والاستطرادات ، أو تُعنون هذه الحوادث بعناوين جديدة مناسبة ، ليسهل العثور

عليها . إذ كثيرا ما يجد المرء مسائل طريفة جدا ، وهامة ، تحت عناوين لا تومى إليها . مثال ذلك ، الكلام عن تعليم الجند والمماليك ، فقد ورد تحت عنوان « الطباق بساحة الإيوان » ، وعلى هذا فقس .

على أن بالكتاب مسائل وموضوعات تحتاج إلى التمحيص والتعليق عليها .

وقد اعتمد المقريزى فى تأليفه على كثير ممن تقدموه ، ونسب إليهم الكثير مما نقل . ومنهم ابن عبد الظاهر صاحب الروضة البهية ، ومنهم ابن فضل الله صاحب مسالك الأبصار .

وقبل أن نختم الحديث عن هذا السفر القيم ، نشير إلى ما نسبه السخاوى إلى المقريزى من أنه عثر على مسودات للأوحدى انتفع بها فى كتابة خططه . — وقد قال جورجى زيدان بإزاء هذا ما يلى :

« ويظن السخاوى أن السبب فى إحرازه هذه الفوائد الكثيرة أن صاحبه ظفر بمسودات كتاب للأوحدى[1] فى هذا الموضوع فأخذها وزاد عليها . مع أن المقريزى لم يقصر فى ذكر المصادر التى نقل عنها بل هو يسند كل فقرة إلى صاحبها فلو أخذ عن الأوحدى لم يهمه أن يذكره . ولكن السخاوى كان معاصرا المقريزى ، ويندر أن يخلو المعاصرون من التحاسد . »

ونستدرك هنا فنقول إن المقريزى توفى عام ٨٤٥ هـ ، وأن السخاوى من تلاميذه وقد توفى عام ٩٠٢ هـ .

وقد اقتبسنا فيما مر بعض فقرات من الكتاب ، ومنها يتبين أسلوبه وهو سهل سائغ لا قيود فيه ، بل تندمج فيه كلمات وتعبيرات عامية ، قد يضطر إليها المؤلف اضطرارا ، انسياقا وراء عُرف قررها ، أو رسميات شاعت فيها .

---

(١) الأوحدى هو شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن الحسن بن طوغان بن عبد الله ، ينسب جده إلى بيبرس الأوحدى الذى كان نائب القلعة . وكان شهاب الدين عالما بفقه الشافعى والحديث وغيرها وكان أديبا . توفى سنة ٨١١ هـ . ويقال إنه كتب مسودة لخطط مصر ، نقل منها المقريزى (ترجمته فى الضوء اللامع ج ١ ص ٣٥٩)

هذا وقد اعتمدنا فى كتابنا هذا ، على كثير من فصول هذا الكتاب . ومن انتفع به واعترف بانتفاعه ، من مؤلفى مصر فى العصر الحديث ، على مبارك باشا فى خططه التوفيقية ، وجورجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة . وغيرهما من الأدباء والمؤرخين كثيرون . والكتاب بعد هذا كله ، كتاب تقويم وحديث وفقه وتشريع ونقد وأدب واجتماع ولغة . ولا يخلو من خرافات ومسائل تحتاج إلى التمحيص . ـ كما أشرنا ـ

٢ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك :

من أهم كتب المقريزى . وهو أربعة مجلدات . وكان سبب تأليفه ـ كما قال فى مقدمته ـ أنه وضع كتابه « عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط » ، فى تاريخ مصر من الفتح العربى إلى قبيل تأسيس الدولة الفاطمية . ثم وضع كتابه « اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا » فى تاريخ مصر زمن الخلفاء الفاطميين . فرأى بعد ذلك أن يكمل هذه السلسلة الفريدة بوضع كتاب فى تاريخ مصر زمن الأيوبيين ، وزمن سلاطين المماليك ، الأتراك والجراكسة ، ليتم بذلك تاريخ مصر ، من الفتح العربى إلى عهده .

وقد مهد لذلك بجملة فصول ، كتبها عن الأجناس البشرية ، وأديانها قبل بعثة النبى عليه السلام . ثم تكلم عن الحكومة والخلفاء من بعده ، فتحدث عن الخلفاء الراشدين ثم الأمويين فالعباسيين ، وعن الدول المتفرعة كالبويهية والسلاجقة ، إلى عهد صلاح الدين الأيوبى . ـ وهى فصول سريعة خاطفة .

والكتاب بعد هذه الفصول ، موسوعة حافلة بتاريخ مصر وحوادثها فى العصرين الأيوبى والمملوكى إلى عهد المؤلف أى بين سنتى ٥٧٧ هـ ، ٨٤٤ هـ . ويعتبر من أهم مراجع تاريخها فى الحقبة المذكورة . وقد سرد المؤلف هذه الحوادث وأخبارها من سياسية واجتماعية ونحوهما ، مرتبة حسب السنين ، مترجما فى السياق ، وفى أعقاب كل سنة لأعيان الوفيات .

ولعل المقريزى كان مُلْهَما بعمله العظيم ، لابن إياس الحنفى مؤرخ مصر ،

وواضع بدائع الزهور . فإنه انتهج نفس النهج وسار عليه ، حتى استوعب حوادث العصر المملوكى وزاد عليها — كما سنشير إليه فى مكانه .

ولعله أيضا كان ملهما لتلميذه أبى المحاسن فى كتابه « النجوم الزاهرة » فإنه على نسق من السلوك كذلك . هذا وقد وضع السخاوى تذييلا للسلوك سماه « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » .

ومن حسن الحظ أن عنى الأستاذ محمد مصطفى زيادة ، أستاذ التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، بنشر هذا المؤلف الثمين — السلوك — فأصدر منه حتى الآن أكثر من جزء . فى طبعة أنيقة مزودة ببحوث وتعليقات وشروح وفهارس متنوعة ، حديثة ، زادت فى قيمة الكتاب وسهلت الانتفاع به .

٣ — إغاثة الأمة بكشف الغمة :

رسالة طبعت حديثاً فى نحو ثمانين صفحة ، قام بنشرها الأستاذان الفاضلان محمد مصطفى زيادة ، وجمال الدين محمد الشيال عام ١٩٤٠ م والكتاب على ضآلة حجمه ، عظيم النفع والقيمة .

وقد صدره ناشراه بكلمة قيمة ، وضحا فيها قيمته العلمية ، ونحن نلخص بعضها فيما يلى :

« يمتاز الكتاب بطرافة موضوعه وتفوق مؤلفه . إذ يتناول تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ٨٠٨ هـ . وهى السنة التى ألف فيها . والمقريزى فى هذا الكتيب — فيما نعلم — هو المؤرخ المصرى الوحيد الذى تعرض بالبحث لتلك الناحية الاقتصادية الاجتماعية من تاريخ مصر . فهو فى تدوينه ، يحاول تقصى الأسباب ويقترح العلاج . ويصف طبقات المجتمع المصرى بشىء من التفصيل . — وهو شبيه فى هذا ، بأستاذه ابن خلدون فى مقدمته — مع الفارق فى الموضوع والحجم طبعا . وكل منهما يعرض موضوعه مع غلبة الصبغة الفلسفية عليه مستشهدا بحوادث التاريخ مختتما الفصل بآية من القرآن الكريم ، أو ببيت من الشعر يناسب المقام . »

« ولكتاب « إغاثة الأمة » وأشباهه من الرسائل الصغرى أهمية خاصة بالنسبة لمؤلفيها من كبار المؤرخين، تقصر عنها كتبهم الكبرى التي تموج بالتراجم الكثيرة والحوادث الجمة . فهذه الكتب الصغيرة تلقي كثيراً من الضوء على شيء من هوية مؤلفيها ، وتوضح الطريق لفهم الحالة الفكرية بينهم في مختلف العصور والعهود »

ونحن نعقب على ذلك بقولنا إن من المؤرخين المصريين من تعرض لذكر هذه الحوادث وأمثالها وأرخها . ومنهم ابن إياس ففي تضاعيف بدائعه أخبار عدة لما وقع في مصر من زلازل وطواعين وغلاء ونحو ذلك ، مع ذكر ما صنعه أمراء مصر وأعيانهم ، إزاء هذه الحوادث ، وإن كان لم يذكر العوامل الاقتصادية ، ولا وصف الحياة الاجتماعية ، الملابسة لهذه الحوادث ذكراً مريحاً . وقد استنبطنا منه ، ذلك الفصل الذي كتبناه عن الحوادث المذكورة في الجزء الأول من هذا الكتاب . — وكذلك يوجد فصل في هذه الحوادث في حسن المحاضرة للسيوطي . ولابن حجر العسقلاني كتاب اسمه « بذل الماعون في فضل الطاعون » ونحن لم نطّلع عليه ، ولكن ابن إياس ذكره ونقل عنه . وأبو المحاسن ابن تغرى بردى قد نص في نجومه الزاهرة على هذه الحوادث كذلك .

ومهما يكن من شيء ، فإن هذا الكتاب الذي وضعه المقريزي في سنة ٨٠٨ هـ . كما يفهم من حديثه في الفصل الثاني ، هو — فيما نعلم — هو الوحيد الذي جمع حوادث الغلاء في مصر ، في صعيد واحد . فيمتاز هذا عن غيره بتسلسل الحوادث واتصالها ، والمعونة على سرعة الحكم عليها وموازنتها . ومن مميزاته أنه ذكر في سياق حوادث الغلاء بمصر ، حوادث الغلاء بغيرها من الأقطار المجاورة ، كالشام وبرقة ، والحجاز ، وغيرها . وفصل الحديث ، أكثر من سواه ، في وصف حالة الناس إبان كل غلاء تقريباً . وما كان يسودهم من الذعر والاضطراب ، وما كان يعروهم من الهم والحزن والشذوذ ، وما كان يقوم به السلاطين والأمراء والأعيان من معونة للشعب لتفريج أزمته . وتلاعب الطحانين والخبازين ، وتجار الغلال بالأسعار . — وتكلم فيما تكلم عنه ، عن أسباب هذه الأزمات ، وما اكتنفها من عوامل ، ضاعفت

أثرها. ولكنه لم يفصل الكلام عن هذه الناحية الأخيرة تفصيلا شافيا فى الفصل الأول. وقصارى هذه العوامل: ضعف السلطنة، واستبداد الأمراء وتلاعب التجار فى الأسواق، وخبث الطحانين والخبازين وعرفاء الأسواق، وهبوب الرياح الضارة بالقمح ونقصان ماء النيل. وهذا العامل الأخير هو أهم العوامل تقريباً. إذ كان ارتفاع النيل أو انخفاضه فى إبان الوفاء وحوله، أهم مؤثر فى أسعار الحاجيات بالسوق ولا سيما فى تلك العصور التى كان القمح فيهـــا هو المحصول الرئيسى للبلاد. ولهذا كانت الأسعار تتأثر غالبا، بأخبار المبشرين بارتفاع النيل فى فصل الفيضان.

ولم يقصر بحثه على حوادث عصره، أو حوادث عصر الأتراك المماليك والجراكسة. بل نقل أخبار حوادث الغلاء التى وقعت منذ القدم فى مصر، نقلها عن كتب تاريخية أخرى، لكتاب ابن وصيفشاه.

ثم فصل فى الفصل الثانى، الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التى نجمت عنها حوادث الغلاء، تفصيلا دقيقا. وأرجعها إلى ثلاثة لا رابع لها وهى، أولا: انتشار الرشوة بين طلاب الوظائف، يدفعونها لينالوا مناصبهم، فيستدينون فيظلمون الناس، ولا سيما أهل القرى، فيصيب هؤلاء، العجز عن الدفع، فتضطرب زراعتهم، أو يهجرون ديارهم. — ثانيا: ارتفاع أثمان الأراضى الزراعية وإيجارها نتيجة لرغبة خدام الأمراء، فى التقرب إليهم بهذا العمل الظالم، فهجرها الفلاحون وقلت المحاصيل. — ثالثا: اضطراب العملة.

وقد كتب المقريزى مقالين فى النقود، وهما أصل لكتابه «النقود القديمة والإسلامية». وكتب فصولا موجزة، فى وصف تقلبات الأسعار، وما تنتجه من المحن، وطرق معالجة ذلك. وفى طبقات المجتمع المصرى فى عهده[1]

وقد صدّر المقريزى كتابه بفصل ممتع موجز. ضمنه كثيرا من الحكم والنظريات

---

١ — نقلنا ذلك عنه فى الجزء الأول من كتابنا هذا. بالقسم الثانى ص ٣٦٣

الاجتماعية والنفسية . بعضها مقبول مسلم ، وبعضها يحتاج إلى تمحيص .

ومن ذلك قوله : « لا تزال الحال المستقبلة تُتصور فى الوهم ، خيرا من الحالة الحاضرة ، لأن ملالة الحالة الحاضرة تُزيّن فى الوهم ، الحالة المستقبلة ، فلذلك ، لايزال الحاضر أبدا منقوصا حقه ، مجحودا قدره . لأن القليل من شره يُرى كثيرا . إذ القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر » .

وقال : « مقاساة اليسير من الشدة ، أشق على النفس من تذكر الكثير مما سلف منها . مثال ذلك : شخص أرقته البراغيث ليلة .. فتذكر بذلك ليالى ماضية أرقته فيها حرارة الحمى . فغير ذى شك أن توهم تلك الحمى ، وتذكر تلك الأيام الماضية أخف عليه من دبيب البراغيث ، على جسمه فى وقته ذلك ... » .

وعجيب أن يكون دبيب البراغيث لدى المقريزى ، أشق من تذكر الحمى ...

ومهما يكن من شىء ، فحسبنا ما مر شاهدا بفضل الكتاب ومؤلفه . وقد استعنا به فى أكثر من موضع ، من هذا الكتاب .

المقريزى الكاتب :

المقريزى كاتب مؤلف ، وكاتب أديب . ويجنح فى كتابته التأليفية ، إلى القص وعدم التنميق ، أو التأنق فى اختيار اللفظ ، إلا مادل على المعنى ، ولو أدى ذلك إلى استعمال كلمات عامية أو دخيلة ، أو عبارات عربية مضطربة . وأكثر ما دخل كلامه ، تلك الألفاظ التى شاعت فى الرسميات ، أو جرت ألسنة العامة بإطلاقها على معانى غير معانيها . ويكرر أحيانا جملة لتثبيتها والتذكير بما فيها . وقد يختتم فصوله بآية قرآنية مناسبة ، أو بيت شعرى .

أما كتابته الأدبية ، فتتضح فيما كتبه فى خطب مؤلفاته ، أوفى السطور الأولى من فصوله أحيانا ، أو فى تضاعيفها أحيانا أخرى . فيجنح إلى الطريقة الفاضلية ، فيسجع أو يطابق أو يورى أو يجانس ، وهكذا .

وإليك نموذجا لكل نوع من كتابتيه :

فمن كتابته التأليفية ، ما كتبه تحت عنوان « الطبلخاناة تحت القلعة » — ج ٣ ص ٣٤٦ ، قال :

« وهذه الطبلخاناة الموجودة الآن تحت القلعة ، فيما بين باب السلسلة وباب المدرج ، كانت دار العدل القديمة ، التى عمرها الملك الظاهر بيبرس وتقدم خبرها . فلما كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة ، هدمها الناصر محمد بن قلاوون وبناها . هذه الطبلخاناة الموجودة الآن تحت قلعة الجبل ، فيما بين باب السلسلة وباب المدرج . وصار ينزل إلى عمارتها كل قليل . وتولى شد العمارة بها ، آق سنقر شاد العمائر : ووجد فى أساسها أربعة قبور كبار المقدار ، عليها قطع رخام منقوش عليها أسماء المقبورين ، وتاريخ وفاتهم ، فنبشوا ونقلوا قريباً من القلعة . فكانوا خلقاً كبيراً عظيما فى الطول والعرض على بعضهم ملاءة ديبقية ملونة ، ساعة مستها الأيدى ، تمزقت وتطايرت هباء . وفيهما اثنان عليهما آلة الحرب وعدة الجهاد ، وبهما آثار الدماء والجراحات . وفى وجه أحدهما ضربة سيف بين عينيه . والجرح مسدودة بقطنة . فلما أمسكت القطنة ورفعت عن الجرح فوق الحاجب ، نبع من تحتها دم ، يظن أنه جرح طرى ! فكان فى ذلك موعظة وذكرى . » . . . الخ

والقصة كما ترى طريفة وتحتاج إلى بحث ونظر . .

ومن كتابته الأدبية ، ما كتبه فى مقدمة كتابه الخطط ، يتحدث عن علم التاريخ وعن حبه لتاريخ مصر . قال :

« إن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا . وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطرا . لما يحويه من المواعظ والإنذار ، بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار . والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها . واستعلام مذامّ الفعال ليرغب عنها أولو النهى . لاجرم أن كانت الأنفس الفاضلة به رامقة . والهمم العالية إليه مائلة وله عاشقة . وقد صنف فيه الأئمة كثيراً . وضمّن الأجلة كتبهم منه شيئاً كثيراً وكانت مصر هى مسقط راسى . وملعب أترابى ومجمع ناسى . ومغنى عشيرتى وحامتى .

وموطن خاصتى وعامتى . وجؤجؤى الذى ربىّ جناحى فى وكره . وعش مأربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شددت العلم . وآتانى ربى الفطانة والفهم. أرغب فى معرفة أخبارها . وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها . وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها . » . الخ .

وبعد فقد قال السخاوى عنه ، ما يفهم منه أنه كان ينظم الشعر . قال : ومن شعره فى دمياط :

سقى عهد دمياط وحياه من عهد فقد زادنى ذكراه وجدا على وجدى
ولا زالت الأنواء تسقى سحابها ديارا حكت من حسنها جنة الخلد

قال : وهى أكثر من عشرين بيتا . —

وقال عنه ابن حجر : « له النظم الفائق والنثر الرائق » .

وبعد فقد مضى المقريزى ، وخلد اسمه بتراثه العلمى النضر ، الباقى بقاء الدهر.

« ترجمته فى : (١) الضوء اللامع ج ٢ رقم ٦٦ . (٢) المنهل الصافى لأبى المحاسن ، نقلها على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية ج ٩ — (٣) فى مقدمة كتبه : السلوك وإغاثة الأمة ، والبيان والاعراب ومختصر قيام الليل (٤) التبر المسبوك للسخاوى . (٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٦ (٦) عقد الجوهر (٧) جورجى زيدان ج ٣ (٨) مصر الاسلامية للاستاذ محمد عبد الله عنان . »

١٠ ـ شهاب الدين بن حجر العسقلانى ٧٧٣ هـ ـ ٨٥٢ هـ

هو قاضى القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد ، المعروف بابن حجر العسقلانى الكنانى المصرى . أصل أسرته من عسقلان ببلاد الشام، وإليها ينتسب. وابن حجر لقب لبعض آبائه . وقد ولد بمصر الفسطاط، وأقام بها زمنا طويلا . واشتغل فى بادىء أمره بطلب الأدب . ومال إلى نظم الشعر ، حتى بلغ فى ذلك مبلغا حسنا . ثم أغرم بالحديث ، فطلبه وسمعه من كثيرين من حفاظه، حتى جاء زمن ، وليس فيه أحفظ منه للحديث ، حتى سُمّى حافظ عصره . واشتغل بطلب الفقه ، على مذهب الشافعى ، فدرسه على كبار رجاله فى ذلك الحين . ونبغ فيه، وجنح إلى علم التاريخ ، فقرأ فيه مؤلفات كثيرة العدد ، حتى أغراه حبه للتاريخ بالتأليف فيه، فألف وأصبح من رجاله المعدودين .

طرف من حياته :

وقد ولد ابن حجر فى شعبان عام ٧٧٣ هـ بمصر ـ كما أشرنا ـ وتوفى والداه وهو صغير، فكفله بعض أقاربه وهو الزكى الخروبى ، وكان أحد أوصيائه . وشب وتعلم على جهابذة العصر، حتى نبغ وأصبح من أعلام مصر المشهورين ، ثم تصدر للإفتاء والتدريس ، والتأليف والخطابة سنين طويلة ، حتى عده بعضهم إمام عصره ووحيد دهره . وحج وهو صغير، وعاد إلى مصر، واشتغل بالتجارة، وتجول فى ربوع البلاد المصرية والشامية والحلبية ، والحجازية واليمنية ، فأفاده التجوال علما غزيرا وأدبا جما ، وخبرة نافعة. ولقى عددا من العلماء الآخرين منهم الفير وزابادى. لقيه فى زبيد . وما زال دائباً فى عمله ، حتى وُكل إليه منصب قاضى قضاة الشافعية بمصر ، وهو من أرفع مناصبها . وكان يتأبّى عليه ، ويقال إنه ندم بعد ذلك على قبوله ندما شديدا . قيل أول ما أسند إليه هذا المنصب فى ٢ المحرم عام ٨٢٧ هـ فى زمن الأشرف برسباى . . وقيل عام ٨٣٠ هـ [1] . ومهما يكن من شىء فقد ملأ منصبه

(١) روى السيوطى والسخاوى أن أول ولايه ابن حجر للقضاء ، فى سنة ٨٢٧ هـ — ورواها ابن إياس فى حوادث عام ٨٣٠ هـ

بقدرة وكفاءة ومهابة ، حتى عظمه أهل عصره جميعا وعلى رأسهم سلطان مصر حينئذ المؤيد شيخ المحمودى .

ولما أنشأ السلطان المؤيد شيخ ، جامعه الشهير عام ٨١٩ هـ ، جعل ابن حجر العسقلانى فى عداد مدرسيه ، وفى حفلات افتتاح هذا المسجد ، جلس ابن حجر يقرر درسا فى فقه الشافعية ، وأقبل عليه المؤيد ليستمع إليه ، فهمّ ابن حجر بالقيام تحية له ، فمنعه السلطان من القيام . فلم يقم .

ولما ولى القضاء فى المحرم عام ٨٢٧ هـ كما ذكرنا ، كتب له تقى الدين بن حجة الحموى تقليدا عن السلطان بهذا المنصب . ولبث فيه حتى ذى القعدة ثم عُزل . وأعيد ثانياً فى رجب عام ٨٢٨ هـ ثم عزل ، وتكرر هذا عدة مرات حتى كان عزله فى آخر جمادى الآخرة عام ٨٥٢ هـ . وهى السنة التى توفى فيها . وهنا صمم على عدم العودة إليه مطلقا ، وصرح بأنه لم تبق فى بدنه شعرة تقبل اسم هذا المنصب . — وهكذا ظل أمره فى هذا المنصب بين عزل وتولية ، قرابة إحدى وعشرين سنة . حتى توفى فى ليلة السبت ٢٨ من ذى الحجة عام ٨٥٢ هـ ، بمنزله بجوار المدرسة المنكوتمرية بجهة حارة بهاء الدين بالقاهرة . ودفن فى احتفال مهيب ، بالقرافة الصغرى ، شهده الخليفة والسلطان ومن دونهما .

وفى حارة بهاء الدين — كان — مدرسة تعرف بمدرسة ابن حجر العسقلانى بشارع بين السيارج ، ذكرها على مبارك فى خططه وقال أنشئت فى القرن التاسع .

تحدث السيوطى عنه فقال : « وختم به الفن — أى فن الحديث — وحدثنى الشهاب المنصورى شاعر العصر ، أنه حضر جنازته ، فأمطرت السماء على نعشه ، وقد قرب إلى المصلى ، ولم يكن زمان مطر » . قال فأنشدت فى ذلك الوقت :

قد بكت السحب على قاضى القضاة بالمطر
وانهدم الركن الذى كان مشيدا من حجر

ثم أورد السيوطى قصيدة رثاء فيه طويلة ، من نظم أديب عصره شهاب الدين الحجازى المتوفى فى سنة ٨٧٥ هـ قال فى أولها :

كل البرية للمنية سائره وقفولها شيئاً فشيئاً سائره
والنفس إن رضيت بذا ربحت وإن لم ترض كانت عند ذلك خاسره
وأنا الذى راض بأحكام مضت عن ربنا البر المهيمن صادره
لكن سئمت العيش من بعد الذى قد خلف الأفكار منا حائره
هو شيخ الإسلام المعظم قدره من كان أوحد عصره والنادره
قاضى القضاة العسقلانى الذى لم ترفع الدنيا خصيما ناظره

صفاته وعلمه :

كان ابن حجر ذكى الفؤاد كثير الحفظ ، مكبا على طلب العلم ، محبا للحديث النبوى ، كثير القراءة فى كتبه ، والسماع للمحدثين به ، حافظا راويا ، مميزا لأهل الحديث والمشتغلين به. راغبا فى الأدب وفنونه، والعربية وعلومها ، جماعا لحوادث التاريخ وأبطاله . — كما كان عادلا مهيباً متواضعاً حليما جميل العشرة متحرجا فى أعماله وأقواله .

حفظ القرآن الكريم وهو ابن تسع ، ثم حفظ مختصر ابن الحاجب والعمدة والحاوى الصغير والملحة وألفية ابن العراقى . ودرس علوما جمة على كبار مشايخ عصره . ومنهم زين الدين أبو الفضل الحافظ العراقى فى الحديث . والبلقينى وابن الملقن والإيناسى فى الفقه وغيره . وعز الدين بن جماعة فى الأصول . ومجد الدين القيروزابادى فى اللغة . والعمارى فى فنون العربية . والبدر البشتكى فى الأدب والعروض . وغير هؤلاء كثيرون .

ثم أذن له فى التدريس والإفتاء فزاول التدريس بكثير من مدارس القاهرة، كالحسينية والمنصورية ، والبيبرسية والجمالية المستجدة ، والزينبية والشيخونية ، وجامع ابن طولون وغيرها . وكان أهم دروسه بها درس الحديث .

وقد زاول الافتاء كذلك . وجلس للفتيا بدار العدل . وعُهد إليه بالخطابة فى الأزهر مرة وجامع عمرو ، مرة أخرى .

وكانت مجالسه العلمية حافلة ، يفد إليها الأعيان والأئمة والطلاب من كل فج ، يتعاطون عنه حديث الرسول عليه السلام . وأملى على طلابه أكثر من ألف مجلس — كما رواه السيوطى — وقد قال عنه السيوطى أيضاً : « انتهت إليه الرحلة والرياسة فى الحديث فى الدنيا بأسرها . فلم يكن فى عصره حافظ سواه » .

وألقى الدروس فى التفسير والفقه ، والخطب فى الوعظ والإرشاد ، وانتفع كثيرون بديوان خطبه ، وألقيت منه العظات على الناس . وولى القضاء مرارا كما ذكرنا . وتخرج على يديه كثير من تلاميذه ، فكانوا من بعده أئمة وشيوخا . منهم زكريا الأنصارى والشمس السخاوى ، والشهاب الحجازى ، والشهاب المنصورى والكمال السيوطى والد جلال الدين السيوطى .

واشتغل بالتأليف ، فصنف نحوا من مائة وخمسين كتابا فى فنون مختلفة ، منها : الحديث والفقه والتاريخ . ومؤلفاته قيمة انتشرت فى حياته وعنى بدراستها وتحصيلها كثير من شيوخه وأقرانه وغيرهم .

وكان على ورعه وتقواه وعلمه وفقهه ، ميالا إلى الدعابة والفكاهة والنادرة والطرفة . شأن كل أديب طروب . . ولهذا كان محبَّبا فى كل مجلس ، فتهوى إليه الأفئدة المختلفة ، وتهفو نحوه القلوب المتباعدة . فيجد كل لديه ما يرغب فيه من علم وأدب وفقه ، وفكاهة وملحة ، وتاريخ وشعر ونثر ، وحكمة وعظة .

وكان وفيا لخلصائه ، يداعب الأحياء منهم ، ويرثى من يموت بشعره الرائق مع وداعة وطيب قلب وتواضع جم .

ويعتبر ابن حجر ، فوق شهرته فى عالم التأليف ، أحد كتاب عصر المماليك ، وأحد شعرائه . وهو بذلك كله ، قد جمع فأوعى ضروبا عدة من ضروب الشهرة وألوان الصيت . — قيل إن الأمير « تغرى برمش الفقيه » قال له : أرأيت مثل نفسك ؟ فقال : قال الله سبحانه وتعالى : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » . . .

مؤلفاته :

لابن حجر مؤلفات عدة فى فنون مختلفة أربت على المائة والخمسين . وكثير منها مطبوع متداول واهتمت الهند بطبع عدد منها . وذكر جورجى زيدان بعضا منها . وذكر جميل العظم نحو مائة منها، ونذكر منها ما يلى :

١ ـ فتح البارى فى شرح البخارى : وهو فى عشرة أجزاء فى الحديث وشرحه، وله مقدمة جليلة اسمها « هدى السارى » . ٢ ـ نخبة الفكر : طبع فى الهند، وهو كتيب فى مصطلح الحديث . وقد شرحه المؤلف بكتاب آخر سماه « شرح نخبة الفكر » . ٣ ـ بلوغ المرام من أدلة الأحكام : وهو فى الحديث أيضا ومقسم إلى جملة أبواب . ٤ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة : وهو كتاب فى تراجم صحابة الرسول عليه السلام، مرتب على حروف الهجاء . ٥ ـ الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة : وهو كتاب جليل فى تراجم من عاش فى حدود العام الثامن الهجرى فى أربعة أجزاء . ٦ ـ رفع الإصر عن قضاة مصر : تكلم فيه عن قضاة مصر من فتح العرب إلى نهاية القرن الثامن . ومنه مخطوط بدار الكتب المصرية ٧ ـ المعجم المفهرس : وهو فى الحديث، رتب فيه الأحاديث على حروف المعجم بعد تجريدها من الأسانيد . ٨ ـ المجمع المؤسس للمعجم المفهرس : ذكر فيه أسماء شيوخه فى الحديث مرتبة على حروف الهجاء . ٩ ـ أنباء الغمر بأبناء العمر : وهو تاريخ مصر والشام سياسيا وأدبيا منذ ولادة المؤلف حتى عام ٨٥٠ هـ مما أدركه أو سمعه ومنه مخطوط بدار الكتب المصرية ١٠ ـ الإعلام فيمن ولى مصر فى الإسلام . ويسمى تاريخ مصر فى ثلاثة مجلدات . ١١ ـ نزهة الألباب فى الألقاب : وهو فى بيان ألقاب المحدثين مرتبة ترتيبا أبجديا . ومنه نسخة مصورة بالتصوير الشمسى، بدار الكتب المصرية . ١٢ ـ تهذيب الكمال : وهو مختصر فى معرفة رجال الحديث، والكتاب الأصلى لابن النجار . ١٣ ـ الديباجة : وهو فى الحديث أيضا فى اثنى عشر مجلدا . ١٤ ـ ترجمة السيد أحمد البدوى . ١٥ ـ مختصر أساس البلاغة للزمخشرى . ١٦ ـ محاسن المساعى فى مناقب الأوزاعى : وفيه ترجمة الأوزاعى

المحدث . ١٧ — تقريب التهذيب وهو فى الحديث أيضا . ١٨ — تعجيل المنفعة برواية رجال الأئمة الأربعة ومنه مخطوط بدار الكتب . ١٩ — الرحمة الغيثية فى الرحمة الليثية : فى مناقب الإمام الليثى . ٢٠ — توالى التأنيس بمثانى ابن إدريس : وهو حديث عن الشافعى الإمام ، ومنه مخطوط بدار الكتب . ٢١ — غبطة الناظر فى ترجمة الشيخ عبد القادر « الجيلانى » . ٢٢ — لسان الميزان : وهو فى أسماء رجال الحديث . ٢٣ — مشتبه النسبة . ٢٤ — تخريج الرافعى : أى تخريج أحاديث كتاب الرافعى المشهور فى فقه الشافعية . ٢٥ — تلخيص مسند الفردوس . ٢٦ — طبقات الحفاظ : فى تراجم رجال الحديث . ٢٧ — اللباب فى شرح قول الترمذى « وفى الباب » . ٢٨ — إتحاف المهرة بأطراف العشرة . ٢٩ — أطراف المسند المعتلى بأطراف المسند الحنبلى . ٣٠ — الاحتفال ببيان أحوال الرجال . ٣١ — الكاف الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف . ٣٢ — نصب الراية فى تخريج أحاديث الهداية . ٣٣ — هداية الرواة فى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة . ٣٤ — تخريج أحاديث الإنكار . ٣٥ — الإحكام لبيان ما فى القرآن من الإبهام . ٣٦ — نزهة السامعين فى رواية الصحابة عن التابعين . ٣٧ — المجموع العام فى آداب الشرب والطعام . ٣٨ — دخول الحمام . ٣٩ — الخصال المكفرة للذنوب المتقدمة والمتأخرة . ٤٠ — فهرست المرويات . ٤١ — كتاب الأنوار بخصائص المختار . ٤٢ — قوة الحجاج فى عموم المغفرة للحجاج . ٤٣ — الخصال الموصلة للظلال . ٤٤ — الإمتاع بالأربعين المتباينة بشرط السماع . ٤٥ — مناسك الحج . ٤٦ — الأحاديث العشارية والأربعون العالية لمسلم على البخارى . ٤٧ — عجب الدهر من فتاوى شهر . ٤٨ — تفحيص الخبير فى تخريج أحاديث الوجيز الكبير . ٤٩ — بذل الماعون فى فضل الطاعون [1] .

---

١ — سماه ابن إياس : بذل الماعون فى أخبار الطاعون » . ونسبه الكنوى فى طبقات الحنفية لابن حجر الهيثمى الفقيه . وهذا وهم ، فقد ذكره ابن إياس فى بدائعه منسوبا إلى ابن حجر العسقلانى — راجع البدائع ج ١ حوادث ٧٤٩ هـ . ونقل عنه ابن إياس بعض أخباره .

٥٠ — القول المسدد فى الذب عن مسند أحمد . ٥١ — رسالة فى تعدد الجمعة ببلد واحد . ٥٢ — نكت على مقدمة ابن الصلاح .

ومن مؤلفاته المخطوطة بدار الكتب المصرية كذلك — وبعضها بخطه ، مايلى:

٥٣ — الإيثار بمعرفة رواة الآثار: فى المصطلح . ٥٤ — تبصير المنتبه وتحرير المشتبه : فى المصطلح . ٥٥ — تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس: فى المصطلح . ٥٦ — تعليق من تاريخ ابن عساكر عن دمشق . ٥٧ — تعليق من مغازى الواقدى . ٥٨ — الزهر النضر فى نبأ الخضر . ٥٩ — ما ورد من الرواية ، وهو اختصار « البداية والنهاية » لابن الأثير . ٦٠ — محاسن المساعى فى ترجمة الأوزاعى . ٦١ — تعجيل المنفعة : فى الحديث ورجاله . طبع فى الهند

هذه بعض مؤلفاته الكثيرة . يضاف إليها كثير من خطبه وأماليه ورسائله ، وديوان شعره .

ولنتكلم الآن عن بعض هذه المؤلفات فنقول :

١ — فتح البارى بشرح البخارى :

كتاب مشهور فى شرح الحديث ، وهو من أجل كتب ابن حجر . يقع فى عشرة أجزاء ضخام ، يبلغ كل منها نحو أربعمائة صفحة من القطع الكبير . وقد قال فيه بعض المؤرخين : « لو وقف عليه ابن خلدون القائل بأن شرح البخارى إلى الآن دين على هذه الأمة، لقرت عينه بالوفاء والاستيفاء » . وقال السخاوى فى الضوء، إن هذا الكتاب لم يسبق نظيره، وكان أمرا عجبا، بحيث طلبه ملوك الأطراف بسؤال علمائهم له فى طلبه ، وبيع بنحو ثلثمائة دينار وانتشر فى الآفاق » .

وموضوعه شرح أحاديث صحيح البخارى . ولكنه شرح مستفيض ، به كثير من المسائل الفقهية ، وذكر الروايات المختلفة ، التى روى بها الحديث . مع استطرادات نافعة فى مسائل دينية عدة . وعنى الشارح عناية كبرى بالشرح اللغوى للألفاظ وإعراب الجمل مع بيان وجوه هذا الإعراب بما يعين على استنباط المعانى

قيل فى مقدمة طبعه ، نقلا عن كشف الظنون ما ملخصه : « إن هذا الكتاب امتاز بجمع طرق الحديث التى ربما يتبين من بعضها تراجيح أحد الاحتمالات شرحا وإعرابا. وطريقته فى الأحاديث المكررة أنه يشرح فى كل موضع ما يتعلق بمقصد البخارى بذكره فيه . ويحيل بباقى شرحه على المكان المشروح فيه . وكذا ربما يقع له ترجيح أحد الأوجه فى الإعراب أو غيره من الاحتمالات أو الأقوال فى موضع ، ثم يرجح فى موضع آخر غيرَهُ ، إلى غير ذلك ، مما لاطعن عليه بسببه »

وقد بدأ المؤلف تأليف كتابه هذا فى أوائل سنة ٨١٧ هـ إملاء ثم كتابة وتحريرا ومراجعة ومقابلة ، وما زال حتى انتهى منه فى أول رجب عام ٨٤٢ هـ . وظل يُلحق به أمورا حتى قبيل وفاته . فكأنه ظل يتعهد تأليفه نحو ربع قرن . ولما تم تصنيفه أقام وليمة، حضرها كبار علماء زمانه وأعيان رجاله فى يوم السبت ٢ شعبان سنة ٨٤٢ هـ.

مقدمة هذا الكتاب.

له مقدمة جليلة الشأن عظيمة الأثر سماها « هدى السارى » . وهى عبارة عن كتاب ضخم مستقل فى جزئين مطبوع على حدة. يقع فى نحو أربعمائة صفحة من القطع الكبير . وهذه المقدمة بالنسبة للكتاب ، تشبه مقدمة ابن خلدون بالنسبة لكتابه « العبر » من ناحيته الأدبية وتوضيح طريقة الانتفاع بالكتاب. وقد كتبت فى عشرة فصول تتمة لكتاب شرحه الكبير . وقد قال ابن حجر عنها فى خطبتها مبينا غرضه من وضعها :

« وأقدم بين يدى ذلك كله مقدمة فى تبيين قواعده وتزيين فرائده ، جامعة وجيزة ، دون الإسهاب وفوق القصور . سهلة المأخذ ، تفتح المستغلق وتذلل الصعاب وتشرح الصدور » .

وهى فى الواقع بيان لمميزات الجامع الصحيح للبخارى، وتوضيح أفضليته على كتب الحديث الأخرى، السابقة عليه واللاحقة له ، وأنه أصحها جميعا .

ومن فصول هذه المقدمة : فصل فى بيان السبب الباعث للبخارى على تصنيف كتابه . وبه ملخص طريف وجيز عن تاريخ رواية الحديث . ومنها فصل فى بيان موضوع كتاب البخارى والكشف عن مغزاه . وهكذا .

فالمقدمة تنظم وتسهل وتزيد الانتفاع بكتاب البخارى وشرحه معا . وتمد الباحث بمسائل تاريخية جليلة فى موضوع الحديث وروايته وطرق تنظيمها . وهى دليل على رسوخ قدم ابن حجر فى التاريخ واللغة وحفظ الحديث وروايته وفى علوم الدين .

٢ — الإصابة فى تمييز الصحابة :

كتاب مطبوع متداول مشهور . يقع فى ثمانية أجزاء من الحجم الكبير . به تراجم صحابة النبى عليه السلام ، وسير حياتهم بين موجزة مقتضبة ، وبين مطولة بعض التطويل . مع الإشارة إلى الأماكن التى ذكروا فيها . ومن مزاياه أنه مرتب على الحروف الأبجدية فهو بنفسه فهرس مائل .

وهو كتاب من كتب التراجم النافعة . ويعين على فهم الحديث ومعرفة رجاله ، ولا سيما رجاله على عهد النبى عليه السلام . وبه آلاف مؤلفة من التراجم . وقد اعتمد المؤلف على مؤلفات عدة لاستخلاص مصنفه النفيس مثل كتاب « أسد الغابة » .

وفى خطبة الكتاب تاريخ طريف للكتب التى من نوعه والتى ذكرت طبقات الحفاظ ورجال الحديث من أصحاب النبى خاصة .

وقد قسم الكتاب إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : فيمن وردت صحبته للنبى عليه السلام بطريق الرواية عنه . أو عن غيره .

القسم الثانى : فيمن ذُكر فى الصحابة من الأطفال الذين ولدوا فى عهد النبى عليه السلام ، لبعض الصحابة من النساء والرجال ممن مات صلى الله عليه وسلم وهم دون سن التمييز .

القسم الثالث : فيمن ذكر فى بعض الكتب من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، ولم يرد فى خبر قط أنهم اجتمعوا بالنبى عليه السلام . ولا رأوه، سواء أسلموا فى حياته أو لا . وهم باتفاق ليسوا من أهل العلم والحديث.

القسم الرابع : فيمن ذكر فى الكتب المشار إليها على سبيل الوهم والغلط ، وبيان ذلك البيان الظاهر الذى يعول عليه، على طرائق أهل الحديث .

وفى الكتاب بحوث عن الصحابة المعروفين بالكنى ، وعن النساء أيضا .

هذا وقد قدم المؤلف بحثه بثلاثة فصول نافعة : الأول : فى تعريف الصحابى. الثانى : فى الطريق إلى معرفة كون الشخص صحابيا . الثالث : فى بيان حال الصحابة من العدالة .

ومعظم التراجم الواردة فى هذا الكتاب سريعة مختصرة . وقليل منها مطول بعض التطويل . ـ كما أشرنا ـ على أن الكثير منها غير مستوفاة كما تشاء طريقة التراجم الحديثة من البحث والتحليل والمقارنة . ولكن بها استطرادات أدبية ، وتاريخية نافعة ، توضح جوانب كثيرة من الحياة فى صدر الإسلام .

٣ ـ الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة [١] .

من أشهر كتب التراجم . تصفحت نسخة منه ، مطبوعة فى الهند . وهذا الكتاب أربعة أجزاء ضخام ، بكل جزء مئات التراجم . وقد حصر المؤلف بحثه فى أعيان القرن الثامن الهجرى ، ولم يقتصر على من عاش منهم فى مصر ، بل تناول أيضاً من عاش فى غيرها . ولم يقتصر على ذكر طبقة خاصة من الرجال بل تناول جميع الطبقات ، ففيه تراجم الأمراء والعلماء والفقهاء والشعراء والوزراء، والرجال والنساء على السواء . فهو كتاب حافل ، وقد اعتمد فيه على كتب الصفدى والذهبى والمقريزى وغيرهم ممن تقدمه .

واعتمد الأدباء والمؤرخون على هذا الكتاب ، وخاصة فى عصرنا الحديث ،

---

(١) بدار الكتب المصرية كتاب لا يعلم مؤلفه يسمى (المنتخب من الدرر الكامنة) بالتصوير الشمسى ، ضمن مجموعة .

فهو أحد مراجعهم الهامة فى التاريخ والأدب . وقد نسجنا أيضا على هذا المنوال فى كتابنا هذا .

ومن ميزاته: أنه مرتب ترتيبا أبجديا ، وبذلك سهل فيه الكشف وتيسر البحث والاطلاع . ولو عنى المؤلف بتقسيم تراجمه إلى طوائف حسب التبريز فى العلم أو السياسة أو الأدب ، أو حسب الأقطار واختلاف الرجال فيها ، لازداد يسرا وسهولة وإمتاعا . وقد أضاف به حلقة هامة من حلقات سلسلة الكتب التى وضعت فى تراجم الأعلام . هذا وقد اقتدى به تلميذه شمس الدين السخاوى ، فألفه كتابه « الضوء » على نسقه ، فى تراجم أعيان المائة التاسعة . فكان كتاباهما حلقتين فى سلسلة التراجم .

شعره :

إذا تصفح المرء شعر ابن حجر ، يحس منه روح الشاعر ، ويلمس نفس الأديب ، ولو كان فى هذا العصر ، نصفة للشعر وتقدير للشعراء ، لأفسح ابن حجر أفق خياله الشعرى ، وجرى وراء ما ينمى فيه هذه الموهبة الثمينة ، ولغذاها بوسائل تغذيتها التى تنميها وتنشطها وتقويها . ولكنه — على ما نرجح — شعر بما يحيق بالشعراء من الكساد والبوار ، ورأى أن حرفة الأدب قد أدركت من سبقه من الشعراء . فمال بمواهبه عن طلب الأدب إلى طلب غيره من العلوم الأخرى . فطلب الحديث والفقه والتاريخ . نقول ذلك ، لأنه كان منذ نشأته ميالا إلى الأدب نظاما للشعر ، فلما اكتمل تفكيره ، واعتدل حسن نظره فيما حوله من الدنيا ، عدل إلى شىء آخر غير الأدب ، ييسر له عيشا رغدا وحياة عالية ومع ذلك ظل يتردد بين الفينة والفينة على موائد الشعر ، فيتفكه بمقطوعة ، أو يتندر ببيتين ، يحلو له فيهما جناس أو تورية أو لغز ، أو يطارح بعض شعراء عصره مثل مجد الدين بن مكانس . أو يمدح بعض من يسدى إليه جميلا ، أو يتغزل تقليدا لغيره ، أو يتشوق إلى وطنه إذا كان عنه نائيا ، وهكذا لم يقطع ابن حجر صلته بالأدب الخالص ولا بالشعر الرقيق .

وتدور أغراضه حول الإخوانيات والمدح ومدح النبي عليه السلام ، والألغاز والأحاجي والفكاهة ، والوصف والغزل . أما أسلوبه فإنه متوسط الجودة رقيق اللفظ سهل المؤونة خفيف الحمل ، لم تثقله مصطلحات علمية ، ولم تشبه كلمات فقهية ، كما شابت شعر غيره من العلماء . ، نقول ذلك لأن ابن حجر فقيه ، محدث مفسر ، مؤلف في مصطلح الحديث . — وترى له القصائد الطويلة والمقطوعات القصيرة . وتسرى الروح البديعية في شعره ، كما سرت في شعر غيره من أهل عصره . فهو من أهل البديع الذين يهتزون للتورية ويطربون للتضمين ، وينتشون للجناس وهكذا . ويشوب أسلوبه أخطاء لغوية واستعمالات عامية ، كما شابت شعر غيره أيضاً . وسنضرب الأمثلة لذلك كله بعدُ .

وهو في مدائحه النبوية لم يأت بمعنى جديد ولا بفكرة مبتكرة ، بل يدور حول المعاني الكثيرة الشائعة في السيرة النبوية . وتكلم فيها عن المولد والمعجزات والإسراء والمعراج ، وما شابه مما يتصل بسيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، على نسق ماجاء في بردة البوصيري ، التي أصبحت إماماً لشعراء المدائح النبوية في هذا العصر .

ومن مدحهم ابن حجر : الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل العباس بن المجاهد على صاحب اليمن ، وله فيه قصيدة دالية لا بأس بها ، بدأها بالغزل على سنة القدامى قالها عام ٨٠٠ هـ . وله فيه أمداح أخرى . وفي إحداها وصف رحلته من اليمن إلى مكة ، ووصف ما يقوم به الحجاج عادة من الإحرام والتلبية وشعائر الحج . وهي قصيدة لامية .

ومن مدحهم أيضا صاحب تونس عبد العزيز . والخليفة المستعين العباس بن محمد العباسي لما ولي السلطنة في عام ٨١٥ هـ . وهي قصيدة سينية مشهورة خصوصا بمطلعها .

أين نجد شعره :

لابن حجر ديوان شعر صغير فيه بعض شعره وسنتكلم عنه فيما بعد . وله

شعر كثير متفرق فى كتب عدة، فمنها حسن المحاضرة للسيوطى، وتأهيل الغريب، وثمار الأوراق، وخزانة الأدب، لتقى الدين بن حجة الحموى.

ديوان شعره[1]:

له ديوان مخطوط، أغلب الظن أنه لم يُطبع حتى اليوم. وهو بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٢١ آداب عربية فهرس ج ٣. تصفحته جميعه. ويُفهم منه أنه كُتب فى حياة ناظمه. ولكن كاتبه رجل آخر، إذ يقول عن الناظم مثلا «قال عمر الله الوجود بوجوده». و«قال أبقاه الله». وهكذا. وليس فى الكتاب ما يدل على الناسخ صاحب الخط. ويغلب على الظن أن هذه النسخة هى أولى نسخ هذا الديوان.

وقد ذكر فى مقدمته أنه ساق فيه أولا النبويات ثم الملوكيات ثم الإخوانيات ثم الغزليات ثم الأغراض المختلفة ثم الموشحات ثم المقاطيع.

وقد كتب ابن حجر — أو أملى — مقدمة هذا الديوان وهى مختصرة. وفيها يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين. أما بعد حمد الله على إحسانه. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى اجتمعت أنواع المحاسن فى ديوانه. وعلى آله وصحبه الذين كان كل منهم نسيج وحده وفريد زمانه. وبعد فقد سئلت غير مرة أن أجرد من منظومى طرفا مهذبا. وأن أفرد من مقاطيعى التى تُلهى عن المواصيل مايكون منها مرقصا ومطربا. فكتبت فى هذه الأوراق سبعة أنواع، من كل نوع، سبعة أشياء إلا الأخير، فافتتحت بالنبويات ثم الملوكيات ثم الإخوانيات ثم الغزليات ثم الأغراض المختلفة ثم الموشحات ثم المقاطيع. وقلت مخاطبا من نظره مضمنا:

---

١ — قال عنه جميل العظيم إن اسمه (الدرر) وقال فهرس دار الكتب نقلا عن كشف الظنون أن لابن حجر ديوان شعر كبيرا انتخب منه جملة ورتبها على سبعة أبواب وسماه (السبعة السيارة) وهى ديوانه الصغير. فلعله هو الذى نتحدث عنه.

يا سيدا طالعه إن راق معناه فجد
وافتح له باب الرضا وإن تجد عيبا فسد

وأسأل الله أن يوفقنى لما يزلف لديه ، وأن يتطول بكرمه على تقصيرى يوم العرض عليه . »

ومن هذا يتبين أن الأغراض التى سيقت فى الديوان سبعة ، وساق فى كل غرض منها سبعة قصائد ، ما عدا قسم المقطوعات فعددها كثير ، إذ أورد نحو سبعين مقطوعة فى أغراض مختلفة .

ومن مميزات هذا الديوان أن به قصائد قالها وهو فى شرخ شبابه ، كالقصيدة الدالية السابعة فى مدح النبي عليه السلام ، إذ ذكر فى أحد أبياتها قائلا « أنا فى ثلاث بعد عشرين » . وكالقصيدة الميمية الأولى فى مدح النبي عليه السلام إذ قالها فى رمضان عام ٧٩٨ هـ . بمناسبة ختام قراءة البخارى .

وبهذه المناسبة نذكر أن من مميزات الديوان أيضا ذكر تاريخ نظم بعض قصائده بالضبط باليوم والسنة . وأنه ذكر أسماء من وجهت إليهم من ملوك أو إخوان . وإن أغفلت أسماء بعضهم .

ومجموع أوراق الديوان ثمانون ، تحتوى كل صفحة فيها على أحد عشر بيتا تقريبا ، ونستطيع القول : إن مجموع أبياته كلها يبلغ نحو ١٧٦٠ بيتا — وتتخلل الكتابة أخطاء إملائية فوق أخطاء الأسلوب . ومن ذلك قوله :

لو أن عذالى لوجهك أسلموا لرجوت أنى فى المحبة أسلموا
كيف السبيل لكتم أسرار الهوى ولسان دمعى بالغرام يترجموا

والصواب : أسلمُ ويُترجمُ بغير واو .

ولنذكر الآن أمثلة من شعره نقلا عن هذا الديوان :

١ — قصيدة فى مدح النبي عليه السلام ، ومطلعها البيتان السالفان ، ومنها :

لام العواذل كل صاد للقا ... وملامهم عين الخطا لو يعلموا [1]
لا يعلموا [2] بين الهوى لكنهم ... لاموا عليه لأنهم لم يفهموا
إن أبرموني بالملام فإن لى ... صبرا سينقض كلّ ما قد أبرموا
ما شاهدوا ذاك الجمال وقد بدا ... فأنا الأصم عن الملام وهم عموا

ومنها فى مدح النبى عليه السلام :

هو رحمة للناس مهداة فيا ... ويح المعاند إنه لا يرحم
نال الأمان المؤمنون به إذا ... شبت وقودا بالطغاة جهنم
الله أيده فليس عن الهوى ... فى أمره أو نهيه يتكلم
فليحذر المرء المخالف أمره ... من فتنة أو من عذاب يؤلم
ذو المعجزات الباهرات فسل بها ... نطق الحصا وبهائما قد كلموا

٢ — قصيدة فى مدح الملك الأشرف اسماعيل بن الأفضل العباس بن المجاهد على صاحب اليمن ، قالها عام ٨٠٠ هجرية ، وقد بدأها بأغزال رقيقة وبها أشواق وشكوى وحنين إلى الأهل والأوطان . فمنها :

صب للقياك بالأشواق معمود ... فقيد صبر عن الأحباب مفقود
ناء عن الأهل والأوطان مغترب ... وواحد ماله فى الصبر موجود
متيم قد بكى بعد الدموع دما ... كأنما هو فى عينيه مفصود
النار ذات وقود فى جوانحه ... شوقا وفى خده للدمع أخدود
يا مخجل الشمس بالأشواق إن فتى ... طلعت فى داره يوما لمسعود
أسرت قلبى ومذ حجبت عن بصرى ... تيها فكان له بالقرب تبعيد
وبنت عنى فطرفى فى مجاهدة ... مع الدموع وقلبى منك مجهود
أبيت أرعى النجوم الزهر أحسبه ... فيها إلى أن خلا لى فيه تسهيد

ومنها فى مدحه :

(١ ، ٢) هكذا فى الديوان .

الأشرف بن الملك الأفضل بن عـلى بن المؤيد حامى الملك داوود

المانح الفضل صفو فيض راحته والغيث إن جاد تعبان ومكدود

٣ — ومن مطالعه البديعة قوله من قصيدة ، فى مدح النبى عليه السلام :

إن كنت تنكر حبا زادنى كلفا حسبى الذى قد جرى من مدمعى وكفى

وإن شككت فسائل عاذلى شجنى هل بت أشكو الهوى والبين والأسفا

أحبابنا ويد الأسقام قد عبثت بالجسم هل لى منكم بالوصال شفا

كدرت عيشا تقضى فى بعادكمُ وراق منى نسيب فيكمُ وصفا

ومنها :

وكنت أكتم حبى فى الهوى زمنا حتى تكلم دمع العين فانكشفا

سألت قلبى عن صبرى فأخبرنى بأنه حين سرتم عنى انصرفا

وقلت للطرف أين النوم بعدهمُ فقال : نومى وبحر الدمع قد نزفا

٤ — ومن قصيدة هنأ بها الخليفة المستعين العباسى لما تولى السلطنة عام ٨١٥ هـ :

الملك أصبح ثابت الآساس بالمستعين العـادل العباسى

رجعت مكانة آل عم المصطفى لمحلها من بعد طول تناسى

٥ — ومن قصيدة . قال يتشوق ويتغزل وهو رقيق :

طيف لمن أهوى ألمـا يطوى ذيول الليل لما

أهـلا به لو أن طر فى المنام يذوق طعما

ونعم لقـد أعييت فى طلب الخيال خيال نعمى

فاعجب لصب يدعى علما يحـاول فيه خصما

ومنها :

قسما بسقم الطرف قد أهدى لجسمى منك قسما

بسلامة الألحاظ من سحر دعاه الصب سقما

حتـام يا ريق الحبيـب أراك موروداً وأظما

وإلام يا قلب الكئيـب بأسهم الألحاظ ترمى

هلا صحوت من الغرا م فلم أراجع فيه عزما
وصبرت عمن لا يطا وع ما تشانهيا وغرما

ومنها يمدح سلطان مصر ـ ولعله المؤيد شيخ ـ ويذكر مدرسته التى بناها فيقول :

لله مدرسة سمت ورقمت فيها الحسن رقما
يستوقف الإبصار رؤ يتها فتشكر منك عزما

ومنها .

شهد الأنام بأنه ما مثلها عربا وعجما
ويصدق الخبر العيا ن دعوا حديث الظن رجما
فهى الفريدة فى الجوا هر لا تذوق الدهر يتما
جمعت فنون العلم والت حقيق والتوفيق فهما
فيها الشريعة والحقي قة قد جرت عملا وعلما
ذات الجمال اليوسفى م حوت جمالا منه حتما

لعله يشير فى البيت الأخير، إلى الأمير الجمالى يوسف ناظر الخاص، الذى هيمن على بناء هذه المدرسة . والقصيدة طويلة .

٦ ـ وله قصيدة فى العتاب والشوق يخاطب بها صاحب اليمن ويعاتبه ويتشوق إلى أهله . وهى عينية طويلة فى نحو ٥٤ بيتا . فليرجع إليها .

٧ ـ ومن غزله .

أظهر جمالك للعيون وأبده وصل الوداد لمن رضاك بوده
فحسام هـذا الجفن مذجردته فى الناس زاد بضربه عن حده

٨ ـ وقد رثى شيخه سراج الدين عمر البلقينى المتوفى عام ٨٠٥ هـ بقصيدة طويلة فى نحو ٩٦ بيتا . وقد ضمنها رثاء الحافظ أبى الفضل العراقى لسراج الدين البلقينى . وهى فى ديوانه . وكذلك فى حسن المحاضرة ج١ ص١٥١ .

ومنها .

ياعين جودى لفقد البحر بالمطر واجر الدموع ولا تبقى ولا تذرى

لورد ترداد دمع ذاهبـــا سبقت شهب الدموع بعينى جزية النهر
تسقى الورى فتى لام العذول أقل دعها سماوية تجرى على قدر

ومنها :

من للفضائل أو من للفواضل أو من للقواعد يبنيها بلا ضجر
من للفتاوى وحل المشكلات إذا جل الخطاب وظل القوم فى فكر

٩ ـ وقد رثى شيخه الحافظ العراقى المتوفى عام ٨٠٦ هـ فى نحو ٣٦ بيتا ، حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٨ ، منها :

مصاب لم ينفس للخناق أصار الدمع جارا للمآقى
فرَوْضُ العلم بعد الزهو زاو وروح الفضل قد بلغ التراقى
وبحر الدمع يجرى با ندلاق وبدر الصبر يسرى فى المحاق
وللأحزان بالقلب اجتماع ينادى الصبر حى على افتراق

١٠ ـ ومن ألغازه فى كلمة « صهباء » : واللغز فى كلمتى « اسكت رجع » إذ ترادفهما « صه ، باء »

يا فاضلا هـــو فى الأحا جى ليس يخلو من ولع
ما مثل قولى للذى يشكو الحبيب: اسكت رجع

هذا ولا بن حجر قصائد أخرى كثيرة ، منها واحدة فى رجل خانه فى مال ، وأخرى لمّا نال الإجازة بالفتوى والتدريس، وأخرى فى رثاء أخته «ست الركب» المتوفاه عام ٧٩٨ هـ ، وهذه القصائد فى ديوانه .

ومما يذكر أن ابن حجر كان يُتخذ حكما أحيانا فى المنازعات الأدبية ، وهذا دليل على ماله من شهرة فيه، وعلى ما عرف به من حب الشعر والبصر به . ومن ذلك ما ذكره تقى الدين بن حجة الحموى فى كتابه « تأهيل الغريب » وخلاصته أن لجمال الدين بن نباتة الشاعر المتوفى عام ٧٦٨ هـ قصيدة تائية فى الغزل ، بديعة لا نظير لها ومطلعها :

مالابتداء صباباتى نهايات ياغاية ما لعشق فيه غايات
ويا غزالا لنا فى لحظ ناظره أسد ومن هدبه للأسد غابات

وقد اختلف أدباء العصر فى التفضيل بين القصيدتين ، وسنذكر تفصيل ذلك فى باب الشعر بإذن الله . — ثم جاء من بعدهم تقى الدين بن حجة الحموى المتوفى عام ٨٣٧ هـ . فعارضهما بقصيدة طريفة على مثال قصيدتيهما ، مطلعها :

لعجبه ولذيل الهجر شمرات وللقلوب من الأجفان كسرات
وصار فى درب وصلى من عوارضه وأهيف القد دورات وقتلات

وقد احتكم ابن حجة إلى قاضى القضاة ابن حجر العسقلانى، ليحكم بين قصيدته وقصيدتى القيراطى وابن نباتة، فكتب إليه ابن حجر الرد التالى، وهو بمثابة نموذج هنا لكتابته الأدبية . قال :

« لله الأمر من قبل ومن بعد . الحكم بين النظراء إنما يحسن ممن يماثلهم فيما به يرتفع الحكم . وفى إقدام من لم يرتق إلى تلك الطبقة نوع من الظلم . ولا يرتاب لبيب فى أن كلا من الثلاثة رأس هذا الفن فى زمانه . وأنه لا يوازنه أحد من أقرانه .

وثلاثة كثلاثة الراح استوى لك لونها ومذاقها وشميمها

ولكن لما كان امتثال الأوامر من بعض فنون الأدب . وإجابة الداعى ولاسيما على من ظنه يأمر أهل هذا الفن، وانتدب . ومرجع الحكم فى هذه القصة إلى الذوق السليم، فأمكن القول، إن لم أقل وجب . فأقول مستعينا بالله متوكلا عليه، ملتجئا فى كل الأمور إليه .

الذى تبنى عليه القواعد ، ويشهد به الذوق السليم الذى هو فى هذا الفن أعدل شاهد . أن الثالثة أرجح وزنا من الثانية، ولولا حرمة الكمال ، والحياء من الجمال ، لقلت إن الثانية فى الرتبة الأخيرة تالية . لأن الأولى وإن كانت من الثانية أكثر انسجاما . والثانية وإن فضلت على الأولى فى الدقات الأدبية ابتداء واختتاما . فالثالثة

قد جمعت بين المعنيين ، وفازت بالحسنيين . ونزلت فى كل وجه من الأدب منزلة العين . وقال لسان فحوليتها عند لين كلام غيرها: « للذكر مثل حظ الانثيين » . وقد أتت بما غض من الأزاهر النباتية ، والجواهر القيراطية ، وما فاق مجموعه كل فريد. وراق مسموعه لكل مُجيد . حتى قال من شهد مثلى ببراعته ، وطرب لصرير يراعته:

أقصى نهاية وصفى فيه معرفتى بالعجز منى عن إدراك معرفته»

يتبين من النموذج السالف: أن ابن حجر فى كتابته الأدبية ، كان يتبع الطريقة الفاضلية السائدة فى عصره . أما كتابته العلمية فهى نادرة القيود سهلة واضحة، وهى عبارة عن أحاديث مسرودة، تحتوى على بعض الألفاظ ذات المعانى العامية الشائعة فى عصره . وقد يغلبه الأدب فى بعض الأحيان فيعود قليلا إلى كتابته الفاضلية .

وبعد، فرحمه الله عالما وحافظا وأديبا .

ترجمته :

نوه السخاوى فى الضوء اللامع فى ترجمة شيخه بمن تصدى من الأئمة لترجمة ابن حجر وذكر منهم جملة كالمقريزى والفاسى والبدر البشتكى وابن خطيب الناصرية وابن فهد، فلتراجع .

وترجمته أيضا فى : ١ ـ تاريخ آداب اللغة لجورجى زيدان ج ٣ ص ١٦٥ ، ٢ ـ حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥١ ، ١٦٨ ، ١٧٠ و ج ٢ ص ١١٦ ، ٣ ـ التبر المسبوك فى ذيل السلوك للحافظ أبى الخير السخاوى . ٤ ـ الجواهر والدرر فى ترجمة ابن حجر، مؤلفه السخاوى أيضاً وهو خاص بترجمه شيخه ابن حجر . ٥ ـ فى مقدمة كتابه « فتح البارى » . ٦ ـ نظم العقيان فى أعيان الأعيان للسيوطى . ٧ ـ فى ذيل كتابه « نخبة الفكر » وهى مطولة فى نحو ١٢ صفحة . ٨ ـ فى كتاب الفوائد البهية فى تراجم الحنفية للكنوى الهندى ص ١٠٠ . ٩ ـ بدائع ابن إياس ج ٢ ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ . ١٠ ـ وذكر السيوطى فى حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٥ أن ابن حجر ترجم لنفسه فى كتابه « قضاة مصر » . ١١ ـ عقود الجوهر لجميل العظم . ١٢ ـ فى دار الكتب الملكية مخطوط رقم ٧٢٦ تاريخ اسمه « جمان الدرر » فى ترجمة ابن حجر ، ألفه عبد الله زين الدين الدمشقى ، كان موجودا سنة ١١٦٠ مختصرا عن كتاب السخاوى فى ترجمة ابن حجر المسمى « تناسق الدرر » . ١٣ ـ الضوء اللامع للسخاوى ج ٢ رقم ١٠٤ .

---

١١ - جلال الدين السيوطى ٨٤٩هـ - ٩١١هـ

هو أحد نابهى العصر وأعلامه، وحملة راية علمه وأقلامه، الإمام المجتهد، الضارب فى كل علم بسهم، والآخذ من كل فن بنصيب. أولع بالعلم والتأليف منذ صغره، حتى ليمكن القول - على حد تعبير العصر الحديث - إنه هاومن الهواة، أغرم بهما، واتخذهما شغله الشاغل. وحسبنا برهنة على ما نقول، أن مؤلفاته أربت على الخمسمائة فى فنون متعددة.

اسمه ونسبه :

كتب جلال الدين السيوطى ترجمة حياته فى كتابه « حسن المحاضرة ». وقد قال إنه : « عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان ابن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبى الصلاح أيوب ابن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الخضيرى الأسيوطى. »

وكان جده الأعلى « همام الدين » من أهل الحقيقة ومن مشايخ الطرق. وكان بعض أجداده من أهل الوجاهة والرياسة، ومنهم من كان تاجرا ومولا. ولم يخدم العلم منهم إلا أبوه.

والده :

وقد ترجم السيوطى لأبيه فى باب فقهاء الشافعية - من حسن المحاضرة - فقال ما ملخصه : إنه ولد بسيوط بعد عام ٨٠٠ هـ وتولى قضاءها زمنا. وتعلم على بعض نابغى عصره منهم العلامة القاياتى والحافظ ابن حجر. ونبغ فى علوم عدة منها فقه الشافعى والأصول والكلام والنحو والمعانى والمنطق والحديث، وأجيز بالتدريس عام ٨٢٩ هـ. وبرع فى الخط المنسوب وصناعة التوقيع، وبرز فى الإنشاء. ودرّس الفقه بالجامع الطولونى، وكان يخطب من إنشائه. ويستمد بعضهم منه هذا الإنشاء، وصنف بعض التصانيف النافعة. وتوفى عام ٨٥٥هـ.

لهذا نقول: إن السيوطى نشأ فى أسرة مليئة بأسباب الجاه من مال وعلم. وإن كان أبوه قد توفى عنه وهو صغير وسنه خمس سنين وسبعة أشهر.

وتنتسب[١] أسرته إلى «الخضيرى»، وقد قال: «وأما نسبتنا بالخضيرى فلا أعلم ما تكون إليه هذه النسبة، إلا الخضيرية محلة ببغداد. وقد حدثنى من أثق به أنه سمع والدى رحمه الله تعالى، يذكر أن جده الأعلى كان أعجميا أو من الشرق. فالظاهر أن النسبة إلى المحلة المذكورة»:

طرف من حياته:

ولد جلال الدين السيوطى بعد المغرب ليلة الأحد مستهل[٢] رجب سنة ٨٤٩ هـ. وعاش قرابة ثلثين وستين سنة. وتوفى فى سحر ليلة الجمعة ١٩ جمادى الأول عام ٩١١ هـ.

وأولع من صغره بطلب العلم، فحفظ القرآن الكريم وسنه دون ثمانى سنين. ثم حفظ العمدة ومنهاج الفقه والأصول والألفية لابن مالك. وتتلمذ لأشهر العلماء فى عصره، فى الفقه والحديث والعربية، حتى أصبح ممتازا فى كثير من العلوم.

وبلغت شيوخه نحو مائة وخمسين شيخا ومنهم: شهاب الدين الشارمساحى فى الفرائض. وشيخ الإسلام علم الدين البلقينى فى الفقه، وقد لازمه السيوطى حتى مات، وأجازه بالتدريس والإفتاء. والعلامة تقى الدين الشبلى الحنفى فى الحديث والعربية، ولازمه أربع سنوات، وكتب له تقريظا على شرحه لألفية ابن مالك، وعلى جمع الجوامع فى العربية، وشهد له بتقدمه. ومنهم العلامة محيى الدين الكافيجى، لازمه أربع عشرة سنة، وقد أخذ عنه التفسير والأصول والعربية والمعانى، وكتب له إجازة. ومنهم سيف الدين الحنفى فى علوم البلاغة.

وأولع السيوطى بالرحلة طلبا للعلم والاختبار، والتزود بالرؤية، فحج وزار

---

(١) روى السخاوى أن أم السيوطى كانت أمة تركية.

(٢) هذه روايته فى حسن المحاضرة. وروى ابن إياس أن ولادته كانت فى جمادى الاخرة — بدائع ج ٢ ص ٢٩.

الحجاز ، وطوف فى بلاد الشام واليمن والهند والمغرب والتكرور ، كما أنه طاف فى المدن المصرية نفسها كالفيوم ودمياط والمحلة .

ومما رواه ابن إياس من حوادثه ، أنه اشترك فى فتنة ابن الفارض عام ٨٧٥ هـ ، التى انقسم فيها العلماء إلى فريقين : فريق يطعن عليه ويشهر به ، وفريق يدافع عنه ويخرّج كلامه ويتأوله . وكان السيوطى من المدافعين ، وألّف بهذه المناسبة كتابا فى الموضوع اسمه « قمع المعارض فى الرد على ابن الفارض » . وفى شهر ربيع الثانى عام ٨٩١ هـ عُيّن شيخا لمشيخة البيبرسية ، عوضا عن الجلال البكرى بحكم وفاته . وكان الساعى له فى هذه الوظيفة الخليفة عبد العزيز .

وفى رجب عام ٨٩٦ هـ ، أشيع بين الناس أن الشيخ جلال الدين الأسيوطى ، أفتى بأنه لا يجوز البناء على ساحل الروضة ، لأن الإجماع منعقد على منع البناء فى شطوط الأنهار الجارية ، وأما ما ذكر أن ذلك يجوز فى مذهب الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه ، فباطل ، وليس له صحة فى كتب الشافعية قاطبة . —

وقال ابن إياس : « ولما دخلت سنة ٨٩٩ هـ صعد القضاة يهنئون السلطان قايتباى بالقلعة ، بالعام الجديد . وصعد أيضاً الشيخ جلال الدين الأسيوطى . فلما جلس ، سأله السلطان عن أى سُنّة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يفعلها . فلم يجبه الشيخ جلال الدين عن ذلك ، بشىء ، مع غزارة علمه وقوة اطلاعه . وكان السلطان عنده كتاب يسمى « حيرة الفقهاء » . . ثم أجاب الشيخ جلال الدين بعد ذلك بجواب حسن كاف فى هذه المسألة بأنه قصد بذلك الأذان ، فإنه سنة ولم يفعله . . . وعمل فى هذه المسألة كراسا مطولا » .

ولعل السيوطى كان قد صدر عنه ، أن هناك سُنَنا لم يعملها السلطان . . .

ومن الحوادث الطريفة فى حياة السيوطى ، ما ذكره ابن إياس فى حوادث صفر عام ٩٠٢ هـ — وكان السلطان الناصر محمد بن قايتباى . وكان الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز — قال « إن الخليفة المتوكل على الله ، عبد العزيز ، عهد للشيخ جلال الدين الأسيوطى بوظيفة لم يسمع بمثلها قط . وهو أنه جعله على جميع

القضاة، قاضيا كبيرا . يولى منهم من يشاء، ويعزل منهم من يشاء، مطلقا فى سائر ممالك الإسلام . وهذه الوظيفة لم يلها قط ، سوى القاضى تاج الدين بن بنت الأعز، فى دولة بنى أيوب . فلما بلغ القضاة ذلك شق عليهم ، واستخفوا عقل الخليفة فى ذلك . وقالوا : ليس للخليفة مع وجود السلطان حل ولا ربط، ولا ولاية ولا عزل. ولكن الخليفة استخف بالسلطان لكونه صغيرا . فلما قامت الدائرة والألسنة على الخليفة ، رجع عن ذلك . وقال إيش كنت أنا ؟ الشيخ جلال الدين هو الذى حسّن لى ذلك . وقال لى : هـذه كانت وظيفة قديمة ، وكان الخلفاء يولونها من يختارونه من العلماء . ثم أشهدوا على الخليفة بالرجوع عن ذلك ، وبعث أخذ العهد الذى كان كتبه للشيخ جلال الدين الأسيوطى . وكادت أن تكون فتنة كبيرة بسبب ذلك ، ووقعت أمور يطول شرحها ثم سكن الحال بعد مدة » .

ويمكننا أن نستنبط من هذه القصة أن السيوطى هو الذى استخف عقل الخليفة، وأنه استغل ما كان بينهما من الصداقة ، وأنه كان يتطلع إلى منصب القضاء .

وبهذه المناسبة نذكر أنه لم يصل إلى منصب فى القضاء ، مع علو كعبه ورسوخ قدمه فى العلم والفقه ، ومع فائق شهرة لا تقل عن أنداده من رجال جيله ، إن لم يزد عليهم . ولا نستطيع فى الواقع ، تعليل ذلك تماما ، إلا أن نقول: إن منصب قاضى قضاة الشافعية قد تركز تقريبا ، فى أيامه، فى بعض كبار رجال المذهب، الذين سبقوا السيوطى إليه ، كالشيخ زكريا الأنصارى . ثم كان نشاطه فى باب التأليف والتعليم وانشغاله به، حائلا دون سعيه سعيا حثيثاً فى سبيل بلوغ القضاء .

ويبدو لنا أن السيوطى اختلف إلى بعض المساجد ، يؤدى فيها الدروس ، من بينها الجامع الطولونى . وقد ذكر ذلك فى مقدمة كتابه « الفاشوش فى أحكام قراقوش » فقال : « سئلت فى درس بالجامع الطولونى فى أواخر المحرم سنة ٨٩٩هـ .. الخ . . » [1]

---

(١) راجع الفاشوش ، بفهرس دار الكتب ج ٥ حرف الفاء .

ومهما يكن من شيء ، فإن منزلته الأدبية والعلمية كانت دائما ترتفع وتزداد سموا ، حتى أصبح معتبراً من كبار رجالات الدولة، تجمعهم صلة الدين والمعرفة والعمر، وتربطهم صداقة وُلدت منذ سنين . وكان للسيوطي بسببها هيمنة على بعض الشئون. وقد قيل إنه لما بُويع الخليفة المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب فى صفر عام ٩٠٣هـ بالخلافة، كان السيوطى هو الذى لقبه وكناه بهذا اللقب وتلك الكنية .

وفى شعبان عام ٩٠٣ هـ ، اختلف السيوطى مع الصوفية المقيمين بالخانقاه البيبرسية ، وهو شيخها . فثاروا عليه وكادوا أن يقتلوه ، ثم حملوه بأثوابه ورموه فى الفسقية . . وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها . . قاله ابن أياس .

وكانت بين السيوطى والأمير طومان باى الدوادار فتن ، حاول طومان باى بسببها أن يبطش به . ثم كان من سوء حظ السيوطى، أن آلت السلطنة إلى طومان باى، وهو الملقب بالعادل ، فى عام ٩٠٦ هـ ، فاضطر حينئذ إلى الاختفاء، وعدّه السلطان معزولا من مشيخة الخانقاه البيبرسية ، وولى فيها رجلا غيره . وظل مختفيا حتى دالت دولة العادل وآلت السلطنة إلى قانصوه الغورى ، فظهر فى مستهل شوال عام ٩٠٦ هـ ، وذكر أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وبشره بزوال العادل عن قريب .

هذا ، وقد ظل السيوطى طول حياته عاكفا على الدرس والتحصيل ، يؤلف ويُدَرس ، وقد تتلمذ له كثيرون من الفطاحل والنابغين ، وقد عبر عنه ابن إياس فى كتابه، بقوله : « شيخنا ». ومن تلاميذه العلامة شمس الدين محمد العلقمى صاحب المؤلفات العدة فى الحديث وغيره « راجع فهرس دار الكتب المصرية ج ١ ص ١٤٤ وغيرها »

علمه وأخلاقه :

كان السيوطى أمة فى العلم ونابغة من نوابغه ، أغرم به منذ صغره ، وشغف بتدوين مسائله، حتى يمكن القول إنه من هواة التأليف كما ذكرنا . وزادته الرحالة علما فوق علم . ويفهم مما كتبه عن نفسه :

١ — أنه أخذ فى التأليف ، ولم يكن بلغ السابعة عشرة من عمره . وأجيز فى ذلك الحين بتدريس العربية . وهذا يدل على نبوغه فيها . قال : « وأجزت بتدريس العربية فى مستهل سنة ست وستين — وثمانمائة — . وقد ألفت فى هذه السنة . فكان أول شىء ألفته : شرح الاستعاذة والبسملة . وأوقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البلقينى فكتب عليه تقريظا » .

٢ — أنه تصدر للتدريس والإفتاء ، ابتداء من سنة ست وسبعين وثمانمائة ، وقد أجيز بذلك فى تلك السنة . وكانت سنة نحو السابعة والعشرين ، — وتعتبر هذه — بلا شك — سنا صغيرة مبكرة لمن يتصدى لمثل هذا العمل العام وخاصته الافتاء . ومع ذلك كان قد أفتى فى مستهل سنة إحدى وسبعين وثمانمائة ، وجلس لإملاء الحديث فى مستهل سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة .

٣ — أنه نبغ فى علوم كثيرة نبوغا يختلف مقداره باختلاف ميله الشخصى إلى هذه العلوم ، ويتبين ذلك من قوله :

« ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع ، على طريقة العرب والبلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة . والذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه ، والنقول التى اطلعت عليها فيها لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخى ، فضلا عمن هو دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه . بل شيخى فيه أوسع نظراً وأطول باعا ، ودون هذه السبعة فى المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف . ودونها الإنشاء والترسل والفرائض ، ودونها القراءات ولم آخذها عن شيخ . ودونها الطب . وأما علم الحساب ، فهو أعسر شىء علىّ ، وأبعده من ذهنى ، وإذا نظرت فى مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلا أحمله . — وقد كملت عنده الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى . أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى ، لا فخراً . وأى شىء فى الدنيا حتى يطلب تحصيلها فى الفخر . وقد أزف الرحيل وبدا الشيب وذهب أطيب العمر .

ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدرت على ذلك ، من فضل الله ، لا بحولى ولا بقوتى . فلا حول إلا بالله . ما شاء الله لا قوة إلا بالله . وقد كنت فى مبادىء الطلب قرأت شيئا فى علم المنطق ، ثم ألقى الله كراهته فى قلبى . وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك . فعوضنى الله تعالى عنه علم الحديث الذى هو أشرف العلوم » .

٤ ـ نشعر فى حديث السيوطى هذا ، أنه كثير التواضع ، وقد برأ نفسه من الزهو وإرادة الفخر . وهو فى ذلك صادق بلا شك ، لأنه إنما يصف حقيقة . وقد شعر بما سيتركه فى نفوس بعض القراء من زغم الزهو والفخر ، فدفع هذا الزعم والظن بقوله « أقول ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى لا فخرا » . ودعم هذا الدفع بأنه قد بلغ الكبر وأزف رحيله وبدا شيبه وذهب أطيب عمره . فلم يعد فى نفسه محل لزهو ، ولا غاية من وراء الفخر .

٥ ـ وقد قلنا إنه متواضع . لأنه وضع من المؤلفات عددا كبيرا جدا بعضها كفيل بأن يدخل على النفس الزهو والفخر . وكثيرا ما كان تصدى أحد العلماء للتأليف ـ ولو كتب مؤلفا واحدا ـ مبعثا لزهوه .

وللسيوطى عدة مؤلفات ثمينة كثيرة النفاسة . كل منها جدير بأن يجعله فى مصاف المبتكرين وقد أشرنا فيما سبق إلى بعضها .

وقد ألف السيوطى فى علوم عدة منها : التفسير والحديث . والفقه والأصول والنحو والصرف . والتاريخ ، والقراءات والأدب . والطب . وعلوم البلاغة . ومن بين مؤلفاته ما يُعد مرجعا وسندا .

وقد ذكر السيوطى عن مؤلفاته ، أن عددها بلغ ثلثمائة . وهذا فى حسن

---

١ ـ ابن الصلاح : هو تقى الدين عثمان بن عبد الرحمن الكردى الشهرزورى أحد أئمة المسلمين . ولد عام ٥٧٧ هـ وتفقه وطلب الحديث حتى أصبح من كبار أئمة عصره . ولبث زمنا بدمشق ينشر العلم : توفى عام ٦٤٢ هـ ـ ذكره ابن خلكان فى الوفيات ، والسبكى فى الطبقات .

المحاضرة . وقد قال عنها بعض المؤرخين إنها بلغت خمسمائة . وذكر ابن إياس أنها بلغت ستمائة . وابن إياس أحد تلاميذ السيوطى ، وتوفى بعده بزمن طويل .

ومهما يكن من شىء فهذا العدد ضخم ، وهو يوضح لنا كيف كان السيوطى سيلا علميا غزير المادة كثير الفيض عظيم الأثر ، دائم العمل مستمر الإنتاج وحتى بين هذه المؤلفات عدد كبير ، من الرسائل الصغيرة يملى المرء إحداها فى ساعات . ولكن أيضا بينها عددا آخر واسع المدى ممتد الأفق ، يحتاج فى إملائه إلى شهور بل سنين .

٦ — ومن العجيب أن يعترف السيوطى على نفسه بأنه لم ينبغ النبوغ الكافى فى فن الإنشاء والترسل ، مع العلم أن حسبه من الإنشاء هذه المجموعة الضخمة من المؤلفات . ولكن لعله أراد من « الإنشاء والترسل » الكتابة الأدبية لا العلمية . أو كتابة الدواوين ورسائلها . فهو فيها ، حقا ، أقل إنتاجا . ومع ذلك له عدد كبير من المقامات البديعية اللطيفة والافتتاحيات الطريفة . كما أنه ذكر الكثير من مؤلفاته فى سياق ترجمته لنفسه ، ولكنه أغفل بعضها ، مثل : كتابه « المزهر » ، فلعله وضعه بعد ذلك . كما أنه لم يعد « التاريخ » ضمن العلوم التى رزق التبحر فيها ، مع أن له فيه مؤلفات هامة جدا ، تشهد له بالتبحر فيه « كحسن المحاضرة » و « تاريخ الخلفاء » و « طبقات النحويين » . وقد ذكر كثيراً من كتبه التاريخية فى سياق ترجمته . فلعل عدم النص على ذلك ، تواضع منه أو نسيان ، أو عدم اعتداد منه بالتاريخ ، كما اعتد بالفقه والنحو . .

٧ — وبعض مؤلفاته شروح أو مختصرات لمؤلفات أخرى له أو لغيره ممن تقدمه . جرى على ذلك كما جرى علماء العصر الذين تقدموه ، وتلك إحدى الخطط التأليفية التى سادت العصر . ومن ذلك : حاشية على تفسير البيضاوى . وشرح الشاطبية . ومختصر التنبيه . ومختصر الأحكام السلطانية للماوردى . وشرح ألفية ابن مالك . شرح كتابه جمع الجوامع ، ويسمى همع الهوامع . وهكذا .

٨ — والسيوطى من أولئك المبتكرين فى اختيار موضوعات كتبهم ، إذ له مؤلفات فى موضوعات غريبة قليلة الخطور بالبال ، مثل : كتابه فيمن عاش من الصحابة مائة وعشرين سنة .

٩ — ومن حسن الحظ أن عددا كبيرا من مؤلفات السيوطى لم يُبل بالضياع كابليت مؤلفات غيره . وترى له فى دور الكتب المختلفة ، طوائف من هذه المؤلفات ، منها ما هو مطبوع ، ومنها ما لايزال مخطوطا فى انتظار الطبع . .

السيوطى بين المدح والقدح :

من أهم ما يؤاخذ به السيوطى ، كثرة نقله من كتب المتقدمين ، دون أن يصرف همته إلى استنباط الجديد ، وابتداع الفكرة المستقلة ، ثم دون أن يبذل فى منقوله ، جهدا يوضحه به ، ويرتبه ويهذبه ويستدل له ، ويعلق عليه .

ومع هذا ، فحسبه هذه الكثرة الرائعة من مؤلفاته ، منقولة وغير منقولة ، شاهدة بسعة اطلاعه وامتداد أفقه ، وحدة ذهنه ، وحسن تأتيه للمتفرق المشعث ، حتى يلمه فى صعيد واحد .

على أنها هى روح العصر ، وسياق حوادثه . وعلى غرار السيوطى نبغ كثير من أئمة العصر . وأصبحت مؤلفاته هذه — التى نوجه إليها سهام النقد — المرجع والسند فى كثير من العلوم والفنون .

وحسب السيوطى أن له بحوثا يعتبر أبا عذرتها وابن بجدتها . وتحقيقات لاينكر منصف أنها قيمة جليلة ، لم يتناولها قبله متناول ، فى تجميعها وتنسيقها وحسن الربط بينها ، والإدلاء بالرأى فيها ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ، كتبه : الإتقان والمزهر والاقتراح فى أصول النحو ، وحسن المحاضرة ، والأشباه والنظائر .

وللسيوطى مقامات كثيرة بديعة نافعة ، منها رده على شمس الدين السخاوى المؤرخ وهى مقامته : « الكاوى فى الرد على تاريخ السخاوى » . والمؤرخ المذكور

كان كثير التحامل والنجن على كثير من الأعلام الذين ترجم لهم فى كتابه « الضوء اللامع » ، وبخاصة أعلام عصره وشيوخه، ومنهم السيوطى ـ وقد أشرنا إلى ذلك فى ترجمة المقريزى ـ ، فأنصفهم السيوطى فى مقامته . وقال فى أولها :

« إن السخاوى ضمن تاريخه المتقدم أكابر وأعيانا . ونصب لأكل لحومهم خوانا . وجعله مشحونا بذكر المساوىء وثلب الأعراض . وفوّق لهم فيه سهاما ، على قدر أغراضه ، وهم من أجلة المشايخ وأركان الإسلام .. » الخ .

حمل السخاوى إذن ، فى كتابه « الضوء » على السيوطى ، حملة شعواء ، وشوه كثيرا من جهوده . وأهم ما رماه به: ١ـ التشكيك فيما درسه على شيوخه ، ٢ ـ وأنه اختلس شيئاً مما ألفه ـ أى ألفه السخاوى ـ فقدّم فيه وأخر ، وبدّل وغيّر ، ثم نسبه إلى نفسه . وهوّل فى مقدمته بما يتوهم فيه الجاهل شيئاً مما لا يوفى ببعضه . وذلك كالخصال الموجبة للظلال ، وكالأسماء النبوية . ٣ ـ وأنه لما وَلِىَ وظائف التدريس ، لم يكن كفئا لها ، وأنه بذلك « تزبب قبل أن يتحصرم » . وذلك طعن فى علمه وكفايته . ٤ ـ وادعى السخاوى أن السيوطى أطلق لسانه وقلمه فى شيوخه فمن فوقهم ، ٥ ـ وتهكم بادعائه أن العلماء يكتبون إليه الأسئلة ألوفا ، فيرد عليها . ثم يكتب لهم بدوره عددا منها ، فلا ينهضون بالإجابة عنها . ٦ ـ واتخذ من قوله « إنه لا يعرف الحساب » دليلا على بلادته وعدم فهمه وركود ذهنه، لأن الحساب فن الذكاء . . ٧ ـ ونسب إليه أنه اختلس كثيرا من مصنفات ابن حجر ، ومن ذلك : لباب النقول ، فى أسباب النزول ، وعين الإصابة فى معرفة الصحابة . والنكت البديعيات على الموضوعات . والمدرج إلى المدرج ، وتذكرة المؤتسى بمن حدث ونسى ، وتحفة النابه بتلخيص المتشابه . ومارواه الواعون فى أخبار الطاعون . والأساس فى مناقب بنى العباس [1] وغير ذلك .

وهذه الاتهامات — كما يرى القارىء — تحتاج إلى تحقيق طويل وموازنة دقيقة ، وسفر مستقل .

---

١ — هذه كلها فى مؤلفات السيوطى :

غير أنه يتضح فيها التجنى كما ذكرنا . ويبدو لنا أن من بين معاصرينا من لا يستريح إلى السيوطى مؤلفاً ، ويذهب مذهب السخاوى فى نقده . ويروعه كثرة مؤلفاته ، ويتخذها حجة على سطوه على مؤلفات المتقدمين . هذا إلى جانب تفاهة بعض هذه المؤلفات .

ولا رد لنا على ذلك ، إلا بما أشرنا إليه من أن له جملة من المؤلفات يعتبر أبا عذرتها وابن بجدتها ، وهى وحدها كفيلة بالسمو به إلى مصاف الممتازين من المؤلفين . ثم إن السيوطى كان ـ فى الواقع ـ يمثل هذا العصر وعقليته التأليفية ، تمثيلا دقيقا رائعا ، فكان يعيش بعقلية موسوعية ، تجتمع فيها المنقولات اجتماعها فى دوائر المعارف . ومثل عقليته فى تلك الناحية ، نادر الوجود . ـ أما ما ينسب إليه من السطو ، فلعله من خطأ النساخ ، أومن خطأ الطابعين والناشرين فى العصر الحديث . وكم لهؤلاء وهؤلاء من أخطاء . .

مؤلفاته [1] :

أولا : فى التاريخ والأدب:

١ ـ طبقات الحفاظ ، ملخص فى طبقات الذهبى ، منه نسخة بدار الكتب . ٢ ـ طبقات المفسرين . طبع فى ليدن . ٣ ـ طبقات النحويين واللغويين . وهى ثلاثة كبرى ووسطى وصغرى ، وصغراها هى « بغية الوعاة » . ٤ ـ تاريخ الخلفاء ترجم فيه للخلفاء والسلاطين من عهد أبى بكر إلى الأشرف قايتباى سنة ٩٠١ هـ وهو مرتب على السنين . طبع فى مصر ٥ ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة : وهو جزءان فى حوادث مصر من قديم الزمان حتى عهد المؤلف . وبه تراجم كثيرة ، مطبوع متداول ٦ ـ الدرارى فى أبناء السرارى : وبه أسماء أبناء الخلفاء المولودين من الجوارى . فى بضع ورقات ٧ ـ النفحة المسكية والتحفة المكية . وهى جداول

١ ـ اعتمدنا فى إيراد هذه المؤلفات على رواه السيوطى فى ترجمة نفسه فى حسن المحاضرة ـ وقد روى كثيرا منها ـ وعلى ما رواه جورجى زيدان وسركيس وجميل المظم ، وما شاهدناه فيها بدور الكتب .

فى النحو والبديع والمعانى فى ١٦٦ سطراً . ٨ ـ وصف اللآل فى وصف الهلال . مجموعة من الأشعار فى معنى الكتاب السالف الذكر . ٩ ـ التعظيم والمنة فى أن أبوى رسول الله فى الجنة . ١٠ ـ مسالك الحنفا فى والدى المصطفى . ١١ ـ مشتهى العقول فى منتهى النقول : رسالة أدبية فى أحسن ما قيل من كل شىء . بدار الكتب . ١٢ ـ اثنتا عشرة مقامة . طبعت بالآستانة عام ١٢٩٨هـ . ١٣ ـ الوسائل إلى معرفة الأوائل : موضوعهُ ذكر الأول فى كل شىء . كأول من خطب ، مرتب على المواضيع . أخذه عن كتاب العسكرى وزاد فيه ورتبه . ١٤ ـ الشماريخ فى علم التاريخ . منه نسخة بدار الكتب ١٥ ـ لب اللباب فى تحرير الأنساب : وهو مختصر فى الأنساب هذب فيه اللباب لابن الأثير . واستوفى ضبط ألفاظه ، وزاد عليه . وموضوعه ذكر البلاد التى ينتسب إليها الأعلام . ١٦ ـ المنجم فى المعجم : وهو معجم فى أعيان شيوخه مرتب على أحرف الهجاء . بدار الكتب . ١٧ ـ بلبل الروضة : وهى مقامة فى وصف جزيرة الروضة . فى بضع ورقات . بدار الكتب . ١٨ ـ رفع شأن الحبش : هو شرح تنوير الغبش فى فصل السودان والحبش لابن الجوزى . ١٩ ـ أزهار العروش فى أخبار الحبوش ـ أى الأحباش . ٢٠ ـ ديوان الحيوان : خلاصة كتاب الدميرى « حياة الحيوان » ٢١ ـ تبييض الصحيفة فى مناقب أبى حنيفة . بدار الكتب ٢٢ ـ نشر العلمين المنيفين . ٢٣ ـ إسعاف المبطأ فى رجال الموطأ . ٢٤ ـ السبل الجلية فى الآباء العلية : فى آباء النبى عليه السلام . ٢٥ ـ تزيين الممالك فى مناقب مالك . ٢٦ ـ المقامة السندسية فى النسبة المصطفوية . ٢٧ ـ المنهاج السوى فى ترجمة النووى . ٢٨ ـ تحفة الظرفاء فى أخبار الخلفاء . وهى قصيدة رائية . ٢٩ ـ در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة ، منه مخطوط بدار الكتب .

ثانيا : فى العلوم العربية :

٣٠ ـ المزهر : وهو فى جزئين . وموضوعه فقه اللغة العربية ومن أهم الكتب فيه . مطبوع متداول . ٣١ ـ الأشباه والنظائر النحوية : وهو مرتب على سبعة

فنون لكل منها مقدمة خاصة فكأنه سبعة كتب . مطبوع متداول . ٣٢ — جمع الجوامع : وهو فى النحو . له مقدمة وسبعة أبواب . ٣٣ - الاقتراح فى أصول النحو . ٣٤ — جناس الجناس .

ثالثا : فى العلوم الدينية :

٣٥ — الإتقان فى علوم القرآن . كتاب جليل يبحث فى تاريخ القرآن ، مطبوع متداول . ٣٦ — ترجمان القرآن فى تفسير المسند . ٣٧ — لباب العقول فى أسباب النزول : طبع على هامش الجلالين . ٣٨ — المذهب فيما وقع فى القرآن من المعرب . ٣٩ — تفسير الجلالين وهو شركة بين السيوطى والمحلى . ٤٠ - جمع الجوامع . ويسمى الجامع الكبير أيضاً ، وهو فى الحديث . ٤١ - الدر المنثور فى التفسير بالمأثور . ٤٢ - المقدمة : فى الألفاظ المعربة فى القرآن . ٤٣ - معربات القرآن ٤٤ - الخصائص النبوية : فى معجزات النبى عليه السلام . ٤٥ - شرح الصدور فى شرح حال الموتى فى القبور . ٤٦ - المنهج السوى والمنهل الروى فى الطب النبوى . ٤٧ - الازدكار فيما عقده الشعراء من الآثار . وهى منظومة بها أحاديث . ٤٨ - الدر المنظم فى الاسم المعظم . ٤٩ - الأشباه والنظائر فى الفقه . ٥٠ - النقاية : وهى موسوعة فى ١٤ علماً تسمى « الأصول المهمة فى علوم جمة » ، وهى فى التفسير والأصول والتشريع والبلاغة والنحو والصرف . والفرائض والحديث والتصوف والطب .

رابعا : ما وجدناه فى دار الكتب بالمنصورة :

١ - وصول الأمانى بأصول التهانى . ٢ - طى اللسان عن ذم الطيلسان . ٣ - كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة . ٤ - المصابيح فى صلاة التراويح . ٥ - القول الأشبه فى حديث « من عرف نفسه فقد عرف ربه » . ٦ - إفادة الخبر بنصه فى زيادة العمر ونقصه . ٧ - الكنز المدفون والفلك المشحون : فى الأدب ٨ - تحفة المجالس ونزهة المجالس . ٩ - شرح شواهد المغنى : فى النحو . ١٠ - الهمع على الجمع . فى النحو . ١١ - الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير : فى الحديث

والمصطلح . ١٢ ـ اللآلىء المصنوعة : فى الأحاديث الموضوعة : حديث ومصطلح ١٣ ـ سهام الإصابة فى الدعوات المستجابة : حديث ومصطلح . ١٤ ـ الأرج فى أدعية الفرج : فى التصوف . ١٥ ـ الدرج المنيفه فى الآباء الشريفة . ١٦ ـ تنزيه الأنبياء عن تشبيه الأغبياء . ١٧ ـ الباحة فى علم السباحة . ١٨ ـ الفانيد فى حلاوة الأسانيد . ١٩ ـ التثبيت عن التبييت : أرجوزة للسيوطى . ٢٠ ـ إتحاف الفرقة بوصل الخرقة . ٢١ ـ ريح النسرين فيمن عاش من الصحابة مائة وعشرين ، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، . ٢٢ ـ الرحمة فى الطب والحكمة .

وفى دار الكتب المصرية طائفة كبيرة من مؤلفات السيوطى غير مشاهير كتبه ، وغير ما أشرنا إلى أنه فى الدار . فنذكر منها ما يأتى :

نسب بعض الصحابة والأشراف الأدريسيين وغيرهم من ملوك لمتونة والموحدين . إتمام الدراية لقراء النقاية . منهل اللطايف فى الكنافة والقطايف . التبرى من معرة المعرى ، وهى أرجوزة فى أسماء الكلب . الثبوت فى ضبط القنوت تحفة النجبا فى قولهم هذا بسرا أطيب منه رطباً . نور الحديقة ونور الطريقة ، وهى مقتطفات من ديوانه « حديقة الأديب وطريقة الأريب » . السماح فى أخبار الرماح . الشرف المحتم . ذيل طبقات الحفاظ للذهبى طبع . العجالة الزرنبية فى السلالة الزينبية . الفاشوش فى أحكام قراقوش . لب الألباب فى تحرير الأنساب . شرح نظم البديع فى مدح خير شفيع ، وهو شرح بديعيته . مشتهى العقول ومنتهى النقول . الأوج فى خبر عوج . تحفة الظرفاء بأسماء الخلفاء . تحفة المهتدين بأسماء المجددين . منظومة .

وبمكتبة معهد دمياط الدينى مجموعات خطية ثمينة من مؤلفات السيوطى منها :

النقل المسطور فى جواز قبض المعلوم من الأوقاف مع عدم الحضور . الإنصاف فى تمييز الأوقاف . كشف الضبابة فى مسألة الاستنابة . الكشف عن مجاوزة الأمة الألف الهيبة السنية فى الهيئة السنية . رسالة فى أسماء أعضاء الإنسان .

درر الكلم فى المواعظ والحكم . المصابيح فى صلاة التراويح . السمت فى حسن الصمت . المسارعة إلى المصارعة . الطرثوث فى فوائد البرغوث . الباحة فى السباحة . إلقاء الحجر على من زكى ساب أبى بكر وعمر . فضل الجلد عند فقد الولد . بشرى الكئيب بلقاء الحبيب . المعانى الدقيقة فى إدراك الحقيقة . إحياء الميت فى فضل أهل البيت . الحبل الوثيق فى نصرة الصديق . الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والأبدال . الإغضاء عن حديث دعاء الأعضاء . فضل القيام بالسلطنة . الإنافة فى رتبة الخلافة . الأخبار المروية فى سبب وضع العربية . رسالة فيمن غيّر النبى صلى الله عليه وسلم أسماءهم . أسماء النقباء ليلة العقبة . أسماء من مات فى حياته صلى الله عليه وسلم من الصحابة . رسالة فى ذم القضاء . رسالة فى الأترنج .

الكلام عن بعض مؤلفاته :

١ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة :

كتاب فى جزئين، مشهور لدى المؤرخين والمطلعين ، وبخاصة المعنيون بتاريخ مصر . وهو من أفضل كتب السيوطى . وقد أورد فيه كثيراً من أخبار مصر والقاهرة منذ أقدم العصور حتى عصره . ففيه طُرف كثيرة عن ملوكها وسلاطينها وأمرائها وعظماء رجالها من وزراء وقضاة وكتاب وولاة ، ومن دخلها من الأفذاذ . وفيه كذلك أخبار طريفة أخرى عن بعض مبانيها وعمائرها المشهورة ، وعن النيل وعن جغرافية مصر . وعن الفسطاط والفيوم وبرقة والنوبة . وكلام عن الخلافة ، وغير ذلك . وقد ترجم فيه لبعض من عاش حتى سنة ٩٠٣ هـ ، وربما بعدها . وهذا دليل على أنه ليس من كتبه المبكرة .

وبدأه بذكر المواضع التى وقع فيها ذكر مصر فى القرآن الكريم ، والأحاديث الشريفة . وذكر من نزلها من أولاد آدم ، ومن ملكها قبل الطوفان وبعده . ومن دخلها من الأنبياء والصديقين . ومن كان بها من الحكماء ووصف عجائبها وأهرامها

ومنارة الإسكندرية ، وفتح العرب لها . وهكذا .

وقد ترجم المؤلف لنفسه فى الجزء الأول ترجمة لا باس بها ، تعتبر من أهم مراجع المترجمين له من بعدُ . فذكر ميلاده وأسرته ونسبتها وشيوخه وأدواره العلمية وصلته بالعلوم والتأليف فيها ، وذكر بعض مؤلفاته . وقد اقتدى فى ذلك ببعض من تقدمه ممن ترجموا لأنفسهم ، ومنهم عبد الغافر الفارسى فى تاريخ نيسابور . وياقوت الحموى فى معجم الأدباء . ولسان الدين بن الخطيب فى تاريخ غرناطة . والحافظ تقى الدين الفارسى فى تاريخ مكة . وابن حجر العسقلانى فى قضاة مصر . وأبو شامة فى الروضتين .

وقد صرح فى مقدمته بأنه اعتمد فى تأليف هذا الكتاب على عدة كتب ، منها : فتوح مصر لابن عبد الحكم ، وفضائل مصر لابن عمرو الكندى ، وتاريخ مصر لابن زولاق ، والخطط للقضاعى ، وتاريخ مصر لابن ميسر ، وقيل لابن يونس ، ، وإيقاظ المتغفل وإيعاظ المتأمل لابن المتوج الزبيرى ، وخطط المقريزى ، والمسالك لابن فضل ، ومختصره لتقى الدين الكرمانى ، ومباهج الفكر ومناهج العبر لمحمد بن عبد الله الأنصارى ، وتاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر لابن الربيع الجيزى ، والتجريد للذهبى ، والإصابة لابن حجر ، وطبقات الحفاظ ، وطبقات القراء وتاريخ الإسلام وكلها للذهبى شمس الدين أيضاً ، وكذلك كتابه « العبر » والبداية والنهاية لابن كثير ، والطالع السعيد للإدفوى ، والكروان لابن أبى حجلة . وثمار الأوراق لابن حجة الحموى ، والطبقات الكبرى للسبكى ، وطبقات الإسنوى ، وطبقات المالكية لابن فرحون ، وطبقات الحنفية لابن دقاق ، ومرآة الزمان لسبط الجوزى ، وغير ذلك .

أما غرضه من تأليف هذا الكتاب ، فقد ذكره فى مقدمته حيث قال : « هذا كتاب سميته : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . أوردت فيه فوائد سنية وغرائب مستعذبة مرضية . تصلح لمسامرة الجليس . وتكون للوحيد نعم الأنيس »

والكتاب ذو مزايا متعددة ، منها : ذكر الأعلام الذين نزلوا بمصر ، وترجمتهم تراجم موجزة لا بأس بها فى مثل هذا المقام ، مع النص على تواريخ الوفاة . ومنها استطرادات أدبية هامة ، أثبت بها كثيرا من النصوص الشعرية والنثرية ، التى يقل وجودها فى غيره من المراجع ، وبينها قصائد وخطب ورسائل رسمية وغير رسمية .

وقد وجدنا فى هذا الكتاب وفى استطراداته تلك ، معينا شافيا وردناه ، ومنهلا عذبا حسونا منه ، ووجدنا فيه عونا كبيرا على فهم عصر المماليك وتصويره ، وتزويد هذا الفهم والتصوير بما يدعمه من الأدلة التاريخية المأثورة .

ومما يؤاخذ به السيوطى هنا ، أنه غير عميق الاستنباط ، وغير معلل للحوادث إلا ماندر . غير أن هذا قد لا يكون من أغراض المؤلف . ـ ومما يؤاخذ به كذلك ، عدم تمحيصه للروايات الخرافية ، التى طافت فى الكتب التاريخية القديمة ، فهو قد نقلها كما هى بخرافيرها . وإن أسندها إلى رواتها ، ونخشى أن تكون فى عداد معتقداته ـ على جلالة قدره . .

ومنها ذكر النيل وأنه ينبع من الجنة . ومنها ذكر من أذل الأسد ، وحملت عرشه الشياطين « فى باب من ملك مصر قبل الطوفان » . ومثل الإسكندرية وأنها بنيت فى ثلثمائة سنة ، وسكنت ثلثمائة سنة ، وخربت ثلثمائة سنة . ومثل عجائب منارة الإسكندرية والتمثال والمرآة فيها ، تلك المرآة التى كانت تُرى خلالها جيوش الأعداء وغير ذلك كثير .

على أن هذ كله لا ينقص من قيمة الكتاب ، بل هو من أهم مراجع تاريخ مصر وأعلامها .

٢ ـ المزهر .

يُعتبر كتاب المزهر فى مقدمة الكتب النفيسة التى دبجتها يراعة السيوطى فى علوم العربية وأنواعها وقد طبع طبعة حديثة ، وصححه وراجعه جاد المولى بك وآخرون . ـ تصفحته وحاولت فهمه تماما وتخطى أبوابه باباً باباً ، فوجدته عبئا فادحا ، لكثرة مابه من المصطلحات ، والعبارات المنطقية ، والأقوال والردود ،

والمباحث المتشعبة المتلاحقة المتشابكة ، فى فنون مختلفة ، من نحو وتفسير وفقه ، وحديث وشروح لغوية وغير ذلك .

وفقه اللغة علم حديث فى المدارس المصرية ، والقسم النظرى ذو بحوث شائقة ممتعة تتضارب فيها الآراء وتعترك الأفكار ، وتتحاج ، ويقرع بعضها بالحجة بعضا ، وفى ذلك غذاء عقلى قوى ظريف . ومن هذه البحوث : حديث عن معنى اللغة وكيفية وجودها ، أوضعية هى أم توفيقية . وصلة اللغـــات بعضها بالبعض . وكيف تولدت الحروف ، وما الصلة بين لفظ الحرف ومعناه ، ومتى تكوّن الاسم ، ومتى تكوّن الفعل . وكيف تدل هذه الألفاظ على معانيها ، والفروق الدقيقة بين معني لفظين متقاربين فى النطق ، وما الوضع الإفرادى وما الوضع المركب ، وكيف تكونت الجملة ، وما التجوز باللفظ ، وما مميزات اللغة ، وما الترادف والتضاد والاشتراك . وغير ذلك من البحوث العلمية الدقيقة التى تعتبر فى الواقع فلسفة فى فهم اللغة وتاريخ وجودها باعتبارها كائنا حيا . ومما يتصل بهذا القسم : الحديث عن التعريب من لغة إلى لغة ، ومدى هذا التعريب .

والقسم العملى أقرب إلى أن يكون نوعا من أنواع المعجمات اللغوية ، يعرض الألفاظ المتناسبة فى ناحية ما ، ويحشدها فى باب واحد . مثل الألفاظ الخاصة بخلق الإنسان ، أو الخاصة بالبناء . أو الخاصة بأحد الأنواع من الحيوان أو النبات أو مثل الألفاظ المترادفة فى معنى الأسد أو السيف أو العسل ، أو مثل الألفاظ المتضادة ذات المعنيين المتضادين . أو الجمل المستعملة فى معنى واحد . أو ماجاء على وزن فعالى أو فعنلى مثلا . أو ما جاء بالهاء من صفات المذكر . أو الألفاظ التى تذكر وتؤنث . أو وهكذا .

وهذه البحوث ولا سيما للبحوث النظرية ، وجدت لها عند علماء أوروبا فى العصور الحديثة رواجا . فاشتغلوا بها ، وأمعنوا فى هذا الاشتغال ، وتحدثوا ونقبوا عن أصل اللغات وكيف تفرعت وما هى الصلات بينها ، وما وجوه

الخلاف فيها . وهكذا . وقد بلغوا من وراء ذلك مبلغا محمودا ، حتى جعلوا من هذه البحوث المشتتة المتفرقة ، علما مستقلا له كيانه الخاص ، وشخصيته الخاصة .

وأعتقد أن علماء العربية قد سبقوا علماء أوربا فى هذه الناحية . وتكلموا فى مسائل عدة من مسائل هذا العلم . ودللوا على نظرياتهم فيها . ومنهم ابن جنى والثعالبى والزمخشرى وابن فارس وإمام الحرمين وابن الحاجب والإسفرائينى ، وكثيرون غيرهم من النحويين والبلاغيين وواضعى المعجمات والمفسرين وشراح الحديث ، والأدباء .

وغاية أمر هؤلاء أنهم لم يتصد واحد منهم لدراسة هذا الفن كله ، واستيعاب نظرياته ، والتحدث عنها حديثا جامعا منظما مبوبا فى مؤلف واحد مستقل . بل تكلم هذا فى ناحية ، وذاك فى ناحية أخرى . فلم يجتمع شتات هذا العلم ويلتئم شمله .

وقد حاول السيوطى فى كتاب « المزهر » أن يجمع هذا الشتات ، ويلائم بين أجزاء الشمل ، ويُقيم من البحوث المتفرقة علما مستقلا له كيانه وشخصيته . وهذا بغير شك جرأة وابتكار ، وقد نجح فيه السيوطى نجاحا يغبط عليه . وعلينا أن نصدقه حين يقول فى مقدمة كتابه هذا :

« هذا علم شريف ، ابتكرت ترتيبه ، واخترعت تنويعه وتبويبه . وذلك فى علوم اللغة وأنواعها ، وشروط أدائها وسماعها ، حاكيت به علوم الحديث فى التقاسيم والأنواع ، وأتيت فيه بعجائب وغرائب حسنة الإبداع ، وقد كان كثير ممن تقدم يلمّ بأشياء من ذلك ، ويعتنى فى بيانها بتمهيد المسالك ، غير أن هذا المجموع لم يسبقنى إليه سابق ، ولا طرق سبيله قبلى طارق » .

ونحن نقول فوق ما تقدم ، إننا فى هذا العصر الحديث ، لم نظفر بمؤلف فى فقه اللغة العربية وتاريخ وجودها ، وسيرة حياة مفرداتها ، ودلالات ألفاظها ، وغير ذلك من بحوث ، يكون ندا لمؤلف السيوطى ، هذا ، على الرغم من تقدم هذا العلم عند علماء أوربا ، واشتغال بعض المستشرقين بفقه العربية ، وتقليد بعض علمائنا

العربية لهم ، فى هذا الاشتغال . إلا مذكرات قُدمت للطلاب ، فى دور التعليم وإلا بحوثاً منثورة على صفحات المجلات والصحف اليومية ، وإلا كتباً يسيرة غير جامعة ألفت فى هذا الموضوع ، أين هى من كتاب السيوطى الممتلىء الجامع ، وما منها إلا ماتح من بحره ومستسق من منهله ، وقد اشترك فى هذه المذكرات والبحوث المنثورة والكتب اليسيرة علماء من مصر والشام والعراق والمغرب . . نقول ذلك لا متحاملين — حاشا لله — بل طامعين فى أن تشحذ الهمة ، وتتوثب العزيمة ، إلى وضع مؤلف كامل شامل فى فقه اللغة وفلسفتها ، بأسلوب جديد سهل المأخذ قريب المورد ، لا يصعب على الناشئة تناوله .

وقد اعتمد السيوطى فى كتاب « المزهر » على ما كتبه العلماء المتقدمون ممن ذكرنا ، ومن غيرهم ، وقد دأب على أن ينسب القول مباشرة إلى قائله ، فيقول : قال أبو الفتح بن جنى فى الخصائص ، مثلا ، وقال أبو الحسين أحمد بن فارس فى فقه اللغة ، وقال القالى فى أماليه ، وقال الزجاجى فى أماليه ، وقال ابن خالويه فى كتاب « ليس » ، وقال الجوهرى فى الصحاح . وحكى ابن الأنبارى فى كتاب « الأضداد » وهلم جرا .

وفى « المزهر » بحوث نظرية وعملية ، فمن النظرية : البحث فى اللغة ، هل هى توقيف ووحى ، أو اصطلاح وتواطؤ ، وتتبعه أبواب استطرادية فى ذكر الآثار الواردة ، فى أن الله تعالى علم آدم عليه السلام اللغات ، وفى ذكر إيحاء اللغة العربية إلى نبينا عليه السلام ، ومنها البحث فى معرفة ما روى من اللغة ولم يصح ولم يثبت ، وغير ذلك .

ومن العملية فصول كثيرة منها : معرفة ماورد بوجهين بحيث إذا قرأه الألثغ لا يعاب ، ومنها معرفة الملاحن والألغاز ، ومنها معرفة ماورد بوجهين بحيث يؤمن فيه التصحيف ، وغير ذلك كثير جدا . — وبه أبواب عن الألفاظ الإسلامية ومميزات العربية . والاشتقاق ، والحقيقة ، والمجاز ، والقلب والإبدال ، والنحت ،

وعلاقة العربية بغيرها من اللغات السامية . وكلام عن الكنى والألقاب ، إلى آخره.

ويضيق نطاق الكلام هنا عن أن نفى الكتاب حقه من الوصف ، أو ذكر عدد من أبوابه وبحوثه ، توقف القارىء — كما نشتهى — على حقيقته وقيمته ، وحسبنا أن نقول : إن الكتاب جزءان، طبعاً فى حجم متوسط، يحتويان على أكثر من سبعمائة صفحة مليئة علما وفنا مختلفا أكلهما ، دانية قطوفهما ، تجد فيها الحديث والتفسير ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والتاريخ ، والأدب ، كما تتخلله كلمات اجتماعية موجزة ، وفكاهات علمية غاية فى الطرافة ، مع الأمانة فى النقل ، والدقة فى الملاءمة ، وهو جدير بالدراسة الخاصة ، كما أنه دليل على همة السيوطى وصبره وغزارة علمه .

٣ — الإتقان فى علوم القرآن :

مجلد فى جزئين من الحجم الكبير فى كل جزء نحو ٢٥٠ صفحة فى كل صفحة نحو ٣٤ سطرا .. مطبوع .

وهو كتاب عجيب فى بابه ، ويعتبر فريدا لا نظير له ، وليس معنى ذلك أن مسائله لم يتكلم فيها إنسان ، أو لم ترد فى كتاب . لا . ولكنها وردت مبثوثة فى كتب عدة ، وفى أبواب كثيرة . وتكلم فيها أناس كثيرون ، ويرجع الفضل للسيوطى فى أنه لم يشملها ، وجمعها منظمة منسقة مبوبة فى كتابه هذا ، حتى صارت هيكلا مستقلا متناسق الأجزاء منسجم النواحى ، ذا وحدة متحدة .

وهذه قدرة عجيبة من السيوطى ، تدل على ذهنية متوقدة ، اتجهت به إلى مثل هذا الموضوع الفريد ، فطاف على مؤلفات كثيرة العدد ، مختلفة المشارب ، كثيرة الأقوال ، والمذاهب ، فحقق فيها ودقق ، حتى استبانت له وجوه الصواب ، فحشدها فى كتاب ، بعد أن زودها بماله من ثاقب رأى وصائب فكر .

وهذا الكتاب فى بابه ، شبيه بالمزهر فى بابه . وكل منهما الغاية التى بلغها العلم الذى دون فيه . ولئن استطاع علماء اللغة من بعد السيوطى أن يضيفوا شيئاً جديدا إلى ما كتبه فى « المزهر » ، فإن علماء القرآن وتاريخه ، لم يضيفوا جديدا إلى ما كتبه فى « الإتقان » . نظن ذلك غير آثمين .

وموضوع الكتاب: الكلام عن القرآن الكريم كلاما تاريخيا، فهو ليس تفسيرا، وإن كان بين الاثنين ارتباط. هو وصف له ولسوره وآياته وطريقة النطق بها. ويتطرق إلى بحوث تاريخية، وبحوث فى التجويد وعلوم اللغة من نحو وبلاغة، وبحوث فى التوحيد وبيان للإعجاز وهلم جرا.

ومن فصوله: معرفة السور الحضرية وغيرها، معرفة الصيفى منها والشتائى، والأرضى والسماوى، ومعرفة أول مانزل من سوره وآخر مانزل، وأسباب النزول، ومعرفة مانزل من القرآن على لسان بعض الصحابة، وما تكرر نزوله، وما تأخر نزوله عن حكمه، وكيفية نزوله. ومجىء الوحى وكيفياته، وجمع القرآن، وترتيبه، ومعرفة المتواتر والمشهور والآحاد، والشاذ والموضوع والمدرج، وفيه كلام عن علم التجويد، وبيان أحكامه فى الإمالة، والفتح، والإدغام، والإظهار والإخفاء، والإقلاب، والمد والقصر، وغير ذلك، وفيه فصول لبيان غريبه، وما نزل منه بغير لغة الحجاز، وبغير لغة العرب، وهكذا.

وفى الجزء الثانى منه، فصول عن المحكم والمتشابه، والمقدم والمؤخر، والناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، وحديث عن مظاهر البلاغة فيه، من حقيقة ومجاز، وتشبيه واستعارة وكناية، وغير ذلك، وفيه فصل فى إعجاز القرآن، وفصل فى العلوم المستنبطة منه، وفصول فى فضائله ومفرداته وخواصه، وخطه وتأويله.

ثم تكلم مؤلفه عن شروط المفسر وآدابه، وعن غرائب التفسير، وختم الكتاب بفصل ممتع عن بعض المفسرين الأوائل وما قيل فى حقهم، ثم ثنى بذكر التفاسير المروية عن النبى عليه الصلاة والسلام.

والكتاب — كما اتضح — دليل خالد على رسوخ قدم الرجل فى علوم العربية والدين، وإحاطته الشاملة بكثير جداً مما قيل عن القرآن الكريم، وحفظه التام لحوادث التاريخ ومعرفته برجاله، وسعة اطلاعه على كتب المتقدمين بعامة، وهو فى مقدمة كتبه النفيسة، ولا غنى لطالب القرآن عنه، ولا تزال قصارى المتكلمين

فى تاريخ القرآن — حتى اليوم — تنتهى عند هذا المؤلف الثبين .

وقد ذكر المؤلف فى خطبة كتابه هذا ما يفيد أن التأليف فى موضوعه ، أمنية جالت فى نفسه ، واستشرف له فؤاده منذ أمد ، إذ وجد كثيراً من المؤلفين قد وضعوا كتباً عدة فى علم الحديث ، ولم يهتموا بجمع المسائل الخاصة بالقرآن ، وقد زاد استشراف فؤاده للكتابة فى هذا الموضوع ، حينما سمع من شيخه أبى عبدالله محيي الدين الكافيجى ، أنه دوّن فى علم التفسير كتابا لم يُسبق إليه ، وقد كتبه السيوطى عنه ، فوجده صغير الحجم ، وبه بابان وخاتمة : الأول فى ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية ، والثانى فى شروط القول فيه بالرأى . والخاتمة فى آداب العالم والمتعلم — فلم يرو للسيوطى غلة ، حتى اطلع على كتاب آخر أضخم حجما وأغزر مادة من الأول ، فى مثل هذه الموضوعات التى تدور حول القرآن الكريم ، وهو من تأليف القاضى جلال الدين البلقينى سماه « مواقع العلوم من مواقع النجوم » ، وهو خير من الأول ترتيبا وتبويبا وتقريرا وتحريرا .

كل ذلك حفز همته إلى وضع كتاب لهذه المسائل ، يكون أشمل وأفضل ، وأجمع لشتاتها ، فوضع كتابا سماه « التحبير فى علوم التفسير » اعتمد فيه على كتاب « مواقع العلوم » السابق ذكره ، — ثم خطر له أن يضع كتابا أوفى ، وأكثر بسطاً وجمعا ، وأفضل ضبطاً ، وأكثر استقصاء ، ليكون مقدمة لتفسيره الكبير المسمى « مجمع البحرين ومطلع البدرين » الذى شرع فى وضعه ، وبينما هو يتردد فى هذا الأمر ، ويقلبه على وجوهه ، ظانا أنه أسبق الناس إليه ، إذ بلغه أن الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى الشافعى ، وضع كتابا على هذا المنوال ، حافلا ، وسماه « البرهان فى علوم القرآن » ، فاطلع عليه السيوطى ، فحمد مافيه ، وكان أكثر حفزاً له على وضع كتابه الذى فكر فيه . قال السيوطى :

« فوضعت هذا الكتاب العلى الشأن ، الجلى البرهان ، الكثير الفوائد والإتقان ،

ورتبت أنواعه ترتيبا أنسب من ترتيب البرهان، وأدمجت بعض الأنواع فى بعض، وفصلت ماحقه أن يبان . وزدته على ما فيه من الفوائد والقواعد والشوارد ، ما يشنف الآذان ، وسميته بالإتقان فى علوم القرآن » .

ويتبين مما سبق أن السيوطى اعتمد على كتب أربعة فى تدوين كتابه «الإتقان» الأول . كتاب الكافيجى . الثانى : كتاب جلال الدين البلقينى . الثالث : كتابه هو المسمى « التحبير » . الرابع : كتاب الزركشى . وكتاب السيوطى أجمع وأوفى ، وبه كلام عن ثمانين مسألة من مسائل علوم القرآن ، أو ثمانين نوعا كما سماها هو ، وقد ذكرنا بعضها فيما سبق .

وقد بين السيوطى أن ثمت كتبا أخرى تكلمت عن بعض هذه الفنون ، ولكنها بالنسبة لكتابه كنقطة لبحر ، ومنها : فنون الأفنان فى علوم القرآن لابن الجوزى ، وجمال القرآن للسخاوى . والمرشد الوجيز فى علوم تتعلق بالقرآن العزيز لأبى شامة ، والبرهان فى مشكلات القرآن لأبى المعالى عزيزى بن عبد الله المعروف بشيدلة .

وهناك كتب أخرى اعتمد عليها أيضاً وأعانته ، ذكرها فى مقدمته ، وهى أكثر من أن تحصى هنا ، وهى جملة من الذخائر والنفائس فى التفسير واللغة والحديث والتاريخ وعلوم القرآن والرسم .

وقد عنى فى كل فصل أن يذكر الأقوال المأثورة فى المسألة مسندة إلى رواتها وإلى الكتب التى ذكرت فيها ، ويفصل القول فى ذلك تفصيلا منظما .

وإليك على سبيل المثل، موجزا عما ذكره خاصاً بالمكى من القرآن والمدنى ، قال: هناك ثلاثة أقوال: الأول أن المكى ما نزل قبل الهجرة، والمدنى ما نزل بعدها . الثانى : أن المكى ما نزل فى مكة ، والمدنى ما نزل بالمدينة . الثالث : أن المكى ماخوطب به أهل مكة . والمدنى ماخوطب به أهل المدينة .

وقد عقد بعد ذلك فصلا بين فيه السور التى اختلف فى مكيتها ومدنيتها ،

والحجج والبراهين المأثورة على ذلك . — ثم عقد فصلا بين فيه المكى من السور والمدنى منها ، وسار على نمطه السابق من الاستشهاد بالمأثور ، مستثنيا من المكى ما فيه من آيات مدنية ، ومن المدنى ما فيه من آيات مكية ، مستشهدا بمن قال بهذه المكية أو المدنية ، موردا الأقاويل المختلفة ، ولو متناقضة ، بالنسبة للآية الواحدة .

وفى الفصول التى تكلم فيها عن بعض المسائل البلاغية موضحا ماجاء منها فى الآيات القرآنية ، سلك مسلك البلغاء لا العلماء ، إذ اعتمد اعتمادا كبيرا على الذوق والروح الأدبية ، فلم يتقيد بأساليب العلماء الجافة . ولهذا أورد كثيرا من الأمثلة فى أسلوب هين لطيف واضح ، ومن ذلك قوله عن النوع الثانى والخمسين فى الجزء الثانى ، وهو فى حقيقة القرآن ومجازه . قال :

« لا خلاف فى وقوع الحقائق فى القرآن ، وهى كل لفظ بقى على موضوعه ، ولا تقديم فيه ولا تأخير ، وهذا أكثر الكلام . وأما المجاز فالجمهور أيضاً على وقوعه فيه ، وأنكره جماعة منهم الظاهرية وابن القاص من الشافعية ، وابن خريز منداد من المالكية . وشبهتهم أن المجاز أخو الكذب ، والقرآن منزه عنه . وأن المتكلم لا يعدل إليه إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير . وذلك محال على الله تعالى. — وهذه شبهة باطلة ، ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن . فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، ولو وجب خلو القرآن من هذا ، وجب خلوه من الحذف والتوكيد ، وتثنية القصص وغيرها » .

هذا . ومن الغريب أن السيوطى كتب فى خاتمة الكتاب ، ذاما أهل عصره فقال : « وإنى فى زمان ملأ الله قلوب أهليه من الحسد ، وغلب عليهم اللؤم ، حتى جرى منهم مجرى الدم من الجسد . » إلخ . . فالله حسبنا وحسبه .

السيوطى الكاتب الأديب :

أليس من العجيب أن يتواضع السيوطى ، ويعترف على نفسه ، أنه فى الإنشاء والترسل ، أقل مقدرة منه فى أشياء غيره ، مع أنه كتب هذه المؤلفات الكثيرة العدد ، ومنها الواسع النطاق البعيد المدى ؟

إن الإنشاء فى نظرنا هو قدرة المرء على التعبير عن مراده ، بأسلوب واضح أخاذ ، وهى صفة يتصف بها السيوطى ، فهو منشىء كسائر كتاب عصره المنشئين .

وأغلب الظن — كما أشرنا فيما تقدم — أن السيوطى ، إنما قصد من الإنشاء والترسل ، صناعة البديع فحسب ، وقد كانت الكتابة الأدبية فى عصره ، تسير على المنهاج الفاضلى ، الذى أصبح ميزانا لكل كتابة ، ومزاجا لكل أديب ، وميدانا يتسابق فيه فحول المنشئين .

فإذا كان السيوطى يقصد أنه قصر فى اتباع النهج البديعى المذكور ، فهذا حق ، لأنه لايجارى فيه أمثال ابن عبد الظـــاهر ، وابن فضل الله ، والقلقشندى ، وابن نباتة ، والصفدى ، وابن حجة ، فهو بالنسبة إلى هؤلاء ، أقصر باعا وأقل ذراعا ، ولحياته العلمية — بلا ريب — دخل فى هذا ، فإن طول الاشتغال بالعلم ، وممارسة التأليف ، والانكباب على تحصيل الشوارد ، لا يترك للمرء بالا إلى بديع ، ولا ميلا إلى محسنات :

ومع ذلك ، فقد جرى السيوطى فى هذا الميدان ، وسابق هؤلاء الفرسان ، جريا إلى مدى محدود ، وسباقا إلى أفق قريب ، فقد صدرت عنه مقالات ورسائل تثبت له القدرة على الأسلوب البديعى وغلبت عليه الصناعة فى خطب كتبه كلها ، وفى كثير من فصولها ، وسنورد نماذج توضح مانقول .

على أنه حرى . بأن نذكر له هذه المقامات الكثيرة العدد ، التى نحا فيها منحى بديع الزمان والحريرى ، فابتدع فى بعضها شخصية طريفة ، تدور حولها قصصه هذه ، هى شخصية « هاشم بن القاسم » وهو المتحدث فيها .

ولكنه لم يكن جامدا جمود الحريرى ، سار فى مقاماته على نسق واحد ، ودار حول معنى عام واحد ، وهو الكدية التى اشتغل بها أبو زيد السروجى ، لا ، وإنما حرر السيوطى نفسه كما حرّر ابن الوردى نفسه من قبله فى مقاماته ، فضمّن السيوطى بعض مقاماته ، مثلا ، موازنات ومنافرات ، وضروبا من الحوار التمثيلى ،

يشعرنا بأن هذه الضرب من الأدب — أعنى الحوار التمثيلى — طاف فى أفئدة القوم إذ ذاك . وبدت بعض مقاماته مقالات وصفية طريفة فى موضوعات شتى ، كتبها جميعا بأسلوب بديعى سهل التركيب ، لا يثوده مافيه من السجع ، ولا يثقله ماوعاه من جناس أو تضمين أو اقتباس ، إلا بقدر يسير ، وتتخلله الفكاهة والأبيات الشعرية .

ومن مقاماته : مجموعة مطبوعة تحتوى على ست مقامات هى : المقامة الوردية والمسكية ، والتفاحية « فى وصف أنواع من الفاكهة » . والزمردية « فى وصف أنواع من الخضراوات » ، والفستقية « فى وصف بعض الثمار كاللوز والبندق والجوز » . والياقوتية « فى وصف أنواع من الأحجار الكريمة » .

وفى المقامة الوردية : افترض المؤلف أن الأزهار اجتمعت عساكرها ، واتفقت على عقد مجلس حافل ، لاختيار من هو بالملك أحق ، فصعد كل منها المنابر ، ليبدى حجة المناظر . . الخ . .

ثم تكلم الورد ، فالنرجس ، فالياسمين ، فالبان ، فالنسرين ، فالبنفسج ، فالنيلوفر فالآس ، ثم الريحان . وكل منها يرشح نفسه ويزكيها بضروب من البيان ، يذكر فيها أوصافه ومزاياه ، وينحى على غيره باللائمة ويذكر له مايشينه . وهكذا . . وفى النهاية أسلم الجميع للريحان ، وخضعوا لسلطانه .

ومن مقاماته : « رشف الزلال من السحر الحلال » وتسمى «مقامة النساء» . وفيها يتحدث عشرون عالما ، مختلفون فى فنونهم ، بينهم المقرىء والمفسر والمحدث والفقيه والأصولى .. الخ .. أما موضوع الحديث أو الحوار : فهو أن يحكى كل منهم ماجرى بينه وبين عرسه ، ليلة دخوله بها . . على شرط أن يورى بمصطلحات علمه وفنه . مع الحث على مخالطة النسوان ، ومجانبة الغلمان .. لاغرابة إذن أن تكون هـذه المقامة مليئة بالمجون والأدب المكشوف .

وللسيوطى بجوار هذا ، مقامة تسمى « المقامة السندية فى النسبة المصطفوية »

وموضوعها التدليل على نجاة والدى المصطفى عليه السلام ، من النار ، مع إيراد أقوال العلماء والفقهاء فى ذلك ، وتزييف من خالفها ، ودحضه .

وهى شبيهة برسالته « السبل الجلية فى الآباء العلية » فموضوعهما واحد . وقد ذكر السيوطى فى رسالته هذه ، أنها سادس مؤلف له فى هذا الموضوع . والواقع أنها تكرار لما سبقها ، ولكن فى ثوب قشيب ، ولفظ خصيب . فبينما ترى « السبل » رسالة علمية ، إذ ترى « المقامة السندية » قطعة أدبية . وسنورد فيما يلى شيئاً منها .

ويضيق مقام القول ، إذا ذهبنا نتكلم عن كل مقامة على حدة — وهى بذلك حرّية — فنجمل ذكر عدد منها ، لنرى إلى أى حد ، برّز السيوطى وأجاد ، فى فن المقامات . وكل منها يكاد عنوانها ينطق بما تحتويه .

فمن مقاماته : الزهرية . وهى محاورة ومناظرة بين الأزهـــار . والتفاحية . والجيزية فى وصف الجيزة . والأسيوطية فى وصف أسيوط . وبلبل الروضة فى وصف روضة مصر . وطرز الغمامة فى التفرقة بين المقام والمقامة . وطوق الحمامة . والفرج القريب . والمقامة اللؤلؤية . والمقامة اللازوردية . والمقامة المسكيه [1] .

ولا نترك هذا المجال ، دون أن ننوه بكتاب للسيوطى ، حافل بضروب الأدب وشتى الطرائف . وهو « الكنز المدفون . والفلك المشحون » .[1] وهو مطبوع فى

نحو ٣٥٨ صفحة ، ويحتوى على شتات من الأدب مجموع ، وبضائع منه محشودة فى صعيد ، ولا يعدو أن يكون مختارات . ولكنها مختارات بارعة مسلية ، فيها الحكم والأمثال والموازنات والقصص واللغويات والاستطرادات التاريخية ، والمقطوعات الشعرية ، وطرف السّير . فهو شبيه بكتاب « العقد الفريد » لابن

---

(١) راجع فهرس دار الكتب المصرية . « فهرس الآداب العربية » تر هذه المقامات ، وكثير منها مطبوع . وسنعود بعون الله إلى الحديث عنها بإسهاب فى الجزء الرابع من هذا الكتاب ، تحت عنوان « فن المقامات » .

١ ـ روى جميل العظم فى « عقود الجوهر » أن من مؤلفات السيوطى : « الفلك المشحون » فى خمسين مجلدا . فلعلها خمسون بابا ، أو خمسون مجلدة صغيرة ، أو لعله كتابه « الكنز المدفون » أو أن « الكنز » هو ملخص للفلك . أو كتاب غيره . والله أعلم .

عبد ربه ، غير أن كتاب « العقد » يمتاز عنه بحسن الترتيب والتبويب . وسنورد منه نموذجا .

وعلى نسق من كتاب « الكنز » ألف السيوطى كتاباً أصغر منه، هو كتابه « تحفة المجالس ونزهة المجالس » . هذا وغيره ، يثبت لنا رسوخ قدم السيوطى فى ميدان الأدب ومجال الكتابة والإنشاء .

وإليك نماذج وأمثلة من كتابته الأدبية :

١ — قال فى مطلع مقامته السندسية فى النسبة المصطفوية ، يمدح المصطفى عليه السلام :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليه المؤمنين رءوف رحيم . » — نبى سرى . قدره علىّ ، وبرهانه جلىّ ، خير الخليقة أما وأبا . وأزكاهم حسبا ونسبا ، خلق الله لأجله الكونين ، وأقرّ به من كل مؤمن العينين ، وجعله نبى الأنبياء ، وآدم منجدل فى طينته ، وكتب اسمه على العرش ، إعلاما بمرتبته عنده وفضيلته ، وتوسل به آدم ، فتاب عليه ، وأخبره أنه لولاه ماخلقه ، وناهيك بها مزية لديه .

نبى خص بالتقديم قدما وآدم بعدُ فى طين وماء
كريم بالحيا من راحتيه يجود وفى المحيا بالحيـــاء

ومن خصائصه ، فيما ذكره الزرقانى وغيره ، أن الله ملكه الجنة ، وأذن له أن يُقطع منها من يشاء ماشاء وأعظم ذلك منّ ، وخصه بطهارة النسب تعظيما لشانه . وحفظ آباءه من الدنس ، تتميما لبرهانه ، وجعل كل أصل من أصوله ، خير أهل زمانه . » . إلخ

٢ — ومن كتابه « الكنز المدفون » :

قال فى الحكم : « افرح بمالم تنطق به من الخطاب ، مثل فرحك بما نطقت به من الصواب ، أحزم الناس من وقى نفسه بماله ، ودينه بنفسه ، الإخوان فى الله ،

عز وجل ، ذخائر فى الشدائد ، ما أنصفك من منعك ماله ، وكلفك إجلاله . ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والتكبر عند الاستغناء » .

ومن حكاياته ، قال : « جاءت امرأة إلى قاض ، فقالت : مات زوجى ، وترك أبويه ، وولدا وأهلا وامرأة . فقال : لأبويه الثكل ، ولولده اليتم ، ولامرأته الأيم ، ولأهله القلة والذلة ، والمال يُحمل إلى ههنا لئلا تقع بينكم الخصومة . »

ومن لغوياته ، قال : « فائدة : الصيدلانى : هو العطار — النخاس : دلال الرقيق — الجهبذ : الجابى — ، القسطار : الصيرفى — الحداد : البواب — القرموصى الفاخرانى — الملاح : رئيس السفينة — القينة : المغنية — القصاب : الجزار — الفرسطون : القبان » .

٣ — وترجم لشيخه « الشُّمُنِّى » فى الجزء الأول من حسن المحاضرة ، فقال « قدوة عين الزمان وإنسانها ، وواحد عصره فى العلوم بحيث خضعت له رجالها وفرسانها ، وشجرة المعارف التى طاب أصلها ، فزكت فروعها وأغصانها ، ورياض الآداب التى فاضت ينابيعها ، وفاحت زهورها ، وتنوعت أفنانها ، إن أخذ فى التفسير ، كلّ عنده الكشاف واختفى ، أو الحديث ، كان عن ألفاظه الغريبة مزيل الخفا ، أو الفقه ، عُدّ للنعمان شقيقا ، أو النحو ، كان للخليل رفيقا . أو الكلام ، فلو رآه النظّام اختل نظامه ، ولو أدركه صاحب المواقف ، لقال : أنت فى كل موقف ، مقدمه وإمامه . » . الخ

كتابته العلمية :

للسيوطى أسلوب علمى ، دبج به مؤلفاته التى لا تحصى ، وقد نوهنا باوصافه فيما مر . ويغلب عليه روح التحدث والقص والسرد ، فى غير غموض أو إبهام ، ولا سيما فى حوادث التاريخ ، كما فى حسن المحاضرة ، غير مقيد بسجع أو بديع . وهو مع سرده الحديث واسترساله ، لم يسف ، ولم ينزل إلى العامية إلا لماما . — ويهتم السيوطى بالرواية ، وينقل عن كثيرين ، فينص عليهم ، وعلى مواضع نقله

من مؤلفاتهم . ويخشُن أسلوبه، عادة، إذا كان بصدد علم كالنحو . ولهذا، شتان بين أسلوبه فى حسن المحاضرة ، وأسلوبه فى المزهر ، مثلا .

السيوطى الشاعر :

ولم لايكون شاعرا؟ أليس أديباً مطلعاً ، ألم نشعر بما له من حساسية الشاعر؟ هو فى هذه الناحية شبيه بابن حجر العسقلانى ، وجهتهما حياتهما العلمية بعيدا عن الأدب الذى هو مزاج لنفسيهما ، فكانا يعاودانه الفينة بعد الفينة . وتتراءى على شعرهما المسحة العلمية . وإن كان ابن حجر أرق وأغزل من السيوطى .

ونظم السيوطى فى الإخوانيات والرثاء ، والمدح النبوى ، ووصف الأحداث العامة . غير أنه ذو باع طويل فى نظم العلوم والفنون . ونذكر له فى هذا الغرض الأخير ، القصائد الآتية :

١ — التبرى من معرة المعرى : أرجوزة فى أسماء الكلاب . ٢ — تحفة الظرفاء فى أخبار الخلفاء : ذكر فيها أسماء الخلفاء وسنوات وفاتهم . ٣ — الخلاصة : وهى نظم كتاب الروضة فى الفقه . ٤ — جواهر العقود : فى الفقه أيضاً . ٥ — الفريدة : ألفية فى النحو والصرف والخط . ٦ — قطف الثمر فى موافقات عمر : أرجوزة فى موافقات سيدنا عمر للتنزيل . ٧ — مختصر ملحة الإعراب للحريرى : فى مائة وعشرين بيتا . ٨ — موشحة فى النحو . ٩ — النهد : قصيدة رائية فى الفقه . ١٠ — التثبيت عند التبييت : وهو مخطوط ، عبارة عن أرجوزة مزدوجة فى سؤال الميت فى القبر وما يتصل بذلك .

هذا ، وله إلى جانب ذلك شعر كثير ، منه : ١ — نظم البديع فى مدح خير شفيع : وهى بديعية عارض بها بديعية ابن حجة الحموى فى مدح الرسول عليه السلام ، وقد وضع لها شرحا . ٢ — نور الحديقة : مجموعة من نثره وشعره ومنتخبات من ديوان شعره الكبير .

وإليك نماذج من شعره :

١ ـ روى ابن إياس فى البدائع ، ج ٤ عام ٩١٠ هـ ، أنه لما انتشر الوباء فى العام المذكور، وفتك بالناس ، قال : «قال شيخنا السيوطى » :

يارب بالهادى النبي المجتبى أغمد عن الإسلام أسياف الوبا
يارب لا نشكو أليم عذابه إلا إليك فقد أخافَ وأرعبا
كم حل فى دار فبدد شملَ من فيها فلا يجدون منه مهربا
يارب لطفا بالعباد فما لهم رب سواك يقيهمو المستصعبا
إنا اعترفنا بالذنوب فكلنا عاص مسىء للعذاب استوجبا
لكن إذا قرنت عظيم ذنوبنا بعظيم عفوك كان عفوك أغلبا
إن كان لا يرجوك إلا محسن فى العالمين فمن يجير المذنبا

٢ ـ وقال من قصيدة فى نحو خمسين بيتا ، يرثى شيخه الشمنى المتوفى فى ذى الحجة عام ٨٧٢ هـ :

رزء عظيم به تستنزل العبر وحادث جل فيه الخطب والغير
رزء مصاب جميع المسلمين به وقلبهم منه مكلوم ومنكسر
مافقد شيخ شيوخ المسلمين سوى انهدام ركن عظيم ليس ينعمر
رزيئة عظمت بالمسلمين وقد عمت وطمت فما للقلب مصطبر
تبكيه عين أولى الإسلام قاطبة ويضحك الفاجر المسرور والخمر
من قام بالدين فى دنياه مجتهدا وقام بالعلم لا بالواو يقتصر
كل العلوم تناغيه وتنشده لما قضى مهلا يأيها البشر
إذ كان فى كل علم آية ظهرت وما العيان كمن قد جاءه الخبر . الخ.

[حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٥]

٣ ـ وقال فى مطلع قصيدته : « التثبيت عند التبييت » وموضوعها :

الكلام عن سؤال الميت فى قبره ، وأنه حق ، وأن الإيمان به واجب . وتعتبر من شعر العلوم والفنون ، قال :

الحمد لله على الإسلام ... والشكر لله على الإنعام
وأفضل الصلاة والثناء ... على النبى خاتم النُّبآء
وآله أهل التقى وصحبه ... وجنده أهل النهى وحزبه
وهذه أرجوزة مفيدة ... ضمنتها فوائداً عديدة
فى فتنة المقبور حين يسأل ... وما أتى به النبى المرسل
اعلم هداك الله للرشاد ... موفقا لطرق السداد
أن الذى عليه أهل السنة ... لحجج أمضى من الأسنة
أن سؤال الملكين مَن قُبر ... حق به الإيمان فرض قد شهر
أتى به القرآن بالإشارة ... ووافقت آياته آثاره
تواترت به الأحاديث التى ... قد بلغت سبعين عند العدة
والآية السؤال فيها كامنُ ... يثبت الله الذين آمنوا .. الخ .

وفاة السيوطى :

كانت مدة حياته نحواً من اثنتين وستين سنة . وافته منيته بعد حياة حافلة مباركة ، فى ٩ جمادى الأولى عام ٩١١ هـ . وقد قال عنه ابن إياس ، فى حوادث اليوم المذكور ، بالجزء الرابع من بدائعه ، مانصه :

« كانت وفاة شيخنا الحافظ العلامة ، جلال الدين الأسيوطى ، . . . وكان عالما فاضلا بارعا فى الحديث الشريف وغير ذلك من العلوم ، وكان كثير الاطلاع نادرة فى عصره ، بقية السلف وعمدة الخلف . بلغت عدة مصنفاته نحوا من ستمائة تأليف ، وكان فى درجة المجتهدين فى العلم والعمل .

ولما مات ، دفن بجوار خانقة قوصون ، التى هى خارج باب القرافة ، قيل: لما غسل أخذ الغاسل قميصه وقبعه ، فاشترى بعض الناس قميصه من الغاسل ، بخمسة دنانير، للتبرك به ، وابتاع قبعه الذى كان على رأسه ، بثلاثة دنانير للتبرك به.

ولما مات ، رثاه شيخنا عبد الباسط[1] بن خليل الحنفى ، بهذه الأبيات ، وهى قوله :

مات جلال الدين غوث الورى ... مجتهد العصر إمام الوجود

وحافظ السنة مهدى الهدى ... ومرشد الضال[2] لنفع يعود

فيا عيون انهملى بعده ... ويا قلوب انفطرى بالوقود

وأظلمى دنياى إذ حق ذا ... بل حق ان ترعد فيك الرعود ، إلخ..

« ترجمته فى : (١) كتابه حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٥ (٢) بدائع ابن إياس ج ٢ ص ٢٩ ، ١١٩ ، ١٤٢ ، ١٦٩ ، ٢٣٦ ، ٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٣٠٧ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٩١ — ج ٤ حوادث شوال عام ٩٠٦ هـ ، وذى الحجة عام ٩١٠ هـ ، وجمادى الأولى عام ٩١١ هـ ، وص ٥، ٦، ٧٩، ٨٣ — ج ٣ ص ٦٢ (٣) الضوء اللامع للسخاوى ج ٤ رقم ٢٠٣

(٤) البدر السافر للعيدروسى . (٥) جورجى زيدان ج ٢ ص ٢٢٨ . (٦) عقود الجوهر لجميل العظم ج ١ ص ١٩٤ . (٧) ولتيمور باشا رسالة فى تحقيق قبر السيوطى ، منه بدار الكتب ، نسخة مطبوعة (تاريخ رقم ٣٢٥٣) » .

---

١ — الشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفى كان شاعراً ومؤرخا وفقيها ، وتوفى عام ٩٢٠ ، رواه ابن إياس فى البدائع ج ٣ ص ٦٣

٢ — هكذا فى الأصل .

١٢ - زين الدين زكريا الأنصارى [١] ٨٢٤هـ-٩٢٦هـ

هو خاتمة علماء العصر وأحد أفذاذ الدهر ، وذائد من ذادة الحق والبيان ، وقائد من قادة الدين واللسان . شيخ الإسلام الجليل ، والقاضى العف النزيه . الورع التقى ، العالم الفاضل ، الثبت المناضل ، ذو القول الفاصل . المبارك عمره ، الحافلة حياته . .

وهو زين الدين أبو يحيى ، زكريا بن محمد بن محمد الأنصارى ، السنيكى القاهرى الأزهرى الشافعى المذهب ، ورأس شافعية زمانه .

مولده ووفاته :

ولد زكريا الأنصارى فى قرية سنيكة من أعمال الشرقية فى عام ٨٢٤ هـ ، ومات فى يوم الأربعاء ثالث ذى الحجة عام ٩٢٦ هـ ، بعد حياة كريمة مليئة بالعمل الطيب الصالح ، قدرها نحو مائة وسنتان . فهو أحد المعمرين .

شىء من حياته :

أقام الأنصارى بقريته ردحا من الزمان ، حفظ فيه القرآن ، وعمدة الأحكام ، وبعض مختصر التبريزى فى الفقه . ثم يمم شطر القاهرة طلبا للعلم ، فى عام ٨٤١ هـ ، فسكن الأزهر . وأتم حفظ المختصر ، كما حفظ عدة كتب أخرى ، هى عدة الطالب وسند الراغب ، ومنها : المنهاج الفرعى ، وألفية النحو ، والشاطبيتان ، وبعض المنهاج الأصلى ، ونحو نصف ألفية الحديث . وبعض كتاب التسهيل ، ثم غاب عن القاهرة ببلده ، فترة من الزمن ، عاد بعدها إليها ، يرتشف رحيق العلم ، وينهل من مناهل الأدب ، ويتردد على مجالس العلماء ، . من الجلة الفضلاء ، بروح مشغوفة تواقة ، ونفس كلفة مشتاقة . فتلقى دروس الفقه على القاياتى وعلم الدين البلقينى وابن حجر العسقلانى ، وشرف الدين السبكى ، وشرف الدين المناوى وغيرهم . ودرس أصول

---

١ — كتبنا عنه كلمة فى باب القضاة بالجزء الأول من هذا الكتاب . — وقد ذكر ابن إياس أن مولده كان فى سنة ٨٢٤هـ وروى السخاوى أنه كان فى سنة ٨٢٦هـ .

الفقه على القاياتى أيضاً ، والكافيجى ، وعز الدين عبد السلام البغدادى ، وابن الهمام ، والشمنى وغيرهم . وقرأ على بعض هؤلاء ، دروسا فى النحو والبلاغة واللغة والتفسير . كما درس علم الهيئة والهندسة والميقات والفرائض والحساب والجبر والمقابلة وشيئا فى الطب والتصوف والقراءات والسيرة والتاريخ . وقد سمع الحديث النبوى ودرسه فى صحيح مسلم وسنن ابن ماجه والنسائى ، وغيرهما . وكان من أساتذته فى الحديث ، بعض من تقدم من الشيوخ ، وكذلك المعز بن الفرات ، والبرهان الصالحى ، وزين الدين رضوان ، وكان ملازما له .

وقد حج فى سنة ٨٥ هـ ، وسمع الحديث من بعض الشيوخ بمكة كالشرف أبى الفتح المراغى ، والتقى بن فهد ، وأبى اليمن النويرى وغيرهم .

وقد أجازه كثيرون من أساتذته كابن حجر ، بالإفتاء والإقراء . فاستمد من الله العون ، وتصدى للتدريس ، فتخرج به كثيرون من الأفاضل . وقصده الناس طلبا للفتوى ، فى حياة شيوخه .

وولى مناصب كثيرة جليلة منها مشيخة التصوف بجامع العلم بن الجيعان ، ومشيخة التصوف بمسجد الطواشى علم دار ، والتدريس بتربة الظاهر خشقدم ، وتدريس الفقه فى المدرسة السابقية ، كما تولى الدرس الذى قرره السلطان قايتباى بجوار مسجد الشافعى ، ووكل إليه نظر وقفه ، ونظر القرافة ، وفى آخر عمره تولى التدريس بمشيخة الجمالية .

وكان السلطان خشقدم من قبل ، قد عرض عليه منصب القضاء الأكبر ، فأبى . أما قايتباى ، فما زال به حتى قبله فى ٣ رجب عام ٨٨٦ هـ ، بعد تمنع وتأب وشروط ، قبل قايتباى بعضا منها . وقد مارس القضاء بنزاهة وكفاية ودراية وتقوى وحفاظ على العدالة . ورعاية للحق . وسعى إليه الجاه ، وامتد صيته فى الآفاق ، وأصبح شيخ الإسلام فى عصره غير منازع . وقد لبث فى دست القضاء مدة طويلة تبلغ زهاء عشرين عاما متوالية ، وهى ظاهرة فذة فى تاريخ القضاء ـ على

ما نعلم - فى هذا العصر، الذى قصرت فيه آجال القضاة فى مناصبهم، لتنافسهم فى سبيل بلوغه، واستباحة الوساطة، والرشوة إليه.

ولما ضعف الشيخ فى عام ٩٠٦ هـ، فصل نفسه من القضاء فى شهر صفر، ثم أعادته إليه الملابسات مضطرا، ثم اعتزله ثانية إلى غير عودة، فى يوم الخميس ثامن ذى الحجة من نفس العام.

وقد كف بصره بأخرة، وأطال الله عمره، وبارك له فى أجله، وعاصر جملة من سلاطين الدولة الجركسية، حتى شهد مصرع دولتهم على يد العثمانيين.

وقد كان الشيخ — رحمه الله — قرابة نصف قرن، العلم البارز فى البلاد والعالم المشار إليه، والمستهدى به فى مدلهمات الأمور.

وقد اشترك الشيخ اشتراكا ما، فى فتنة ابن الفارض عام ٨٧٥ هـ، التى انقسم فيها العلماء فريقين: ففريق يكفر ابن الفارض، لما فرط منه من ألفاظ توهم الحلول ونحوه، وفريق يؤول كلامه، ويعتذر له، ويدافع عنه ويثبت إيمانه، ومن هذا الفريق شيخ الإسلام الأنصارى. وكانت الفتنة قد استشرى خطرها وتطاير شررها بين العلماء، وتابعتهم العامة فى ذلك. حتى كتبت فتوى فى الموضوع ودفعت إلى الشيخ، فأفتى فيها بإيمان ابن الفارض، واعتذر له بعجز لغته عن بلوغ معانيه. فهدأت ريح الفتنة، وسكن ثائرها [1].

الأنصارى بين مدح السخاوى وقدحه:

ترجم السخاوى للشيخ زكريا الأنصارى، فى كتابه «الضوء»، وقد شاد ببعض صفاته ومميزاته، غير أنه لم يسلم من خفقات لسانه وضربات نقده، كما هو شأنه فى ترجمة كثير من أعلامه. ونعرض هنا شيئا من مدحه وقدحه فيه.

فمما مدحه به: أنه كان إماما فاضلا، درس الجم من العلوم. وأنه ألف فى أغلب

---

١ — فصلنا الحديث عن هذه الفتنة فى الجزء الأول من هذا الكتاب - القسم الثانى ص ٤١٣ - فراجعها. وراجع أيضا حادثة المثالى رقم ١٦ ص ٤٠٧ بالقسم الثانى كذلك. وفيها كان للشيخ الأنصارى موقف.

هذه العلوم مؤلفات ثمينة ، منها ما كان يدرس فى حياته ، وطار ذكره فى الآفاق ، ككتابه « شرح البهجة الوردية » . وأنه قرأ على طلابه كثيرا من مؤلفاته بنفسه . وأنه كان متواضعا حسن العشرة ، فى أدب جم ، وعفة تامة ، وانجماع عن بنى الدنيا ، وتقلل من ملاذ الحياة ، وسمو فى النفس ومزيد من العقل ، وسعة فى الإدراك ، وتجمّل للناس ، وتحمل ، ومداراة ومسايرة ، كفا للقيل والقال ، مع تودد وحب للخير ، ومع تهجد وإقبال على العبادة . وأنه خرّج الفضلاء ، وربط بينه وبين الناس بصلة ود ، ورابطة صداقة . ومن أخصهم السخاوى نفسه ، فقد كانا صديقين حميمين . .

ومما قدح فيه به : أنه مع توافد الطلاب عليه ، وأخذ الفضلاء عنه ، كان أقل علما من غيره ، وكان هؤلاء الفضلاء يعلمون حقيقة شأنه . . ولكن الحظ أغلب . . ويرمى السخاوى من وراء ذلك ، إلى أن الأنصارى كان محظوظا فحسب ، وأن ما رُزقه من الصيت ، لا يتكافأ مع منزلته فى العلم .

واتهمه السخاوى بأنه أخذ يشرح الحديث — فى غيبة السخاوى — بلفظه — أى بلفظ السخاوى . وقال بالنص : « كنت أتوهم أن كتابته أمتن من عبارته ، إلى أن اتضح لى أمره ، حين شرع فى غيبتى يشرح ألفية الحديث ، مستمدا من شرحى ، بحيث عجب الفضلاء من ذلك . وقلت لهم من ادعى ما لم يعلم ، كذب فيما علم » . والسخاوى بذلك يطعنه طعنة مصمية ، إذ يصمه بالسرقة من كتبه ، ونسبة كلامها إلى نفسه ، ويتطرق من ذلك إلى التشكيك فى بقية علمه . وأعتقد أن السخاوى غير مصيب فى هذا الادعاء . وقد يكون الأنصارى ، اعتمد على بعض شروحه ، وبخاصة وقت درسه إلى طلابه . وهذا أمر معتاد بين العلماء والمدرسين ، ولا يستحق أن يوصم المرء لذلك بالسرقة والكذب . وأن يُشكك فى علمه .

ومما اتهمه به ، أنه كان يعظم ابن الفارض وابن عربى . والسخاوى بذلك يُوهم أن الأنصارى يدين بما يدينان به هما وأمثالهما . وكان يرى فيهما حلوليين ، لا يستقيم مذهبهما ، مع مذهب السلف وأهل السنة . ولكنا إذا رجعنا إلى فتوى

الأنصارى الخاصة بابن الفارض ، عند اشتداد الفتنة بين علماء العصر بسببه، عام ٨٧٥ هـ — كما نوهنا — يرى رأى الأنصارى فى ابن الفارض واضحا جليا . وخلاصة هذا الرأى ، أن ابن الفارض لم ينحرف، ولم يقل بالاتحاد أو الحلول ـ فهو ينفيهما عنه ـ ويحمل عباراته على قصور اللغة عن أداء حالاته الشعورية، وعلى التجوز فيها . وقد قال الأنصارى فى مطلع هذه الفتوى : « يُحمل كلام هذا العارف — رحمة الله عليه ، ونفع ببركاته — على اصطلاح أهل طريقته ؛ بل هو ظاهر فيه عندهم . إذ اللفظ المصطلح عليه ، حقيقة فى معناه الاصطلاحى ، مجاز فى غيره كما هو مقرر فى محله . ولا ينظر إلى ما يوهمه تعبيره فى أبيات فى التائية من القول بالحلول والاتحاد ، فإنه ليس من ذلك فى شىء ، بقرينتى حاله ومقاله ؛ المنظوم فى تائيته بقوله من أبيات فى القصيدة :

ولى من أتم الرؤيتين إشارة تنزه عن رأى الحلول عقيدتى . . » . الخ

ويتضح من هذا أن الأنصارى ينفى اعتقاد الحلولية والاتحاد عن ابن الفارض . ولا يهمنا فى هذا المقام تمحيص الرأى بالنسبة لابن الفارض ، بل بالنسبة للأنصارى نفسه، فأدنى ما يشعر به، توضيحه أنه هو نفسه لا يدين بالحلول ولا الاتحاد. وإذن فلا غبار عليه . ثم لا غبار عليه إذا مال إلى ابن الفارض ودافع عنه على هذا الأساس.

ومما اتهمه به أيضاً : أنه لما ولى نظر بعض الأوقاف ، كانت ولايته نقمة على المستحقين المسلمين ، ولهذا صرفه السلطان عن نظر القرافتين . . وهو يرميه هنا بسوء تصرفه وجهالته وظلمه للمستحقين . وتأبى لباقة السخاوى ، إلا أن تقحم لفظ « المسلمين » هنا بجوار المستحقين ، ليكون لها أثرها الفعال فى عاقبة نقده . ويُعقب على سوء تصرف الأنصارى بقوله « ولكن حب الدنيا رأس كل خطيئة » وكأنى به يدعى عليه بسرقة المال وحرمان المستحقين منه . .

والغريب أن السخاوى الذى يقول هذا القول فى الأنصارى ، يقول إنهما صديقان حميمان ، وأنه ولى القضاء بنزاهة وكفاية . وأنه تعفف عنه زمنا طويلا . .

مؤلفاته :

كان الأنصارى لا ينى يمارس التأليف ، على الرغم من مشاغله الكثر، ولم يقتصر تأليفه على علم واحد ، بل امتد أفقه إلى علوم جمة ، فألف فى النحو والصرف والفقه والأصول والقراءات والبلاغة ، والفرائض ، وآداب البحث والمنطق ، والتفسير وشرح الحديث والفلسفة والأدب ، والعروض والقافية والتوحيد - غير أن الملحوظ بصفة عامة، أن أكثر مؤلفاته مختصرات أو شروح على كتب أخرى من مؤلفات من تقدمه ، أو من مختصراته هو نفسه . كما أن بعضها معقد العبارة يحتاج إلى توقيف . وقد ذكر السخاوى بعض مؤلفاته فمنها :

١ — فتح الوهاب بشرح الآداب ، قال السخاوى إنه فى آداب البحث .

٢ — غاية الوصول إلى علم الفصول : وهو شرح كتاب « الفصول » لابن الهائم فى الفرائض وقد مزج فيه الشرح بالمتن . ٣ — منهج الوصول إلى تخريج الفصول : وهو شرح آخر للفصول ، غير ممتزج بمتنه ، وهو أسهل الشرحين . ٤ — التحفة الأنسيه لغلق التحفة القدسية : وهو شرح كتاب « التحفه القدسية » لابن الهائم فى الفرائض كذلك . ٥ — نهاية الهداية فى تحرير الكفاية ، وهو شرح كتاب ابن الهائم المسمى « الكفاية » . ٦ — الغرر البهية فى شرح البهجة الوردية : وهو شرح لبهجة الحاوى . ٧ — تنقيح اللباب لولى الدين العراقى ، وهو فى الفقه والأصول . ٨ — مختصر الروضة لابن المقرى ، المسمى بالروض . ٩ — حاشية على شرح البهجة للولى العراقى . ١٠ — شرح شذور الذهب لابن هشام المصرى : فى النحو ١١ — شرح بعض الألفية : فى النحو . ١٢ — شرح مقدمة التجويد لابن الجزرى : فى القراءات . ١٣ — مختصر قرة العين ، فى الفتح والإمالة بين اللفظين ، لابن الناصح : فى القراءات . ١٤ — أحكام النون الساكنة والتنوين والمد والقصر . ١٥ — شرح إيساغوجى فى المنطق . ١٦ — شرح المنفرجة فى المنطق ، وهو مطول ، وله شرح آخر مختصر .

ومن كتبه بدار الكتب المصرية — وأكثرها مخطوط — ، ومن بينها بعض ماذكرناه :

١ — فى القراءات : تحفة نجباء العصر ، فى أحكام النون الساكنة والمد والقصر. الدقائق المحكمة فى شرح المقدمة « الجزرية». المقصد لتلخيص مافى المرشد .
٢ — فى التفسير: فتح الرحمن بكشف مايلتبس من آى القرآن . فتح الجليل ببيان خفى أنوار التنزيل : وهو تعليق على تفسير البيضاوى . مقدمة فى الكلام على البسملة والحمدلة وعلى الحمد والشكر والمدح لغة وعرفا . ٣ — فى مصطلح الحديث : فتح الباقى بشرح ألفية العراقى . ٤ — فى الحديث : شرح الأربعين النووية . فتح العلام بشرح الأعلام بأحاديث الأحكام . ٥ — فى علم الكلام : لوامع الأفكار فى شرح طوالع الأنوار . ٦ — فى المنطق : المطلع وهو شرح إيساغوجى لأثير الدين الأبهرى . شرح ضابطة إنتاج الأشكال الأربعة لسعد الدين التفتازانى . ٧ — فى التصوف والأخلاق : إحكام الدلالة على تحرير الرسالة ، وهو شرح على الرسالة القشيرية . رسالة فيما تداولته الصوفية من الأقوال . فتح الرحمن بشرح رسالة الولى رسلان . الفتوحات الإلهية فى نفع أرواح الذرات الإنسانية .
٨ — فى أصول الفقه : حاشية على التلويح للسعد التفتازانى ، طبع الهند . حاشية على شرح الجلال المحلى على جمع الجوامع . غاية الوصول إلى شرح لب الأصول . فتح الرحمن بشرح لقطة العجلان وبلة الظمآن، للشيخ محمد بن عبد الله الزركشى . لب الأصول : وهو مختصر من جمع الجوامع للسبكى . ٩ — فى فقه الشافعية : تحرير[1] تنقيح اللباب : « لباب الفقه لأبى الحسن المحاملى . والتنقيح لولى الدين العراقى . والتحرير للأنصارى وهو اختصار التنقيح » . فتح الوهاب بشرح تنقيح

---

(١) تحرير التنقيح غير فتح الوهاب المذكور بعده فالأول مختصر، التنقيح والثانى شرحه. — وللشيخ عبد الرءوف المناوى الحدادى شرح على تحرير التنقيح اسمه « احسان التقرير فى شرح التحرير » مخطوط رقم ١١٥٩ فقه بدار الكتب المصرية، وللأنصارى نفسه شرح على التنقيح ، وهو التحفة المذكورة بعده .

اللباب . عماد الرضا ببيان آداب القضا[1]. الغرر البهية فى شرح البهجة الوردية : فى ثلاثة مجلدات . ويبدو أنها شرحها الكبير . فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب . فتيا فى الرد على من قال بكفر ابن الفارض . منهج الطلاب : طبع ١٠ — فى الفرائض : غاية الوصول إلى علم الفصول ، وهو شرح على « الفصول المهمة فى علم ميراث الأمة » لابن الهائم . الفتحة الأنسية لغلق التحفة القدسية فى اختصار الرحبية : وهو شرح على كتاب « التحفة القدسية » لابن الهائم أيضا . منهج الوصول إلى تحرير الفصول : وهو شرح آخر على كتاب الفصول لابن الهائم . نهاية الهداية إلى تحرير الكفاية . « والكفاية لابن الهائم » كذلك . ١١ — فى التصوف أيضا: تلخيص الأزهية فى أحكام الأدعية « والأزهية لبدر الدين الزركشى » الفتوحات الإلهية فى نفع أرواح الذوات الإنسانية : وهو مختصر فى التصوف فيه عشرة فصول . اللؤلؤ النظيم فى روم التعلم والتعليم . ١٢ — فى اللغة وفنونها : الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة . المناهج الكافية فى شرح الشافية . بلوغ الأرب بشرح شذور الذهب لابن هشام . الدرة السنية على شرح الألفية . أقصى الأمانى فى علم البيان والبديع والمعانى . ملخص تلخيص المفتاح ، « التلخيص للجلال القزوينى » . فتح رب البرية بشرح القصيدة الخزرجية .

هذا وقد شرح الشيخ الأنصارى كتابه « أقصى الأمانى » بكتاب آخر اسمه: « فتح منزل المثانى » وقد طبع، ومنه نسخة بدار الكتب بالمنصورة .

التعريف ببعض هذه المؤلفات :

١ — منهج الطلاب :

كتاب مطبوع متوسط الحجم ، اختصر فيه مختصر المؤلف الإمام أبى زكريا النووى ،

---

(١) للشيخ عبد الرءوف المناوى الحدادى شرح على هذا الكتاب اسمه « فتح الرءوف القادر » مخطوط رقم ٢٢٤ فقه بدار الكتب المصرية .

المسمى: « منهاج الطالبين » فى فقه الشافعية وأصوله . وضم إليه ما تيسر له من المعلومات ، مع تغيير بعض ألفاظه بأوضح منها .

وقد اجتمع فى هذا الكتاب كثير من أبواب الفقه . وعبارته مثقلة مثودة بمصطلحات الفقه وضرورات الاختصار ، وحذف مايعود عليه الضمير ، أحيانا ، كما هو الشأن المرعى فى أساليب الفقهاء ، مما لا يزال له أثره حتى اليوم . وإليك بعضاً من عباراته ، مما قاله فى باب الوضوء :

« فروضه نية رفع حدث لغير دائمة ، أو وضوء ، أو استباحة مفتقر إليه . مقرونة بأول غسل الوجه وله تفريقها على أعضائه » .

وقال : « وغسل وجه ، وهو مابين منابت شعر رأسه وتحت منتهى لحييه ، ومابين أذنيه فمنه محل غمم لا تجذيف ونزعتان . ويجب غسل شعره لا باطن كثيف خارج عنه ، ولحية عارض . وبعضها . وتميز من رجل . وغسل يديه بكل مرفق » . وهكذا . وبهذه النسخة غلطات مطبعية كثيرة .

٢ — فتح الرحمن :

اطلعت على نسخة من هذا الكتاب مطبوعة عام ١٣٢٨ هـ ، ١٣٢٩ هـ فى نحو ٧٧ صفحة .

وهذا الكتاب شرح للشيخ الأنصارى على متن « لقطة العجلان وبلة الظمآن » فى فن الأصول للإمام محمد بن عبدالله الزركشى . ولا يعدو الشرح أن يكون تفسيراً للفظ أو توضيحا لمعنى أو إعرابا لجملة أو تعليقا يسيراً يزيد المعنى بيانا أو استدراكا على مافات العبارة . ويتخلل ذلك بحوث نفسية وكلامية وبلاغية ، ومنطقية استلزمها السياق .

ومن فصوله : « فصل فى مدارك العلوم » تكلم فيه عن الحواس ومدركاتها ، وأفضلية كل منها وسببها . ومنها : « فصل فى مدارك الحق » تكلم فيه عن الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وماقيل فى كل منها باعتبارها مصادر التشريع . ومنها

فصل فى « التعريف » تكلم فيه عن أقسام التعريف وأنواع كل قسم . وبيّن التام والناقص ، وفرق بين الجنس والفصل . وهكذا مما يعرفه المناطقة .

ويتخلل الكتاب فصول أخرى ممتعة على هذا النسق بأسلوب واضح مشوب بألفاظ اصطلاحية .

ولهذه النسخة شرح مكتوب على هامشها . أى شرح للشرح . وهو حاشية قررها أحدهم ويسمى الشيخ يس . وقد استغرقت جانبا كبيراً من الكتاب .

٣ — فتح منزل المثانى بشرح أقصى الأمانى :

كتاب فى نحو ١٢٣ صفحة من الحجم المتوسط . طبع عام ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤م بمطبعة الجمالية بمصر .

وموضوعه علوم البلاغة . وهو شرح لمختصر . والمختصر للشيخ زكريا الأنصارى أيضاً ، أخذه عن كتاب « تلخيص المفتاح » للعلامة جلال الدين القزوينى . والمفتاح للسكاكى كما هو معلوم . فالكتاب إذن شرح لمختصر التلخيص . — وقد كتب المتن — وهو مختصر الشيخ زكريا — جُملا بين قوسين ، ومن بعدهما شرحه . وهكذا .

والمتن هنا غير المتن الذى سنذكره بعدُ للشيخ زكريا أيضاً ، والمسمى « ملخص تلخيص المفتاح » .

وقد بسط الشارح مسائل البلاغة فى شرحه بعض البسط ، مستبدلا بكلام القزوينى ، ما تدفع الحاجة إليه ، حاذفا منه ضروبا كثيرة من ضروب الخلاف والأمثلة .

وقد رتبه على مقدمة وثلاثة فنون : المقدمة فى معنى الفصاحة والبلاغة والفن الأول فى : المعانى . ومن مطالبه : أحوال الإسناد الخبرى ، والمسند إليه ، والمسند ، ومتعلقات الفعل ، والقصر ، والإنشاء ، والوصل ، والوصل والإيجاز والإطناب

والمساواة . — والفن الثانى فى : البيان . ومن مطالبه : التشبيه ومقاصد الحقيقة والمجاز والكناية . — والفن الثالث فى : البديع .

ولم يخرج ، أو لم يكد يخرج ، المؤلف ، فى متنه عن عبارة السكاكى فى « المفتاح » . ولم يخرج أو لم يكد يخرج فى شرحه عن عبارة سعد الدين التفتازانى فى شرح المفتاح المشهور . وقد نصّ المؤلف بنفسه على هذا ، حيث قال فى المقدمة عن نفسه « سالكا فيه غالبا عبارة السعد التفتازانى ، لكونها منقحة محررة كثيرة المعانى » . وعبارة الشارح فى الشرح والمتن معاً ، سهلة قريبة التحصيل لمن له صلة ما بعلوم البلاغة ، بخلاف عبارته الفقهية . غير أنه أبى فى عبارة المقدمة إلا أن يكون سجّاعا ومتكلفا على نمط مؤلفى عصره . وقد قال مبينا غرضه من تأليفه : « كنت اختصرت تلخيص المفتاح فى علم المعانى والبيان والبديع ، تأليف العلامة جلال الدين القزوينى — رحمه الله — فى كتاب سميته « بأقصى الأمانى فى علم البيان والبديع والمعانى » . وقد سألنى بعض الأعزة علىّ من الفضلاء المترددين إلىّ أن أشرحه شرحا يحل ألفاظه ، ويفك شظاظه ، ويبين مراده ، ويتم مفاده . فأجبته إلى ذلك ، بعون القادر والمالك » .

٤ — ملخص تلخيص المفتاح :

كتاب صغير الحجم فى نحو ٢٣ صفحة طبع طبعته الأولى عام ١٣٢٣ هـ . وهو فى علوم البلاغة ، مختصر عن تلخيص مفتاح السكاكى . والتلخيص للقزوينى ، فهو شبيه بكتابه « فتح منزل المثانى » ، ولا يكاد مؤلفه يخرج عن عباراته إلا شكلا ، لا موضوعا . . فهو مقسم كذلك إلى مقدمة وثلاثة فنون كسابقه تماماً . وأهم الفروق بينهما أن « فتح منزل المثانى » أكثر بسطا ، ومزود بالأمثلة والشواهد الضرورية . أما ، ملخص التلخيص ، فأقل بسطا ، وهو خال من الشواهد والأمثلة ، رصت فيه القواعد العلمية رصا ، جافة عارية عما يُعينها من النماذج .

٥ — المطلع :

كتاب متوسط الحجم طبع طبعته الأولى بمطبعة الجمالية بمصر عام ١٣٢٩ هـ ويقع فى نحو ٢٥ صفحة . شرح به متن إيساغوجى فى المنطق. ألفه الشيخ الأنصارى، وقال فى مقدمته : « هذا شرح لطيف لكتاب العلامة أثير الدين الأبهرى — رحمه الله — المسمى بإيساغوجى فى علم المنطق . يحل ألفاظه ويبين مراده ويفتح مغلقه ويقيد مطلقه ، على وجه لطيف ومنهج منيف ، وسميته « المطلع » .

هذا ، وكتاب إيساغوجى فى علم المنطق ، كتاب صغير فى وريقات ، ألفه أثير الدين الأبهرى متنا فى هذا العلم . وهو معروف متداول فى الدوائر التعليمية الأزهرية وله شروح كثيرة . منها شرح الشيخ زكريا « المطلع » المذكور . وقد تضمن المتن عدة أبواب منها : الدلالة الوضعية للفظ . والفرق بين اللفظ المفرد والمؤلف . والكلى والجزئى . والذاتى والعرضى . ثم تكلم عن القول الشارح ، وشرح معنى الحد والرسم التام والناقص . ثم تكلم عن القضايا وأنواعها وأركانها ، ثم التناقض والعكس . ثم القياس . وأنواع كل منها ، ثم تحدث عن البرهان وأنواعه . كل هذا فى لفظ موجز جداً .

وقد شرح الشيخ زكريا هذا المتن فى لفظ أطول قليلا من لفظه . ولا بأس به : فهو أكثر إفهاما من المتن ، وأسهل تعبيراً وأيسر بيانا . وبه بعض الاستطرادات والأمثلة النافعة .

٦ — الأضواء البهجة فى إبراز دقائق المنفرجة :

كتاب مخطوط يقع فى نحو ٢٤ ورقة ، وهو فى الأدب لأنه شرح للقصيدة المنفرجة المشهورة ، ومطلعها :

اشتدى أزمة تنفرجى قد آذن ليلك بالبلج

قال الشيخ زكريا فى مقدمة شرحها ما يُفهم منه وجود خلاف فيمن نظمها ، فقال : « قال أبو العباس أحمد بن أبى زيد البجائى أحد شراحها : إنها من نظم

الربانى أبى الفضل يوسف التوزرى الأصل، المعروف بابن النحوى . — وقال العلامة تاج الدين السبكى فى طبقاته : إنها من نظم أبى عبد الله محمد بن أحمد بن إبرهيم الأندلسى القرشى . »

والقصيدة فى العقائد والتصوف والتوكل ، لا فى الأدب بمعناه المعروف . وقد سماها تاج الدين السبكى : « الفرج بعد الشدة » .

وقد شرحها الشيخ زكريا فى هذا الكتاب المخطوط شرحاً ممتعاً نافعاً بلفظ سهل وعبارة لطيفة ، فقرّب تناولها وسهل فهمها فى غير إبهام ولا معاظلة .

٧ — شرح البسملة والحمدلة :

رسالة صغيرة مطبوعة فى نحو ١٤ صفحة من القطع الصغير ، طبعت عام ١٣٠٨ هـ بالمطبعة البهية . فسّر فيها الشارح البسملة والحمدلة شرحا لطيفا خفيف الوقع يسير المئونة . وتعرض بصفة خاصة لاشتقاق ألفاظهما والفوارق بينها ، والفوارق بينها وبين ما يرادفها من الألفاظ الأخرى . وتعرض لإعرابها وما قيل فيه .

وتكلم عن رسم « بسم الله » وهكذا . وهى رسالة نافعة طريفة .

٨ — فتح الرحمن بشرح رسالة الولى رسلان :

هى رسالة صغيرة للشيخ زكريا ، تقع فى نحو ١٥ صفحة ، تصفحت نسخة منها مطبوعة عام ١٣١٧ هـ بمطبعة جريدة الإسلام ، ومجلدة فى مجلد واحد مع كتاب للشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وهو كتاب « حل الرموز ومفاتيح الكنوز » ، بدار كتب المنصورة رقم ١٨٤ « تصوف » .

وهذه الرسالة شرح لمتن فى علم التوحيد وفى التصوف للإمام رسلان الدمشقى ، والمتن موجز يعتور عبارته الغموض والإلغاز والروح الصوفية . والشرح جلّى ذلك بعض التجلية وأماط عنه اللثام بعض الإماطة .

وقد جرى على وضع ألفاظ المتن مجزأة بين قوسين وإتباع كل جزء بشرحه . ومثال ذلك قوله : « واعلم » أن علم التوحيد مطلوب . « قال » الله تعالى فاعلم أنه لا إله إلا الله . وهو مستلزم لانتفاء الشرك . والشرك نوعان: ظاهر جلي، وقد ذكره مع أقسامه ، الغزالي وغيره . وباطن خفي ، وهو ما استولت عليه النفوس من الأكوان ، فحجبت بها عن تلقي المدد من عالم الغيب ، فصار ذلك شركا خفيا لبعده عن حضرة القدس بشواهد الحس، وقد ذكره المؤلف بقوله « كذلك » أيها العبد ذاتا وصفاتا وفعلا « شرك خفي » منشأ الوهم والخيال فإنهما يثبتان الغير كالمراتب والمقامات الزائلة ، فإذا أفنيت عنك الغير بأن العلم الإلهي توحيدك النافي للشرك بنوعيه المستلزم لنفي الوهم والخيال « وما يبين لك » أي يظهر لك « توحيدك إلا إذا خرجت » أي فنيت أنت « عنك » وعن سائر الأغيار بأن تراها كلها من الله . والله خلقكم وما تعملون . ونسبة أعمالك إليك نسبة كسبية، وإلى الله تعالى خلقية . فالله تعالى خالق ، وأنت كاسب ، لتثاب أو تعاقب . « فكلما أخلصت » بالخروج عن ذلك « يكشف لك أنه » تعالى « هو » الفاعل الموجود « لا أنت » .

وفاة الأنصاري :

قال ابن إياس في بدائعه — ج ٣ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ما نصه :

« وفي يوم الأربعاء ثالث شهر ذي الحجة ، توفي الإمام العالم العامل ، شيخ الإسلام والمسلمين ، مفتي الأنام في العالمين ، بقية السلف وعمدة الخلف ، عالم الوجود على الإطلاق ، ومن ذكره قد شاع في الآفاق . فهو آخر علماء الشافعية ، بالديار المصرية . وانتهت إليه رياسة الشافعية . فهو شيخ الإسلام زين الدين زكريا ابن محمد بن محمد الأنصاري السنيكي الشافعي رحمة الله عليه . كان مولده في سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، ومات وله من العمر مائة سنة وسنتان بعدهما . وكان رئيسا حشما في سعة من المال . وولي قضاء الشافعية في دولة الأشرف قايتباي ، وأقام بها نحو عشرين سنة . ومات وهو معزول من القضاء . وقد كف بصره قبل وفاته بمدة طويلة . وحضر مبايعة خمسة من السلاطين وهم : الناصر محمد بن قايتباي

وخاله الظاهر قانصوه ، والأشرف جان بلاط ، والعادل طومان باى ، والأشرف الغورى .

وولى تدريس قبة الإمام الشافعى رحمة الله عليه . وولى فى أواخر عمره مشيخة مدرسة الجمالية . وكان بيده عدة تداريس . وألف الكتب الجليلة فى العلوم المفيدة . وأفتى ودرس بالقاهرة نحو ثمانين سنة . وانتفع منه غالب الناس ، وخلف ولدا ذكرا من جارية سوداء .

فلما بلغ ملك الأمراء [1] وفاته ، أرسل إليه ثوبا بعلبكيا وخمسين دينارا ، على يد الأمير جانم الحمزاوى . وحضر غسله وتكفينه والصلاة عليه . وأخرجت جنازته من عند المدرسة السابقية ، ومشى فى جنازته قضاة القضاة ، وأعيان الناس وصلوا عليه فى سبيل المؤمنين . ونزل ملك الأمراء ، وصلى عليه ، وحمل نعشه من سبيل المؤمنين ، أول ما طلعوا . وكانت جنازته حافلة . فلما صلوا عليه ، توجهوا به إلى مقام الإمام الشافعى ، رحمة الله عليه ودفن عند الشيخ محمد الخشبانى ، تجاه قبر الإمام الشافعى ، رضى الله عنه . فكان أحق بقول القائل حيث قال :

لقد عظمت رزيتنا فنبه لها عمرا ونم جنح الليالى
فلازالت ذوو الأقدار تلقى من الأيام أنواع النكال ، .. الخ

ترجمته فى بدائع ابن اياس ج ٢ ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٦٦ ، ٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٤٤ ، ٢٩١ ، ٣٢١ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٧ — ج ٤ حوادث ذى الحجة عام ٩٠٦ هـ ، شوال عام ٩١٩ هـ — ج ٣ ص ٢١٢ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ — الضوء اللامع للسخاوى ج ٣ رقم ٨٩٢ .

والله سبحانه وتعالى أعلم



---

١ — ملك الأمراء هو الأمير خاير بيك . الذى ضلع مع العثمانيين ، فعينوه ملكا على الأمراء بمصر — كأنه سلطان — يحكمها واليا بالنيابة عن ملك العثمانيين .

الحمد لله

تم المجلد الثالث

وهو القسم الأول من الجزء الثانى من كتاب

« عصر سلاطين المماليك »

ونتاجه العلمى والأدبى

وقد تم طبعه فى شعبان سنة ١٣٦٨ هـ - يونيو سنة ١٩٤٩ م

ويليه المجلد الرابع

وهو القسم الثانى من الجزء الثانى

وأوله

الباب الخامس : تراجم موجزة

كشاف

باعلام المجلد الثالث

وهو القسم الأول من الجزء الثانى

(ا)

آق سنقر السلارى : ٥٧

آق سنقر « شاد العمائر » : ٣٣٣

آق سنقر « شمس الدين الفارقانى السلحدار » : ٤٦

آل ملك الجوكندار « الأمير سيف الدين » : ٥٠ ، ٧٠

ابجيج « المهندس » : ٢١

ابراهيم بن عمر « برهان الدين » : ٣٣

ابراهيم بن فلاح الاسكندرانى : ٧٨

ابراهيم بن مفلح الحنبلى « برهان الدين » : ١٠٥

ابراهيم بن وصيفشاه المصرى : ١٠٨

ابراهيم بن هبة الله « نور الدين الاسنائى » : ١٣٣

ابراهيم المرادى « أبو اسحق » : ١٩٩

ابراهيم « المقر الصارمى » : ٢٤

ابراهيم النابلسى : ١١٨

ابن الآلوسى « السيد نعمان خير الدين » : ٢٦٠

ابن أبى أصيبعة « موفق الدين » : ١٠٢

ابن أبى حجلة المغربى : ١٨

ابن أبى حليقة « مهذب الدين » : ٥١

ابن أبى الفتح : ٢٠٠

ابن أبى الفضائل : ١١٣ ، ١١٧

ابن الأثير الجزرى : ٢٥٣

ابن الأستاذ « كمال الدين » : ١٨

ابن الأنبارى : ٢٧٤

ابن الأنصارى : ٢٧٩

ابن إياس الحنفى المؤرخ : ١٠ ، ٢٤ ، ٨٠ ، ٩٤ ، ١١٠ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ٢١١ ، ٢٥٣ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨

ابن أيبك الجاشكنير . « عز الدين الملك » : ٤٠ ، ٧٤

ابن البركات الحموى : ١١٥

ابن البقرى « شمس الدين شاكر ابن غزيل » : ٥٠

ابن بنت الأعز « تاج الدين » : انظر عبد الوهاب

ابن بنت الأعز « تقى الدين » : ٢٣ ، ٧١

ابن تغرى بردى « أبو المحاسن يوسف » : ٨٠ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٧٢ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ،

٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٤
ابن التركمانى « . فخر الدين المارديني »:
فى عثمان
ابن تيمية الحرانى « تقى الدين »: فى أحمد
ابن جماعة « بدر الدين »: ٣٤، ٦١،
٧١، ١٤٤، ٢٢٩، ٢٤٤
ابن جماعة « برهان الدين »: ٧١
ابن جماعة « عز الدين »: ٣٤، ٧٨،
١٠٦، ١٤٤، ١٦٠، ٣٣٧
ابن الجميزى: ٢١٠
ابن جنى: ٣٧٢، ٣٧٤
ابن الجوزى « محيى الدين »: ١٧، ٣٧٨
ابن الحاج « أبو عبد الله محمد بن محمد »:
١٦٨
ابن الحاجب: ٣٧٣
ابن حبيب الحلبى « بدر الدين »: ٩٩
١٠٦، ١١٣، ١١٩
ابن حجر العسقلانى: فى أحمد
ابن حجر الهيثمى: ٣٤
ابن حجة الحموى « تقى الدين »: ٨٣،
١٥٦، ١٥٨، ١٧٧، ٢٤٤، ٣٣٦،
٣٤٧، ٣٥٢، ٣٥٣، ٢٧٠، ٣٨٠
ابن حزم: ٣٠٥
ابن الحصرى: ٢٣٣
ابن حنبل: ١٠٢، ١٨٠، ٢٢٣،
٢٣٥، ٢٦٣
ابن حوقل: ٢٥٦
ابن خالويه: ٣٧٤
ابن خرداذبة: ٢٥٦
ابن خطيب الناصرية: ٢٥٤
ابن خلدون « عبد الرحمن »: ٧،
١٣، ١٨، ٧٤، ٨٦، ٩٣، ١١٦،
١٥٣، ١٦٣، ١٦٧، ٢٥٣، ٢٩٠،
إلى ٣١٩، ٣٢٩، ٣٤١، ٣٤٢،
ابن خلكان « شمس الدين »: ١٨،
٨٠، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٢٥٣،
٢٥٧،
ابن داود « الخطيب الجوهرى »: ١١٠
ابن درباس « صدر الدين »: ٣٥
ابن دقاق « صارم الدين »: ٢٩،
٣١، ٣٢، ٣٤، ٤٨، ٧٤، ٨٠،
٩٩، ١٠٩، ١١١، ١٢١، ٣٧٠
ابن دقيق العيد القشيرى « تقى
الدين »: ٢٣، ٧١، ٧٣، ٧٦، ٧٧،
٧٨، ١٢٨، ١٣١، ١٣٢، ١٤٣،
١٤٩، ١٧٦، ١٨٥، ١٨٦، ٢٠٩
إلى ٢١٩، ٢٣٤، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٨
ابن الدهان الطبيب « صلاح الدين »: ٧٩
ابن الربيع الجيزى: ٣٧٠
ابن رجب: « أبو الفرج عبد الرحمن »:
٢٦٠، ٢٦٢
ابن رزين « تقى الدين »: فى محمد
ابن الرفعة « نجم الدين »: فى أحمد
ابن رواح: ٢١٠

ابن زولاق : ٣٧٠
ابن سبعين : ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
ابن السبكى « تاج الدين » : ١٠ ، ٢٩ ، ٧١ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٧١ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، إلى ٢٠٢ ، ٢١٠ إلى ٢١٤ ، ٢٣٣ ، ٢٧٩ ، إلى ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٣٧٠ ، ٤٠١
ابن السبكى « تقى الدين » : ٢٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٩ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٦٢ ، ٢٧٧ إلى ٢٨٩
ابن السقطى « جمال الدين » : ٧٤ ،
ابن سيد الناس « فتح الدين أبو عمر اليعمرى » : ٧١ ، ٧٨ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٤٤ ، ٢١٠
ابن شاس « تقى الدين » : ٣٨
ابن الشاطر المؤقت : ١٦٤
ابن شاكر الكتبى : ٨ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ٩٧
ابن الشحنة « زين الدين » : ١١٥
ابن الشيرازى : ٢٦٢
ابن صغير الطبيب « علاء الدين » : ٧٩ ، ١٦٠ ، ١٦١
ابن الصلاح : ٣٦١
ابن طولون : ٣٣
ابن عبد الحكم : ٣٧٠
ابن عبد الدايم : ٢١٠
ابن عبدربه : ٣٨٢
ابن عبد السلام « عز الدين عبد العزيز » : ٢٢ ، ٢٣ ، ٧٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٧٦ إلى ١٩٥ ، ٢١٠ ، ٢٧٨ ، ٤٠١
ابن عبد الظاهر « محيى الدين » : ١٧٢ ، ٣٨٠
ابن عبد القوى : ٢٢٣
ابن عدلان : ٢٧٩
ابن العديم « جمال الدين » : ٦٢
ابن العديم « كمال الدين » : ١٨ ، ١١١
ابن عربشاه « شهاب الدين » : فى أحمد
ابن عربى : ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٣٩٢
ابن عرفة المالكى : ٣٠٠
ابن عطاء الله الاسكندرانى : فى أحمد
ابن العطار : ٥٧ ، ٢٠٠
ابن عقيل العقيلى : ٧٨
ابن العماد « شهاب الدين الاقفهسى » : ١٣٤
ابن العماد « وجيه الدين » : ٧٨ ، ١٨٣ ، ١١٢
ابن عمرو الكندى : ٣٧٠

ابن فارس : ٣٧٣ ، ٣٧٤
ابن الفارض : ٣٥٧
ابن فرحون : ٣٧٠
ابن فضل الله العمرى «شهاب الدين»: ٨٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٧١ ، ٢٣٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٣٢٧ ، ٣٧٠ ، ٣٨٠
ابن قاضى شهبة الأسدى «تقى الدين»: ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ٢٠٣
ابن قطلوبغا «أبو الفضل : ٩٨
ابن القفطى : ١٠٥
ابن القيم «شمس الدين» : فى محمد
ابن كثير : انظر اسماعيل
ابن مالك الأندلسى «جمال الدين»: ١٨ ، ١٩٩
ابن المتوج : ٨٠
ابن مخلوف : فى على
ابن مسكويه : ٢٥٣
ابن المطهر الرافضى : ٢٨٨
ابن المغربى الطبيب : ٧٩ ، ١٦١ ، ٢٥١
ابن المقير : ٢١٠
ابن مكين المالكى «شمس الدين»: ٧٣
ابن الملقن «سراج الدين» : فى عمر
ابن منظور الإفريقى : ١٨ ، ٧٨ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٥٨ ، ١٧٠
ابن المنير الإسكندرانى «ناصر الدين» : ٧٧ ، ١٤٠
ابن ميسر : ٣٧٠
ابن ناهض الفقاعى «محمد» : ١٢٠
ابن النديم : ٣٠٥
ابن النفيس الطبيب «علاء الدين» : ٧٩
ابن هشام المصرى «جمال الدين»: ٧٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤
ابن الهمام : انظر كمال الدين
ابن وثيق : ٧٨
ابن الوكيل «صدر الدين» : فى محمد
ابو إسحق الحفصى : ٢٩٣
أبو اسحق الشيرازى : ١٣١ ، ٢٠٢ ، ٢٨٥
أبو البركات البلقينى : ٢٩٢
أبو البركات المتطبب : ٧٤
أبو البقاء بن الجيعان : ١١٩ ، ١٦٧
أبو البقاء السبكى : ٣١٧
أبو بكر بن أيبك : ١١٤
أبو بكر بن أيوب «الملك العادل»: ٣٨
أبو بكر بن عبد الدايم : ٢٦٢
أبو الثناء محمود الأصفهانى : ١٦١
أبو جعفر المنصور : ٦
أبو حامد القدسى : ١٢٤
أبو الحسن الدهان : ٧٨
أبو الحسن الشاذلى : ١٢٠ ، ١٩٤
أبو الحسين الجزار «الشاعر»: ٤٠ ، ٤١

أبو حمو « سلطان تلمسان »: ٢٩٥
أبو حيان «ابن السراج»: ٧٩
أبو داود: ٢٠٧
أبو سالم المزينى: ٢٩٤
أبو السعادات بن أبى الجود السلمونى: ١١٦
أبو السعود الجارحى: ١٤٨
أبو سعيد البراذعى: ٢٩٢
أبو سعيد: ٨
أبو العباس الحفصى ٢٩٦، ٢٩٧
أبو العباس الشاطر الدمنهورى: ١٤٧
أبو العباس المبرد: ٣٠٥
أبو العباس المرسى: ١٢٠، ١٨٥، ١٩٤
أبو عبد الله الوادياشى: ٢٩٢
أبو العلاء السلامى: ٧٩
أبو عمرو بن الحاجب: ١٧٩، ٣٣٧
أبو عنان المرينى. ٢٩٣، ٢٩٤
أبو الفتح بن صدقة السرمينى: ١١٥
أبو القاسم الرافعى: ٢٨٦، ٢٨٧
أبو القاسم القزوينى: ١٣١
أبو محمد القاسم بن عساكر: ١٧٧
أبو محمد المقدسى الجماعيلى: ١٠٠
أبو هريرة: ٢٤٠
أبو يزيد البسطامى: ١٨٩
أبو اليمن العليمى: ١٠٢، ١١٢
أبو اليمن النويرى: ٣٩٠
الأبيوردى: ٧٨
أثير الدين أبو حيان الأندلسى: ٧٨، ١٤١، ١٥٣، ٢٣٣، ٢٧٨
أثير الدين الأبهرى: ٢٥٠، ٤٠٠
أحمد بن أحمد الهكارى « شهاب الدين »: ١٠٣
أحمد بن أقوش العزيزى « الأمير شهاب الدين »: ٥١
أحمد بن أينبك الحسامى الدمياطى: ٧٨
أحمد بن حمدان «نجم الدين الحرانى»: ١٣٧
أحمد بن عبد الحليم « تقى الدين بن تيمية »: ١٨، ١٩، ٢٢، ٧٨، ٨٩، ٩١، ١٠٧، ١٢٩، ١٤١، ١٤٥، ١٤٩، ١٦٥، ٢١١، ٢١٣، ٢٢٠، إلى ٢٤٢، ٢٥٩، ٢٦٠ إلى ٢٦٣، ٢٧٠، ٢٧٩، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٨
أحمد بن عبد ربه: ٣٠٥
أحمد بن عبد الرحمن « جلال الدين الدشناوى »: ١٣٢
أحمد بن عبد القادر بن مكتوم «تاج الدين »: ١٠٤
أحمد بن على بن حجر «شهاب الدين العسقلانى »: ٢٤، ٣٠، ٧١، ٧٣، ٧٤، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨٩، ٩١، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠٤، ١١٠

١١٩، ١٢٠، ١٣٤، ١٤٤، ١٤٥،
١٨٥، ١٧١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٨٩،
٢٩٧، ٣٠٠، ٣٣٠، ٣٣٤، ٣٣٥
إلى ٣٥٥، ٣٧٠، ٣٨٥، ٣٨٩،
٣٩٠
أحمد بن على بن محمد السبكى « بهاء
الدين » : ٥٥، ٦٢، ٧١، ١٣٤،
٢٨٩
أحمد بن على بن منصور الدمشقى : ١٣٦
أحمد بن على المقرى الفيومى : ١٥٧
أحمد بن على « أبو عيسى المنجم » : ٤٥٣
أحمد بن على بن عنبة : ١٠٢
أحمد بن عيسى بن رضوان « الكمال
القليوبى » : ١٣٣
أحمد بن عيسى « عماد الدين
الركراكى » : ٧١
أحمد بن لؤلؤ « شهاب الدين بن
النقيب » : ١٢٩، ١٣٤، ٢٨٠، ٢٨٢
أحمد بن محمد عطاء الله الاسكندرانى :
١٢٠، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٩، ٢٧٨
أحمد بن محمد الدردير : ١٨٨
أحمد بن محمد « زين الدين بن حنا » : ٧٢
أحمد بن محمد « شهاب الدين بن عربشاه :
٨، ٧٢، ١٥٨
أحمد بن محمد « محيى الدين بن حنا » ٧٢
أحمد بن يوسف بن عبد الدايم « شهاب
الدين الحلبى السمين » : ٧٨، ١٤٢،
١٥١
أحمد الاسكندرى : ٣٠٠، ٣٠١،
٣٠٤، ٣١١
أحمد تيمور باشا : ٣٨٨
أحمد زادة العجمى : ٧٣
أحمد زكى باشا ، ١٧٢
أحمد السيد البدوى : ١١٩
أحمد الشمنى « تقى الدين » : ١٣٦، ٣٨٤،
٣٨٦، ٣٩٠
أحمد القرافى « شهاب الدين » : ١٣٧
أحمد « كمال الدين الدشائى » : ١٣٣
أحمد المصرى : ١٩٩
احمد « الملك الأفضل قطب الدين » : ٤٥
أحمد « نجم الدين بن الرفعة » : ٤٠،
٧٤، ٧٥، ٧٧، ١٣١، ١٦٦،
٢٢٩، ٢٧٨
الأدريسى « الشريف » : ٢٥٦
الادفوى « كمال الدين » : فى جعفر
أرخان بك : ٨
أرغون « الأمير » : ٢٤، ٤٢، ٤٣،
٢٨٠
أرنبغا الزردكاش : ١٦٥
استدمر « نائب حماة » : ٢٤٥، ٢٤٧
إسحق المعرى : ١٩٩
أسد الدين « الشيخ » : ١٦٣
الإسعردى : ٧٨

الإسفرائينى : ٣٧٣
الإسكندر المقدونى : ٢٤٢، ٢٥٤،
إسماعيل بن الأحمر : ٢٩٤
إسماعيل بن كثير ، أبو الفداء ، : ١٠١،
١١٤، ١٢٩، ١٤٢، ١٨٦، ١٩٤،
٢٦٢، ٣٧٠
إسماعيل بن مكتوم : ٢٦٢
إسماعيل بن هبة الله الموصلى ٢٥٦
إسماعيل ، خديو مصر ، : ٩١
إسماعيل الذهبى : ١٠٠
إسماعيل ، الصالح بن الناصر ، ٤٢،
٤٣
إسماعيل ، الصالح عماد الدين ، : ٢١
إسماعيل ، المؤيد صاحب حماة ، : ١١٤،
١٢٤، ١٣٥، ١٥٥، ١٦١، ١٦٨،
٢٤٣ إلى ٢٥٨
إسماعيل ، الملك الاشرف بن
الأفضل ، : ٣٤٦، ٣٤٩
اسماعيل ، الملك الصالح أبو جبيش ،
١٧٨، ١٧٩
اسنبغا ، سيف الدين ، : ٥٠
الإسنوى ، جمال الدين ، : فى
عبد الرحيم
الأشرف برسباى : فى برسباى
الأشرف خليل : فى خليل
الأشرف شعبان : فى شعبان
الأشرف طومان باى : فى طومان
الأشرف قانصوه الغورى : فى
قانصوه
الأشرف قايتباى : فى قايتباى
الأصبهانى ، عماد الدين ، : ٧٩
الأفضل ، ملك حماة ، : ٢٤٦، ٢٥١
أقباى السيفى : ١١٨
أقبجا ، الأمير ، : ٢١
اقبغا الخاصكى : ١٢٤
أقوش ، الأمير جمال الدين ، : ٣٩
أكمل الدين البابرتى : فى محمد
إمام الدين الشافعى . ٢٢٧ ،
أمير كاتب ، قوام الدين الإتقانى ،
٥٦، ٧٣، ١٣٦
أمين الدين الأبهرى : ٢٥٠
أمين الدين المحلى ، ٧٨، ١٥٥، ١٥٨
أمين سامى باشا : ٣٢
أنوك بن الناصر محمد : ٦٥
أوحد الدين الرومى : ٧٣
الأوحدى ، شهاب الدين ، : ٨٠ ،
٣٢٧
أولوغ بك : ٨
أيتمش ، الأمير سيف الدين ، : ٢٤،
٥٢
أيدمر الخطيرى ، عز الدين ، : ٥٧،
٦٨
الإيناسى : ٣٣٧
إينال اليوسفى ، الأمير سيف الدين ،
٥٣

أيوب ، الملك الصالح نجم الدين ، :
٣٩ ، ٦٥ ، ٧٦ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،
١٨٤

« ب »

باكير « زين الدين الكختاوى » : ٧٩
بايزيد بن مراد « سلطان بنى عثمان » :
١٦١
البخارى : ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٣٤٣
بختنصر : ٢٥٤
بدر الدين بن جماعة : فى ابن
بدر الدين بن حبيب الحلبى : فى ابن
بدر الدين البشتكى : ٣٢٧ ، ٣٥٤
بدر الدين بكتوت « الرماح
الخازندارى » : ١٦٥
بدر الدين الخروبى : ٤٦
بدر الدين الدمشقى : ٧٨ ، ١٤٦ ،
١٥٥ ، ١٥٨
بدر الدين الدمشقى « محمد بن الشهيد » :
١١٨
بدر الدين زاده الخرزيانى « محمود
ابن محمد » . ٧٣
بدر الدين الزركشى : فى محمد
بدر الدين السبكى « محمد بن محمد
ابن عبد البر » : ٧١
بدر الدين العينتابى « محمود بن أحمد » :
٧٤
بدر الدين الغزى : ٢٠٣
بدر الدين الكلستانى : ٦٢
بدر الدين محمود العينى : فى محمود
بدر الدين المرادى « ابن أم قاسم »
١٥٤
بديع الزمان الهمذانى : ٣٨٠
البرزالى « علم الدين » : ٩٦ ، ٩٩ ، ١١١
برسباى « الملك الأشرف » : ٣٨ ،
١٠٩ ، ١٦٣ ، ٣٣٥
برقوق « الملك الظاهر » : ٢٣ ، ٢٤ ،
٣٦ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١١٨ ،
١٥٩ ، ١٦٠ ١٦١ ، ١٦٦ ، ٢٩٧ ،
٣١٨
بركات بن ابراهيم الخشوعى : ١٧٧
بركة أم شعبان : ٥٢
برهان الدين الآمدى : ٣١٧
برهان الدين بن جماعة : فى ابن
برهان الدين البقاعى : ٩٨ ، ١٠٦
برهان الدين الحنبلى « ابراهيم بن
مفلح » : فى ابراهيم
برهان الدين الزرعى : ٢٦١
برهان الدين السنجارى : فى الخضر
برهان الدين الفزارى : ١١٢ ، ١٦٧
برهان الدين القيراطى : ٢٨٠ ،
٣١٥ ، ٣٥٢
برهان الدين النشائى : ٣١٧
برهان الدين الواسطى : ١٣٥ ، ١٤٥
بشير الجمدار الناصرى « الأمير

سعد الدين » : ٣٦ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٦٩
بطرس بن الراهب « أبو شكر » : ١١٣
بطليموس ، ٢٥٧ : ٣٠٤
بكتمر الحجازى : ٤٧
البكرى النيسابورى « أبو على الحسن » : ١٨
بهاء الدين بن أبى منصور : ٧٥
بهاء الدين بن عقيل « عبد الله بن عبد الرحمن » ، ٧١ ، ١٥٥
بهاء الدين الباعونى « محمد بن يوسف » ١٦٧
بهاء الدين السبكى « أبو البقاء محمد بن عبد البر » : ٧١ ، ١٧٥
بهاء الدين السبكى « أبو حامد » : فى أحمد
بهاء الدين على بن حنا : فى على
بهاء الدين القفطى « هبة الله بن عبد الله » : ١٤٠
بهرام بن عبد الله : ١٣٧
البواب : ٦٩
بيبرس الدوادار : ٨٠ ، ١٠٩ ، ١١٤
بيبرس الفارقانى « الأمير ركن الدين » : ٤٦
بيبرس « الملك الظاهر » : ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١١٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ٢٩٧ ، ٣١٨
بيبرس « الملك المظفر » : ٣٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٨٣ ، ١٦٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠
بيدرو (ملك قشتالة) : ٢٩٤

(ت)

تاج الدين بن بنت الأعز : فى عبد الوهاب
تاج الدين بن الخروبى : ٤٦ ، ٦٥
تاج الدين بن السبكى : فى ابن
تاج الدين بن عطاء الله الإسكندرى : فى أحمد
تاج الدين بن مكتوم : فى أحمد
تاج الدين الفاكهانى : ١٤٨ ، ١٤٩
تاج الدين محمد المراكشى : ٨٩
تتر بنت الناصر محمد : ٦٦
تحتمس : ٢٤٣
الترمذى : ٢٠٧
تغرى برمش الفقيه : ٣٣٨
تقى الدين بن بنت الأعز : فى ابن
تقى الدين بن تيميه : فى أحمد
تقى الدين بن حجة الحموى : فى ابن
تقى الدين بن دقيق العيد : فى ابن
تقى الدين بن رزين : فى محمد
تقى الدين بن السبكى : فى ابن

تقى الدين بن شاس : ٣٨
تقى الدين بن الصائغ : ٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢/١
تقى الدين بن قاضى شهبة الأسدى : فى ابن
تقى الدين بن فهد : ٢٥٤ ، ٣٩٠
تقى الدين سليمان : ٢٦٢
تقى الدين الشبلى : ٣٥٦
تقى الدين شبيب بن حمدان الطبيب : ٧٩
تقى الدين الشمنى : فى أحمد
تقى الدين الفارسى : ٢٧٠
تقى الدين الكرمانى : ٣٧٠
تقى الدين المقريزى ، انظر المقريزى
تيمور لنك : ٨ ، ٢٩٨

(ث)

الثعالبى : ٣٧٣

(ج)

جاد المولى بك : ٣٧١
جانم الحمزاوى : ٤٠٣
الجاى سيف الدين « الأمير » : ٥٢
الجاى اليوسفى « الأمير » : ٣٤ ، ٦٩ ، ٣٥١
الجرائدى : ٧٨
جرجيس المسكين بن العميد : ١١٣ ، ١١٧
جعفر بن ثعلب « كمال الدين الإدفوى » : ٨٠ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٣٥
جعفر بن يحيى « ظهير الدين الزمنتى » : ١٣٢
جعفر البرمكى : ٣٠٤
چقمق العلائى « الملك الظاهر » ٨٣ ، ١١٨ ، ١٦٣ ، ١٦٦
جلال الدين البكرى : ٣٥٧
جلال الدين البلقينى « عبدالرحمن » : ٧٣ ، ٢٧٧
جلال الدين الحنفى : ٢٢٧
جلال الدين الدشناوى ، فى أحمد
جلال الدين السيوطى ، ١٠ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١٠١ ، إلى ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ، إلى ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ٢٠٣ ، ٣٢٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٧ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ إلى ٣٨٨
جلال الدين القزوينى « محمد بن عبد الرحمن » : ١٥٦ ، ٢٧٩ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩
جلال الدين المحلى : ١٥٤ ، ١٦٩ ، ١٨٨
جمال الدين بن أبى المنصور : ٧٤

جمال الدين بن التركماني ، عبد الله بن علي بن عثمان ، : ٧١ ، ٧٢
جمال الدين بن الحاجب : ١٨٦
جمال الدين بن السقطي : ٧٤
جمال الدين بن العجمي : ٦٢
جمال الدين بن العديم : في ابن
جمال الدين بن مالك الأندلسي : ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ٢٢١
جمال الدين بن الملقن ، أبو عبد الله محمد البلخي ، : ١٤١
جمال الدين بن نباتة المصري : في محمد
جمال الدين بن هشام المصري : في ابن
جمال الدين بن واصل : ١١٠
جمال الدين الأستادار ، الأمير محمود ، : ٣٢
جمال الدين الأسنوي : ١٥٥ ، ٣١٧
جمال الدين أقوش : في أقوش
جمال الدين البشبيشي : ٣٠٠
جمال الدين الخضيري : ١٨١
جمال الدين الزرعي : ٤ ، ٧٤ ، ٢٨٠
جمال الدين الزيلعي : ٧٨ ، ١٤٤
جمال الدين الغزاوي ، ٣٩
جمال الدين المالكي ، عبد الله بن المقداد ، : ٧٤
جمال الدين محمد الشيال ، الأستاذ ، ١٦٨ ، ٣٢٩
جمال الدين المزي ، أبو الحجاج ، : ١٠٠
جمال الدين الوطواط ، محمد بن ابراهيم ، : ١٢٥ ، ١٦٩
جمال الدين يوسف بن الخشاب ، : ٤٠ ، ٤١
جمال الدين يوسف بن عبد الهادي : ١٠٣ ، ١٣٩
جميل العظم : ٢٣٦ ، ٢٨٩ ، ٢٣٩ ، ٣٥٤ ، ٣٦٥ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨
جنكيز خان : ٨
جورجي زيدان : ١٨ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٢٣٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٢٨٠ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٥٤ ، ٣٦٥ ، ٣٨٨
جوهر الصقلي : ٣٤ ، ٣٥
الجوهري : ١٥٨

(ح)

حاجي بن شعبان ، الملك الصالح ، ٥٣ ، ٥٩
الحاكم بأمر الله الفاطمي : ٣٧
حرمي بن قاسم ، مجد الدين الفانوسي ، : ٧١
الحريري : ٣٨
حسام الدين بن مهنا : ٢٢٩
حسام الدين طرنطاي ، نائب السلطنة ، : ٤٨

حسام الدين لاجين، «الملك المنصور»: في لاجين
حسن بن عبد الله العباس، ٨٣، ١٦٦
الحسن بن عمر: ٢٩٤
الحسن بن محمد بن خلدون: ٢٩١
حسن بن محمد بن قلاوون، «الملك الناصر»، ٣٦، ٥٤، ٦٥، ٦٧، ٧٩، ٨٢
حسين بن محمد الحسيني: ٨٢، ١٦٨
حميد الدين حماد: ٧٢
حنبل بن عبد الله الرصافي: ١٧٧

(خ)

خالد الأزهري: ١٥٥
خاير بيك، «ملك الأمراء»: ٤٠٣
خرستوف كولمب: ١٢٣
خشقدم، «الملك الظاهر»: ٨٣، ١١٦، ١١٨، ١٦٦، ٣٩٠
الخضر السنجاري، «برهان الدين»: ٤٠، ٧١، ٧٣، ٧٤
خلدون بن عثمان الخطاب: ٢٩١
خليل بن إسحق الجندي: ١٣٧
خليل ابن أيبك الصفدي، «صلاح الدين»: ٨٠، ٩٤ إلى ٩٧، ١٠٣، ١٥٨، ١٧٢، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٣٤٤، ٣٨٠
خليل بن شاهين الظاهري: ١٦٦
خليل بن قلاوون، «الملك الأشرف»: ٣٣، ٤٥، ١١٨، ٢٤٦
خوارزمشاه «محمد بن تكش»: ٨
خوند تتر الحجازية: ٤٧

(د)

الدشطوطي: ١٤٨

(ر)

الراشدي: ٧٨
الرافعي: ٢٠٢
رسلان الدمشقي: ٤٠١
رشيد الدين العطار: ٧٨
رشيد الدين النابلسي: ١٨
رشيد رضا «محمد»: ٢٦١، ٢٦٦
الرشيد «هرون»: ٨، ٣٠٤
الرضى بن البرهان: ١٩٩
رضى الدين الشاطي: ٧٨
ركن الدين التونسي «ابن القوبع»: ٢١١
ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري: في بيبرس
ركن الدين «الظاهر بيبرس»: في بيبرس

ركن الدين « المظفر بيبرس » . فى بيبرس
رينود « المستشرق » : ٢٥٥

(ز)

زكريا الأنصارى « زيد الدين » : ١٣٤ ، ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٩٠ ، ٣٣٨ ، ٣٥٨ ، ٣٨٩ إلى ٤٠٣
الزكى الخروبى : ٣٣٥
الزمخشرى : ٣٧٣
زين بن على : ٢٨٨
زين الدين بن تيمية : ٢٢٩
زين الدين بن حنا : فى أحمد
زين الدين بن الشحنة : فى ابن
زين الدين بن عبد الدايم : ١٩٩
زين الدين بن المنجا : ٢٢٣
زين الدين الأنصارى : فى زكريا
زين الدين البغدادى « عبد الرحمن بن رجب » : ١٠٥
زين الدين البوشى « أبو الحسن على » : ٧٥
زين الدين التفهنى : ٦٢
زين الدين الدمشقى : ٣٥٤
زين الدين رضوان : ٣٩٠
زين الدين الرومى « الأمير مقبل الطواشى » : ٥٠
زين الدين العراقى ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ٣١٨ ، ٣٣٧ ، ٣٥١ : ٣٥٢
زين الدين الكختاوى : فى باكير
زين الدين المالكى « على بن مخلوف » : فى على
زين الدين المنذرى : ٢١٠
زين الدين النحوى « أبو بكر » : ٧٢
زين الدين بن الوردى : فى عمر

(س)

سابق الدين مثقال : ٥٠ ، ٦٨
ست الركب : ٣٥٢
سحنون : ٧٨
السخاوى « شمس الدين » : ٨ ، ٢٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٩ ، ١٥٩ ، ٣٠٠ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، إلى ٣٩٤
السبكى « تاج الدين » : فى ابن
سراج الدين الآمدى : ١٧٧
سراج الدين بن الملقن : فى عمر ابن على

سراج الدين بن موسى بن دقيق العيد : ١٣٢
سراج الدين بن الوردى : ١٢٤ ، ١٦٨
سراج الدين الأرمنتى « يونس بن عبد المجيد » : ١٣٣
سراج الدين الأرموى : ١٦٤
سراج الدين البلقينى : ٧١ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٤٤ ، ٣١٨ ، ٣٣٧ ، ٣٥١
سراج الدين الحمصى : ٧١
سراج الدين المارديني : ١٦٥
سراج الدين الهندى الغزنوى « عمر ابن إسحق » : ١٣٦
سراج الدين الوراق : ٤٠ ، ٤١
سعد بن أبى وقاص : ٢٤٠
سعد الدين بشير الجمدار « الأمير » : فى بشير
سعد الدين التفتازانى : ٣٩٩
سعد الدين الحارثى : ٢٧٨
سعد الدين العراقى « مسعود بن أحمد » : ١٨ ، ١٤٤
سعيد السعداء « قنبر » : ٦٠
السعيد « الملك ناصر الدين محمد بركة خان » : ٣٩ ، ٦٥
السفطى : ٧١
سفيان الثورى : ٢٨٢
السكاكى « أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر » : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩
سلار « الأمير سيف الدين نائب السلطنة » : ٣٣ ، ٣٦
سلوقلس : ٢٤٣
سليم الأول « ملك بنى عثمان » : ١٦٢
سليم سركيس : ٣٢١ ، ٣٦٥
السمعانى : ٢٥٦
سنجر الجاولى « علم الدين » ٥١
سنجر الزينى العادلى « الأمير علم الدين » : ٣٤
سنجر الشجاعى « علم الدين » ٤٢
سنطباى « الشيخ » : ١٤٨
سودون الشيخونى « نائب السلطنة » : ٦١
سيبويه : ١٥٣ ، ٢٢٣ ، ٢٣٣
سيف الدين آل ملك الجوكندار : فى آل ملك
سيف الدين أسنبغا : فى أسنبغا
سيف الدين إيتمش : فى إيتمش
سيف الدين إينال اليوسفى : فى إينال
سيف الدين الجاى : فى الجاى
سيف الدين الحنفى : ٣٥٦
سيف الدين سلار : فى سلار
سيف الدين السيرامى ٥ ٦٢
سيف الدين شيخو العمرى : ٦٢

سيف الدين صرغتمش الناصرى : ٣٤ ، ٥٦
سيف الدين المارديني : ٨٣
سيف الدين منكوتمر الحسامى : فى منكوتمر
السيوطى : انظر جلال الدين :

« ش »

شاكر بن غزيل « شمس الدين بن البقرى » : فى ابن
شرف الدين بن تيمية : ٢٢٢ ، ٢٢٩
شرف الدين بن الجيعان : فى يحيى
شرف الدين البغدادى : ٢٧٨
شرف الدين البوصيرى : ٤٢ ، ٣٤٦
شرف الدين التيفاشى : ١٢٥
شرف الدين الحرانى « عبد الغنى » : ٧٢
شرف الدين الدمياطى : ٧١ ، ٧٨ ، ٢٧٨
شرف الدين السبكى : ٣٨٩
شرف الدين « قاضى الكرك » : ٧٤
شرف الدين المناوى : فى يحيى
شعبان « الملك الأشرف » : ٥٣ ، ٥٩ ، ١٦٥ ، ١٦٨
شمس الدين آق سنقر : فى آق
شمس الدين أبو البركات « محمد بن هبة الله » : ٦٦
شمس الدين بن حنا « محمد بن أحمد » : ٧٢
شمس الدين بن حنا « محمد بن على » : فى محمد
شمس الدين بن خلكان : فى ابن
شمس الدين بن الصائغ الحنفى « محمد ابن عبد الرحمن » : ٥٦ ، ١٥٤ ، ٣١٧
شمس الدين بن الطولونى : ١٥٩ ، ١٦٠
شمس الدين بن عدلان : ٢٢٨ ، ٢٢٩
شمس الدين بن الفخر الحنبلى : ٢٠٠
شمس الدين بن قدامة : ٢٢٣
شمس الدين بن القماح : ٧١
شمس الدين بن القيم : فى محمد
شمس الدين بن اللبان : ٧١
شمس الدين بن مفلح : ١٣٨
شمس الدين بن مكين المالكى : فى ابن
شمس الدين بن ناهض الفقاعى : ٨٣
شمس الدين بن النقيب : ٢٨٠
شمس الدين الأرموى : ٤٥
شمس الدين الأسوانى « عمر بن عبد العزيز » : ١٩٤

شمس الدين الأسيوطى : ٧٨
شمس الدين الأصبهانى « محمد بن محمود » : ١٦٨
شمس الدين البرماوى « محمد بن عبد الدايم » : ٧٣ ، ١٣٥ ، ١٤٩
شمس الدين البساطى « محمد » : ٧٣
شمس الدين الجزرى : ٤٠ ، ٧٤ ، ١٠٥ ، ١٥١
شمس الدين الدمشقى : ٧١ ، ١٢٤ ، ١٦٧
شمس الدين الديرى : ٢٤ ، ٧٣ ، ٧٤
شمس الدين الذهبى : ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١٢٩ ، ١٥٧ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٨١ ، ٣٤٤ ، ٣٧٠
شمس الدين الركراكى : ٧٤
شمس الدين السخاوى : انظر السخاوى
شمس الدين الشجاعى : ١١٨
شمس الدين الشطنوفى : ٧٨
شمس الدين الغمارى : ٧٨
شمس الدين قراسنقر المنصورى : فى قراسنقر
شمس الدين محمد بن يحيى : ٧٤
شمس الدين المصرى « محمد بن عبدالله الطبيب : ٣٤ ، ٧٩ ، ١٦٠
شمس الدين النابلسى « محمد بن عبد القادر » : ٢٦٣
شمس الدين الهوارى : ١٥٥
الشمنى ، تقى الدين : فى أحمد
شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى : فى ابن
شهاب الدين بن تيمية : ٢٢١ ، ٢٢٢
شهاب الدين بن جعوان « أحمد » : ٢٠٠
شهاب الدين بن طيبوغا : ١٦٤
شهاب الدين بن عربشاه : فى أحمد
شهاب الدين بن العطار : ٣١٥
شهاب الدين بن فضل الله العمرى : فى ابن
شهاب الدين بن محمد العسقلانى : فى أحمد
شهاب الدين بن النقيب : فى أحمد
شهاب الدين أبو شامة « عبدالرحمن » : ١١٠
شهاب الدين أحمد بن أقوش : فى أحمد
شهاب الدين الأذرعى : ٣١٨
شهاب الدين الأشرفى : ٨٣
شهاب الدين الأقفهسى « ابن العماد » : فى ابن

شهاب الدين الأوحدى : انظر الأوحدى
شهاب الدين الحجازى الأنصارى : ١٦٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨
شهاب الدين الخوبى : ١٤٦
شهاب الدين السمين « أحمد الحلبى » : فى أحمد
شهاب الدين الشارمساحى : ٣٥٦
شهاب الدين الطولونى « أحمد » : ١٥٩
شهاب الدين القدسى : ١٢٥
شهاب الدين القسطلانى : انظر القسطلانى
شهاب الدين القلقشندى : ٨٠ ، ١٢٢
شهاب الدين محمود الحلبى : ٢١١
شهاب الدين المنصورى « الشاعر » : ٣٣٦ ، ٣٣٨
شهاب الدين نوغان المحمدى : ١٦٦
شهاب الدين النويرى : انظر النويرى
شهاب الدين الهكارى : فى أحمد
الشهرستانى : ٣٠٥
شيخ المحمودى « الملك المؤيد » : ٢٤ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٨٣ ، ١١٩ ، ١٢ ، ٣٢٦ ، ٣٥١
شيدلة « عزيزى بن عبد الله ، أبو المعالى » : ٣٧٨

« ص »

صارم الدين بن دقماق : فى ابن
الصالح اسماعيل « الملك » : فى اسماعيل
صالح البلقينى « علم الدين » : ١٤٠ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠
الصالح حاجى بن شعبان « الملك » : فى حاجى
الصالح نجم الدين الأيوبى « الملك » فى أيوب
صدر الدين بن درباس : فى ابن
صدر الدين بن المرحل « محمد ابن الوكيل » : فى محمد
صدر الدين الجعفرى « سليمان » : ١٩٩
صدر الدين الجوينى : فى محمد
صرغتمش الناصرى « الأمير سيف الدين » : ٣٤ ، ٥٦ ، ٦٦
صفى الدين التركمانى « ادريس بن بيدكن » : ١٦٥
صفى الدين الحلى « عبد العزيز بن سرايا » ٢٥٠ ، ٢٥١
صفى الدين الهندى : ٧٩ ، ٢٢٨ ، ٢٦٢
صلاح الدين بن الأعمى : ٧٣
صلاح الدين بن المغربى « يوسف » : ٥٨
صلاح الدين الأيوبى : فى يوسف
صلاح الدين الصفدى : فى خليل

« ض »
ضياء الدين أبو عبد الله المخزومى الأندلسى : ١٥٧
ضياء الدين القومى : ٧٩
ضياء الدين المناوى، محمد بن ابراهيم، : ٧١، ١٣٣
ضياء الدين النشائى ، عبد الله بن أحمد بن منصور » : ٧١

« ط »
طه حسين بك ، الدكتور » ٣٠٠، ٣١٦
طرنطاى المنصورى : نائب السلطنة : انظر حسام الدين
طغاى ، الأمير » : ٢٥
طغتكين : ٢٤٤
طومان باى ، الملك الأشرف » : ١٤٨
طوماى باى ، الملك العادل » : ٣٥٩
طيبرس الخازندارى ، الأمير علاء الدين » : ٣٠، ٤٧، ٤٨

« ظ »
الظاهر برقوق ، الملك » : فى برقوق
الظاهر بيبرس ، الملك » : فى بيبرس
الظاهر چقمق العلائى ، الملك » فى چقمق
الظاهر خشقدم ، الملك » : فى خشقدم
ظهير الدين التزمنتى : فى جعفر

« ع »
العادل أبو بكر بن أيوب ، الملك » : انظر أبو بكر
العادل كتبغا المنصورى : انظر كتبغا
العباس بن محمد ، الخليفة المستعين » : ٢٥٠، ٣٤٦
العباسة : ٣٠٤
عبد الرءوف المناوى الحدادى : ٣٩٥، ٣٩٦
عبد الباسط بن خليل الحنفى : ٣٨٨
عبد الرحمن بن رجب ، زين الدين البغدادى » : ١٠٥
عبد الرحمن بن الكمال بن العديم ، محب الدين » : ٧١
عبد الرحمن بن محمد العليمى : ١١٦
عبد الرحمن الأربلى : ١٩٩
عبد الرحمن البسطامى : ١٠٤، ١١٦، ١٤٩
عبد الرحيم بن الحسن بن على ، جمال الدين الإسنوى » : ٩٦، ٩٨، ١٠٤، ١٣٣، ١٥٥، ٣١٧، ٣٧٠
عبد الرحيم بن على البيسانى، القاضى الفاضل، : ٣٨
عبد الصمد بن محمد الحرستانى : ١٧٧
عبد الصمد بن يحيى الصالحى : ١٦٧
عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدرديني : ١٤٢

عبد العزيز الأنصارى «شيخ شيوخ حماة» : ١٦٦ ، ٢٤٤
عبد العزيز الخليلى الدارى «محيي الدين أبو محمد» : ٥٢
عبد العزيز «المتوكل على الله أبو العز الخليفة» : ٨٢ ، ٣٥٧
عبد العزيز المرينى : ٢٩٥
عبد العظيم المنذرى : ١٠ ، ٧٨ ، ١٨٥
عبد الغافر الفارسى : ٣٧٠
عبد الغنى بن عبد الرزاق «الأمير فخر الدين» : ٥٨
عبد الغنى الجماعيلى : ٢١٢
عبد الغنى الحرانى «شرف الدين» : ٧٢
عبد القادر بن محمد بن أبى الوفاء القرشى : ١٠٣ ، ١٤٥
عبد القادر الجيلانى : ١١٩
عبد القاهر الجرجانى : ١٥٥
عبد الكريم بن عبد النور «قطب الدين الحلبى» : ٧٨ ، ١١٠ ، ١٤٤
عبد الله بن محمد الإسكندرانى : ٧٨
عبد الله بن محمد بن عبد الله التركى الغزى : ١١٨
عبد الله بن المقداد «جمال الدين المالكى» : ٧٤
عبد الله الغمارى المالكى : ٢٧٨
عبد الله اليافعى «أبو محمد» : ١١٦
عبد اللطيف بن اسماعيل البغدادى : ١٧٧
عبد اللطيف بن عز الدين بن عبد السلام : ١٩٥
عبد الواحد بن شرف الدين «ابن المنير» : ١٤٢
عبد الوهاب بن بنت الأعز «تاج الدين» : ٣٣ ، ٦١ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٣٥٨
عبد الوهاب عزام بك «الدكتور» : ١٦٨
عثمان بن ابراهيم «فخر الدين الماردينى ابن التركمانى» : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٥
عثمان بن عبد الرحمن المخزومى البليسى : ٧٩
عثمان بن على بن محجن «فخر الدين البارعى الزيلعى» : ١٣٦ ، ١٤٤
عز الدين بن أيبك الجاشنكير «الملك المعز» : فى ابن
عز الدين بن عبد السلام : فى ابن
عز الدين بن الكويك : ٣١٧
عز الدين بن مسكن «محمد بن محمد بن الحرث» : ٧١
عز الدين إيدمر الحلى : فى إيدمر
عز الدين إيدمر الخطيرى : فى إيدمر

عز الدين البغدادى « عبد العزيز البغدادى » : ٧٤ ، ٣٩٠
عز الدين الخروبى « محمد بن صلاح الدين » : ٤٦
عز الدين الرازى : ٦٢
عز الدين النمراوى : ٢٢٩
العزيز بالله الفاطمى : ٣٧
عصمة الدين مؤنسة خاتون : ٤٥ ، ٦٥
علاء الدين بن خطيب الناصرية : ١١١
علاء الدين بن العطار : ٢٠٠
علاء الدين بن النفيس : ١٢٤
علاء الدين الباجى : ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٧٨
علاء الدين التركمانى « على بن عثمان » : ٧٢
علاء الدين السعدى « على بن سليمان » : ١٣٩
علاء الدين السيرامى : ٢٣ ، ٥٧ ، ٧٣
علاء الدين طيبرس « الأمير » : فى طيبرس
علاء الدين القونوى : ٦١
علاء الدين على بن أحمد
علاء الدين الماردينى : ١٣٦
علاء الدين مغلطاى الجمالى : انظر مغلطاى
علم الدين البرزالى : انظر البرزالى
علم الدين البلقينى : فى صالح
علم الدين سنجر الجاولى : فى سنجر
علم الدين سنجر الشجاعى : فى سنجر
علم الدين العراقى : ٢٧٨
علم الدين القمى : ٢٩
على بن أبى طالب : ٣٠٤
على بن عبد الكافى « تقى الدين » : انظر ابن السبكى
على بن محمد بن حنا « بهاء الدين » : ٤٣
على بن محمد بن الناصح « نور الدين المقرى » : ١٥١
على بن مخلوف « زين الدين المالكى » : ٥٥ ، ٧٢ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠
على بن يعقوب بن جديل « نور الدين » ٢٤ ، ٢٥
على بن يليان « علاء الدين الفارسى المصرى » : ١٣٥
على مبارك باشا : ١٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦
عماد الدين بن الأثير الحلبى : ٢١٣
عماد الدين بن عبد الكريم : ١٩٩
عماد الدين إسماعيل « الملك الصالح » : فى إسماعيل
عماد الدين الحنبلى « أبو بكر ابن أبى المجد » : ١٣٨
عماد الدين الحنفى : ١٢٤

عماد الدين الدمياطى : ٧١
عماد الدين الكركى «أحمد بن عيسى» فى أحمد
عماد الدين موسى المصرى : ٨٢ ، ١٦٥
عمارة اليمنى : ٢٥٣
العمارى : ٣٣٧
عمر بن أبى الحمراء الكنتانى : ٢٧٩
عمر بن إسحق «سراج الدين الهندى الغزنوى» : ١٣٦
عمر بن الخطاب : ١٩٣
عمرو بن العاص : ٣٣
عمر بن على الأنصارى «سراج الدين ابن الملقن» : ٧١ ، ٧٢ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ٣٣٧
عمر بن الفارض : ١٤٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
عمر بن محمد بن طبرزد : ١٧٧
عمر بن الوردى «زين الدين» : ٨٠ ، ١١٤ ، ٣٨٠
عمر «فخر الدين الوزير» : ٥٥
عيسى بن مسعود أبو الروح الزواوى : ١١٩ ، ١٣٧ ، ١٤٥

«غ»

غازان : ٨ ، ٢٣٣
الغزالى : ١٨٦ ، ٢٦٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٣٠٠

«ف»

فتح الدين بن سيد الناس : فى ابن
فتح الدين الباهلى «محمد بن محمد» : ٧٣
فتح الدين فتح الله : ٥٤
فخر الدين بن بنت أبى فهد : ٢٢٩
فخر الدين بن تيمية : ٢٢١
فخر الدين بن حنا : فى محمد
فخر الدين بن الصقلى «محمد بن محمد» : ١٣٣
فخر الدين بن عساكر : ١٧٧
فخر الدين بن مكانس : ٣١٥
فخر الدين الزيلعى : فى عثمان
فخر الدين الضرير : ٧٣
فخر الدين «عبد الغنى بن عبد الرزاق» : انظر عبد الغنى
فخر الدين عثمان الأستادار : ١٨٤
فخر الدين المارونى : فى عثمان
الفخر الرازى : ٣٠١ ، ٣٠٢
فرج بن برقوق «الملك الناصر» : ٣٦ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٧٠ ، ٢٩٨ ، ٣١٨ ، ٣٢٥
الفيروزابادى «مجد الدين» : ٣٣٥ ، ٣٣٧

« ق »

قانصوه بن قانصوه « الملك الظاهر » : ٤٠٣
قانصوه الغورى « الملك الأشرف » : ٣٦ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٢٤ ، ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ، ٣٥٩
القاياتى : انظر نجم الدين .
قايتباى « الملك الأشرف » : ٢٣ ، ٣٦ ، ١٠١ ، ١١٩ ، ١٤٨ ، ٣٩٠
قبجق « الأمير سيف الدين » : ٢٤٥
قراسنقر المنصورى « الأمير شمس الدين » : ٤٩
قراسنقر « نائب حماة » : ٢٤٧
القسطلانى « شهاب الدين » : ٧٨ ، ١٠٦ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٧١
قضيب البان : ١٩٠ ، ١٩١
قطب الدين الحلبى : انظر عبد الكريم
قطب الدين السنباطى « محمد بن عبد الصمد » : ١٣٣
قطز « الملك المظفر » : ٢٤٥
قطلوبغا الصفوى : ٣٤
قلاوون « الملك المنصور » : ٢٣ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٦٨ ، ١١٩ ، ١٦٠ ، ٢٤٥
القلقشندى « شهاب الدين » : ١٧١ ، ٣٨٠
قنبر بن عبد الله الشروانى : ٧٩
قنبر « سعيد السعداء » : ٦٠
قوام الدين الإتقانى « أمير كاتب » انظر أمير
القونوى : ٢٢٩

« ك »

الكافيجى « محيى الدين محمد بن سليمان » : ٧٩ ، ١٤١ ، ٣٥٦ ، ٣٧٧ ، ٣٩٠
الكامل محمد « الملك ناصر الدين بن العادل » : انظر محمدا
كتبغا المنصورى « الملك العادل » : ٣٨ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٦٨ ، ٧٢
كثير عزة : ١٧٧
كريم الدين الآملى : ٢٣٠
كريم الدين الصغير ناظر النظار : ٢٤
كريم الدين ناظر الخاص : ٢٤
كمال الدين بن أحمد : ١٩٨
كمال الدين بن الأستاذ : فى ابن
كمال الدين بن العديم : فى ابن
كمال الدين بن الهمام « محمد بن عبد الواحد » : ١٣٦ ، ٣٩٠
كمال الدين الدميرى : ٧٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٦٤
كمال الدين الزملكانى : ٢٢٨ ، ٢٢٤
كمال الدين السيوطى : ٣٣٨ ، ٣٥٥
كمال الدين الضرير : ٧٨

كمال الدين القرشى : ٧١
كمال الدين القليوبى : فى أحمد
كمال الدين النشائى : فى أحمد

« ل »

لاجين بن عبد الله الذهبى : ١٦٥
لاجين « الملك المنصور حسام الدين » : ٢٣ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ١٦٠ ، ٢١١ ، ٢٤٦
اللبودى : ١١٥
لسان الدين بن الخطيب : ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٧٠
اللكنوى الهندى : ٣٤٠ ، ٣٥٤

« م »

ماك كولين دى سلان « البارون » : ٢٥٥
مالك « الإمام » : ١١٩ ، ٢٠٩
المأمون « الخليفة العباسى » : ٦
المؤيد شيخ المحمودى : انظر شيخ
مؤيد الدين العلقمى : ٩ ، ١٠
مجد الدين بن تيمية : ٢٢١
مجد الدين بن دقيق العيد : ٢٠٩
مجد الدين بن عساكر : ٢٢٣
مجد الدين أبو بكر إسماعيل الزنكلونى » : ١٣٣
مجد الدين التونسى : ٢٦٢
مجد الدين الحرانى : ٢٦٢
مجد الدين عبد الرحمن العليمى : ١٤٢
محب الدين بن الشحنة : ٨٣ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٧
محب الدين بن دقيق العيد : ٢١٢
محب الدين الحلبى « محمد بن يوسف ابن عبد الدايم » : ١٥٤
محب الدين عبد الرحمن بن الكمال بن العديم : فى عبد
محمد بن أبى بكر « شمس الدين بن القيم » : ٧٨ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٦٧ ، ٢٥٩ إلى ٢٧٦
محمد بن أبى بكر الموصلى « ابن حماد » : ١١٥
محمد بن أحمد « همام الدين الخوارزمى » : ٧٣
محمد بن الأحمر « أبو عبد الله » : ٢٩٤ ، ٣٠٢
محمد بن البارزى « ناصر الدين » : ٦٨
محمد بن الحسن البلبى : ١٠٩
محمد بن الحسن « تقى الدين بن رزين » ٦٦ ، ٧١ ، ٧٣
محمد بن حمويه الجوينى « صدر الدين أبو الحسن » : ٧١
محمد بن سعد « شمس الدين الديرى » : ٧٤

محمد بن سعيد بن زال « أبو عبدالله الأنصارى » : ٢٩٢
محمد بن صرصراء : ١١٨
محمد بن العادل الأيوبى « الملك الكامل ناصر الدين » : ٤٠
محمد بن عبد السلام « أبو عبدالله » : ٢٩٢
محمد بن عبد الصمد « قطب الدين السنباطى » : ١٣٣
محمد بن عبد القادر الدميرى : ١٦٤
محمد بن عبد الله الأنصارى : ٣٧٠
محمد بن عبد الله بهادر « بدر الدين الزركشى » : ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٥
محمد بن عبدالله الحيانى « أبو عبدالله » : ٢٩٢
محمد بن عقيل « نجم الدين » : ١١٨ ، ١٣٣
محمد بن على بن حنا « شمس الدين » : ٤٣
محمد بن على بن حنا « فخر الدين » : ٤٣ ، ٧١
محمد بن على بن وهب بن مطيع « تقى الدين بن دقيق العيد » : ٢٣ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٧٦ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٩ إلى ٢١٩
محمد بن القصير « أبو القاسم » : ٢٩٢
محمد بن قلاوون « الناصر » : ١٨ ، ٢٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٨٢ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٥ ، إلى ٢٤٩ ، ٢٧٩ ، ٣٣٣
محمد بن لاشين الحسامى الطرابلسى : ٨٢ ، ١٦٥
محمد بن محمد بن عيسى القوصى : ٢١١
محمد بن محمد « فتح الدين الباهلى » : ٧٣
محمد بن محمود البابرتى « أكمل الدين » ٦٢ ، ١٣٦ ، ١٥٤ ، ١٥٧
محمد بن المرحل « صدر الدين بن الوكيل » : ٥٢ ، ٧٢
محمد بن مسلم البالسى ناصر الدين : ٥٣
محمد بن منكلى : ١٦٥
محمد بن نباتة المصرى « جمال الدين » : ١٠٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٨٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٨٠
محمد بن نصر « أبو عبدالله المروزى » : ١٢٥
محمد البلالى : ٦١
محمد جميل الشطى : ٩٠ ، ٢٣٩

محمد الحلبي « محي الدين ناظر الجيش » : ٧٨
محمد الخضر حسين : ٣٠٠ ، ٣١٩
محمد الشطيبي : ١١٦
محمد عبد الله عنان « الأستاذ » : ٧ ، ١٢٠ ، ٣٠٠ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٣٤
محمد القوصى الطبيب : ٨٢ ، ١٢٤
محمد مصطفى زيادة : الأستاذ » : ١٦٨ ، ٣٢٩
محمد منير عبده أغا النقلى الأزهرى : ٢١٣
محمود بن أبى القاسم « أبو الثناء الأصفهانى » : ١٢٣
محمود بن الأثير الحلبى : ٢٣٣
محمود بن أحمد بن موسى « بدر الدين العينتابى » : ٧٤
محمود بن اسماعيل الجيزى : ٨٣ ، ١٦٦
محمود جمال الدين الأستادار : ٣٢ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠
محمود عكوش : ٣٣
محمود العينى « بدر الدين » : ١٠٤ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٣٦ ، ١٤٥ ، ٣٠٠
محي الدين بن الجوزى : فى ابن
محي الدين بن حنا : فى أحمد
محي الدين الفرضى : انظر يحي
محي الدين النووى : فى يحي
المزى : ٢٠٠ ، ٢٨٠
المستعصم بالله العباسى : ٩ ، ١٠ ، ١٩
المسعودى المؤرخ : ٣٠٣
مسلم بن الحجاج : ٢٠٤ ، ٢٠٧
المظفر عمر « ملك حماة » : ٢٤٣ ، ٢٤٤
المظفر قطز « ملك مصر » : انظر قطز
المظفر محمود « ملك حماة » : ٢٤٥ ، ٢٤٦
المعز بن الفرات : ٢٩٠
المعز لدين الله الفاطمى : ٣٤ ، ٣٥
معين الدين الأسكندرانى : ١٥١
مغلطاى الجمالى « الأمير علاء الدين » : ٤٩ ، ١٠٦ ، ١٤٤
المفضل بن هبة الله الحميرى الإسنائى : ١٦٨
المقريزى « تقى الدين أحمد بن على » : ٢١ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٧ إلى ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٨٨ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٩ إلى ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٦٨ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣١٧ إلى ٣٣٤ ، ٣٣٤ ، ٣٤٤ ، ٣٦٤ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠
المنصور « أبو جعفر » : فى أبو جعفر
المنصور قلاوون : فى قلاوون
المنصور لاجين « حسام الدين الملك » : فى لاجين

المنصور محمد بن عمر « ملك حماة » : ٢٤٥
المنصور محمود بن عمر « ملك حماة »
منكوتمر الحسامى « الأمير سيف الدين » : ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٦
مهذب الدين بن أبى الوحش : فى ابن
موسى بن محمد اليوسقى المصرى : فى عماد الدين
موسى الملك الأشرف الأيوبى : ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٧
موفق الدين بن أبى أصيبعة : فى ابن
موفق الدين الحنبلى : ٦٢

« ن »

الناشرى : ٧٨
الناصر بن قايتباى : ٣٥٧ ، ٤٠٢
الناصر حسن بن محمد بن قلاوون : فى حسن
الناصر الحريرى : ٣١٧
ناصر الدين بن الفرات : ١١٥
ناصر الدين الجذامى الإسكندرى : انظر ابن المنير
ناصر الدين محمد بن البارزى : فى محمد
ناصر الدين محمد بن مسلم البالسى : فى محمد
ناصر الدين محمد بركة « الملك السعيد » : فى السعيد
الناصر فرج بن برقوق : فى فرج
الناصر محمد بن قلاوون : فى محمد
نجم الدين بن رزين : ٣١٧
نجم الدين بن الرفعة : فى أحمد
نجم الدين بن عقيل : فى محمد
نجم الدين أبو العباس أحمد القمولى : ١٣٣
نجم الدين الأيوبى « الملك الصالح » : فى أيوب
نجم الدين البالسى : ٧٥
نجم الدين الحرانى « أحمد بن حمدان » ١٣٧
نجم الدين القاياتى : ٧١ ، ٧٥ ، ٣٥٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠
النسائى : ٢٠٧
النسفى : ١٣٦ ، ١٤٩
نصر الدين الجعفرى : ١١٥
نصر الدين المنبجى : ٢٢٨ ، ٢٦٠
نور الدين الإسنائى : فى إبراهيم
نور الدين « على بن يعقوب » : فى على
نور الدين محمود بن زنكى : ٤٠ ، ٤٤ ، ١١٠ ، ١١٨ ، ٢٤٤
نور الدين المقرى : فى على
النويرى « شهاب الدين أحمد » : ٨٠ ، ١٢٥ ، ١٧٢

« هـ »

هبة الله بن عبد الله « بهاء الدين القفطى » : ١٤٠
الهروى « أبو اسماعيل » : ١٥٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٦
همام الدين الخوارزمى « فى محمد هولاكو : ٨ ، ٩ ، ١٧ ، ٢٤٥

« و »

وائل بن حجر : ٢٩٠ ، ٢٩١
وجدى « فريد » : ١٠
وجيه الدين بن العماد : فى ابن
ولى الدين بن خلدون : فى ابن
ولى الدين أبو زرعة العراقى : ٧٨ ، ١٣٥

« ى »

ياقوت الحموى : ٢٥٦ ، ٧ :
ياقوت « الخطاط » : ٦٩
يحيى بن الجيعان « شرف الدين » : ١٢٤ ، ١٦٨
يحيى بن عبد الرحيم « محيى الدين الفرضى » : ١٣٣
يحيى بن محمد بن أحمد العجيسى البجائى المغربى : ٧٤
يحيى بن محمد « نجم الدين » : ٦٧
يحيى الأقصرائى : ٧٨
يحيى المناوى « شرف الدين » : ١٣٤ ، ٣٨٩
يحيى النووى « محيى الدين أبو زكريا » : ١٠٣ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٦ ، ١٩٦ إلى ٢٠٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧
يشبك الناصرى : ٢٤
يعقوب « المستمسك بالله العباسى » : ٣٥٩
يوسف بن عبد الهادى « جمال الدين » : ١٠٣ ، ١٣٩
يوسف بن المغربى : فى صلاح الدين
يوسف البجاسى « الأمير جمال الدين » : ٧٤ « ٥٢
يوسف « صلاح الدين الأيوبى » : ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٦٠ ، ٨٦ ١١٠ ، ٢٤٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٨

انتهى فهرس الأعلام ، وهو من وضع المؤلف

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٥	الباب الأول
٥	تمهيد
٥	مدنية بغداد ومركزها العلمى والأدبى .
٧	كلمة موجزة عن التتار .
٩	سقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ .
١٠	انتقال النشاط العلمى إلى مصر والقاهرة
١٣	خاتمة .
١٦	الباب الثانى
١٦	عوامل نشاط الحركة العلمية :
١٧	العوامل الخارجية :
١٧	وقوع كثير من البلاد الإسلامية فى يد المغول
١٧	قتل العلماء وإتلاف الكتب العلمية .
١٨	وفود العلماء والأدباء إلى مصر والشام .
١٩	زوال الخلافة العباسية
٢٠	العوامل الداخلية :
٢٠	غيرة السلاطين والأمراء .
٢١	تعظيمهم لأهل العلم .
٢٥	شعور العلماء بواجبهم وتنافسهم فى أدائه

الصفحة	الموضوع
٢٦	إنصراف العناية إلى اللغة العربية .
٢٧	إنشاء دور التعليم ونظامها .
٣٣	جامع عمرو . جامع ابن طولون .
٣٤	الجامع الأزهر .
٣٧	جامع الحاكم . المدرسة الصلاحية . القمحية .
٣٨	مدرسة ابن شاس . السيوفية . الفاضلية
٣٩	الصالحية . الكاملية . المعزية . الظاهرية
٤٢	المدرسة المنصورية
٤٣	المدرسة الصاحبية البهائية . القبة المنصورية
٤٤	المارستان المنصورى
٤٥	المدرسة الناصرية . القبطية
٤٦	الخروبية . الفارقانية .
٤٧	الحجازية . الطيبرسية
٤٨	الحسامية . المنكوتمرية .
٤٩	الجمالية . القراسنقرية .
٥٠	البوبكرية . البقرية . الملكية السابقية . الزمامية
٥١	المحمودية . المهذبية . الجاولية . البشيرية . المهمندارية . مدرسة الجاى .
٥٢	مدرسة أم السلطان . الأيتمشية .

الصفحة	الموضوع
	المجدية . الخليلية . الناصرية بالفراقة .
٥٣	المسلمية . مدرسة إينال . مدرسة الأمير جمال الدين الاستادار
٥٤	مدرسة السلطان حسن .
٥٥	المدرسة الصرغتمشية
٥٦	المدرسة الظاهرية
٥٧	جامع آق سنقر . جامع الخطيرى .
٥٨	جامع القلعة . جامع ابن المغربى . جامع الفخرى . المدرسة المؤيدية .
٥٩	الخوانق والربط والزوايا .
٦٠	خانقاه سعيد السعداء .
٦١	الخانقاه البيبرسية .
٦٢	خانقاه شيخو
٦٣	رصد الأوقاف على المدارس والإحسان إلى أهلها .
٦٧	إنشاء دور الكتب .
٧٠	العناية باختيار العلماء .
٧٥	الدروس المقررة وأثرها .
٨١	تشجيع المؤلفين .
٨٤	تنافس العلماء .
٨٥	تجديد الخلافة .
٨٦	خاتمة

الصفحة	الموضوع
٨٧	الباب الثالث
	نتائج نشاط الحركة العلمية
٨٧	وفود الطلاب إلى دور التعليم .
٨٨	كثرة العلماء والأدباء .
٨٩	نشاط الحركة التأليفية .
٩٠	المؤلفات
٩٢	« كتب التاريخ »
٩٥	كتب تراجم الأعلام .
١٠٥	كتب السيرة النبوية .
١٠٧	كتب تاريخ مصر والقاهرة .
١١١	كتب تاريخ المدن والأمصار الأخرى
١١٣	كتب التاريخ العام .
١١٧	كتب السير .
١٢٠	تاريخ الخطط والآثار .
١٢٢	كتب تاريخية أخرى فى موضوعات شتى .
١٢٣	تقويم البلدان وما يتصل به .
١٢٦	« المؤلفات الدينية »
١٣١	كتب الشافعية فى الفقه والأصول
١٣٥	كتب الحنفية فى الفقه والأصول
١٣٧	كتب المالكية فى الفقه والأصول
١٣٧	كتب الحنابلة فى الفقه والأصول
١٣٩	تفسير القرآن الكريم وما يتصل به .

الصفحة	الموضوع
١٤٢	الحديث ومصطلحه وشرحه ونقده .
١٤٦	التصوف والعقائد .
١٥٠	القراءات .
١٥٢	« مؤلفات العربية »
١٥٢	كتب النحو والصرف .
١٥٥	بقية فنون العربية .
١٥٨	العلوم الكونية ومؤلفاتها .
١٦٩	الكتب الجامعة .
١٧٣	خاتمة .
١٧٥	الباب الرابع
١٧٥	« تراجم تفصيلية »
١٧٦	١ — عز الدين بن عبد السلام
١٧٧	بعض شيوخه . طرف من حياته .
١٧٨	حادثة خروجه من دمشق إلى مصر .
١٧٩	النزاع بينه وبين مبتدعة الحنابلة
١٨٢	موقفه من السلطان الظاهر بيبرس .
١٨٢	أمثلة من قسوته فى الحق .
١٨٢	بيع الأمراء .
١٨٤	إسقاط الاستادار فخر الدين عثمان
١٨٤	عظته للسلطان
١٨٥	آثاره وأقوال المؤرخين فيه
١٨٦	مؤلفاته ورسائله
١٨٧	التعريف ببعض مؤلفاته .
	—
١٩٦	٢ — محيي الدين النووى
١٩٦	اسمه . مولده ووفاته . طرف من حياته .
١٩٨	بعض صفاته وعلمه .
١٩٩	بعض شيوخه وبعض تلاميذه .
٢٠٠	أقوال المؤرخين فيه .
٢٠٠	استدراك على السبكى .
٢٠١	مؤلفاته .
٢٠٣	التعريف ببعض مؤلفاته .
	—
٢٠٩	٣ — تقى الدين بن دقيق العيد
٢٠٩	طرف من حياته :
٢١٠	أقوال المؤرخين فيه .
٢١٢	مؤلفاته . التعريف ببعض مؤلفاته .
٢١٦	شعره
	—
٢٢٠	٤ — تقى الدين بن تيمية الحرانى
٢٢٠	التعرف به
٢٢١	اسمه ونسبه . مولده ووفاته . أسرته .

الصفحة	الموضوع
٢٢٢	كلمة تيمية .
٢٢٢	عصره وبيئته ، وطرف من حياته .
٢٢٥	صور من كفاحه .
٢٣٢	وفاته ، بعض أخلاقه .
٢٣٤	أقوال بعض العلماء فيه .
٢٣٥	بعض فتاواه وآرائه ومؤلفاته .
٢٣٨	التعريف ببعض مؤلفاته .
	—
٢٤٣	٥ — أبو الفداء «الملك المؤيد»
٢٤٣	مدينة حماة
٢٤٤	التعريف بأبي الفداء
٢٤٦	بعض أخباره
٢٤٩	علمه وأخلاقه .
٢٥١	شعره
٢٥٢	مؤلفاته والتعريف ببعضها .
	—
٢٥٩	٦ — شمس الدين بن قيم الجوزية
٢٥٩	التعريف به .
٢٦٠	اسمه وشيء من حياته .
٢٦٢	شيوخه . علمه وتلاميذه .
٢٦٣	مولده ووفاته .
٢٦٣	مؤلفاته .
٢٦٥	التعريف ببعض كتبه .

الصفحة	الموضوع
٢٧٧	٧ — تقي الدين السبكي
٢٧٧	اسمه . مولده ووفاته . طرف من حياته .
٢٧٨	أساتذته .
٢٨١	أقوال المؤرخين فيه
٢٨٢	بحوثه ومؤلفاته .
٢٨٤	التعريف ببعض مؤلفاته .
٢٨٨	أدبه
	—
٢٩٠	٨ — ولي الدين بن خلدون التعريف به . اسمه . مولده ووفاته . أسرته
٢٩٢	تعلمه وشيوخه .
٢٩٣	طرف من حياته .
٢٩٩	أخلاقه وعلمه .
٣٠٠	عناية المؤرخين به .
٣٠٢	مؤلفاته . التعريف بتاريخه وبمقدمته .
٣١٥	أدبه : نثره وشعره .
	—
٣١٧	٩ — تقي الدين المقريزي
٣١٧	التعريف به . مولده ووفاته . شيء من حياته
٣١٨	المقريزي في ميزان السخاوي .
٣٢٠	مؤلفاته

الصفحة	الموضوع
٣٢٣	التعريف ببعض مؤلفاته
٣٣٢	المقريزى الكاتب — والشاعر .
	—
٣٣٥	١٠ — شهاب الدين بن حجر العسقلانى
٣٣٥	طرف من حياته .
٣٣٧	صفاته وعلمه .
٣٣٩	مؤلفاته .
٣٤١	التعريف ببعض مؤلفاته .
٣٤٥	شعره .
٣٤٦	أين تجد شعره .
٣٤٧	ديوان شعره .
٣٤٨	أمثلة من شعره ومن كتابته .
	—
٣٥٥	١١ — جلال الدين السيوطى
٣٥٥	اسمه . ونسبه . والده .
٣٥٦	طرف من حياته

الصفحة	الموضوع
٣٥٩	علمه وأخلاقه .
٣٦٣	السيوطى بين المدح والقدح
٣٦٥	مؤلفاته .
٣٦٩	الكلام عن بعض مؤلفاته .
٣٧٩	السيوطى الكاتب الأديب .
٣٨٣	نماذج من كتابته الأدبية
٣٨٤	كتابته العلمية .
٣٨٥	السيوطى الشاعر .
٣٨٦	وفاة السيوطى
	—
٣٨٩	١٢ — زين الدين زكريا الأنصارى
٣٨٩	مولده ووفاته . شىء من حياته
٣٩١	الأنصارى بين مدح السخاوى وقدحه .
٣٩٤	مؤلفاته .
٣٩٦	التعريف ببعض مؤلفاته

انتهى

مصادر هذا المجلد

نوهنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، بقسميه، بالمصادر التى اعتمدنا عليها ، وتقول هنا إنها هى نفس المصادر التى اعتمدنا عليها فى هذا المجلد أيضا ، فلا حاجة إلى تكرار ذكرها . هذا ، فضلا عن أننا ذكرنا كل مصدر فى مناسبته .

استدراك

وقع فى أثناء الطبع . نقص أو سهو أو خطأ لايند عن فطنة القارىء الكريم . ونذكر هنا بعضه . والله الموفق للصواب - وله الكمال وحده :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠	٨	أنحوا	نحو
٣٠	١٠	٨١٦ هـ	٨٠٦ هـ
٦٤	١٨	المجدار	الجدار
٨٣	٨	خشقرم	خشقدم
٨٨	١٢	وطلابه بلد وقد	وطلابه وقد
٩٥	٢	الصليبيين	بالصيليبين
٩٨	٢	تحتوى على	يحتوى كل منها على
٩٩	٢٢	العبيدين	العبيدين
١١١	١٣	علم الرين	علم الدين
١١٩	١٤	القيني	العيني
١٣١	٦	للرافعى	للشيرازى
١٣٤	١٠	الأقفسى	الاقفهسى
١٣٥	١١	٨٠٦ هـ	٨٢٦ هـ
١٤٢	٣	أحمد	ابن أحمد
١٤٣	٢٣	أعظم	أعظم منه
١٤٥	٦	لاحاديث	الأحاديث
١٤٨	٢٣	الدولة	فى الدولة
١٥٦	٤	حازفا	حاذفا
١٦٣	١٩	جلال	جلال الدين
١٦٨	٢٢	زين الدين	سراج الدين
١٧٠	٦	أمة	عامة
١٧٢	١٠	التصرف	التصوف
١٧٩	٨	عليها	عليهما
٢٠٢	٢٠	تهذيب الرافعى	مهذب الشيرازى
٢٧٢	٥	فى أمر تسار	فى أمر تسار ومصر
٣٠٦	٣	للموحشين	للمتوحشين
٣١٨	١	الفرانى	العراقى
٣٤٢	٢	تراجيح	ترجيح
٣٤٦	١٩	ومن	وممن
٣٧٠	١٣	ابن فضل	ابن فضل الله

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٩	١٧	الفنية	الفينة
٣	١٧	العضو	العضد
٨١	٢٢	للعصر إنصافا	إنصافا للعصر
٨٨	١١	ومن كل	ومن كل بلد
٩٢	٥	وهى	وهو
٩٧	١	العيد	الصعيد
٩٩	١	٧٢٩ هـ	٧٣٩ هـ
١٠١	٦	لأقدم	لأقوم
١١٣	١١	السنحاوى	السخاوى
١٣٠	١٥	لجديرا	لجدير
١٣٢	١١	الفضة	البضة
١٣٥	١٠	٧٢٥ هـ	٨٠٦ هـ
١٣٨	١٢	للعباد	العباد
١٤٣	٢١	مصطلحه	ومصطلحه
١٤٤	١٧	مفاطاى	منلطاى
١٤٦	٧	التصرف	التصوف
١٥٠	١	تقارض	تعارض
٦٠	٦	مهندس	مهندسى
١٦٨	١٢	حسين محمد	حسين بن محمد
١٦٨	٢٢	٧٤٩ هـ	٨٥٠ هـ
١٧٢	٩	التنفيذ	التفسير
١٧٥	١	الفصل	الباب
١٩٠	٩	للولى	الولى
٢٦٢	١٨	عمله	علمه
٣٠٦	٣	الصراع	الصريح
٣٠٦	٢١	والمشابهة	المشابهة
٣٣١	١١	لكتاب	ككتاب
٣٤٥	٧	فألفه	فألف
٣٤٧	هامش	العظيم	العظم
٣٧٠	١٨	ثمار	ثمرات

والله أعلم

للمؤلف

١ — الأدب العربى من عصر الفاطميين إلى الآن .

٢ — وحى الربيع : مجموعة من الأناشيد والمحاضرات فى الربيع .

٣ — المجلد الأول من عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى (الجزء الأول

٤ — المجلد الثانى « « « « « « « « (فى التاريخ

٥ — المجلد الثالث « « « « « « « « (الجزء الثانى

٦ — المجلد الرابع « « « « « « « « تحت الطبع (فى الحركة العلمية

٧ — قانصوه الغورى : عصره فى أسلوب قصصى وحوار: تحت الطبع

٨ — طرائف من العصر المملوكى : : تحت الطبع

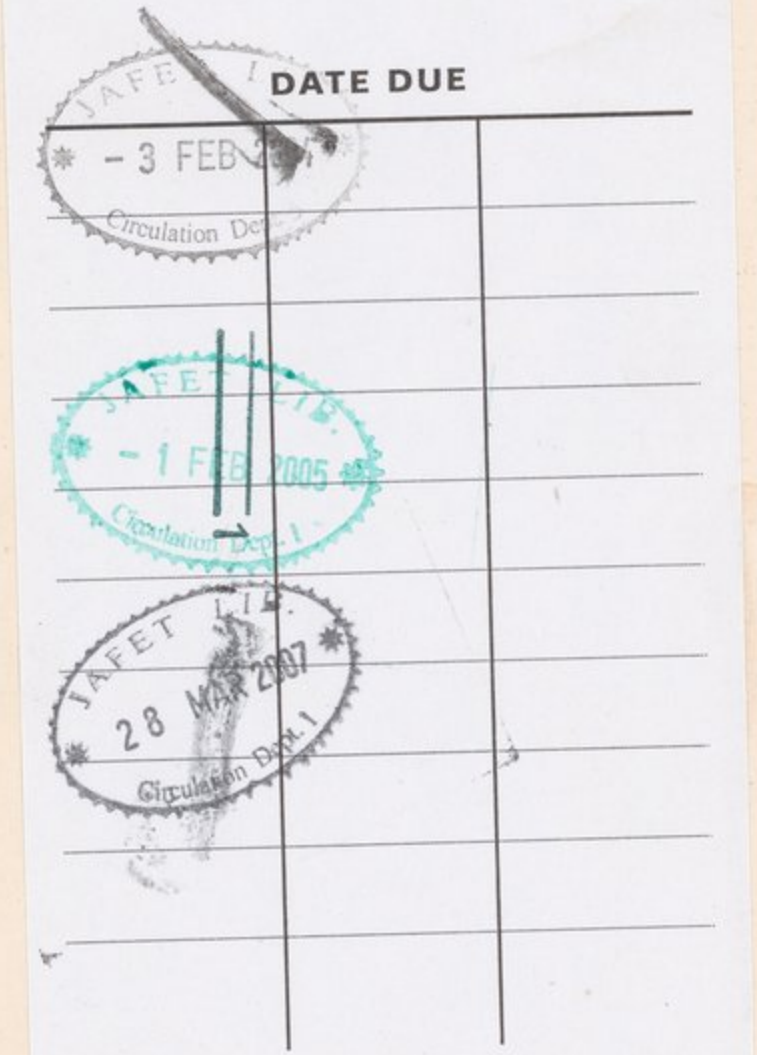
المؤلف

١ — الأدب العربي من عصر الفاطميين إلى الآن .

٢ — وحي الربيع : مجموعة من الأناشيد والمحاضرات في الربيع .

٣ — المجلد الأول من عصر سلاطين المماليك وتراجمه العلمي والأدبي [الجزء الأول

٤ — المجلد الثاني « « «


DATE DUE
JAFET
- 3 FEB
Circulation De
JAFET
- 1 FEB 2005
Circulation Dept. 1
JAFET
28 MAR 2007
Circulation Dept. 1

[redacted]
سليم ،محمود رزق،
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01034427